كلمة الوزارة

بلاد الشام في العهد العثماني (*)

السيد الدكتور محمود السيد
وزير الثقافة

بسم الله الرحمن الرحيم

معالي أمين عام منظمة المؤتمر الإسلامي الأستاذ الدكتور أكمل الدين إحسان أوغلو الموقر

السيّد الدكتور خالد آرن المدير العام لمركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية (ارسيكا)

(*) كلمة السيد وزير الثقافة في افتتاح المؤتمر الدولي حول بلاد الشام في العهد العثماني - دمشق ٢٦ أيلول ٢٠٠٥.

أيها المؤتمرون الأفاضل والعلماء الأجلاء:

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته:

أتوجه إليكم في البداية بتحية الشكر والتقدير لحضوركم أعمال هذا المؤتمر الدولي حول «بلاد الشام في العهد العثماني»، والذي يعقد برعاية كريمة من السيد الرئيس بشار الأسد رئيس الجمهورية العربية السورية، وإنه لشرف كبير لي أن أنوب عن سيادته في هذا الحفل الافتتاحي لأعمال المؤتمر، ويسعدني أن أنقل إليكم تحياته وتمنياته للمؤتمرين بأن يحقق المؤتمر الأهداف المرسومة له: وقوفاً على الحقائق التاريخية، وتعزيزاً للوشائج والروابط التي تربط بين الشعب العربي والشعب التركي الصديق، بعد أن جمعهما تاريخ مشترك يزيد على أربعة قرون، ووحدت بينهما وتوحد حاضراً ومستقبلاً آمال واحدة في تعزيز التعاون والتفاهم لما فيه خير شعبينا استقراراً وسلاماً وأمناً ووئاماً.

وأرحب ثانياً أجمل ترحيب بالباحثين الأفاضل ولا سيما القادمين من خارج سورية، أرحب بكم جميعاً أجمل ترحيب على أرض سورية الحضارة والتاريخ والأصالة، سورية الوفية دائماً وأبداً لمبادئ أمتها، والمحافظة على ثوابتها وحقوقها، والملتزمة بالشرعية الدولية، والناشدة السلام الشامل والعادل الذي يحقق الأمن والاستقرار في منطقتنا، سورية المحبة والتآخي بين الأديان والإثنيات في إطار الوحدة الوطنية، والمعززة دائماً وأبداً القيم الإنسانية منطلقاً وهدفاً وشعاراً وممارسة وسلوكاً.

أيتها الأخوات، أيها الأخوة:

إن موضوع المؤتمر «بلاد الشام في العهد العثماني» من الأهمية بمكان، وتتأتى أهميته من أهمية هذه الحقبة التاريخية في تاريخ بلادنا وتعرف الحياة فيها بمختلف جوانبها وهذا ما ستعرض له البحوث المقدمة التي ستتناول مختلف جوانب الحياة في بلاد الشام إبان العهد العثماني، إذ إن المؤتمرين سيناقشون حال الولاة في أثناء الحكم العثماني من خلال الوثائق والمذكرات والعلاقات الاجتماعية في بلاد الشام، وموقف الدولة من شرائح المجتمع، كما ستتناول البحوثُ الإدارة المالية والاستثمارات والحياة الاقتصادية ونظام الأراضي والزراعة ووضع المحاكم. وثمة وقفة على التأثير الأوربي في بلاد الشام إبان العهد العثماني، ووقفة على الحركة الثقافية والطباعة والنشر والحياة الأدبية، ووضع التعليم والمدارس والمكتبات، هذا إلى جانب الوقوف على المدن والبنى التحتية طرقاً وقلاعاً وعمارات وأسواقاً وآباراً وتكايا وخانات...إلخ.

ولقد أحسنت اللجنة التنظيمية والعلمية للمؤتمر عملاً عندما نظرت نظرة شمولية إلى أبعاد الموضوع، ذلك لأن الباحث في التاريخ يواجه تحديات كبيرة تجاه تنوع المصادر وكثرتها، وتنوع الموضوعات التي لم تعد لتقتصر على كتب الأخبار أو التاريخ السياسي الصرف، بل تجاوزت ذلك إلى معالجة الموضوعات الاقتصادية والاجتماعية والتي هي أساس في تفسير الأحداث السياسية ومعرفة اتجاهاتها وتحليل عواملها.

وغني عن البيان أن الرجوع إلى المصادر الأصلية وإجراء المقارنات والموازنات والتحلي بالدقة والموضوعية والحذر العلمي في تحليل المعطيات وتفسيرها، هي أمور لا بد من أخذها بالحسبان في دراسة التاريخ، وهذا ما سيوفره مؤتمركم من خلال البحوث العلمية المقدمة إليه، والمناقشات والتعقيبات التي ستجرى في أثناء تقديمها.

وهذه الكوكبة من الباحثين الأفاضل حريصة على تبيان الواقع بإيجابياته وسلبياته، استخلاصاً للعبر واستفادة من الدروس في التوجهات المستقبلية، آخذة بالحسبان أن العلاقة بين المؤرخ والحقائق لا تبنى على المبالغة، ولا على التفسير بحسب الهوى والأغراض، وإنما تبنى على أساس الموضوعية والوقائع، وإن كانت الموضوعية المجردة المطلقة صعبة الوجود في الواقع، إلا أن السعي إليها والتحلي بها يجنبنا الجنوح والمبالغة، ويكسبنا احترام التاريخ والآخرين لنا، إذ لا شيء أجمل من الاعتراف بالحقيقة والالتزام بها قولاً وممارسة وسلوكاً في جميع المواقف والأحايين.

أتوجه بالشكر الجزيل إلى الأمانة العامة لمنظمة المؤتمر الإسلامي، وإلى مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية «ارسيكا» باستنبول على هذا التعاون مع وزارة الثقافة السورية على إقامة هذا المؤتمر الدولي في دمشق، والذي يجيء انعقاده في وقت تتعرض فيه منطقتنا إلى تحديات كبيرة على جميع الصعد، ويوصم فيه العرب والمسلمون بالإرهاب، على الرغم من أن الشريعة الإسلامية السمحة لا تعرف إلا الخير والسعادة والسلام للناس كافة، حتى إن تحيتها للآخرين «السلام عليكم»، والمسلم

كما عرّفه الرسول (ص) هو من سلم الناس من لسانه ويده. ومن هنا كان على العرب والمسلمين كافة أن يكونوا واعين لما يحاك ضدّ عقيدتهم وثقافتهم من تشويه، ولما يرمى به تاريخهم من تضليل وتزوير.

إننا في سورية وانطلاقًا من الطبيعة الحضارية لأمتنا أدنا وندين الإرهاب وقد عانينا منه، ولكننا نفرّق بين الإرهاب الذي يقتل النفوس الآمنة بغير حق، وبين مقاومة المحتل، وهو حق مشروع أقرته الشرائع السماوية والأرضية، إذ لولا مقاومة المحتلين لما حصلت الشعوب والأمم على حريتها واستقلالها في مختلف بقاع العالم.

وإننا في سورية ننشد السلام الشامل والعادل، ونسعى إلى استرجاع أراضينا المحتلة في الجولان في ضوء قرارات مجلس الأمن والشرعية الدولية الرامية إلى انسحاب إسرائيل من الأراضي العربية المحتلة، وإقامة الدولة الفلسطينية وعاصمتها القدس الشريف، وعودة اللاجئين الفلسطينيين إلى ديارهم، كما أننا مع وحدة العراق أرضًا وشعبًا، ونقف إلى جانب القضايا الإنسانية العادلة في كل مكان في منأى عن أي تعصب أو تزمت أو طغيان، انطلاقًا من قيم الأمة وسماتها الحضارية الإنسانية المعززة لقوة الحق والرافضة لاستخدام منطق القوة وشريعة الغاب في معالجة قضايا البشر.

وهذه المواقف لسورية دفعت قوى الاستكبار والصلف والغطرسة إلى أن تصب جام غضبها على سورية بسبب مواقفها المؤيدة للحق العربي، وبسبب

مواقف الإباء التي تقفها لصون هذا الحق والحفاظ عليه. وسواء أفهم الآخرون مواقف سورية أم لم يفهموها فإن سورية لم ولن تتخلى عن نشدانها الحياة العزيزة الكريمة لأمتها.

كما أتوجه بالشكر الجزيل إلى الباحثين المشاركين وإلى الذين تجشموا عناء السفر للمشاركة في أعمال هذا المؤتمر، متمنياً لهم طيب الإقامة في سورية. وأشكر اللجنة العلمية والتنظيمية والإعلاميين، متمنياً للجميع التوفيق والنجاح في أداء أعمالهم.

وفقنا الله جميعاً لما فيه خير شعبينا والإنسانية جمعاء.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

❖ ❖ ❖

١١

من حلب تبدأ الحكاية

رئيس التحرير
علي القيم

من مدينة حلب، تبدأ الحكاية، ويرحل الخيال إلى عالم افتراضي ، حكاية مدينة عبرت آلاف الأعوام، وتعاقبت عليها أجيال من الشعوب ولغات وأعراق تتدفأ على نار الأساطير، وتحفظ في ذاكرتها مؤونة للآتين بعدها.. مع كل حقبة من الزمن كانت حلب تتطور وتزدهر وتزدهي بآثارها وإبداعات أهلها الذين نسجوا للزمن بشوق وحب حكاية المكان الذي كان منذ القديم موئل الفكر والثقافة والفن والفلسفة والأدب..

حلب من أعرق المدن القديمة في العالم، بل نستطيع القول إنها أقدم المدن التي ما زالت قائمة حتى اليوم ،والسر يكمن في حجارتها الصلدة التي عرف الإنسان الحلبي كيف يستخدمها ويشذبها ويجعلها قادرة على مقاومة عاديات الزمان، والاحتفاظ بخطوطها ومعالمها الأولى منذ الألف الثالث قبل الميلاد، في حين اندثرت مراكز مدن وممالك وحواضر كثيرة كانت معروفة في العالم القديم.. وبقيت حلب شاهدة على تاريخ قديم، تمثل صلة الوصل بين حضارات وحقب عديدة قديمة، وعناصر الحضارة العربية الإسلامية الزاهية.

أول ذكر لحلب في التاريخ يعود إلى الألف الثالث قبل الميلاد، فهي « حلبابو» و « أرمانو» و « يمحاض» وقد ورد اسمها في نصوص مدينة ماري « تل الحريري» على الفرات الأوسط، وفي نصوص مملكة ايبلا« تل مرديخ» ونصوص مملكة آلالاخ « تل عطشانة» وفي نصوص مملكة أوغاريت « رأس الشمرة» على الساحل السوري.. وكانت حلب في الألف الثاني قبل الميلاد الدرع الواقي من زحف الحثيين على بلاد الشام ووادي النيل، ثم دخلت تحت السيطرة الآرامية، ثم الآشورية ثم الفارسية إلى أن جاء الاسكندر المقدوني فاهتم بها، وجعل منها أحفاده مدينة« بيرويه» وحرّف الاسم في زمن الامبراطورية الرومانية إلى «بيرويا».. وكانت خلال هذه المراحل التاريخية تتمتع بمركز حضاري كبير وعلاقات جيدة مع مدن وممالك عديدة في العالم القديم.

❖ ❖ ❖

موقع مدينة حلب على طريق القوافل القادمة من أوروبا إلى الهند وبالعكس، أهلّها بقوة لأن تحتل مركزاً تجارياً مهماً بين الشرق والغرب أو ما يعرف بطريق الحرير الشمالي، وهذا ما ساعد على تطور صناعتها وازدهار الحياة والعمران فيها، فبنيت فيها الأسواق والخانات والقيساريات والحمامات والمدارس و«البيمارستانات» والقصور والأبنية العسكرية والمساجد، وكانت هذه العناصر بكل ما فيها من تطور وفنون وجمالية وحياة اجتماعية هي الخُلاصة التاريخية والحضارية لهذه المدينة العريقة التي تحمل نكهة خاصة تميّزها عن غيرها من مدن العالم القديمة..

❖ ❖ ❖

مدينة حلب مستقر كبيرشكلهُ حوض نهر قويق وما جاوره،ويستنتج من مجمل

التعريفات والاستعمالات اللغوية والدينية والاشتقاقية أن المدينة عمران يبنى على أرض حصينة يديرها « ديّان»(١) يمثل العدالة والسلطان، وهذه المدينة تستوجب نوى كثيرة لتتحقق، فهناك أولاً: النواة الاجتماعية، إذ إن الإنسان مدني بالطبع أي لابد له من جتماع هو المدينة ، فالإنسان مضطر إلى الاجتماع بغيره حتى يحصّل الهيئة الاجتماعية التي يتوقف عليها المطعم والملبس، ثم اتخذ السور والخندق فحدثت المدن والأمصار.. وهناك النواة الدينية إذ إن الإنسان الأول ارتاد بعض الكهوف لمزاياها الطبيعية، ومع الوقت تحولت إلى هياكل تؤدى فيها الطقوس والشعائر الدينية .. ويتصل بالنواة الدينية لنشأة المدينة، القداسة التي أحاط بها الإنسان الأول أمواته، فمنذ أن بدأ يفكّر في التجمّع في كهف أو مغارة، كان يبني لأمواته مدناً يستقرون بها، يرتادها الأحياء، إجلالاً وتقديساً وتبركًا، لذلك يمكن القول إن النواة الدينية ومدينة الأموات كانت بذوراً نمت فأنتجت المدينة بعد حين..

وترتبط نشأة المدينة بخصوبة التربة المحيطة بها، وهذا ما يفسّر الظهور المبكر لمدينة حلب منذ عصور ماقبل التاريخ ، لأن خصوبة التربة هي التي تمد المدينة بالمؤن والموارد الطبيعية التي تيسر الأعمال التجارية والصناعية .. وهناك نوع العمل الذي يمتهنه سكان المدينة ، وهذا يتجاوز إنتاج الطعام والرعي والزراعة إلى أنواع المهن والوظائف والتجارة والصناعة بحيث تصبح المدينة مركزاً للمشاريع الإنمائية والمالية ، فالنواة الاقتصادية كانت إلى جانب النوى الأخرى التي دفعت مدينة حلب إلى الوجود..

ويتصل بنشأة المدينة البيت والمعبد ومجمّع الماء والطريق العام وقواعد الآداب والسلوك والحكومة والقانون، ونمو الحاجات التي أوجدت الجندي والمعلم ورجل الدين، وأوجدت الآلة الصناعية، ومنها التطور في النظرة إلى الآلهة التي أضحت ذات بعد عميق تجسّد في آلهة السماء والشمس والقمر والماء والصحراء والخصب والعطاء.. ومنها أيضاً تحوّل زعيم القبيلة أو القرية إلى ملك خلع على نفسه

(١) سئل بعض السلف عن علي بن أبي طالب (كرّم الله وجهه) فقال : كان ديّان هذه الأمة بعد نبيّها، أي قاضيها وحاكمها، والمدينة هي المكان الذي يتوفر فيه العدل.

صفات إلهيّة أو خُلعت عليه.. أما ازدياد عدد السكان، فالمهم فيه أن يكوّن مجتمعاً له طابع خاص تتشابك فيه وظائف أفراده وتتفاعل تفاعلاً حقيقياً..

❖ ❖ ❖

كل هذه العوامل مجتمعة وجدت في منطقة حلب وساعدت على تشكيل المدينة الأولى التي ما زالت مستمرة حتى يومنا هذا، وما كشف في «تل قرامل» في حوض نهر قويق إلى الشمال من مدينة حلب من بيوت دائرية صغيرة مبنية من الطين والحجر تعود إلى الفترة الواقعة بين منتصف الألف التاسع قبل الميلاد، ومنتصف الألف الثامن قبل الميلاد، وبقايا المستوطنة الكبيرة التي كانت محصنة بسورحماية، بقايا البرج الدفاعي.. ذكرنا ببرج أريحا الشهير في فلسطين، مما يدل على قيام المدن المسوّرة ذات البنى السياسية والاجتماعية المركبة منذ ذلك الزمن الباكر، حسب تعبير الزميل الدكتور سلطان محيسن.

مفهوم المدينة تطور في حلب في الألفين الثالث والثاني قبل الميلاد، بسبب الازدهار الكبير الذي حصل في حياة الناس الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، فقد نشأت فيها حضارة مدينة رفيعة المستوى، مستقلة في عمارتها ونظمها وتجارتها وعلاقاتها مع جيرانها، وقد حدثتنا عن ذلك التطور كتابات مدينة إيبلا «تل مرديخ» الواقعة إلى الجنوب منها بنحو / ٦٠ / كم، حيث تولّت ايبلا في فترة الازدهار الأولى بين (٢٤٠٠ و٢٢٥٠) قبل الميلاد، وشكلت مع حلب «أرمانو» الحضارة المدنيّة السورية الأصيلة، وكانت أمّ ما انتشر في بلاد الشام من حضارة المدن الكبيرة، وعندما هاجم الملك الأكادي (نارام سِن) ايبلا (وهناك من يقول صارغون الأكادي) في سنة ٢٢٥٠ قبل الميلاد، قام بتدميرها، ومع أنها عادت وازدهرت بعد ذلك إلى سنة ١٨٠٠ قبل الميلاد، إلا أن حلب (يمحاض) قامت بتقلّد زعامة المدن الكبيرة في بلاد الشام.

في النصف الثاني من الألف الثاني قبل الميلاد، أصبحت سورية ممراً للدولة الحثّية الناشئة التي انطلقت من الأناضول لتخضع الامبراطورية البابلية، وتقوم بإسقاط عاصمتها بابل، وهكذا خضع الشمال السوري ومنها حلب للسيطرالحثّية، وعندما انهار صرح الامبراطورية الحثّية نحو عام / ١٢٠٠/ قبل الميلاد حدثت تطورات سياسية وحضارية أوجبت التغيير في أجزاء واسعة من البلاد، فعلى أنقاض

الدولة المركزية القوية قامت دول مدن كثيرة بعضها آرامي وبعضها الآخر حاول أن يحافظ على تراث الحضارة الحثّية ويجدد شبابها ، ولم يكن في مقدور أي دولة من هذه الدول أو إمارة من هذه الإمارات التي قامت إلى جانب بعضها أن تملك القوة الكافية للهيمنة وتشيد دولة مركزية تخلف الدولة الحثّية في إرثها السياسي والحضاري الضخم.

لقد عاش الآراميون جنباً إلى جنب مع الحثيين الجدد وكانت أشهر ممالكهم في شمال حلب ، مملكة بيت عديني وعاصمتها تل برسيب (تل أحمر حالياً) ومملكة بيت بحياني وعاصمتها غوزانا (تل حلف حالياً) وإمارة بيت آغوشي التي تضم حلب وأرفاد (تل رفعت حالياً) المجاورة لبيت عديني ، وبقيت كركميش (قرب جرابلس) الحثّية حتى سقطت بيد الآشوريين في عهد صرغون الثاني ؛ كما استطاع الآراميون أن يؤسسوا مملكة شمال أي شمأل في موقع (زنجرلي حالياً) عند سفوح جبال الأمانوس..

مفهوم المدينة في الحضارة اليونانية ، اعتمد على مركز كبير تقام فيه الأبنية الدينية والمدنية، ويتجمع فيه الناس عند الحاجة، وهو الذي كان يسمى « الأغورا » وكان لبعض المدن « اكروبوليس» وهو المكان المرتفع الذي تتكئ المدينة إليه كأنه القلعة..

هذه هي نواة المدينة اليونانية التي تطورت على أساسها جميع المدن التي أقيمت في العصر اليوناني والمستعمرات التابعة، وكانت فتوحات الإسكندر الأكبر لبلاد الشرق حدثاً هاماً في التاريخ القديم،حيث بنى الإسكندر مدناً كثيرة في بلاد الشام، أصبحت من معالم الحضارة في سورية وبلغت غاية النشاط والازدهار، وكان من أهم هذه المدن: أنطاكية والسويدية (سلوقية البحرية) واللاذقية وآفاميا، وهيرابوليس (منبج) ولاريسا (شيزر)وأرتوزا (الرستن) ودورا أوروبوس (صالحية الفرات) وبوروبا (حلب) التي أقيمت من جديد ووصلت إلى درجة مدينة مخططها يعتمد نظام المستطيلات المتناسقة التي تحدّها الشوارع المتعامدة .. واهتم بها السلوقيون لقربها من عاصمتهم الجديدة أنطاكيه.

وعندما أصبحت سورية الشمالية ؛ ومن ضمنها حلب في عام / ٦٤ / قبل الميلاد

مقاطعة رومانية، حافظت هذه المدينة على مكانتها، ثم أصبحت بعد انقسام الامبراطورية الرومانية إلى امبراطورية شرقية، وأخرى غربية، كان من الطبيعي أن تصبح حلب تابعة للامبراطورية الشرقية التي سميت الامبراطورية البيزنطية، وتصبح مركزاً مهماً من المراكز المتقدمة، وفي فترات عديدة اتخذها الامبراطوري البيزنطي مقرَّ إقامة له، واستمرت هكذا حتى فتحها العرب المسلمون بعد أن طلب أهلها الصلح والأمان لأنفسهم وأولادهم وسور مدينتهم وكنائسهم ومنازلهم والحصن الذي بها، فكان لهم ما أرادوا، وأصبحت حلب جزءاً من الدولة العربية الإسلامية، فنعمت بسلام طويل وازدهار اقتصادي كبير..

لقد أعطى الإسلام مدينة حلب شخصية جديدة وطبعها بطابع خاص، وهذه الشخصية تكشف عن وجود (روح) عامة ثابتة ومستمرة خلال تاريخها العربي الإسلامي كله، كما أن هذه الروح هي التي ساعدت حلب على أن تؤكد ذاتيتها كقوة دافعة خلال التاريخ بفضل مجتمعها المتماسك الذي يؤلف وحدة متعاونة.. ويمكننا أن نحدد الملامح الأساسية التي نجدها في مدينة حلب الإسلامية بخمسة عناصر هي:

١ - وجود القلعة الضخمة التي تقوم بطبيعة الحال على موقع له طبيعته الدفاعية، وقد كانت هذه القلعة في البدء تقع بالطرف الشرقي من مدينة حلب، إلا أن المدينة أخذت تتوسع تدريجياً نحو الشرق حتى أصبحت القلعة في وسطها تقريباً، وهي اليوم ترتفع في زهو وجلال محافظة على العهد الذي قطعته على نفسها عبر السنين الطويلة.

٢ - وجود مدينة ملكية أو حي «ملكي» وقد نشأ هذا الحي في حلب، في مركز حضري كان موجوداً من قبل في العهود اليونانية والرومانية والبيزنطية.

٣ - وجود مركز للمدينة يضم المسجد الجامع (المسجد الأموي الكبير) والمدارس الدينية والأسواق المركزية، بكل ما تضمنه وتلحق به من خانات وقيساريات وخانقانات، إلى جانب وجود مناطق خاصة للتجار والحرفيين، كما تقام فيه مساكن الطبقات الغنية الموسرة، وكبار رجال الدين».

٤ - وجود منطقة تضم الأحياء السكنية التي تتميز بالاستقلال النسبي لكل حي من هذه الأحياء، أو لكل مجموعة من الأحياء معاً..

٥ - وجود ما يمكن تسميته بالضواحي أو الأحياء الخارجية، حيث يقيم الوافدون الجدد الذين لم يستقروا بعد، وكثيراً ما كانت توجد في حلب مناطق للقوافل التجارية على أطرافها ، وعلى طول الطرق التجارية الرئيسية ، كما أن المدافن كانت تقام خارج أسوار المدينة..

لقد امتازت مدينة حلب في تاريخها العربي الإسلامي، بشكل عام بحياة اجتماعية وثقافية وفكرية ودينية واقتصادية متعددة الألوان، واسعة النشاط، ومتباينة المؤسسات والمنشآت ، مما أضفى على حياتها وناسها قدراً كبيراً من الحيوية والحركة والازدهار والتقدم ، مما لا نجد له مقاربة في بقية أنحاء العالم الإسلامي.. لذلك ليس غريباً أن يقول عنها المستشرق الفرنسي الكبير « جان سوفاجيه » الذي عاش حلم حلب ، وكتب عنها أطروحة الدكتوراه، التي بحث فيها عن تاريخها منذ القرن العشرين قبل الميلاد، وحتى منتصف القرن التاسع عشر الميلادي، وسجل فيها تطورها حقبة حقبة، منذ كانت تجمعاً سكانياً متواضعاً ، حتى توسعها شرقاً في العهدين السلوقي والروماني ، ثم شرقاً وشمالاً وجنوباً وغرباً في العهود الأيوبية والمملوكية والعثمانية.. لقد قال : « قل أن تجد في الشرق مدينة تضارع حلب فيما تحتوي عليه من آثار إسلامية تعين على دراسة تاريخ العمارة الإسلامية».

* * *

هذه الأسباب والعوامل والخصوصيات الفريدة التي اجتمعت في مدينة حلب، كانت من الأمور التي دفعتني والوفد السوري المشارك في مؤتمر الوزراء المسؤولين عن الشؤون الثقافية في العالم الإسلامي، (المؤتمر الثالث) الذي عقد في الدوحة، عاصمة دولة قطر، عام ٢٠٠٢م ، عندما عرض مشروع العواصم الثقافية الإسلامية، إلى كتابة مذكرة لتكون حلب عاصمة الثقافة الإسلامية عام ٢٠٠٦ م ، ولقيت الفكرة الترحيب الكامل من أعضاء الوفود المشاركة ، وتم إقرارها في المؤتمر الإسلامي الرابع لوزراء الثقافة ، الذي عقد في مدينة الجزائر في أواخر عام ٢٠٠٤ م..

يرمي هذا المشروع الضخم إلى تمكين مدينة حلب من تنفيذ جملة من الأنشطة الثقافية والفنية المتميزة لدعم الإبداع والتحفيز على الإنتاج الفكري وبعث المؤسسات الثقافية المرجعية واعتماد برنامج احتفالي طيلة سنة كاملة ، يتسم بشموليته مجالات العمل الثقافي كافة، ومشاركة مختلف الأطراف (قطاع عام -

خاص - مؤسسات - شركات .. أفراد) في تصوره وصياغته وإنجازه والحرص على الارتقاء بمضامينه لتجاوز السائد والمتعارف من أجل تعزيز الوعي بأهداف العقد الإسلامي للتنمية الثقافية، ولاسيما هدف الحوار بين الثقافات، كما يرمي هذا المشروع إلى إحياء ثقافة المدينة المختارة كعاصمة ثقافية إسلامية، وإبراز مساهمتها على المستوى العربي وفي إثراء الحضارة الإنسانية..

يكتسي اختيار حلب عاصمة للثقافة الإسلامية عام ٢٠٠٦ م ، جملة من الأبعاد نذكر أهمها:

- تنشيط المبادرات الخلاقة، وتثمين الرصيد الثقافي والمخزون الحضاري من خلال تنظيم تظاهرات ثقافية متنوعة حول محاور يتم اختيارها (مهرجانات - مسرح - سينما - معارض - فنون تشكيلية - صناعات تقليدية - ندوات مؤتمرات...).

- التعريف بالدور الموكول بالثقافة، وبالبعد الثقافي للتنمية، وتأثير الثقافة في تطوير المجتمعات، وفي تحسين نوعية حياة السكان.

- الحرص على مساهمة الأنشطة المنظمة في تطوير التجارب الثقافية وتوسيع دائرة الانتفاع بها، إلى جانب تعبئة مختلف الأطراف بأهمية الترابط بين القطاع الثقافي وبقية القطاعات.

- السعي إلى إبراز الطاقات الإبداعية وقدرات التجديد وتنويع حقول وفضاءات العمل الثقافي، وتنفيذ مشاريع تخدم التنمية الثقافية بمختلف أبعادها.

- الانفتاح على ثقافات وحضارات الشعوب وخدمة قيم التفاهم والتآخي والسلم بين الشعوب ونبذ التطرف والانغلاق ودعم التعاون، وتعميق الحوار الثقافي، والاندماج في سياق العصر، من منطلق أن أحسن وسيلة لتحقيق مناعة الفرد، تتمثل في دفع قوى الإبداع لديه، وأن النجاح في تغيير الواقع يبقى رهين تحرير ملكة العقل والإبداع.

❖ ❖ ❖

الدراسات والبحوث

ذكريات عن الشيخ بدر الدين النعساني

د. فاخر عاقل (*)

المرحوم الشيخ بدر الدين النعساني هو أستاذي الذي علمني اللغة العربية في تجهيز حلب (المأمون)، كان حجة في الأدب والشعر والصرف والنحو وغيرها من العلوم العربية، لم أعثر له على مرجع مع أن طلابه كثر وكنا نتناقل أملياته صفاً بعد صف، ولذلك فإني سألجأ إلى الذاكرة لأتحدث عنه.

(*) د. فاخر عاقل: أديب ومفكر تربوي له عشرات من المؤلفات المنشورة في سورية والوطن العربي.
- العمل الفني: قحطان الطلاع.

لقد كان من حظي أن تتلمذت على يده ثلاث سنوات: في الصف السابع والتاسع والحادي عشر، وذلك فيما بين السنين ١٩٣٢ و ١٩٣٦، كان ذكياً، عالماً كاتباً، شاعراً، وكان يرحمه الله محدثاً لبقاً ومستمعاً مرهف الحس، علمنا أن نقرأ فقرأنا على يديه (كليلة ودمنة) في الصف السابع، كما قرأنا (الآمالي) لأبي علي القالي في الصف التاسع، وقرأنا أملياته عن الشعراء والأدباء والكتّاب في الصف الحادي عشر.

كان مربياً حاذقاً ومعلماً متمرساً وكان ذا طريقة في التعليم فذة، علمنا الإنشاء مثلاً فكان يكتب على اللوح آية قرآنية أو بيت شعر أو حكمة، ويطلب منا أن نشرحها ثم نقرأها عليه واحداً بعد الآخر فيصحح أخطاءنا ويبصرنا بقواعد الصرف والنحو، أقرأنا (كليلة ودمنة) في الصف السابع، وشرحناها وعربناها، وتبيّنا جمال لغتها، كل ذلك تحت إشرافه وبتوجيه منه.

لم يصطدم قط مع تلميذ، كنا نحبه حباً جماً ونحترمه احتراماً عميقاً، كان دمث الخلق يحب النكتة و يحسن روايتها والاستماع إليها.

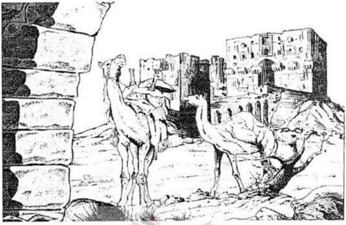
درس في الأزهر بالقاهرة وعاش في مصر طويلاً وذلك قبيل الحرب العالمية الأولى.

حقق كثير من المخطوطات وكان يوقعها باسم (بدر الدين النعساني الحلبي)، ألف كتاباً في التربية، وحرر طويلاً في جريدة (المقطم)، وقد روى لنا أن شريكه في التحرير كان العلامة (محمد كرد علي) مؤسس (المجمع العلمي العربي في دمشق)، وقال لنا إن راتبه الشهري كان أربع جنيهات في حين كان راتب محمد كرد علي ثلاث! كان عضواً في المجمع العلمي في دمشق، كما كان عضواً في جمعية العاديات بحلب، أوفدته الدولة العثمانية إلى الهند ليثير مسلمي الهند على الحكومة البريطانية وذلك في الحرب العالمية الأولى.

كان شاعراً مجيداً بايع - في من بايعوا- أحمد شوقي بإمارة الشعر، وأجاد كتب له أحمد شوقي يقول (والله لو أنصفوك يا بدر لكنت الأول).

كان رحمه الله يحثنا على القراءة والكتابة، ويشجعنا على ذلك، ولقد سألته مرة قائلاً (أستاذ ماذا أفعل لتقوية لغتي العربية؟) قال (اقرأ القرآن).قلت (وغير ذلك؟) قال(اقرأ القرآن) قلت:(أستاذ سأقرأ القرآن ولكني أريد شيئاً آخر)، فقال:(اقرأ القرآن)، وكان يحفظ القرآن عن ظهر قلب، ويستشهد به ويترنم بآياته، كان يتابع ما ينشر من كتب أدب أو شعر.

دخل علينا يوماً ونحن في الصف التاسع وفي يده كتاب طه حسين (على هامش السيرة)، وقال: (هذا كتاب جديد صدر لطه حسين، إنه كتاب قيّم، وإن كان فيه ثلاثة أخطاء، اقرأوه)، فقرأناه جميعاً.



كان شاعراً ، ولكن شعره لم ينشر، وكان يحب (المتنبي) ويتشبه به وبحثنا على قراءة شعره وحفظ ديوانه و كان ينظم الشعر لنفسه، كان يكره رئيس جمهورية البلاد في زمانه فنظم فيه قصيدة قرأها علينا وحفظت منها بيتاً واحداً هو:

إذا كان الغراب دليل قوم

يمر بهم على جيف الكلاب

كان له آمال في الأدب العربي ندرسها ونحفظها في الصف الحادي عشر لنتقدم إلى امتحان الجزء الأول من البكلوريا السورية ، وكانت قمة في الإبداع وكنا نتناقلها صفاً بعد صف، ولكنها للأسف الشديد لم تنشر وضاعت ولست أدري إن كان أحد من تلاميذه يحفظها.

أذكر أنه في الثلاثينيات كانت تصدر في مصر مجلة (الرسالة) لصاحبها الأديب الكبير (أحمد حسن الزيات) ونشرت الرسالة سلسلة مقالات عن (أدباء الأزهر) ومنها مقالة طويلة عن الشيخ بدر الدين النعساني ، ذكرت فيها أعماله و أدبه وشعره ومناقبه، وقالت في الأخير (ثم غادر القاهرة إلى بلده حلب وانقطعت أخباره ، وأغلب الظن أنه مات).

قرأنا المقالة وأحضرناها إلى الشيخ فقرأها وبكى ، وبكينا معه، وقال كلمته المشهورة (يا أفندية حلب مقبرة الأدباء)

رحم الله الشيخ بدر الدين النعساني وطيّب ثراه وهيأ له من يفيه حقه من الثناء والتقدير، فقد كان علماً في رأسه نار.

٢٣

ليالي حلب
«شريط من الذكريات..»

سليمان العيسى(*)

أ

على مدخل المدينة من الغرب..

وعلى ربوة تُطلُّ على مدينة الصخر والنسمة الباردة.

اترجلْ من السيارة، واقفُ على حافةِ الطريق،

لأملأ رئتيَّ بنسمة حلب التي تتغلغل في أعماق الصدر، فتنعشك خليةً خليةً.. وتحسُّ فجأة أنك قد امتلأت نشاطاً وحيويةً ومتعةً.

(*) سليمان العيسى: شاعر العروبة الكبير.

- العمل الفني: الفنان طاهر البني.

أقف دقائق، مستأذناً الصديق الذي كان يُقلّني معه في سيارته في زيارة للشهباء، بعد غياب طويل عنها.

الشهباء.. مدينتي التي عشتُ فيها عشرين عاماً من خريف ١٩٤٧ إلى ربيع ١٩٦٧.. أعود إليها الآن في زيارة شوق وحنين بعد غياب طويل.

حلب.. الحب، الشعر، التاريخ، زهوة العمر، وعنفوان الشباب.

حلب.. التي أملَت عليَّ نصف شعري، وأعطتني أُسرتي الصغيرة، وأولادي الثلاثة. وقبل هذا وذاك.. أعطتني رفيقة العمر، وشريكة الكفاح، التي ملأت- وما تزال- حياة شاعر، وكانت القصيدة الأولى التي ما أزال عاجزاً عن كتابتها.

أترجلُ من السيارة، وأقفُ على حافة الطريق، على ربوة تُشرف على الصخرة البيضاء، الصفراء، السوداء، المترامية الأطراف.. تتوسطها قلعتُها المهيبة التي ينام فيها تاريخ الحضارات.. افتح ذراعيَّ وصدري، وأعبُّ من النسمات النقية العذبة ما أستطيع، وأشرد في شريط لا ينتهي من الذكريات.

يقال إن أرسطو، المعلم الأول، توقف هنا، قبل نيف وثلاثة وعشرين قرناً من الزمن، واستأذن تلميذه الفاتح الكبير الاسكندر، استأذن المعلمُ تلميذَه وهو ماضٍ في فتوحاته لكي يبقى في الشهباء.

يقال: إنه وجد في نسمة حلب النقية العذبة الباردة كل ما كان يَنْشُدُ من علاج لأمراضه التي كان يشكو منها ولا يجد لها علاجاً.

ولكن مالي وللمعلم الكبير وتلميذه الفاتح العظيم اللذين مرّا هنا قبل نيف وثلاثة وعشرين قرناً.

نسمتُنا النقية ماتزال هنا..

وشهباؤنا الخالدة ماتزال هنا..

وأنا شاعرها المشرَّد في أرض الآباء والأجداد مأزال هنا.. أعُبُّ النسمة على حافة الطريق، وأشرد في شريط لا ينتهي من الذكريات.

٢

هل افتح دفتر الوهج والشعر والحنين.. وأبدأ الحديث؟

ولكن.. كيف؟ ومن أين أبدأ؟ وأين أنتهي؟

تَقَبَّلِ الصخرَ، وأرشُفُ نسمةً بَرَدَتْ
على رباها عرفتُ الشعر والعربا
تباركتْ صخرةٌ بيضاء يابسةٌ
تُعطي العباقرَ.. سمّاها الهوى: حلَبا

٣

حين دخلتُ حلب مدرساً للغة والأدب في ثانوياتها في خريف ١٩٤٧ لم أكن



أحمل معي غير إجازتي التي حصلت عليها من دار المعلمين العالية في بغداد، ودفتراً مخطوطاً يحمل أول مجموعة شعرية لي كنت قد بدأتُ اختار قصائدها وأسجلها في دفتري منذ أعوام. لم أكن أُسجل إلا ما يروقني من قصائدي، وأشهد أني كنت أُلقي ورائي الكثير مما أكتب دونما أسف ولا ندم (١).

وفي حي «باب جنين» القديم، المجاور لدار الكتب الوطنية، أبرز مَعْلَم ثقافي في المدينة، ألقيتُ الرحال في غرفة متواضعة استأجرتُها أنا وزميلي رفيق الصبا والنربة الرسام الراحل أدهم اسماعيل، أعاننا على استئجارها رفيق المدرسة الابتدائية في أنطاكية سامي قاسم، النازح مثلنا.

في هذه الغرفة التي لا يصلّها ضوء الشمس إلاّ لماماً كان عليّ أن أبدأ العمل.. أن أُعِدّ نفسي لأكون مدرساً ناجحاً بكل ما للنجاح من أبعاد، وأن أُواصلَ النضال الذي بدأناه في دمشق، ونحن طلاب.. أعني أن أُواصل عملي في البعث.

ولم تُمهلني القيادة طويلاً في دمشق.. فقد كُلفتُ منذ الأيام الأُولى لوصولي أن أقوم بتأسيس فرع البعث في حلب.

- عندك خمسة عشر شاباً من الطلاب

البعثيين.. اتصلُ بهم وابدأ العمل معهم على الفور.

تلك كانت «الرسالة» المقتضبة التي تلقيتها بعد يومين أو ثلاثة من وصولي».

واتصلت بأحد الطلاب الشباب، ودلني على الباقين.

وفي غرفتي التي لا يصلها ضوء الشمس إلا لماماً، في حي «باب جنين» القديم بدأت تأسيس فرع البعث في الشهباء، دون أن يشعر أحد أن هذا المدرس الشاب الذي يكتب قصائد الغزل والحماسة يعمل سرًا في إنشاء فرع لحزبه الجديد الذي سيكون ذات يوم من أنشط الفروع، وأكثرها انضباطاً وإشعاعاً في القطر.

خلال شهر أو أقل كنت قد نشرت أكثر من قصيدة في الصحف المتواهرة في المدينة آنذاك،

والتقيتُ أكبرَ عدد من المثقفين..

وكان معظمهم يعمل مثلي في التعليم.

عمر أبو ريشة، خليل هنداوي، عمر يحيى، أنطون مقدسي، خير الدين الأسدي، علي الناصر، فاتح المدرس.. إلخ.

وأحييتُ أول أمسية شعرية في دار الكتب الوطنية. كان عمر أبو ريشة الشاعر المدوّي آنذاك مديراً لدار الكتب في تلك الفترة. كنا نتلاقى كل يوم. قال لي بعد الأمسية:

كان للشهباء شاعر واحد..

فأصبح لها الآن شاعران..

لم أكن أُبالي كثيراً بمثل هذا.. كان النضالُ السري الذي أُواصله في صمت مع رفاقي وتلاميذي الشباب يحتل المقام الأول في حياتي وفي فكري، ولكنه لم يكن ليَشْغَلَني أو يصرفني عن مُتَعي الصغيرة الأُخرى التي تعطي الحياة نكهتها ومعناها: والإنسان كلٌّ لا يتجزأ. هذا كان رأي الشاعر المشرَّد، والمناضل الشاب. وهو يتلمس طريقه إلى قلب حلب الواسع العظيم.

٤

في «ثانوية المأمون» أعرق ثانوية في سورية، أستقرُّ مدرساً للغة والأدب، وفيها سأقضي بضعة عشر عاماً، بين زملاء أحبَّاء أوفياء، فيهم الأديب والشاعر والرياضيُّ والموسيقيُّ والرسَّام، وطلاب من ذلك الجيل الذي اشتعل في الخمسينيات، وكاد يُشعل الوطن العربي كله عروبةً وأحلاماً وتطلُّعاً إلى غد عربي يُعيد العرب إلى مسرح التاريخ بعد أن غابوا طويلاً عن التاريخ وعن الحياة.

الصلةُ التي قامت بيني وبين طلابي كانت أكثر من صلة أستاذ بتلميذ.. كنت واحداً من هؤلاء الشباب، وكانوا يعدون أنفسهم جزءاً مني.

ذات يوم.. سرت إشاعة بين الطلاب أن أُستاذهم الشاعر سيُنْقَل إلى ثانوية أُخرى. في صباح اليوم التالي كانت مظاهرة تسد أبواب المدرسة، وتهدد الإدارة بأسوأ العواقب إذا وافقت على نقلي.

ذلك الجيل الذي اشتعل في الخمسينيات من هذا القرن لم يكن في ثانوية المأمون وحدها.. وإنما كان في كل مكان. عودوا إلى تلك الأيام الذهبية واسألوها إن كنتم في ريبٍ مما أقول.

٥

هَمسَ صديقي في أُذني:

هناك أُسرة كريمة، قَعَد ربُّها عن العمل، وفي البيت أربع فَتَيات يجدن صعوبة في متابعة دراستهن، فهل أنت على استعداد لمساعدتهن ببعض الدروس؟ أعرفُ اندفاعك وإيثارَك في مثل هذه الأُمور.

قلت بلا تردُّد:

سأضع كل ما أستطيع توفيره من وقت في خدمة هذه الأُسرة الكريمة التي قَعَد ربُّها عن العمل.

وفي صباح اليوم التالي.. كنتُ مع صديقي وصديق الأُسرة في البيت.. بيت أبي أحمد وأم أحمد الذي سيصبح أقربَ بيت إليَّ في الشهباء.

الفتيات الأربع تعلَّمن في سن مبكرة كيف يحملن مسؤولية البيت والأسرة.. تَدرَّبْنَ على كل ما يفيدُ من أعمال يدوية إلى جانب الدراسة التي كانت الأُسرةُ كلها تُصِرُّ عليها. كانت كبُراهن في المرحلة الثانوية، وشقيقاتها في المتوسطة.

وبدأتُ الدرسَ الأول. لم يكن درساً في اللغة العربية فحسب، وإنما كان في كل ما يستطيع هذا الأُستاذ الشاب أن يقدمه من معرفة وثقافة في اللغة والأدب والتاريخ والجغرافيا، وحتى في اللغتين الأجنبيتين الفرنسية والانكليزية اللتين كانتا تُدرَّسان كلتاهما في المدارس السورية آنذاك.

أصبح البيت يألفني.. وأصبحتُ آلفُه.

ربُّ البيت الرجل الرصينُ الوقور أبو أحمد، يعاملني كأحد أولاده، وأم أحمد ربة البيت البسيطة الطيبة تُعِدُّ لي فنجان القهوة بمجرد وصولي.

والفتيات الأربع اللواتي يجمعن بين الجد والمَرَح، والتهذيب الرفيع والحرية المتَّزنة ينتظرن دروسي كل أسبوع مرتين أو ثلاثاً، حسبما يتاح لي من فراغ. ويحدثنني من حين إلى آخر عن شقيقة لهن تتابع تحصيلها العالي في الخارج، في بلجيكا. لقد استطاعت هذه الشقيقة الذكية أن تشق طريقها إلى المستقبل الأرحب، وتفوز ببعثة دراسية في جامعة بروكسل، وستعود قريباً إلينا.

وأشرد قليلاً عن الدرس، أفكر بهذه

الشقيقة الذكية التي استطاعت بجهدها الخاص، وطموحها، أن تفوز ببعثة دراسية في جامعة بروكسل، والتي ستعود قريباً لتنضم إلى الأُسرة المكافحة في صمت وقناعة وتطلُّع إلى الأجمل والأفضل في كل شيء.

أشرد قليلاً.. ثم أعود إلى العمل.

ومرَّ عام.. ودروسي لتلميذاتي الأربع متصلة.

ونجاحهن في المدرسة يبعث في نفسي شعوراً غامراً بالبهجة والرضا.

كن متوسطات الجمال، وأجمل ما فيهن تلك الروح المرحة، والأنوثة العَذْبة التي تجعل كل شيء في البيت عَذْباً ناعماً رقيقاً.

وذات يوم من أيام الصيف.. دخلتُ البيت لأجد الأُسرة كلها تحتفي بعودة الشقيقة من بلجيكا.

ومددت يدي أُصافح السمراء النحيلة، التي كانت ترتدي ثوباً أزرق، امتلأ بالنقط البيض الصغيرة، كقطعة من السماء الزرقاء امتلأت بالنجوم، وأحسستُ منذ اللحظة الأولى أني أُصافح فراشةً تطير، لا صبيةً تتحرك بخفة نسمة، ورشاقة عصفور أمامي، وهي في عامها العشرين.

- هذا هو أُستاذنا!

قالت إنعام، كبرى تلميذاتي الأربع، بشيء من الحب والاعتزاز.

- أهلاً وسهلاً! لقد حدثتني عنك تلميذاتُكَ في رسائلهن إليّ.

أجابت الفراشةُ التي كانت تطير في الغرفة، بثوبها الأزرق المرصع بالنجوم البيض.

ودار بيننا الحديث متقطعاً، متشعباً، لا يكاد يهدأ حتى يبدأ من جديد.

السمراء النحيلة تريد أن تعرف كل شيء عني،

وأنا أُريد أن أعرف كل شيء عنها..

هذه الصبية الرشيقة النحيلة تختلف عن كل من رأيتُ حتى الآن.

إنها شيء آخر.. شيء آخر تماماً.. همستُ في سري.

من يدري؟ ربما كانت الحلم الذي يراود خيالك أيها الشاعر الشاب المتقد حماسةً وثورة واندفاعاً.. إنها لا تقلُّ عنك حماسةً واندفاعاً.. إنها شيء آخر.. يختلف عن كل ما رأيتَ الآن.

قلت لها بالفرنسية أمام والدها:

أتحبين أن نخرج في نزهة معاً، في البلد؟

أجابت بلا تردد:

هيّا بنا.. فإني أحب أن أمشي، أن أتحرك..

وما أن خرجنا حتى ابتدرتني قائلة وهي تضحك:

أبي اللبناني الأصل والنشأة، يتكلم ثلاث لغات إلى جانب لغته العربية، منها الفرنسية التي تظن أنك طلبت بها ما لا يريد أن يفهمه. ومع ذلك فهو يُحبك ويثقُ بك فيما أعلم، فلا تتحرَّجْ ولا تخشَ شيئًا.

وانطلقنا في نزهتنا نجوب شوارع المدينة العريقة قديمها وحديثها.. لا نريد لمشوارنا الأول أن ينتهي.

وهبط المساء.. وما زلنا نمشي ونتحدث.. ونتحدث ونمشي..

ويتكرر مشوارنا الجميل كل يوم..

وتملأ الفراشةُ القادمة من بعيد فراغي كله..

وتدور الأيام.. وما تلبث أن تملأ حياتي كلها.

سيدرك شهرزاد الصباح،

وتسكت في هذه اللحظة عن الكلام المباح،

فليس من الضروري أن تتحدث السواقي عن كل قطرة ماء فيها، ولا الحدائق عن كل ورقة أو زهرة فيها.

حَسْبُنا أن مشوارنا الأول الذي بدأناه قبل خمسة وأربعين عاماً ما يزال متصلاً حتى الساعة.

٦

في شارع فيصل الذي يقودك إلى مُتَنَزَّه «السبيل»، أجمل مُتَنزهات حلب يومئذ، أتيح للشاعر وزوجته أن يستأجرا «قبواً» أقاما فيه معظم الفترة التي أمضياها في الشهباء.

هذا القبو الواسع المريح، البارد صيفاً، والدافئ شتاءً كان ملتقى الرفاق والأصدقاء على امتداد تلك الفترة الخصبة الملأى بالعمل والكفاح والشعر والتسلية.

فيه دَرَج أطفالنا الثلاثة، وفيه التقينا معارفنا وأصدقاءنا من كل أنحاء الوطن العربي.

مالك حداد الشاعر الجزائري الراحل ظلَّ طويلاً يردد ذكريات «القبو» ويتغنى بالساعات الجميلة التي قضاها معنا فيه إبَّان زيارته الأولى للقطر.

رفاق لنا من سورية ولبنان والعراق ومصر، ومن المغرب العربي عرفوا «قبو» حلب، وكنا سعداء بهم، وكانوا سعداء «بالملجأ» الشعري الذي يفتح ذراعيه أبداً «لإخوان الصفاء».

رفاق النضال في الشهباء تعودوا أن يُرسوا فيه كل مساء تقريباً بعد أن يفرغوا من العمل، وفي غرفة الجلوس الصغيرة كانوا يتابعون صخبهم ونقاشهم الذي لا يهدأ، ويقاسموننا الطعام والشراب.

ونعود أنا وزوجتي ذات مساء إلى البيت لنجد ورقة كبيرة بيضاء قد ألصقت على الباب، وكُتب عليها:

«لم يبق مكان شاغر لأحد».

نزعنا الورقة، ونحن نضحك، ودخلنا لنجد «ثلة» الرفاق قد احتلوا البيت، وعلى رأسهم رمزُ الدُعابة والحب والمرح، ورفيق الطفولة والغربة صدقي اسماعيل.

كان هؤلاء الرفاق إخوتنا بالفعل. كنا أسرة الفكرة والقضية والحلم الواحد.

صدقي اسماعيل، فائز اسماعيل، أديب النحوي، عبد الكريم زهور، محمد السيد، عبد الفتاح زلط، سعد زغلول الكواكبي، ضياء ابراهيم باشا.. إلى آخر هذه القائمة الجميلة التي عشنا معها، وعاشت معنا، أجمل أيام العمر في تلك الحقبة المضيئة من العمر.

ولكن هل مر «قبو» حلب بدون مُنغّصات؟

لا أُريد أن أقف عند حادثة اعتقالي فيه، وكيف طوقت الشرطة العسكرية الحي كله ذات يوم، لتداهم قبو الشاعر، وتنبش كل مافيه- وأهم مافيه كان الكتب والأوراق المبعثرة هنا وهناك- ثم تقودني إلى سجن المزة العسكري لأقضي فيه زهاء شهرين في أحد العهود الديكتاتورية التي مرت بالقطر، والتي قاومناها بعناد، حتى أسقطناها.

في ديواني الصغير «شاعر بين الجدران» رويت القصة بالتفصيل في ثلاث عشرة قصيدة سميتها: أناشيد.

هذا الديوان الصغير يؤلف جزءاً من المجلد الأول في مجموعتي الكاملة، يستطيع القارئ العزيز أن يرجع إليه إذا شاء.

ولكنّ «المنغّصات» التي كنا نحسب لها ألف حساب، ونستعدُ لمواجهتها طوال فصل الشتاء، ومعظم فصل الربيع، لم تكن السجن ولا الاعتقال، ولا مداهمة الشرطة، وإنما مداهمة السيل اللعين «لقبونا» كلما هطل المطر بغزارة في الشهباء. لقد كانت «المجاري» في الشارع المجاور أضيق من أن تحمل ماء السيل الجارف، فإذا المياه تغمر كل مرة بيتنا الأليف الذي يهبط عشر درجات تحت الأرض. وننهمك أنا وزوجتي، ويخفُ الأصدقاء لنجدتنا في نزح المياه التي تغمر القبو، ونقضي الساعات الطوال في معركة مع «الطوفان» المفاجئ الذي لم يكن يدوم طويلاً لحسن الحظ.

وفي «الديوان الضاحك» الذي يضم كل قصائد الدُعابة والتسلية تجد قصة السيل الذي كان يداهم «قبونا» الشاعر بالتفصيل.

٧

١٩٥٨

في شهر شباط (فبراير) من ذلك العام تقومُ الوحدةُ بين القطرين العربيين

الشقيقين: سورية ومصر، أولُ وحدة تتحققُ في تاريخ العرب الحديث، بدايةُ الحلم القومي الكبير الذي أشعلَ المشاعر، ونَفَضَ المقابر.

ويهبط جمال عبد الناصر فجأة في حلب، بعد أيام من وصوله إلى دمشق، يُحيط به عددٌ كبير من رفاقه في القطرين، أبرزُهم وأهمُّهم- في رأي- كان ذلك العربي الثاقب النظرات، النحيل الجسم، صديق الشاعر القديم، أكرم الحوراني الذي أختير منذ اليوم الأول نائباً للرئيس.

وما أن يسري نبأ وصوله إلى قصر المحافظة غربيَّ المدينة حتى تزحفُ الشهباءُ عن بكرة أبيها- ليس في العبارة أيةُ مبالغة أو مجانبة للواقع- إلى حيثُ نزل الرجلُ الذي حَرَّكَ الأمة العربية، وألْهَبَها ذات يوم، من المحيط إلى الخليج.

وفي دقائق.. أكون مع زملائي المدرسين في الثانوية التي أُدرِّس فيها، ومع كل من في الثانوية من طلاب وموجّهين وأذَنة، حتى حارس الباب الخارجي للمدرسة، نكون جميعاً قد انتظمنا مع الحشود الزاحفة من كل شارع إلى قصر المحافظة، نهتف:

من المحيط الهادر

إلى الخليج الثائر

لبيك.. عبدَ الناصر!

كان هذا مطلع النشيد الذي أطلقتْه منذ إعلان الوحدة، وراحت الإذاعات في القطرين المتحدين تُذيعه مُلَحَّناً على الناس، حتى غدا على كل شفة ولسان، بل إن صحيفة «الأهرام» نفسها، كبرى الصحف العربية ألغت عبارة «أنباء الوطن العربي»، المانشيت الذي كانت تضعه على رأس إحدى صفحاتها، ووضعت بدلاً منه مطلع النشيد:

من المحيط الهادر إلى الخليج الثائر

عودوا إلى أعداد تلك الأيام من الصحيفة لتتأكدوا مما أقول.

روح جديدة عارمة سرت مَسْرى النار في الهشيم في الأرض العربية كلها، كأنما أفاقتْ من سُباتٍ عميق، ونفضتْ عنها غُبارَ السنين، وأخذت تتحرك لتعانقَ حلمها العظيم، الجديد القديم، حلم الوحدة العربية وهو يحقق أُولى خطواته على أرض الواقع والحقيقة، بعد عصور من الذل والاستعباد والضَّياع. كانت تلك الفترة فترة الوهج العربي القومي.

انكسَرَ الحلم، وضاع، تبدَّد، انقلب خيبات مرةً بعد ذلك ما نزال حتى الساعة نَلْعَقُ مراراتها،ونمضغُ أحزانها، «ونبكي على أطلالها».

هذا كله صحيح..

ولكن الصحيح أيضاً أن العرب عاشوا

في تلك الفترة أجمل أحلامهم القومية التي تطلَّعوا إليها، وعملوا لها منذ فجر النهضة الحديثة.

هذا الفرح القومي العارم.. وتلك الخيبات المرة التي تلته حاولت أن أُجسِّدها ما استطعت في مجموعاتي الشعرية التي أصدرتها في أواخر الخمسينيات حتى أواسط السبعينيات.

تجدها في تسلسلها الزمني- التاريخي في «الأعمال الشعرية» التي صدرت بمجلداتها الأربعة عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر في بيروت منذ أمد قريب.

قصر المحافظة غربي المدينة لم يتسع بحدائقه الضيقة، وفنائه المحدود لجماهير حلب الزاحفة تحيي هذا العربي الشجاع الذي أمَّم قناة السويس، وقلب الموازين في المنطقة، وها هوذا يرأس أول وحدة بين قطرين هما قلب الأمَّة العربية: مصر وسورية، ويعلنها باسم المناضلين والأحرار في كل مكان، باسم الشعب العربي كله: جمهوريةً عربيةً متحدة. لابد أن أقول هذا للتاريخ، ودعني من كل ما حدث بعد ذلك.

لم يلبث عبد الناصر أن انتقل إلى دار كبيرة من دور حلب الحديثة تشرف على ساحة واسعة تتسع للآلاف من المواطنين، أبناء الشهباء وأبناء الريف والمدن المجاورة. الساحة الواسعة تَغُصُّ بالحشود لا تُبارحها ليل نهار، تهتف للوحدة، وتحيي القائد العربي الذي كان يطل عليها من حين إلى آخر، ويلقي فيها كلمة من كلماته النارية، مرة بالعربية الفصيحة، وباللهجة المصرية المحببة إلى الناس أغلب الأحيان.

على امتداد أربعة أيام أو خمسة- لا أذكر بالضبط- قضاها جمال عبد الناصر في حلب لم تهدأ الساحة الواسعة لحظة، ولم تنقطع عنها الوفود ساعة.

كان الآلاف يسهرون تحت شرفات الدار التي يقيم فيها حتى الصباح، يهزجون، ويهتفون، ويغنون، وينشدون قصائد الشعر، ويعقدون «الدبكة» حتى ليعود أحدنا إلى بيته، يقضي بعض الوقت، ثم ما يلبث أن يرجع إلى الساحة، يشارك في العرس القومي الكبير الذي أصرت حلب على أن تقيمه، وأن يبقى متصلاً مادام عبد الناصر فيها.

لا أذكر مرة كنت فيها طفلاً شاعراً يتوهج فرحاً ونشوةً بما تمَّ كما كنت في تلك الأيام.

لا أريد أن أمضي في الذكرى..

كل ذلك سفحته كلمات على الورق..

كلمات كانت تحمل كل ما يملكه الطفل الشاعر من حب وحماسة وتوق إلى «غ مشرق عزيز».. كما كانت ملايين الحنا تردَّد آنذاك.

كل ذلك عشناه.. ملأنا به كل ذرة من ذرات وجودنا..

أنا وجيلي الممزَّق الطعين.

كل ذلك عرفته حلب، كما عرفته كل مدينة وقرية في سورية ومصر، وفي كل بقعة عربية، قريبةً كانت أو نائية، بين الماء والماء.

وعلى قدر الحلم العظيم..

تكون الخيبة المرة..

والانكسار الأليم.

٨

«إسْقِ العطاش.. سَيَرْقُصون

على تسابيح.. الوَتَر

ويموجُ هذا الليل بالفَرَح

المُجَنَّح.. بالسَّمَرْ

وأَصُبُّ مِلْءَ كُؤوسِهِمْ

خمري، وما ملكَتْ يدي

أبداً.. سيبقى في الدجى

يَسقي الدُّجى قلبُ صَدِ (١)

الليلة.. ليلة رأس السنة الجديدة،

سنرقص على «القدود الحلبية»، وألحان «إسْقِ العطاش»،

ونغني ونسهر حتى الصباح.

ياليالي حلب.. لم تعرف زهرةُ العمر، وعنفوانُ الشباب، أجمل ولا أمتَعَ منك.

سنغني، ونرقص هذه الليلة حتى الصباح.

سندفن كل همومنا وآلامنا، وتعبنا وأوجاعنا تحت أجنحة الليل.

سنحوِّل الليل إلى قصيدة سكرى لا يعرف أحد أين تبدأ، وأين تنتهي؟

في بيت أحد أفراد «الشلّة» سنحيي سهرة رأس السنة هذا العام.

بيوتُ الأصدقاء في الشهباء كنا نعدُّها بيتاً واحداً يضمُّنا متى نشاء، وكيف نشاء.

وتبدأ السهرة.. ويلفُّنا الليل الجميل بأجنحته في صالة رَحْبة أنيقة من صالات البيت الكريم الذي أصَرَّ أن يكون هو «المُلتقى» هذه المرة.

ملك وضياء، عفة وعبد الفتاح، ملكة وسليمان، مليحة وسعد، يمن ومحمد وهيفاء، تيريز وريمون، نادية وعبود.. قافلة الحب والشعر والموسيقا والسهر كلها تحتشد في ذلك المساء لتستقبل العام الجديد بكل ما تملك من حب للحياة والشعر والموسيقا، وما تحمل في أعماقها من عطش للجديد والجميل.

هيفاء الصبية السمراء التي تحمل اختصاصاً عالياً في الفنون الشعبية تبدأ الحفل الساهر بأجمل ماابتكرت قدماها من لوحات جديدة في الرقص. وما هي إلاَّ ساعة أو بعض ساعة حتى تختلط اللوحات بعضها ببعض، ونشارك جميعاً في «الإبداع».

«على حسب الريحْ..

ما تودّي الريح.. ما تودّي الريح..

ماتودّي

أنا ماشي ماشي ماشي

ولا بيْدِي»

ويتصاعد النغم الجميل.. ويبدأ ليعود.. ويعود ليبدأ من جديد..

وتبدع «هيفاء» في تجسيده خطوات رائعة الأداء على الأرض..

ونبدع نحن أيضاً في متابعتها.. كلٌّ على هواه.. في غمرة من النشوة والفرح.

وتتوقف «الزوبعة» فجأة، لتطلب إليَّ أن أنشد جمهوري النشوان بعض الأبيات من شعري. الشعر قمة النشوة في رأي الجميع.

وأُنشدُ هذا المقطع من قصيدة رثيت بها المطربة الخارقة أسمهان، وأنا في مطلع الشباب، لا أدري كيف لمع المقطع في ذهني، واندفعَ على لساني من دون أي تروٍّ أو تفكير:

إسقنيها مع الندامى اسقنيها

واصهَري الشعرَ واصهريني فيها

تلكَ كأسي عَطْشى فلا تتركيها

تتحدّى عينيك أن تُسكريها

آهةً بعد آهةٍ.. وأنْظريها

كيفَ تَهْوي على فمي كالشهيدِ

غمغمات يَصحنَ: هل من مَزيدِ؟

وما أكاد أُتم المقطع حتى تدنو مني الصديقة السيدة تيريز، وتسألني في لهجة جادّة:

أين أجدُ الشعر؟

قلت:

تجدينه في ديواني الأول «مع الفجر». ولكني مع الأسف لا أملك أية نسخة منه، شأنُه في هذا شأن دواويني التي أصدرتُها حتى الآن.

قالت، وكأنها تقطع عهداً على نفسها:

سأجمع كل دواوينك.. سأحفظها عندي في البيت، وسأكون مرجعكَ منذ اليوم في كل ما يصدر لك من نتاج.

ووفت الصديقة السيدة تيريز بوعودها، وجمعت أعمالي الشعرية كلها، وما تزال تحتفظ بها في رف من رفوف الخزانة الصغيرة الأنيقة التي تتوسط صالة الاستقبال في البيت.

في الساعة الخامسة من صباح ذلك اليوم..

مع خيوط الفجر الأُولى..

ختمنا سهرتنا..

ووضعنا قبلة أملٍ على ثغر عامنا الجديد..

واستسلمنا بعضَ الوقت من صباحنا لنوم عميق.

٩

صوت الأم «روزين» ينبعث حلواً رخيماً صافياً من الحجرة المجاورة، وهي تقيم قُدَّاس الصباح، وعشرات الطالبات من الصفوف الابتدائية إلى الصفوف الثانوية العليا يُصغين إليها في حب وصمت، وأنا أُصغي أيضاً من غرفة المدرسين الصغيرة التي وصلت إليها منذ دقائق.

في السابعة والنصف من كل صباح كنت أصل إلى مدرسة «راهبات القلبين الأقدسين» في حي «التلل» في الشهباء. ثلاث مرات في الأسبوع أُلقي فيها دروسي على طالبات المرحلة الثانوية. كانت ساعات إضافية- كما كنا نسميها- ولكني كنت أعدُّ عملي الإضافي هذا في مدرسة الراهبات واحةً أفيءُ إليها خلال الأسبوع من الكدح والإرهاق والكفاح الشاق الذي كنت أُعانيه ويعانيه زملائي المدرسون جميعاً في ثانويات حلب المكتظة بالطلاب حتى التخمة.

أن تُلقي محاضراتك على سبعين أو ثمانين طالباً يُحشرون في غرفة لا تَتَّسعُ لأكثر من عشرين أو ثلاثين، ثم تأتي إلى مدرسة الأم «روزين» لتستقبل صوتها العذْب الرخيم عند الصباح، ثم تدخل غرفة الصف فتلقي درسك على بضع عشرة صبية بعمر الورد..

تلك كانت نقلةً بالفعل من الشقاء.. إلى الراحة ومن حر الرمضاء.. إلى الواحة

وكلاهما كان محبَّباً إلي: حر الرمضاء وبردُ الواحة،

ولابدُ للمحارب من استراحة- كما يقولون-.

دروس اللغة العربية: الصرف والنحو والبيان والعروض، وشرح النصوص الأدبية بمفرداتها الوَعْرة.. كل هذا كان شيئاً ثقيل الظل، تَعوَّدَ الطلاب على أن ينفروا منه، ولا يُقبلون عليه إلاَّ فيما نَدَر.

فكيف اجعل من هذه الدروس شيئاً محبَّباً إلى النفوس.. شيئاً يُقبل عليه طلابي وطالباتي ويحبُّونه كما يحبون أجمل الأشياء في حياتهم؟

كان عليَّ أن أُعدَّ خطة لكل درس.. أن أكون «مُخْرِجاً» ومدرِّساً في آن معاً.

وأستميح القارئ عذراً إذا طلبت إليه أن يعود إلى مقالي «الشعر والتربية» ويتتبَّع ما ذكرته فيه عن درس الأدب، وكيف كنت أقدمه في الصف؟

الذي لفت نظري، وشدَّ انتباهي يومئذ، وأنا في مدرسة الراهبات أن بعض الطالبات كن متفوقات في اللغة العربية، بل إني لا أُغالي إذا قلت: إن بعضهن كن يملكن موهبة أدبية لو أُتيح لها أن تنمو وتتفتّح لكانت شيئاً مذكوراً في أدبنا العربي الحديث.

أمل، كيتي، منى، هدى.. أسماء ما تزال تلمع في الذاكرة.

هدى.. الطالبة القوية في النحو، حتى ما تكاد تخطئ في إعراب كلمة، كنت أسميها: حفيدة سيبويه.

أمل وكيتي.. الطالبتان الواسعتا الاطّلاع، تقرآن كل ما تصل إليه يدهما من كتب باللغتين العربية والفرنسية.

ومنى.. هذه الشاعرة الصغيرة التي كانت تحتل المقعد الأمامي في الصف، وتعدّ التجاعيد في جبهتي، وأنا ألقي دروسي، كما اعترفت لي ذات يوم.. هذه الصغيرة كانت تدهشني بموضوعات التعبير التي تكتبها.

- أنت شاعرة يا منى.. واصلي القراءة والكتابة، وأنا على يقين أنك ستكونين ألمع كاتبة في القطر ذات يوم.

ولا أدري.. هل واصلت تلميذتي الكتابة، أم غرقت في مشاغل الحياة وهمومها اليومية بعد ذلك؟

عمر المواهب قصير في بلدنا. هذا ما كان يردده أستاذنا الراحل زكي الأرسوزي.

وإنّي مقتنعٌ بهذا الرأي في شيء من الأسى والأسف.

ولكن لابدَّ أن نعترف أن الحواجز لا تُحصى أمام كل شرارة إبداع عندنا.

«راهبات القلبين الأقدسين» في حلب!

أيتها الواحة الصغيرة التي كنت أفئ إليها من الجهد والنَّصب.

تحية.. وحباً من أُستاذكِ وشاعركِ القديم.

١٠

الساعة السابعة مساءً..

أنا وملكة في غرفة الجلوس، في قبونا، بشارع فيصل.

أطفالُنا الثلاثة معن وغيلان وبادية يعزفون معاً قطعة موسيقية صغيرة، تدرَّبوا عليها في المعهد الموسيقي الذي انتسبوا إليه منذ اليوم الأول لافتتاحه في الشهباء.

معن وغيلان يعزفان على «كمانهما» الصغير. وبادية على البيانو..

البيانو النمساوي القديم كَلّفَنا شراؤه توفير العديد من نفقات المنزل الضرورية في ذلك العام.

أنا وزوجتي كنا نحرص أشد الحرص على ثقافة موسيقية يحصل عليها الأولاد، إلى جانب دراستهم في المدرسة. الثقافة الموسيقية التي حُرِمنا منها نحن في طفولتنا، وكنا- وما زلنا- نَعدُّها عنصراً أساسياً في الحياة، حياة الصغار والكبار على السواء.

فجأة.. يُقرع جرسُ المنزل.

يدخل صديقنا الدكتور لطيف سركيس، الطبيب الشاب، ألمع طبيب جراح عرفته المدينة، في تلك الفترة في رأيي.

صديقنا الجرّاح الشاب كان قد تعوّد أن يزورنا كلما عنَّ له أن يتخفف من أعباء العمل في المستشفى الذي كا ن يعمل فيه ليل نهار. يهرب من «الأشغال الشاقة» - كما كان يسميها - ليقضي معنا بعض الوقت في جو من الشعر والمرح والتسلية. ولم يكن يومنا يخلو من ساعة أو ساعتين نقتطعها للراحة والمرح والتسلية.

«إنَّ لجسدكَ عليكَ حقاً». كما يقول الحديث الشريف.

يُفاجِئُ الصديق الشاب «بالجوقة» الموسيقية الصغيرة، فيهتف لزوجته الفرنسية:

تَعاليْ إلى بيت سليمان.. تَعالَيْ حالاً!

ستَرَيْن شيئاً جديداً، ليست فرنسا وحدها هي التي تهتمُّ بتعليم الموسيقا للأطفال.

وتأتي الزوجة الفرنسية بعد دقائق، وتشاطرنا الاستمتاع «بالكونسير» الصغير الذي أقامه أولادنا في ذلك المساء، وهي لا تكاد تصدّق ما ترى.

ثم يواصل الأولاد «هوايتهم» الموسيقية مع الأسف، فقد شغلهم الطبُّ والطيران بعد أن كبروا، ولكني مازلت أتمنى لو أن هذه «الهواية» الجميلة استمرت عندهم مدى الحياة.

الموسيقا.. هذه المتعةُ الإلهية..

هذه القصيدة العظيمة التي تخترق الحواجز، وتمحو الحدود بين الناس.

وتصل في يُسْرٍ وسهولة بين الأرض والسماء.

في مساء اليوم التالي يهتف إليَّ صديقنا الدكتور لطيف:

أنت وملكة مدعوان عندي اليوم. لديَّ مفاجأة يجب ألا تفوتكما. نحن بانتظاركما بعد ساعة واحدة من الآن.

ونرتدي ثيابنا على عجل، ونُسرع إلى بيت الصديق الذي تعودنا أن نزوره بين الحين والحين كما تعوّد أن يزورنا.

وما نكاد ندخل البيت الهادئ، في أطراف حي السبيل، حتى يفاجئنا الدكتور لطيف بضيفيه اللذين سَبَقانا إلى المنزل؛ ويقدمهما إلينا:

عازف الكمان العالمي الشاب نجمي السكري.

وأستاذه الموسيقار الروسي السيد بوروزينكو.

ونحتفي بالضيفين الجديدَيْن..

ونستعدُّ لسماع العازف العالمي الشاب..

وأستاذه القديم..

لقد قبلا دعوة الجرَّاح اللامع الذي عَرَفاه منذ أمد قريب- كما علمنا- وقرَّرا أن يقيما حفلاً موسيقياً خاصاً في منزله لا يحضُره إلاَّ أقربُ الناس، وأعزُّهم لديه، وكنا نحن اللذين اختارنا لنكون جمهور الحفل الخاص وحدنا.

تكريم وتقدير.. لا ننساهما لصديقنا العزيز.

وبدأ الأستاذ الروسي المسنُّ العزف.

كانت قد تقدمت به السن، وأصبحت أنامله ترتجف قليلاً، وهو يمرُّ بالقوس على أوتار كمانه العتيق الأصيل، ولكنه يظلُّ المعلمَ البارعَ الذي يعرف كيف يسيطر على النَّغم، فلا يتركه يشرد أو يضيع من يديه.

وجاء دور نجمي ..

واستأذنَ أُستاذه المُسنَّ بأدب جَمّ، ثم بدأ العزف.

وأغمضتُ عيني.ورحت أسبَح معه في سَحَبات النغم، وأنا أشعر أن الفضاء الرحب قد انفتح أمامي، فلا بيتَ ولا سقفَ ولا جدران، الجو كلُّه تحوّل إلى سماء فسيحة مزروعة بالنجوم.. نجوم تتلألأ ثم تذوب فجأة في رَعَشات الأوتار التي تلعب بها أنامل هذا الفنان المبدع، وما ألبث أن أصحو لحظة لأغيب معه مرة أخرى في أمواج جديدة من النَّغم، يُلوِّنها نجمي ببراعة وحذق كما تشاء له الموهبة، ويشاء له الإبداع.

لم أدر أنا، ولم تدر زوجتي، كم من الوقت مرَّ ونحن نستمع إلى الموسيقار الشاب وهو يطير بنا على أجنحة كمانه الرائع.

ولكني اذكر انه عندما توقَّفَ.. فتحتُ عينيَّ وتناولت ورقة صغيرة.. وخططتُ له بضعة أبيات من وحي تلك الأمسية، ربما كانت من أجمل ما كتبت في حياتي عفو الخاطر.

طوى نجمي الورقة، وضمَّها شاكراً إلى جيبه، وهو يعدُّها أجمل تحية تَلَقَّاها إثر حفلٍ موسيقي أقامه فيما مضَى.

وأصبح نجمي صديقنا منذ ذلك اليوم..

يزورنا في البيت، ويستمع إلى طفلتنا «بادية» وهي تعزف له ما تعلمته في المعهد الموسيقي من ألحان.. ويشجعها على المضيِّ في هذا الطريق.

لا أدري أين هو نجمي، صديقنا الموسيقي العالمي الآن!

لم نتلاق منذ أعوام طوال..

ولكني لا أنسى تحية أُرسلها إلى صديقي الجرَّاح الشاب الدكتور لطيف سركيس الذي يقيم في أقاصي كندا منذ أعوام وأشكره كلما تذكرت ليالي حلب على

تلك الأمسية النادرة التي أمضيناها في منزله الهادئ، في أطراف حي السبيل.

١١

تفاجئني زوجتي ذات يوم، وهي عائدة ظهراً من عملها في دار المعلمات:

أمامي فرصة لتحضير درجة الماجستير في الجامعة الأمريكية ببيروت. هناك منحة دراسية معروضة علي. هل أقبلها؟ ما رأيك؟

قلت: وهل يمكن أن نتردد لحظةً في اقتناص مثل هذه الفرص؟ اقبليها على الفور، وسافري إلى بيروت في أقرب فرصة، وسأتدبر أمري أنا والأولاد هنا.

قالت: إني قلقة عليكم. أريد من الصميم متابعة دراساتي العالية، ولكن الأولاد...

قلت: لقد كبر الأولاد، وسيُعينني أهلك هنا على تدبير أمورنا. لا تقلقي ولا تترددي. أعرف طموحك للتحصيل، واخشى أن أكون قد وقفت يوماً حائلاً بينك وبين هذا الطموح بزواجنا وانغماسنا في شؤون الحياة والبيت والأولاد. هيا.. احزمي أمرك.. وإلى الجامعة الأمريكية لنيل درجة الماجستير.. ومن بعدها الدكتوراه.. لا نريد لحياتنا أن تتوقف عند أسوار آنَ لنا أن نتجاوزها.

وحزمت ملكة أبيض أمرها..

وذهبت إلى بيروت تواصل الليل بالنهار في الدراسة، وتعود كل أسبوع إلى حلب لتقضي يوماً واحداً بل بعض يوم معنا، تتفقد شؤون الصغار والبيت، وتهيّئ كل ما تستطيع تهيئته لنا من وسائل العيش، ثم تقفل راجعة إلى غرفتها الداخلية في الجامعة، تتابع عملها الشاق في إنجاز المهمة التي انتدبت نفسها لها.

لم يكن اجتياز الطريق بين بيروت وحلب بالأمر السهل، ولا سيما في فصل الشتاء. كانت الرحلة تستغرق أكثر من عشر ساعات أحياناً، تحت الثلج والمطر، ولكن ملكة تريد أن تطمئن علينا، ولابد أن تقوم بالرحلة الشاقة كل أسبوع، وما أكثر ما كانت تصل إلينا بعد منتصف الليل.

عامان ونصف العام مرّت على هذا المنوال، وانتهى الفصل الأول من الكفاح بنيل درجة الماجستير، ليبدأ الفصل الثاني على الفور: لنيل دكتوراه الدولة، من فرنسا هذه المرة. وتلك قصة أُخرى جديرة بالتسجيل. ولكنها لم تكن في حلب. كنا قد انتقلنا إلى دمشق في عام ١٩٦٧، هي إلى كلية التربية في جامعة دمشق وأنا إلى التوجيه الأول للغة العربية في وزارة التربية.

وداعاً يا حلب!

يا مدينة الحب والشعر، وزهوة العمر، وعنفوان الشباب.

حلب في العهد الآرامي

د. علي أبو عساف(*)

يرى الدمشقيون ان دمشق أقدم مدينة في التاريخ، ويرى أهل حلب الرؤية ذاتها، وكل يشيد بمدينته، ولعل الصحيح أن المدينتين من أقدم المدن في بلادنا ولعلة استمرار العمران فيهما آلاف السنين، فاتت الفرصة على الآثاريين في الكشف على طبقاتهما السكنية الأقدم وشاءت الصدف أن تكتشف لوحة بالمسجد الأموي نقشت فيها صورة لأبي الهول بأسلوب مصري تعود إلى العصر الآرامي القرن التاسع ق.م. فسجلت نقطة لصالح دمشق، ما لبثت حلب أن تعادلت معها باكتشاف لوحة في قلعة حلب نقش فيها مشهد أسطوري يحوي رجلين مجنحين كل واحد صورة للآخر وبين رأسيهما الهلال الذي يطوّق الشمس.

(*) د. علي أبو عساف: باحث وآثاري سوري، مدير عام سابق للآثار والمتاحف..

- العمل الفني: الفنان قحطان الطلاع .

شاهدان يثبتان رقي الثقافة الآرامية في هاتين المدينتين وتعادل دمشق وحلب في النقاط. غير أن الأمر يحتاج إلى أكثر من العثور مصادفة على مثل هذه الشواهد، فهو يحتاج إلى تنقيبات أثرية علمية منهجية في المدينتين ولكن أين وتكتظ المدينتان بالمساكن القديمة ولا فراغات بينها.

لحسن الحظ أخليت قلعة دمشق، وسنحت الفرصة للتنقيب في باحتها. كما جاءت فرصة مماثلة للتنقيب بقلعة حلب، ففرح أهل المدينتين واستبشروا بظهور دلائل وشواهد على العصور الأقدم، يستعينون بها على دعم زعمهم في قدم المدينتين وإحراز قصب السبق.

كشف الفريق السوري الفرنسي الذي عمل في باحة قلعة دمشق على طبقات يعود أقدمها إلى نهاية الألف الثالث ق.م[1]، وتتالى فوقها طبقات أخرى أحدث تعود إلى العصور الرومانية البيزنطية والعربية الإسلامية، ففرح الباحثون الأثريون بهذه النتيجة، لأنهم وجدوا بباحة القلعة المكان الملائم للسبر في الأعماق وانتشال خبايا العصور الكنعانية الآرامية. هذا في دمشق، أما في حلب فيختلف الوضع تماماً.

بعد أن أصبحت الجمهورية السورية تحت الانتداب الفرنسي، أصبحت قلعة دمشق مقراً لقوات الأمن تحوي أيضاً السجن، واستمرت على هذه الحال حتى إخلائها قبل عقدين من الزمن.

أما قلعة حلب شعار المدينة المميز ومنارتها، فقد حوت المساجد والقاعات الاحتفالية الرسمية والمهاجع تفصل بينها فراغات وتعود إلى العصور الأيوبية وعصر المماليك والعثمانيين. هجرت في عهد الانتداب وقامت فيها ثكنة عسكرية لم تدم طويلاً ولم تقف هذه الحالة عائقاً كبيراً أمام إجراء الدراسات المعمارية على مبانيها والتقيبات الأثرية في الأماكن الخالية منها.

فقد قام السيد جورج بلاو روترو مفتش الآثار الفرنسي في عام ١٩٢٩، ومحافظ متحف حلب الذي تأسس عام ١٩٢٦، بسبر الأماكن الخالية بين المباني العربية الإسلامية فوقع على لوحات حجرية بازلتية منحوتة يدل شكلها وأسلوب نحتها أنها من العصر الآرامي، مطلع الألف الأول ق.م.. توقفت الحفريات واستؤنفت عام ١٩٣٢ بطلب من جمعية العاديات ثم توقفت. وقد أثبت توقعات بعض الآثاريين في أن التل الذي تتربع عليه القلعة هو مركز مدينة حلب القديمة ويخبئ المباني الرسمية والعامة.

والواقع أن شكله الذي كان مماثلاً لأقرانه من التلال الأثرية في قرى المحافظة، قد تغير ظاهرياً من جراء حفر الخندق وستر سفوحه بالحجارة لإحكام



قدرة المدافعين عن القلعة في الصمود وقهر الأعداء. وكم من باحث تمنى لو تتاح له فرصة التنقيب في القلعة في ضوء ما اكتشف فيها من دلائل على وجود تراث حضاري ثقافي من الألف الثاني والأول ق.م.

ومن هذه الدلائل كسرة من حجر بازلتي ظهرت أثناء التنقيب عام ١٩٣٢ وحفظت بمتحف حلب، حيث عمد الأستاذ حميدو حمادة إلى نشرها في الحوليات الأثرية العربية السورية العدد ٤٣ الصفحة ١٠١ - ١٠٤، ويعود النص المنقوش فيها إلى عصر مملكة يمحاض القرن الثامن عشر ق.م. وقد عثر على كسرة أخرى أثناء التنقيبات التي أجراها في مطلع هذا القرن الواحد والعشرين بعثة سورية ألمانية مشتركة بالقلعة تكمل جزءاً من الكسرة السابقة. ويبدو أن النقش يتناول موضوع إقامة مبنى عام، ويبقى منه الأسطر الأخيرة، التي تدعو الرب دجن أبي الأرباب جميعاً، أن يحفظ المبنى ويعاقب من يتعدى عليه.

وإلى جانب هذه الوثيقة النفيسة كان قد كشف على لوحة بازلتية ٣٠، ١×٠،٩٥م جميلة نقش فيها مشهد فريد فيه رجلان مجنحان كل واحد صورة للآخر، وبين رأسيهما الهلال الذي يطوّق قرص الشمس.

تثبت هاتان القطعتان أن الطبقات المتوضعة تحت المباني العربية الإسلامية تطمر تراث مملكة يمحاض والآراميين،

غير أننا نعلم من وثائق إيبلا أن حلب قد اختصت بعبادة الرب هدد رب الطقس، والأحوال الجوية وما يرافقها من سقوط أمطار وثلوج تحيي الأرض والزرع والضرع وينعم بخيراتها البشر، وهو الذي يسبب الأعاصير أيضاً.

ونزعم أن حلب قد تبعت في النصف الثاني من الألف الثالث ق.م. إلى إيبلا، وجهد ملوكها في تقديم فروض الطاعة ومناسك العبادة للرب هدد في حلب.

لقد تغيرت هذه الحال مع هجرة الأموريين الكنعانيين إلى السهول الخصبة والأراضي الزراعية ببلاد الشام ووصولهم إلى السلطة وتأسيس ممالك قوية منها مملكة يمحاض في بلاد الشام الشمالية وعاصمتها حلب، وامتدت رقعتها من سواحل البحر المتوسط غرباً وحتى الفرات شرقاً ومن جبال البلعاس جنوباً وحتى أعتاب طوروس شمالاً. وقد لعب ملكها ياريم ليم وولده حمورابي الدور الأبرز في النشاط السياسي والاقتصادي لبلاد الشام والجزيرة والعراق إبان النصف الأول للقرن الثامن عشر ق.م. (تقريباً ١٨٠٠ – ١٧٥٠ق.م) وبعد تدمير ماري على يد حمورابي البابلي ١٧٩٢ – ١٧٥٠ق.م. عام ١٩٧٥ ق.م دانت الجزيرة بأكملها لملوك يمحاض، التي أصبحت القوة الأهم في بلاد الشام والجزيرة حتى القرن السادس عشر ق.م.

ومع اتساع رقعة المملكة وخاصة باتجاه الغرب حتى أجاريت والمينا قرب أنطاكية، تكونت لها قوة سياسية ومادية، جعلت من المفيد لإدارتها تأسيس مقر إداري في سهل العمق على العاصي يشرف على شؤون المنطقة الغربية، فكانت مدينة ألالاخ التي تعرف أطلالها اليوم باسم تل عطشانة. أقام فيها أحد أفراد الأسرة المالكة في حلب، وأضحت ملاذاً لحكام حلب عندما يتعرضون للضغوط الميتانية والحثية، أو عندما تحدث القلاقل والاضطرابات في قصر حلب، ونذكر من هؤلاء الملك أدريمي المعاصر لتحوتمس الثالث ١٤٩٠ – ١٤٣٦ ق.م. الذي فر من حلب إلى إيمار/ مسكنة، ثم إلى الالاخ حيث حافظ على ملك أجداده. ومنذ اللحظة أخذت حلب تفقد أهميتها السياسية لصالح الالاخ التي أصبحت مقراً لمملكة موكيش وأيضاً لصالح مملكة نوخشي = بلاد النحاس. التي سيطرت على المنطقة الممتدة من سراقب وحتى حماة. ليس هذا وحسب، بل إن المملكة الحثية وعند نهاية القرن السابع عشر وفي عهد ملكها خاتوشيلي الأول (١٦٥٠ – ١٦٢٠ ق.م). وخليفته مورشيلي الأول (١٦٢٠ – ١٥٩٠ق.م). طمعت في المناطق الممتدة إلى الجنوب من طوروس ورغبت في إخضاعها، والوقوف أمام توسع الميتانيين ومع اشتداد بأسها وقوتها سيّر الحملات حتى حلب وبابل.

بعد وفاة مورشيلي هزت المملكة الحثية وأضعفتها نزاعات أفراد الأسرة الحاكمة على السلطة فتململت المملكة الميتانية بالجزيرة وعادت إلى مملكة بمحاض السلطة السياسية المحدودة ولكن على مناطق بلاد الشام الشمالية.

كانت مصر ترقب هذه التطورات وتحسب الحساب لأخطارها والمساس بمصالحها في بلاد الشام فحزم تحوتمس الثالث أمره وأخذ يقود الحملات العسكرية على بلاد الشام وفي أحدها عند منتصف القرن الخامس عشر وصل بجيوشه إلى الفرات وهزم الميتانيين في حلب وردهم إلى ما وراء الفرات.

انتفض تودخليا الأول أو الثاني ١٤٦٠ - ١٤٤٠ ق.م. وقرر مقارعة المصريين فهاجم حلب ويقال إنه دمرها وقد اتم عمله شوبي ليليوما الأول ١٣٨٠ - ١٣٤٠ ق.م. الذي احتل بلاد الشام الشمالية ونصب ولده تلي بينو كاهناً في معبد الرب هدد وملكاً على حلب. خلف تلي بينو ولده تلمي شاروما على عرش حلب. وقد ترك لنا حجر أساس لبناء معبد سطِّر بالهيروغليفية اللوفية وعثر عليه مبنياً في جدار مسجد فيغان بحي العقبة بحلب. يا خسارة لم تذكر الكتابة أين بني المعبد ولمن نذر.

كان شوبي ليليوما بعيد النظر فهو قد ألقى الرماد على النار بتعيينه ابنه تلي بينو كاهناً في معبد الرب هدد وملكاً على حلب، وكان يقدر أن الأمر لا يستتب له، فعمد إلى وضع ولده بياشيلي/ شرّي كوشوخ نائباً للملك في كركميش/ وأوكل إليه رعاية مصالح المملكة في بلاد الشام الشمالية، وأصبحت كركميش خط الدفاع الثاني للحثيين في بلاد الشام الشمالية.

تقلصت رقعة حلب الإدارية وقد ذكر من ملوكها خلبازيتي عند منتصف القرن الثالث عشر ق.م. ولا نعرف شيئاً أكيداً عن صلة القرابة بينه وبين تلمي شاروما. وعلى أية حال فإن اسمه آموري حسب رأيي فكلمة زيتي المضافة إلى حلب هي من زيزو أي السهم والحصة وربما هو من أسرة مملكة بمحاض. وتدل على مكانته السامية أن رعمسيس الثاني ١٢٩٠ - ١٢٢٤ق.م. قد ذكره في رسالة موجهة إلى خاتو شيلي الثالث ملك حثي وقد ذكره أيضاً شاتوآرا الثاني ملك خاني جلبات برسالة موجهة إلى خاتوشيلي الثالث أو تودخليا الرابع ١٢٥٠ - ١٢٢٠ ق.م. ونحن نرى في هذه الإشارات أن حلب قد بقيت مملكة صغيرة يدير شؤونها ملوك من سلالة بمحاض الأولى غير أن دورها في الأحداث السياسية والاقتصادية قد تقلص وانحصر في تدبير شؤون بلاد الشام.

ومع اتساع النفوذ الحثي في بلاد الشام الشمالية، وتراجع النفوذ الميتاني، وظهور

الآشوري من جديد على مسرح الأحداث في الجزيرة وبلاد الشام خلال القرن الرابع عشر ق.م. وتخلي ملوك مصر وخاصة أمنوفس الثالث ١٤٠٢ - ١٣٦٤ ق.م. وامنوفس الرابع عشر / أخناتون ١٣٦٤ - ١٣٤٧ ق.م. عن الصدام مع الحثيين والآشوريين وتعميق الصلات الاقتصادية والسياسية مع ممالك وإمارات ومشيخات بلاد الشام التي تشكلت في الفترة من ١٥٠٠ - ١٢٠٠ ق.م. ساد الهدوء بلاد الشام. وخلال القرن الرابع عشر ق.م.

إلا أن هذا الهدوء ما لبث أن حل محله التوتر إبان القرن الثالث عشر ق.م. وأصبح الصدام بين الحثيين والمصريين أمراً محتوماً. فاستعد الطرفان للمنازلة وحصلت المعركة بين الطرفين في قادش عام ١٢٧٥ ق.م. في عهد رعمسيس الثاني ١٢٩٠ - ١٢٢٤ ق.م. وخصمه الحثي موفاتلي الثاني ١٢٧٥ - ١٢٥٠ ق.م. والنتيجة الأهم التي تمخضت عنها المعركة أن الطرفين قد أخذا يبتعدان عن سياسة العنف والمواجهة، بل ذهبا إلى أبعد من ذلك حين تزوج رعمسيس الثاني من أميرة حثية(٢).

قبل حكام ممالك وإمارات ومشيخات بلاد الشام بالوضع القائم وتراوحت ردود أفعالهم بين منحاز للمصريين تارة وللحثيين تارة أخرى. وفي جميع الأحوال شهدت البلاد أوضاعاً اقتصادية جيدة وتشجع البدو على الهجرة إلى مناطق الاستقرار والاختلاط بالسكان. ونعرف منهم القبائل الآرامية التي انتشرت في البلاد وأخذ شأنها يتعاظم شيئاً فشيئاً.

وربما وبالتزامن مع الحركة الآرامية، تدفق شعوب البحر نحو سواحل آسيا الصغرى وبلاد الشام. فدمرت مدن مثل أجاريت واللالخ. وهجرت أخرى. واختفت الممالك والإمارات والمشيخات الكنعانية الآمورية الثانية. وفقدت البلاد السلطة السياسية التي كانت تمثلها هذه الممالك. وحلت محلها سلطات بعض المدن مثل حلب وحماة ودمشق التي لم يكن لها سوى تأثير محدود في محيطها. فشحت الأخبار، وربما أيضاً انقطع تدوين الأحداث التي شهدتها البلاد، فنشأت ثغرة في تاريخها دامت عشرات السنين حتى عهد تجلات فلصر الأول ١١١٤ - ١٠٧٦ ق.م. الذي بدأ في عهده توسع الملكة الآشورية غرباً نحو بلاد الشام وأخذ يذكر أسماء المدن والقبائل التي أخضعها ومنهم الآراميون.

الآراميون:

وباختصار شديد فإن أخبار القبائل الآرامية في بداوتها قد دونها الآشوريون خاصة، حينما اصطدموا معهم في الجزيرة وعلى ضفاف الفرات. وهي أخبار سردية قصيرة فائدتها محدودة جداً. والذي يهمنا

منها هنا ما يتعلق بحلب ومنطقتها التي قامت فيها مملكتان: هما بيت عديني وبيت جوشي.

بيت عديني:

سيطرت على حوض الفرات الأوسط من جرابلس وحتى منتصف المسافة بين الرقة ودير الزور. وعلى السهول الممتدة بين الفرات وبلدتي الباب واخترين في الغرب منذ القرن الحادي عشر ق.م. وكانت عاصمتها تل برسيب/ تل أحمر الآن ونظن أن اسمها القديم كان دور شمشي هدد، أي شمشي هدد الأول ٨٥٨ - ٨٢٤ ق.م. وعندما احتلها سلما نصر الثالث (٨٥٨ - ٨٢٤ ق.م). عام ٨٥٨ ق.م. حوّل اسمها من تل برسيب إلى كار سلما نصر. وربما كان ذلك لإعادة الأمور إلى نصابها. فالاسم تل برسيب هو آرامي على ما نظن. أطلقه أمراء بيت عديني وربما عديني الجد، على دور شمشي هدد، فأزاله سلما نصر ثأراً لأجداده.

بيت جش/ جوشي:

كانت عاصمة هذه المملكة أرفاد/ أرباد ويظن الباحثون أن تل رفعت إلى الشمال الغربي من حلب يخبئ أطلالها. وقد جرت فيها عدة مواسم تنقيب في الستينيات من القرن الماضي ولم يعثر على دلائل تشير إلى أن تل رفعت هو أرباد، ويروى أن تل رفعت هو اسم أطلق على أرباد عند مد سكة حديد بغداد في العصر العثماني ونحن نشك في أن تل رفعت هو أرفاد لأن التنقيبات الأثرية قد كشفت على أطلال مدينة أقل منزلة من العواصم الآرامية التي نعرفها والتي ظهرت فيها القصور والمعابد الفخمة. ولم يكشف على وثائق آرامية فيها، بل كشف على نصب معاهدة برجاية ملك كنك مع متع إيل ملك أرفاد بقرية السفيرة إلى الجنوب الشرقي من حلب.

ليست لدينا وثائق بيت جوشيه أو أرفادية، إن صح التعبير، فما سطره كتاب هذه المملكة عن أخبارهم لم يصلنا منه شيء. والسبب في ذلك على الأرجح، هو أن الآراميين قد استخدموا أوراق البردي والجلود والحجارة في نقوشهم الكتابية، وهي مواد تتلف بسرعة على عكس الرقم الطينية، لذلك ذهبت بين أنقاض عواصمهم التي دمر معظمها وأحرقها الآشوريون، الذين سطروا أخباراً عن صراعهم مع ملوك بيت جوشي. وهي وإن كانت قصيرة لا تفي بالغرض نعتمدها في عرضنا هذا.

وحتى الساعة نرى في الخبر الذي سطر في حوليات آشور ناصر بال ٨٨٣ - ٨٥٩ ق.م أقدم خبر عن هذه المملكة، فأثناء حملته على جرجميش/ جرابلس ولبنان عام ٨٧٠ ق.م. غزا خزازو/ أعزاز الحالية، شمالي تل رفعت، التي كانت تتبع مملكة

بتينا، ولم يهاجم بيت جوشي وتل رفعت على بعد كيلو مترات إلى الجنوب من أعزاز، إنما زحف بجيشه غرباً فاجتاز عفرين إلى كونولوا عاصمة مملكة بتينا. فدفع له الجزية ملكها، وكذلك جوشي الياخاني أو الياعاني. وفي هذه الجملة شيئان يستحقان الوقوف عندهما: أولهما أن جوشي هو الذي نسبت إليه المملكة فيما بعد. وثانيهما أن لقبه ياخان أو ياعان هو على ما نعتقد الاسم القديم للمملكة قبل وصول قبيلة جوشي إليها وتسلمها السلطة وهو بالتأكيد آموري - آرامي.

يستفاد من الوثائق الآشورية، أن الملوك الآشوريين قد ساروا على إيقاع واحد في تنفيذ خططهم بإخضاع الإمارات والمشيخات الآرامية لسلطانهم، في البدء يتحرشون بالإمارة المستهدفة فيقبلون الجزية، وبعد حين يهاجمونها لإخضاعها. وهذا ما فعله آشور ناصربال الثاني، الذي لم يستقبل الجزية من أرفاد في أعزاز، وهي على بعد بضع كيلو مترات جنوبي أعزاز ولم يهاجمها، بل فضّل أن يوافيه جوشي إلى مدينة كونولوا عاصمة بتينا ويقدم له الجزية وفروض الطاعة.

وعندما اعتلى العرش سلما نصر الثالث ٨٥٨ - ٨٢٤ ق.م. نفذ إبان السنة الأولى لحكمه المرحلة الثانية من الخطة العسكرية الآشورية، وهي إرغام ملك بيت جوشي، آرام بن جوشي على دفع الجزية في الأعوام ٨٥٨ - ٨٥٧ - ٨٥٣ وتعهد أن يبقى على الحياد أثناء حروب سلمانصر مع جارته الشرقية بيت عديني، ومع إمارة شمأل. ولما جاء وقت تطبيق المرحلة الثالثة من المشروع الآشوري الذي يهدف إلى تدمير مدن العدو المحصنة، هاجم سلمانصر الثالث عام ٨٤٧ مدينة أرنة/ عرنة الحصينة ومئة مدينة أخرى، فدمرها وسلبها ليضعف من قوة المملكة قبل مهاجمة العاصمة. وفي العام التالي ٨٤٦ استهدف مدينة أخرى هي آباراسو التي غزاها في طريق عودته من حملته على جبال الأمانوس لقطع الأخشاب وشحنها إلى آشور للبناء، ولسبب ما كف الآشوريون عن غزو هذه المملكة حتى عام ٨٣٢ ق.م. حين غزا سلمانصر الثالث بلاد قوى في سهل العمق، وفي طرق عودته احتل مدينة مورو الحصينة وهي من مدن آرام بن جوشي ثم أمر بإعادة بناء بوابتها وبناء قصر ملكي فيها.

وقبل الاستطراد في عرضنا هذا، نعود ونذكر أن آشور ناصر بال الثاني هو أول من ذكر بيت جوشي في عام ٨٧٠ وكان ملكها جوشي. أما في عام ٨٥٨ وفي العام الأول لحكم سلما نصر الثالث، كان ملكها آرام بن جوشي الذي كان لا يزال ملكاً على عرش بيت جوشي أيضاً في عام ٨٣٣. وتأسيساً على ذلك فإن فترة حكمه من عام

٨٥٨ – ٨٣٣ ق.م. مؤكدة. وقد يكون قد نصب ملكاً قبل عام ٨٥٨، واستمر في الحكم بعد عام ٨٣٣ وتقدر مدة حكمه من ٨٦٠ – ٨٣٠ ق.م. ولما جرد برهدد الثاني ملك دمشق حملة قوية شاركت فيها معظم الممالك الآرامية ببلاد الشام على ذاكر ملك حماة ولعش (لعش هي على الأرجح تل آفس)، ربما في عام ٨١٠ وحاصروا لعش ثم انفضوا عنها، كان برجوشي ملكاً على بيت جوشي.

ليس هذا وحسب، بل إن خليفة برجوشي الأمير عترسمك، رأى أن الفرص مواتية، فأخذ يتوسع في أراضي جيرانه، وخاصة في أراضي مملكة بتينا الحثية، فاستولى على أعزازو منطقتها وعلى حوض نهر عفرين وعلى مدينة باقرخوبونا في أراضي بيت عديني. لم ينظر هدد نيراري الثالث ٨٠٩ – ٧٨٢ ق.م. ملك آشور إلى هذا التوسع بعين الرضا، بل غضب وجرد حملة قوية استعاد بها مدينة باقرخوبونا المحصنة في عام ٨٠٥ أو ٨٠٤ ق.م. وإن اكتفى هدد نيراري إبان هذه الحملة باستعادة المدينة، فإنه ما لبث وبنفس العام، أن جرّد حملة تأديبية على عتر سمك الذي فر هارباً من وجه الآشوريين، الذين احتلوا معسكراته، ونهبوا خزائن قصره.

لقد كان لأرفاد أو مملكة بيت جوشي حظاً جيداً في ظهور النقوش الكتابية ذات الصفة التاريخية والحقوقية في أراضيها، والتي تخص التعاقد بين ممالك أو إمارات. ونقصد هنا الاكتشاف الهام لثلاثة أنصاب من الحجر البازلتي عثر عليها المواطنون في قرية السفيرة عام ١٩٠٣ ثم حفظت بمتحف دمشق وقد نقشت فيها أحكام معاهدة بين برجاية ملك كتك ومتع إيل ملك أرفاد ونحن لا نعرف أين تقع كتك وإن اتفقت الآراء على أنها تجاور بيت جوشي من الشرق. ويرجح أندريه ليمير وجان ماري دوران أن برجاية من أصل آرامي ومن إمارة بيت صلل ويحمل اسماً آخر هو شمشي إيلو كوالي = تورتان على حوض الفرات الأوسط ومقره كار سلمانصر/ تل أحمر الآن. فعلام يعتمد الباحثان في هذا التعليل؟

في النص المسطر على تمثال هدد يسعي بالمسمارية الآشورية والآرامية يصف هدد يسعي نفسه شاكن أي والي بلاد جوزن وسيكاني وأزران وبالنص الآرامي ملك هذه البلدان. فهو إذن ملك على رعيته وأفراد قبيلته الآرامية وواليا معيناً من الملك الآشوري عليها، وقياساً على ذلك يرجح الباحثان ليمر ودوران أن شمشي أيلو هو والياً آشورياً على ولاية كار سلمانصر وملكًا على الآراميين بمملكة بيت عديني السابقة، وإن الاسم شمشي أيلو هو آشوري أو آرامي زد على ذلك أن كتابة الأسماء الآشورية

بالخط الآرامي غالباً غير دقيقة فقد كتب اسم والد هدد يسعي بالخط المسماري شمش نوري وبالحروف الآرامية سَسْ نوري. وأضيف هنا أنني نشرت في الحوليات العربية السورية المجلدين الخامس والسادس والأربعين ص ٢٩ – ٣٨ النصوص الآرامية المكتشفة بموقع ارسلان طاش خداتو القديمة، ولم ننشر النصوص الآشورية المسمارية واللوفية الهيروغليفية = اللوفية الصورية لعدم الاختصاص. وصاحب النقش هو انرة بلصر بالخط الآرامي ونينورتانصر بالخط الآشوري وهذا شاهد آخر على أن كتابة الأسماء الآشورية بالخط الآرامي لا يتطابق مع لفظ الاسم الآشوري. هذا شيء، والشيء الآخر أن نسب الوالي لا يذكر بالنصوص الآشورية، بينما لا يغفل ذلك في النصوص الآرامية إلا ما ندر، وقد يكون النسب اسم شخص مثل بيت بحياني أو بيت جوشي فبحياني هو اسم جد السلالة وكذلك جوشي. وقد يصبح جوشي اسم شخص من أفراد السلالة إذا اقترن بكلمة بر = ابن = برجوشي. وتأسيساً على ذلك فإن اسم برجاية يحوي اسم جاية جد السلالة. وفي بعض الأحيان يصبح برجوشي أو برجاية اسم السلالة. ولهذا نرجح أن كلمة برجاية تعني نسب شمشي إيلو ملك كتك. وأضيف هنا على هذا الشرح أن اسم شمشي إيلو قد كتب بالآرامية شمش الـ وفق ما نشرته من نصوص.

وظاهر حتى الآن أن اسم جاية لم يذكر إلا في هذه المعاهدة، إنما ذكر سلمانصر الثالث أنه تقبل الجزية من جاون الذي هو على الأرجح جاية وقد اقترن اسم جاون ببلاد سلينا أو ساروجي أي سهل ساروج الممتد إلى الشمال والجنوب من بلدة عين عرب، ويتوسطه تل حجاب الكبير الذي هو على الأرجح اسم مدينة ساروج عاصمة المملكة الآرامية الصغيرة ساروج، التي كانت تابعة لبيت عديني. ولا نستبعد أن تكون سلالة جاون / جاية قد حلّت محل سلالة بيت عديني بعد زوالها على يد الآشوريين فحكمت المنطقة وكان من أفرادها برجاية أي شمشي ايلو.

ونزعم أن شمشي إيلو ظل وفياً لملك أجداده وقد ذاع صيته في بلدان آشور والجزيرة والشام لكثرة حروبه مع جيرانه وغزواته المتكررة في الأراضي المجاورة، وقد حمل ألقاباً عدة لم نألفها من معظم الولاة الآشوريين وقد خلّد أعماله في نقوش كتابية سطرت على صفحات أسود وجدت بتل أحمر ومن أعماله العمرانية تحسين مدن تل برسيب وخداتو وبهذه الأعمال يكون قد قلد ملوك آشور وجاراهم في تصوير نفسه بالألوان على جدران القصور بتل برسيب وهو يستقبل الأتباع والضيوف مع هداياهم ويستعرض الأسرى، والحق أن أهم الآثار التي كشفت في خداتو وتل

برسيب تعود إلى عصر هذا الثورتان وإذا صحت تخمينات ليمير ودوران، وهي صحيحة، يكون الحكم في بيت عديني قد بقي لأمراء الآراميين كما بقي لهم في جوزن، مع اعترافهم بسيادة وسلطة آشور. وهذا ينسجم مع سياسة ملوك آشور الذين ابقوا على شيوخ الآراميين يحكمون أفراد عشيرتهم كولاة عند ملوك آشور[٢].

ويستدل من المعاهدة أن برجاية هو الطرف القوي فيها والذي فرض شروطه على متع ايل ملك جورشي القوية وقيودها على متع ايل أشد ثقلاً وإحكاماً منها على برجاية وشهودها والموقعون عليها هم جميع الآراميين ويبقى السؤال الهام متى سطرت هذه المعاهدة والواقع أن الجواب على هذا السؤال مهما كان سيكون غير دقيق لأننا لا نجد في سطور المعاهدة أية إشارة إلى تاريخها ومع ذلك نظن أن ذلك قد حدث بعد موت هدد نيراري الثالث ٨١٠/٧٨٣ وجنوح خلفائه سلما نصر الرابع وآشور دان الثالث وآشور نيراري الخامس الذين حكموا من عام ٧٨٣ – ٧٤٥ ق.م. نحو السلم والراحة ونفورهم من غزو البلاد المجاورة أثنائها أحس برجاية أنه يستطيع أن يسيطر على حوض الفرات الأوسط وما يليه من جهة الغرب وهي منطقة حساسة تمر عبرها الطرق بين بلاد الشام والجزيرة وآسية الصغرى والبحر المتوسط ولمّا اصطدم بمتع ايل جرّد عليه حملة جعلته يستسلم ويرضى بهذه المعاهدة.

لسنا هنا بمعرض دراسة مقارنة بين معاهدة برجاية ومتع إيل والمسطرة بالآرامية وبين معاهدة آشور ميراري الخامس ومتع إيل إياه المسطرة بالخط المسماري ولكننا نرى فرقاً بينهما في الصياغة والشهود في المعاهدة الأولى محل إعجابنا وتساؤلاتنا منهم آرام الشمال وآرام الجنوب وآرام العليا وآرام السفلى والعديد من المدن الآرامية الذين لا بد أنهم قد علموا بها وقبلوا أن يكونوا شهوداً فلماذا؟

يجمع الباحثون على أن الوالي شمشي ايلو كان أقوى حاكماً في الجزيرة وبلاد الشام في النصف الأول للقرن الثامن ق.م. وقد كان ارتباطه بملوك آشور شكلياً فقط وهو الذي حال دون توسع أورارتو في الأناضول والجزيرة، وربما نظرت إليه الممالك الآرامية من بيت بحياتي إلى شمأل وحماه ودمشق أنه من أبناء عمومتهم أمير قبيلة آرامية يناصرهم ضد آشور فوقعوا على المعاهدة حلاً للنزاع بين مملكتين آراميتين ولكن سرعان ما تنكر متع أيل لهذه المعاهدة عندما أحس أن الأحوال في آشور وفي ولاية كار سلمانصر تسمح له بذلك فهاجم كتلك وتوسع شرقاً ولما اعتلى آشور نيراري الخامس ٧٥٤ – ٧٤٥ ق.م. عرش آشور استغل الصراع بين شمشي ايلو

ومتع إيل فهاجم بيت جوشي وهزم متع إيل في السنة الأولى من حكمه وكبله بمعاهدة أعاد بمقتضاها ما استولى عليها من مناطق إلى كتك فتعهد أن لا يعادي آشور ولا يناصر أعداءها ومع ذلك لم يتخل متع إيل عن مقاومته للمشروع الآشوري في إخضاع الممالك الآرامية لسيادتهم وفي خضم الخصومات السائدة في المنطقة وخوف الجيران من آشور تحالف متع إيل مع ساردر ملك أورارتو ضد الآشوريين وناصرهم في ذلك حكام كومخي الحثيين الواقعة إلى الشمال من مجرى الفرات الأعلى فتصدى لهذا التحالف تجلات فلصر الثالث ٧٤٥ - ٧٢٧ ق.م. وذلك في عام ٧٤٢ وتلاقى المتحاربون في بلاد كومخي ولحقت الهزيمة بالمتحالفين ثم عاد تجلات فلصر إلى أرفاد وضرب عليها حصاراً دام أربع سنوات استسلمت على أثره أرفاد وجعلها الآشوريون ولاية آشورية فزالت السلطة الآرامية إلى الأبد وقبل ذلك بسنتين كان قد عزل شمشي أيلو بعد مقاومة شرسة لهذا الأخير فاضطر تجلات فلصر إلى احتلال مدن خداتو وكار سلما نصر بالقوة وتهديم قصورها وحصونها. بعد هذا العرض للأحوال السياسية في مملكتي بيت عديني وبيت جوشي اللتين سيطرتا على منطقة حلب وورثتا مملكة يمحاض نلقي الضوء على المكتشفات الأثرية لقلعة حلب وعين داراً لنرى ما تقدمه من دلائل على حضارة وثقافة حلب[٤].

التنقيبات الأثرية في قلعة حلب:

أشرنا في البداية إلى التنقيبات في قلعتي دمشق وحلب وأن التنقيبات الأثرية في قلعة دمشق رفدتنا بشواهد مادية قوامها المدافن التي تعود إلى نهاية الألف الثاني ق.م. بينما كشف في قلعة حلب على معبد للرب هدد وتعود أساساته إلى نهاية الألف الثالث ق.م. وظل التنافس قائماً بين أهل المدينتين وفاخرت حلب بالمعبد الأهم من المدفن[٥].

المعبد:

قلنا إن أسباراً قد أجريت في قلعة حلب عام ١٩٢٩ وعام ١٩٣٢ عثر خلالهما على منحوتات ونقش كتابي نقلت إلى متحف حلب وأخرى بقيت مبنية بأساسات المباني العربية الإسلامية وكان في ذلك الدليل الساطع على وجود مباني تعود إلى العصر الآرامي وما قبله مباشرة، ولم يكن من بد للبعثة السورية الألمانية إلا أن تتابع العمل في نفس المكان فالسبر موجود يكفي إزالة الانهيارات للوصول بسرعة إلى المباني الأقدم. وحينما انتهت أعمال تنظيف السبر توسعت الأعمال فيه وشملت بقايا مباني من العصور العربية الإسلامية التي لا جدوى من المحافظة عليها فهي مشوهة لم يبق منها سوى الأساسات التي لا تعطي

صورة عن هيكلها. وهي متداخلة مع أساسات المعبد الذي يعود إلى عصر مملكة يمحاض. كشف على المصلى أو قدس الأقداس من المعبد وتكسو جدرانه لوحات من الحجر الكلسي منحوتة نحتاً جيداً ارتفاعها ١,٢م نشاهد في الجدار الشمالي ثغرة في صف اللوحات الكلسيةسدت بحجارة مشذبة ضخمة وكانت الثغرة بالأساس هي المحراب الذي يحضن صنم الرب وعرض المحراب ٧,٨م كان مكسواً هو الآخر بلوحات حجرية كلسية. المصلى مستطيل الشكل صنعوا لمثيلاته في معابد اللالخ وكركميش وعين دارا. وربما كان مدخل المعبد بعناصره المتممة من حجرات مجانبة للمدخل وبهو يتقدم المصلى التي لم يكشف عليها هي الأخرى مماثلة لمعابد اللالخ وكركميش وعين دارا.

يقوم فوق اللوحات المنحوتة جيداً التي تؤلف قاعدة الجدار الشمالي مداميك من اللبن بعرض أو سماكة ١٠م ثبت أثناء الكشف عليها أن قاعدة هذا الجدار قد كسيت من الداخل والخارج بلوحات كلسية منحوتة بإتقان. يبلغ ارتفاع الجدار المبني من اللبن أكثر من ثلاثة أمتار وإذا أضفنا إليه ارتفاع اللوحات وهو ١,٥م يصبح ارتفاع الجدار الشمالي الحالي أكثر من ٤,٥م أما طوله الحالي فهو ١٩م ويبقى جزء منه مطمور تحت المباني العربية الإسلامية القائمة. لم يكشف على كامل الجدار الغربي فقد ظهر منه بضعة لوحات ما زالت في مكانها أما القسم الأعظم منه فيختفي في أقبية المباني المملوكية والعثمانية التي قامت جدرانها فوق هذا الجدار ويظهر منه حوالي ١٥.٤م نشاهد أمام الزاوية الشمالية الغربية للمعبد وعلى بعد ٤,٥م إلى الشرق منها قاعدتين مستديرتين من حجر البازلت منحوتة بإتقان إنها كانت تخدم أغراضاً نذرية توضع فوقها أو أشياء تلزم الكهنة أثناء المناسك الدينية وربما كانت جزءاً من منشاة خشبية تعادل المحراب.

يبلغ طول المصلى بالاستناد إلى الجدار الشمالي مع المحراب ٢٦,٧٥م طول × ١٧,١٠م عرض أما نسبة العرض إلى الطول ٢:٣ فهي مشابهة لمثلها في المعابد المعاصرة. والواقع أن سقف مثل هذا المصلى بأبعاده الطويلة وبمواد غير خشبية هو أمر مستحيل إلا إذا استخدم خشب الأرز إذ يبلغ ارتفاع شجرة الأرز حوالي ٤٠م وكذلك بعض أشجار السنديان ولدى فحص الأخشاب المتفحمة في المعبد ثبت أنها من هاتين الشجرتين.

ونظراً لقرب حلب من إيبلا، فقد قارن الباحثون أبعاد هذا المعبد مع أبعاد المعبد (P2) بإيبلا فتبين أن أبعاد معبد حلب أكبر بكثير من معبد إيبلا الذي تبلغ مساحته

١٢م٢ ومحيطه ٣٢م وقطره ٢٠م وقد توجب استخدام ثمانية عضادات أو أعمدة تحمل السقف فكم يلزم من أقرانها لحمل سقف معبد حلب؟

حتى الآن لا نستطيع تحديد طراز معبد حلب لأن واجهته ومدخله وما يتصل بهما غير مكتشفة، ونشير هنا إلى طراز المعبد المعروف باسم «المعبد ذو الرواق» الذي يتقدم المدخل الذي بني خلف جدار الواجهة ليفسح المجال لقيام الرواق على استقامة الواجهة والذي يليه بهو أمامي ثم المصلى والسدة أو المحراب هو الطراز السائد في الألف الثالث ق.م. وقد تأكد المنقبون أن هذا المعبد قد أقيم على أنقاض معبد أقدم يعود إلى منتصف الألف الثالث ق.م. ذكرته وثائق ايبلا. وتقع أرضيته على عمق ٧٠.١م تحت لوحات أساسات معبد عصر يمحاض. وقد مدت أرضيته فوق طبقة تسوية للأرض الصخرية الطبيعية بسماكة ٢٠سم. ولم يكشف منه إلا على أجزاء بسيطة من الجدار الشمالي مبنية بحجارة ضخمة نحتت صفحاتها السفلى والعليا لتترابط وتتراص المداميك مع بعضها وقد لاحظ المنقبون أن معبد عصر يمحاض قد شيد مباشرة فوق أساسات المعبد الأول الذي يعود إلى منتصف الألف الثالث ق.م. وكسيت أسفل جدرانه باللوحات الكلسية المنحوتة جيداً والتي لم تكن موجودة بالمعبد الأقدم. وكانت أرضية المعبد الثاني أخفض من أرضية المحراب جسر الفرق في الارتفاع بينهما درج قصير ويفصلها عن أرضية المعبد الأول ردمية مناسبة. لم يعرف سبب تهدم أو تجديد المعبد الأول، بل ثبت أن المعبد الثاني قد ذهب ضحية حريق هائل جعل لبنات الجدران تندمج ببعضها وتكون كتلاً لا يمكن فصلها ولم يستطيع المنقبون إعطاء تاريخ لحدوث هذا الحريق.

إنما افترضوا أن المعبد قد أعيد بناؤه أو جدد نحو عام ١١٠٠ ق.م. وتناول التجديد بالدرجة الأولى استبدال أجزاء كبيرة من اللوحات الكلسية القديمة التي كانت تستر قواعد الجدارين الشرقي والجنوبي وبهذه العملية بقيت الزاوية الشمالية الشرقية وجزء من الجدار الشرقي بطول ٤م بعيدة عن التجديد. إنما نصب هنا حجر بازلتي منحوت تظهر على صفحته أعمال النحت التي هدفت جعل صفحته مستوية. ونظن أن هذا الحجر كان معداً لنقش صورة ما فيه ولم ينته العمل به فاستخدمه بناة المعبد الأحدث الثالث في البناء بعد تسوية صفحته وارتفاعه يساوي ارتفاع اللوحات الأخرى.

يلتصق بهذا الحجر وفي الجدار الشرقي لوحة مرمرية أقل ارتفاع منه، نقش فيها شكل نافذة وهمية نقوشها غير

متناظرة لا تستر الواجهة بأكملها إنما تترك فراغاً غير منقوش في حافتها الشمالية مما يجعلنا نقدر أن جداراً يمتد من الشرق إلى الغرب كان سيبنى ويلتصق باللوحة.

ونتابع وصف اللوحات في الجدار الشرقي فإلى الجنوب من اللوحة السابقة تنتصب لوحة أخرى نقش فيها شكل الإنسان الثور بارتفاع ٩٠ سم. نرى نصفه العلوي من الأمام والسفلي من الجانب وقد نحت بأسلوب تجريدي أذناه مشنفتان يرفع يديه إلى أعلى كأنه يستسلم أو يحمل شيئاً ما. يلي هذه اللوحة لوحة أخرى نقشت فيها نافذة وهمية ضمن إطار نقش فيه ضفيرة.

هدمت الزاوية الجنوبية الشرقية من جراء حفر بئر من القرن الحادي عشر وقد تركت في جانب البئر لوحة نقش فيها شباك وهمي. ونرى في وسط الجدار الشرقي لوحتين نقش فيهما صورتان اليسرى لرب يضع على رأسه التاج ذي القرون ويرتدي قميصاً تزينه الورود والوزرة مزينة بالمعينات وقد كتب اسمه باللوفية وهو رب الطقس الحلبي الذي نقش بأسلوب حتى يطابق عصر الدولة الحثية الأخيرة وقد سقطت من الجدار الشرقي لوحة أخرى عثرنا عليها أمام الجدار وفيها صورة رب أيضاً يرتدي قميصاً ومئزراً وتاجاً مطرزاً ويتسلح برمح وسيف يقابل رب الطقس الحلبي ملك نقش صورته في لوحة يرتدي تاجاً هرمياً وقميصاً ومئزراً بدون تزويقات يثني الذراع الأيمن وقبضته أمام فمه والأيسر وقبضته على قفصه الصدري وترافقه كتابة بالخط الهيروكليفي اللوفي تتعلق بالمعبد وتعليمات نحر الذبائح واسم الملك هو تاي تاس الذي ذكر في نقش وجد بشيزر وآخر في محردة وهو الملك البطل الذي يحكم بلاد باتا ساتيني ويبدو أن النص واللوحة من أسلوب عام ١١١٠ ق.م.

أعيد بناء المعبد وجدد عند بداية القرن العاشر ق.م. إذ نرى أن اللوحات الحجرية التي نصبت أمام قاعدة الجدار الشمالي تبعد عن الجدار الشمالي للمعبد السابق ١٣,٨م ردمت كلها بالأنقاض لم يخرج بناة المعبد الأخير عن أسلوب المعابد السابقة إلا أنهم قد نصبوا لوحات عريضة وضيقة ونقشت أشكالها بنعومة وإتقان أمام هذا الجدار من الجنوب شيدت مصطبة كسيت واجهتها باللوحات الحجرية المزوقة بأشكال متنوعة. ويبدو من المؤكد أن هذا المعبد قد أتى عليه حريق ربما قبل الانتهاء من بنائه حسب تقديرات المنقبين الذين وجدوا شظايا النحت قرب اللوحات ما زالت في الأرض ولاحظوا أيضاً أن عناصر من الأشكال المنحوتة غير تامة ومع ذلك وجد

المنقبون بقايا السقف المؤلف من الأخشاب والطين متهدمة فوق المصطبة؟

يدل على روعة هذا المعبد وعلى كونه من الدرر المعمارية لعصره لوحاته المنقوشة والمزينة بأشكال متعددة أسلوب النقش فيها ذروة في الإتقان والإبداع نحتها جميل لدرجة أن السطوح ناعمة الملمس نسبياً يوحي تكوين الأجسام وأعضائها أنها من إنتاج عدة معلمي نحت حرصوا على أن يميزوا بين أشكالهم من خلال الملابس أيضاً وهذه الميزة ساعدت الباحثين في تحديد هوية كل رب الذي تسلح أيضاً بأسلحة غير الذي يتسلح لها الآخرون ويكمن السبب في ذلك حسب ظن المكتشفين إلى أن الوسط الذي كان يزور المعبد متعدد المذاهب يبلغ ارتفاع اللوحة ٩٥ سم والطول حوالي ٢م.

أما المشاهد المنقوشة في اللوحات فهي من الغرب نحو الشرق: عجلان يستعدان للمناطحة وبينهما شجرة الحياة على شكل نخلة محورة ومختزلة يليها لوحة نقشت فيها صورة رب يضع على رأسه تاجاً مخروطي وذي قرنين يرتدي مئزراً ويتسلح بقوس وسهام. إن زي الرب هو الزي المألوف بالمنطقة منذ قرون ويظهر على اللوحة آثار الحريق. ويضع الرب الذي يليه على رأسه خوذة عالية. يحمل بيسراه رمز البرق وبيمناه عقفة أو عصا معقوفة ومئزره كثير النقوش على عكس الرب السابق وينتعل خفاً تثبته على قدميه سيور ويبدو أن القدمين مائلتين والفرزة تحت القدمين مزوقة بأشكال هندسية والرب هو بلا شك رب الطقس.

أما اللوحة الرابعة فقد قسم سطحها إلى حقلين في الأعلى صورة أبي الهول وفي الأسفل صورة الأسد يزأر أما أبي الهول فهو برأس إنسان يضع على رأسه تاج الربوبية ذي القرون وجناحي طائر وجسم أسد. ونقش في اللوحة الخامسة شكل خرافي بجسم عقرب وجناحي وقائمتي طائر ورأس إنسان عليه تاج ذو قرون أي تاج الربوبية. وتأسيساً على ما ورد في ملحمة جلجامش فإن الإنسان العقرب يعيش بالجبل عند مكان شروق الشمس وصورته على هذا الشكل برأس رب وجسم عقرب ومقدمة وجناحي طائر تجسد شروق الشمس وارتفاعها. لندع هذه الصور العادية وننظر إلى اللوحة السادسة إلى صور فيها مشهد قتال؟ فالقاتل هنا هو الرب وعدوه إنسان يحاول أن يجثي ويدافع عن نفسه حيث يرفع ذراعيه كالملاكم. يمسك الرب بشعره في يسراه وباليمنى يحاول طعنه بالسيف الذي يصل نصله إلى قبضة اليد اليمنى للعدو.

والمعروف أن نرجال رب العالم الأسفل له صفات حربية، أما رب الحرب في

الجزيرة وبلاد النهرين فهو نينورتا الذي كان من أتباع رب الطقس الحلبي (هدد). ومن الأرباب التابعين لهدد الحلبي الربة عشتار التي لها لوحة أيضاً تظهر صورتها فيها وهي مجنحة ترتدي التاج ذي القرون وتتنكب دبوساً فهي عشتار المحاربة زوجة هدد أيضاً، ولها لوحة أخرى تظهر فيها بملابس مدنية وفأس ومرآة وأجنحة ومن الباحثين من يصفها بأنها الربة عنة/ عناية الأجاريتية.

وقد رسم في اللوحة السابعة رب محارب كتب اسمه باللوفية وهو كورونتيا حامي الأعشاب وهو يقف خلف رب الطقس الحلبي الذي يهم في الصعود إلى العربة التي يجرها ثور ومن خصائص رب الطقس هدد أنه في العصر الأكدي كان يصور وهو في عربة تجرها العنقاء. وفي اللوحة الثامنة صور رب آخر يتسلح بالسيف والرمح والدبوس فهو إذن رب الحرب. أما في التاسعة فقد صور إنسان برأس وعنق وجناحي نسر في يسراه ثمرة الصنوبر وفي يمناه دلو وهي ترمز إلى مناسك تطهّر الإنسان التي نراها أيضاً في مشاهد لوحات قصر آشور ناصر بال الثاني في كلخو. وفي اللوحة الحادية عشرة صورة مشابهة إلا أن رأس الإنسان هو هنا رأس أسد. ويحمل بيسراه منشّة من ريش الطيور.

وفي اللوحة الثانية عشرة كان قصد النحات نقش صورة رب الجبل الذي يرفع يديه إلى أعلى ويرتدي ثوباً يشبه الدرع ويرمز إلى الجبل، لم ينه عمله فبقي الشكل ناقصاً. وفي اللوحة الثالثة عشرة صورت الربة عنة/عناية أو عشتار كما نوهنا أعلاه. ومن الباحثين من يسميها خبات المشتق اسمها من اسم حلب حسب رأي الفونسو آركي، دارس وثائق إيبلا. وهي زوجة هدد الحلبي.

رب آخر صور أو نقش في اللوحة الرابعة عشرة يرتدي تاج الربوبية ذي القرون وبيده رمح فقط لذلك يصعب تحديد هويته. لقد تشوه صف اللوحات من جراء حفرة في المعبد تعود إلى العصر اليوناني، تسببت في تهديم لوحتان عثر عليهما في الحفرة. وقد نقش في الخامسة عشرة صورة الإنسان الثور. ولكن بأسلوب يختلف عن اللوحة المكتشفة بالمعبد الأسبق أما في السادسة عشرة فقد نقش رب سلاحه عصا معقوفة وينسب إلى أرباب الحماية أو الحرس للأرباب الأعلى وكما ذكرنا تحتل الأشكال الخرافية مركز الصدارة بين الأشكال فقد نقش في اللوحتين السابعة والثامنة عشرة أبو الهول والواقع أن هذين الشكلين وشكل رب الجبل في اللوحة السادسة عشرة قد رسما وهما يتجهان في مسيرهم عكس اتجاه الصف

السابق. ونقدر أنهم من عصر أقدم يدل عليه أسلوب النحت والثقوب في أعلاها لتثبيت مداميك البناء فوقها ونرجح أنها تعود إلى القرن الثالث أو الثاني عشر ق.م. وتنتصب فوق بلاطات حجرية هي أرضية تنخفض عن أرضية المصطبة التي تكلمنا عنها.

تأتي بعد هذه اللوحات الأقدم لوحات جديدة نرى في اللوحة التاسعة عشرة شيطان برأس أسد وفي اللوحة عشرين رب بدون رموز والإنسان الثور في اللوحة الواحدة والعشرين ورب يتسلح بالمحجان وشعلة باليد اليسرى باللوحة الثانية والعشرين وفي اللوحة الثالثة والعشرين الإنسان الثور وفي الرابعة والعشرين أسدان يتصارعان.

كنا قد نوهنا إلى أن واجهة المعبد الجنوبية متهدمة وقد ثبت خلال التنقيبات التي أجريت عام ٢٠٠٤م أن هذه الواجهة قد أخذت حجارتها في العهد البيزنطي وقد بقي دليل عادي هو أرضيات في الجدار جنوبي المصلى تتدرجان وتشهدان على وجود درج يقود إلى أعلى إلى الطابق الثاني أو السقف ونرجح أنها إلى السقف. وهذه إشارة هامة إلى أن هذا المعبد معاصر لمعبد ألالاخ الطبقة السابعة القرن الثامن عشر/ السابع ق.م. وفي المدخل إلى المصلى بقيت عتبة. ونقدر عرض المدخل بحوالي ٤م. أما المدخل الرئيس فلم يبق منه سوى الصفحة الغربية في زاويتها لوحة بارتفاع مترين أو أكثر نقشت فيها صورة جني بجسم سمكة ثم أسد رابض وأخيراً أبو الهول مهشم. وفي العمارة الآشورية توضع مثل هذه اللوحات في المداخل لترهب الناس وتسحرهم.

بالختام: أعبر عن سرور الآثاريين بهذه المكتشفات التي أثبتت توقعاتهم، فظهر معبد الرب هدد الحلبي ومنذ عصر إيبلا الأول في النصف الثاني للألف الثالث ق.م. والتجديدات التي طرأت عليه إبان عصر مملكة يمحاض النصف الأول للألف الثاني ق.م. وعصر الممالك الآمورية الكنعانية الثاني النصف الثاني للألف الثاني ق.م. ثم العصر الآرامي، عصر مملكة بيت جوشي/ أرفاد. ومما يميز لوحات هذا العصر المزوقة بالأشكال أن نقوشها مأخوذة أو متطابقة في مواضيعها مع نقوش قصور وبوابات شمأل وكا رسلما نصر/ تل أحمر الآن وقصر جوزن/ تل حلف. فمن كل مجموعة أخذت عينات وضعت في معبد هدد بانتظام وتقانة عالية بحيث لا يبدو أنها من صنع مجموعة من النحاتين لولا أسلوبها، أي أسلوب تكوين الأشكال. فهل هذا الصنيع صدى لما ذكر في معاهدة برجاياه ومتع إيل، التي ذكرناها أعلاه، من أن الشهود هم آراميو الشمال والجنوب

التي منها قد استقدموا النحاتين الآراميين من محلات كثيرة فتعاونوا في تشييد هذه الأبدة الهامة التي يضاهيها معبد عين دارا.

عين دارا:

تشكل تل عين دارا[٦]، الذي يتوسط حوض عفرين، من أطلال مدينة قديمة، سكنها الإنسان منذ الألف الخامس ق.م. ويحيط به سهل خصيب ترويه مياه نهر عفرين، وقد لفت إليه أنظار شيوخ الآثاريين منذ مطلع القرن العشرين وحسبه بعضهم أنه مدينة كونولوا عاصمة مملكة بتينا، لكبر حجمه. والواقع أنه لم يخيب آمال الآثاريين فقد كشف فيه على معبد هو درة معمارية فريدة، وأبدة يقصدها الزوار. وسنعرض له فيما يلي:

اختار بناة المعبد الطرف الشمالي الغربي لأطلال المدينة الفوقانية، ليقيموا فوقه معبدهم، ومنه يشرف المرء على سهل عفرين والهضاب المجاورة له. ورغم تهدمه ما زال يزهو بمنحوتاته، التي تدل على روعته وإتقان بنائه وتتكوم تحته أطلال المباني الأقدم طبقة فوق طبقة بارتفاع حوالي عشرين متراً أو أكثر فوق أطلال المدينة التحتانية، التي تمتد على جانبي المدينة الفوقانية الشمالي والشرقي وفي هذه الطبقات حفرت حفرة عميقة اخترقت الطبقات العلوية ودكت داخلها حجارات كبيرة وضخمة عادية فتكونت منها مصطبة يشمخ فوقها المعبد مرتفعاً على الأرض المجاورة.

يتجه المعبد نحو الجنوب الشرقي وهو مستطيل أبعاده ٣٢×٣٨م تمتد أمامه ساحة مبلطة بالألواح الكلسية البيضاء والبازلتية السوداء المنحوتة بإتقان التي تنتظم في صفوف أو تشكل أشكالاً هندسية بديعة بحيث يتخيلها المرء الآن بعد تخريبها وكأنها بساط جميل يكسو الأرض أمام المعبد.

جعلت الساحة منخفضة عن المعبد، فجسر فرق الارتفاع بينها وبين المدخل بوساطة درجة ضخم عريض وبديع يتألف من ثلاثة أقسام: الأوسط بعرض /٤/م وفيه خمس درجات وجناحين بعرض /٢,٥٠/م في كل جناح أربع درجات نقشت في صفحتها المرآة أشكال ضفائر مضفورة بإتقان ودقة متناهية.

نصعد الدرج إلى المدخل وهو من النوع المحرابي لأنه يتراجع عن جدار الواجهة فيبقى أمامه رواق على جانبي الممر. فيه عمودان يحملان ساكف المدخل وفي المدخل عتبتان ضخمتان متتاليتان ومتدرجتان في الارتفاع نقشت في وسط الأولى صورتا قدمي إنسان وفي الثانية صورة قدم واحدة هي اليسرى لإنسان عملاق يبلغ طول قدمه /٩٧/سم.

يغلق المدخل بباب ذي درفتين بقي زعروراه خلف الأسدين الذين يحرسان المدخل ونصبت أيضاً أسود على جانبي الشرفة وخلفها لتزيين المدخل.

تتقدم المصلى قاعة أمامية أرضيتها أقل ارتفاعاً من أرضية المصلى فجسر فرق الارتفاع بدرج عريض ٣،٨٠م يتألف من ثلاث درجات بازلتية منحوتة زوقت أيضاً بأشكال الضفائر، أما القاعة ذاتها كسيت جدرانها بلوحات بازلتية نقشت فيها ضفائر ونوافذ وأشكال رب الجبل الذي تنتظم أشكاله في صفوف تتجه في سيرها نحو المصلى وقد زينت واجهة المصلى أي الجدار الفاصل بين القاعة الأمامية والمصلى بأشكال أسود رابضة صنعت من حجر البازلت في المدخل عتبة بعرض ٣،٨٠م من الحجر الكلسي المرمري ضخمة منحوتة بإتقان وجعلت في وسطها صورة القدم اليمنى الضخمة.

وهنا لا بد من أن نتوقف عند صورة الأقدام المنقوشة في العتبات المتتالية، في البدء صورة قدمين ثم تليها صورة القدم اليسرى في العتبة التي نجتازها إلى القاعة الأمامية وفي العتبة التي نمشي فوقها نحو المصلى القدم اليمنى هذه حالة فريدة ونادرة في عمارة بلادنا القديمة ونرجح أنها إرشادات للمؤمنين الذين يؤمون الهيكل للقيام بواجباتهم الدينية إذ على الإنسان أن يقف خاشعاً عند الباب القدمان متجاوران، يتلو الأدعية والصلوات ثم يخطو بيسراه إلى القاعة الأمامية وعليه بعدئذ أن يدخل إلى المصلى بالقدم اليمنى.

جعل في صدر المصلى المنصة التي توضع فوقها التماثيل والأصنام ونصعد إليها بدرج عادي وقد زينت واجهتها بصف من المنحوتات البازلتية نقشت فيها أشكال رب الجبل وهو يرفع يديه إلى أعلى. يصلي للرب الذي أقيم المعبد له.

أحيط المعبد برواق على جانبيه وخلفه وزين بالأنصاب التي تشبه الأعمدة التي تحمل السقف. وهي تنتصب على جانبي الرواق تتباعد عن بعضها مسافات محددة وزينت بأشكال مثيلا ملك جالس أو شجر نخيل أو عباد يقدمون الضحايا من العجول، وثيران وأرباب.. إلخ.

قلنا إن المعبد قد شيد فوق مصطبة تتدرج بالارتفاع من المدخل إلى صدر المصلى. فهي تحت المدخل والقاعة الأمامية بارتفاع ٠،٧٠م وتحت المصلى بارتفاع ٢م. كسيت واجهاتها بمنحوتات بازلتية نقشت فيها أشكال أبي الهول والأسد وقد صفت زوجية أسد يقابل أبي الهول ويلتفتان نحو اليسار واليمين وفي تقديرنا أن المعبد يمثل ذروة تطور بناء المعابد التي يتقدمها شرفة والتجديد فيه الرواق الذي يسمح للعبّاد بالطواف حول المعبد. وقد نصبت على

جانبيه الأنصاب الضخمة التي يزيد ارتفاعها على الثلاثة أمتار والتي هي بمثابة أعمدة تحمل السقف.

والواقع أن المعبد كان في الأساس صغيراً ثم ضمت إليه قاعة أمامية وبعدها رواق من القرن الثالث عشر وحتى التاسع ق.م. وهو بهذه الحالة صنو للمعبد المكتشف في قلعة حلب ليس فقط من حيث التجديد بل أيضاً من حيث تزيينه باللوحات المنقوشة.

ففي حين زينت واجهة معبد حلب باللوحات ذات الأشكال المتنوعة والمتعددة. اكتفى بناة معبد عين دارا بشكلين هما الأسد وأبو الهول وكلاهما من رموز الربة عشتار التي عثرنا على لوحتها بالمعبد، أما أشكال رب الجبل والثيران فهي من رموز رب الطقس هدد.

وخلاصة القول إن الممالك القبلية التي تعاقبت على السلطة في منطقة حلب، لم تهدم ما صنعه وأنجزه السابقون بل بنوا عليه واستفادوا من خبرات وإبداعات المناطق المجاورة في أعمالهم فالعموريون الكنعانيون طوروا حضارة ما قبلهم وكذلك فعل الآراميون الذين أبدعوا في مجالات عدة أهمها العمارة وانتشار الحروف الأبجدية.

المراجع

١ - الحوليات الأثرية العربية السورية المجلدان الخامس والأربعون والسادس والأربعــون ٢٠٠٢ - ٢٠٠٣ ص ٤٤٥ - ٤٥٨.

٢ - علي أبو عساف، آثار الممالك القديمة في سورية، مطابع وزارة الثقافة ١٩٨٨ ص ٢٢٢ - ٢٣٣، ص٤١٠ - ٤١١.

٣ - علي أبو عساف، الآراميون تاريخاً ولغةً وفناً، دار أماني طرطوس ١٩٨٨، ص ٣٤ - ٥٣.

4 - A. LEMAIRE, J. M. DURAND Les Insciptions Arameenes De Sfire et L, Assirie De Shamshi-II.

5 - K. Kohlmeyer, Die Zitadelle Von Aleppo.

٦ - علي أبو عساف، عين دارة، (١) المعبد، وزارة الثقافة ١٩٩١، ص٣٩ - ٩٨.

٦١

حلب في عصور ما قبل التاريخ

د . سلطان محيسن(*)

يتناول هذا البحث محافظة حلب في عصور ما قبل التاريخ إذ يصعب دراسة هذه العصور ضمن مدينة حلب نفسها لأن آثارها مطمورة تحت أبنية المدينة الحالية ولا يمكن الوصول إليها.

لقد دلت المسوحات والتنقيبات، التي جرت في هذه المحافظة وخاصة بدءاً من السبعينيات، على وصول الإنسان لهذه المنطقة منذ زمن قديم جداً كما تبين من العديد من المواقع التي أعطت مكتشفات غزيرة ومتنوعة وأهمها الأدوات الحجرية التي وجدت في مختلف مناطق المحافظة وبخاصة حوض نهر قويق ونهر الساجور ومنطقة عفرين والجبول حيث

(*) د . سلطان محيسن: باحث وأكاديمي في عصور ما قبل التاريخ، له دراسات وأبحاث ومؤلفات عديدة في مجال اختصاصه - المدير العام للآثار والمتاحف سابقاً.

- العمل الفني : الفنان جورج عشي.

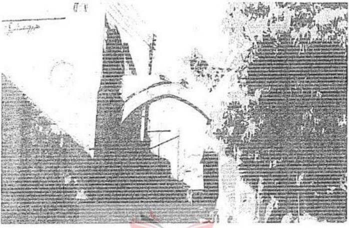
الترسبات الجيولوجية الرباعية التي احتوت على الأدوات الحجرية المشار إليها ونقدم فيما يلي عرضاً موجزاً لاستيطان الإنسان في محافظة حلب خلال مختلف مراحل عصور ما قبل التاريخ بدءاً من الأقدم باتجاه الأحداث.

العصر الحجري القديم الأدنى:

يمثل هذا العصر المرحلة الأولى والأقدم في عصور ما قبل التاريخ ويؤرخ في سورية بين حوالي ١,٥ مليون سنة وحتى ٢٠٠ ألف خلت، عاش فيه نوع من البشر أطلق عليه اسم **الهومو اركتوس** /Homo - erectus/ أي الإنسان المنتصب القامة الذي كان أول نوع من البشر خرج من إفريقيا واستوطن في المشرق القديم ثم انتشر في بقية أرجاء المعمورة. هذا الإنسان هو صانع ما يعرف بالحضارة الأشولية التي اشتهرت بتصنيع الفؤوس الحجرية، وهي الأدوات الرئيسية في ذلك العصر، وقد استخدمت في وظائف متعددة في القطع والقلع والحفر وفي الصيد ومهاجمة الحيوانات الكبيرة والخطيرة التي عاشت في حينه، كما أنها استخدمت في الدفاع عن النفس وغير ذلك من الحاجات والوظائف.. الفؤوس الحجرية العائدة لهذا العصر وجدت على سطوح المصاطب الرباعية كنهر قويق الأعلى في تل شعير وتل بحورته في شمال حلب كما وجدت أيضاً في منطقة الجبول وفي مواقع حلونجي وقرة ديرة في حوض نهر الساجور وفي شيوخ فوقاني في حوض الفرات الأعلى، ومن موقع دير الصوان في المجرى الأعلى لنهر عفرين. وهكذا يرى أن هذه المرحلة الباكرة التي يمكن أن نؤرخها من حوالي ٥٠٠ ألف سنة خلت قد أعطت دلائل استيطان مؤكدة، وإن لم تكن غزيرة كما سنرى في العصر اللاحق، وهي تدل على استيطان الهومو اركتوس على امتداد المنطقة الواقعة من نهر الفرات شرقاً مروراً بحوض نهر قويق في الوسط وحتى حوض نهر عفرين في الغرب . لقد عاش هذا الإنسان على خيرات الطبيعة الحرة فاصطاد الحيوانات البرية وأهمها الحمار الوحشي والوعل والفيلة وجمع الثمار البرية كاللوز والزعرور والبطم. وليست لدينا معلومات واضحة عن الحياة الاجتماعية والروحية لهذا الإنسان وإن كان من المعروف أنه عاش في جماعات صغيرة العدد ١٠ - ١٥ فرداً ، متنقلاً خلف اصطياد الطعام ولا بد أن كان له تنظيم اجتماعي وإسروي ولو بدائي.

العصر الحجري القديم الأوسط:

يعد هذا العصر الأهم في استيطان إنسان ما قبل التاريخ في محافظة حلب لقد بدأ منذ حوالي ٢٠٠ ألف سنة واستمر حتى حوالي ٤٠ ألف سنة خلت وفي هذا العصر اختفى الهومو اركتوس الذي عاش في العصر السابق وظهر نوع جديد من البشر هو إنسان النياندرتال ودون أن ندخل



في التفاصيل الأنتروبولوجية المعقدة حول العلاقة بين هذين النوعين من البشر تشير إلى أن الهومو اركتوس هو من أصل إفريقي لكن النياندرتال كان له على ما يبدو أصل أوروبي وقد هاجر الى منطقتنا إثر ظروف مناخية باردة جداً اجتاحت أوروبا وأجبرته على التحرك جنوباً حيث المناخ المعتدل والمناسب. لقد كان النياندرتال أكثر تطوراً فيزيولوجياً وحضارياً من سلفه . فهو أطول قامة وحجم دماغه أكبر وشكله أقرب للإنسان الحالي. كما أنه صنع أدوات حجرية أكثر فاعلية وتطوراً ومارس لأول مرة بعض المعتقدات والفنون، بما فيها دفن الموتى وتقديس بعض الحيوانات. والنياندرتال هو صانع ما يعرف بالحضارة الموستيرية الغنية والواسعة الانتشار.

وجدت آثار النياندرتال، وأهمها الأدوات الموستيرية كالمقاحف والنصال والسكاكين في مختلف مناطق حلب فهي أتت من حوض نهر قويق ومنطقة المطخ ومن منطقة الجبول، في خناصر، ومن حوض الساجور والفرات الأعلى.

إلا أن المكتشفات الأهم لهذا الإنسان أتت من منطقة عفرين، وتحديداً من مغارة الديدرية، في وادي الديدرية، ضمن سلسلة جبال سمعان. الديدرية مغارة ضخمة أبعادها حوالي ٦٠ × ١٥ متراً ويتراوح ارتفاعها بين ٢٠ – ١٥ متراً، لها بابان، ومن هنا معنى الاسم فباللغة الكردية « ذات البابين». هذه المغارة قيد التنقيب منذ أواخر الثمانينات من قبل بعثة يابانية سورية مشتركة، أقوم بإدارتها مع الدكتور

تاكيرو اكازاوا. وقد أدت أعمال التنقيب التي جرت في المغارة إلى الكشف عن سويات أثرية غنية ومستمرة، السوية الأدنى والأقدم تعود إلى ما يسمى بالحضارة اليبرودية، نسبة إلى مغاور يبرود، شمال دمشق، وهي تؤرخ على حوالي ٢٥٠ - ٣٠٠ ألف سنة خلت وتمثل الانتشار الشمالي الأبعد لهذه الحضارة التي ميزتها أدوات خاصة وعلى رأسها « المقحف اليبرودي» ذو الشكل والتشذيب الخاصين؛ تعلو الحضارة اليبرودية طبقات أثرية تعود إلى الحضارة الموستيرية الباكرة، المؤرخة على حوالي ٢٠٠ ألف سنة وفوقها تقوم طبقات أثرية تعود إلى الموستيري الحديث ، أي إلى نحو ١٠٠ ألف سنة. وهذه الطبقة هي الأهم في هذه المغارة ، إذ إنها أعطت الهياكل العظمية النياندرتالية الفريدة في أهميتها والتي سنتحدث عنها لاحقاً. الطبقة الأخيرة في المغارة تعود إلى العصر النطوفي، حوالي ١٢ ألف سنة ق.م. حيث كشف عن بيوت حجرية دائرية تتوسطها المواقد وفيها مختلف البقايا الأثرية المعروفة من العصر النطوفي كالأدوات الحجرية الكبيرة، من البازلت والأدوات الميكروليتية والأدوات العظمية وأدوات الزينة وخاصة الخرز وغير ذلك.

وتجدر الإشارة أيضاً إلى أن الوجود الحضاري النطوفي في الديدرية هو كشف جديد وهام ويمثل الامتداد الشمالي الأقصى للنطوفيين الذين ظنَّ سابقًا أنهم لم يصلوا إلى تلك المناطق.

كما أشرنا فإن الكشف الأهم من مغارة الديدرية هو الهياكل العظمية النياندرتالية. فقد كشف في المغارة عن أجزاء متنوعة لهياكل نياندرتالية تعود إلى حوالي عشرين شخصاً. لكن الأهم بينهما هما هيكلان، الأول ، والذي أطلق عليه « طفل الديدرية الأول»، يعود لطفل عمره حوالي السنتين والنصف عثر عليه على عمق ١,٥ متر من سطح أرضية المغارة . دفن الطفل بعد موته في حفرة ،وقد وضع مستلقياً على ظهره يداه ممدودتان ورجلاه مثنيتان ورأسه مائل نحو اليسار وتحت الرأس بلاطة حجرية ناعمة وفوق الصدر، من جهة القلب، حرية صوانية.

هذه المعطيات تدل على عملية دفن شعائرية منظمة مقصودة دفعت إليها معتقدات سادت بين أوساط النياندرتاليين وهي من أقدم عمليات الدفن في التاريخ. كما أن الهيكل العظمي كان محفوظاً بشكل جيد وهو الهيكل الأكثر اكتمالاً من نوعه في العالم.

الهيكل العظمي الثاني هو « طفل الديدرية الثاني» وجد مدفوناً في حفرة صغيرة على عمق ٥٠ سم عن السطح وهو أقل اكتمالاً من الهيكل الأول، رافقته أدوات حجرية وعظم سلحفاة. وهو أيضًا يعود لطفل عمره حوالي السنتين.

مع الإشارة أن العمل بالمغارة ما زال مستمراً واحتمال مكتشفات جديدة وارد

في كل موسم تنقيب. سوف تساعد هذه المكتشفات في إنارة العديد من القضايا المتعلقة بأصل وبمصير إنسان النياندرتال وبعلاقته بما سبقه وما خلفه من أنواع البشرية كما أنها ستوضح قضية التعايش والتعاصر الذي استمر لآلاف طويلة من السنين بين هذا النياندرتال ذي الأصل الأوروبي وبين الإنسان العاقل الباكر ذي الأصل الإفريقي وكيف أن هذين النوعين المختلفين فيزيولوجياً قد أنتجا نفس الحضارة الموستيرية الواحدة مما وضع حداً لفرضيته استمرت طويلاً وربطت بين الجنس البشري والحضارة بعد أن اتضح بأن الحضارات تتشابه وربما تتماثل بالرغم من تباين البشر الذين ينتجون تلك الحضارات. وستكون مكتشفات منطقة عفرين حلقة وصل بين النياندرتال الأوروبي من جهة وبين نياندرتال المشرق العربي القديم من الجهة الثانية مما سيساعد أيضًا على تتبع الانتشار الزماني والمكاني لهذا الإنسان عبر القارات.

العصر الحجري القديم الأعلى:

منذ نحو ٤٠ ألف سنة خلت مرت منطقة المشرق العربي القديم بتراجع وركود حضاري، قياساً إلى العصر السابق، فقد اختفى إنسان النياندرتال وغابت معه الحضارة الموستيرية الغنية وظهر نوع الإنسان العاقل «الكرومانيون» الجد المباشر للإنسان الحالي. والغريب إنه على خلاف الحضارة الرائعة الغنية بالفنون والبناء والأدوات الحجرية والعظمية التي أقامها هذا الإنسان في مناطق مختلفة من العالم وبخاصة في أوروبا الغربية، فإنه في المشرق العربي القديم ترك لنا بقايا بسيطة أتت من مواقع قليلة دون أن نستطيع تحديد أسباب هذا الواقع سواء كانت مناخية أم اجتماعية أم بيئية أم غيرها. لم يعثر في محافظة حلب عن أية مواقع من هذا العصر، واقتصرت مستوطنات هذه المرحلة حتى الآن على منطقة يبرود ومناطق تدمر والكوم في البادية السورية ويمكن الإشارة إلى بعض الأدوات الحجرية التي وجدت بخاصة في حوض نهر الساجور وفي مغاور عفرين / وادي الحمام/ والتي ربما تعود لهذا العصر. ولكن لابد من أبحاث منهجية دقيقة وتنقيبات نظامية حتى نتمكن من البت في هذه النقطة.

العصر الحجري الوسيط:

استمر الاستيطان البشري ضعيفاً في منطقة حلب في العصر الحجري الوسيط الواقع بين ١٥ - ١٠ ألف سنة ق. م، وهو عصر عرف في المشرق بسيادة حضارتين رئيسيتين هما الحضارة الكبارية والحضارة النطوفية والآثار العائدة لهذا العصر أتت من مواقع محدودة في محافظة حلب أهمها منطقة الجبول التي وجدت فيها بخاصة آثار الحضارة الكبارية التي

اشتهرت بتصنيع النصال ذات التشذيب « الكباري» الخاص. في نفس المنطقة وجدت دلائل لاستيطان بشري يعود للعصر اللاحق، أي للحضارة الكبارية الهندسية والعصر الذي يليه وهو العصر النطوفي.

إن غياب الاستيطان البشري الكثيف عن منطقة حلب في هذه المرحلة هو مسألة تستحق الكثير من البحث والتدقيق. فإذا كان هذا الأمر حقيقة واقعية لابد من معرفة أسبابها، فهي قد تكون نتيجة تدهور مناخي وبيئي معين جعل الحياة صعبة أو بسبب كوارث اجتماعية - سكانية أجبرت الناس على المغادرة إلى مناطق أخرى وهناك احتمال أن تكون المواقع العائدة لهذا العصر قد اختفت بفعل عوامل طبيعية أزالتها من الوجود وغير ذلك من الأسباب القاهرة التي غالبًا ما اعترضت مجتمعات ما قبل التاريخ. ومن جهة أخرى قد تكون الصورة الحالية نتيجة ضعف الدراسات والأبحاث التي يجب تكثيفها على امتداد مساحة هذه المحافظة التي قد تختزن الكثير من المواقع الغير مكشوفة حتى الآن وهي ربما ستغير الصورة الحالية عنها.

العصر الحجري الحديث:

مع انتهاء العصر الحجري الوسيط وبداية العصر الحجري الحديث، في حوالي ١٠ آلاف سنة ق.م، حصل تحسن مناخي شامل على امتداد منطقة المشرق العربي القديم رافقه تبدل حضاري، اقتصادي، اجتماعي كبير تميز بتحول الإنسان من نمط حياة التنقل والصيد والالتقاط إلى الاستقرار وبناء القرى الأولى، قرى المزارعين الأوائل، التي مارس سكانها الزراعة وتدجين الحيوانات بدرجة تصاعدت مع مرور الزمن وتزامن ذلك أيضًا مع تطور اجتماعي - روحي ملموس عبّر عن نفسه من خلال ممارسة معتقدات دينية متنوعة مثل عقيدة « الإلهة الأم» و« الثور المقدس» و« عبادة الأجداد» وممارسة الفنون والشعائر ذات الدلالات الميثولوجية المعقدة أحيانًا. وهكذا عاد الاستيطان البشري كثيفاً وغنياًفي مختلف المناطق بما فيها في محافظة حلب. في المرحلة الباكرة في هذا العصر المسماة النيوليت ما قبل الفخار كانت المواقع قليلة لكن مساحتها أكبر وأنشطتها أكثر تنوعاً وعمارتها أفضل وفنونها أكثر، في هذه المرحلة تميزت محافظة حلب ببعض المواقع الهامة لقد أتت من منطقة الفرات الأعلى، ونتيجة الحفريات التي جرت إثر إقامة سد تشرين، مكتشفات فريدة من نوعها من هذا العصر. الموقع الأقدم، والأهم هنا هو، تل جرف الأحمر، في منطقة منبج حوالي ١٠٠ كم إلى الشمال من مدينة حلب،إذ كشف عن مستوطنة متميزة، تغمرها الآن مياه السد، تعود إلى المرحلة الباكرة من عصر النيوليت ما قبل الفخار أظهر فيها البناء والعمارة بشكل لامثيل له في أي

موقع معاصر آخر. ودل على ذلك التطور في أشكال البيوت وفي مواد بنائها وفي تنظيم القرية بشكل عام. مما يلفت النظر بعض البيوت الكبيرة ذات الأشكال والتقسيم الخاص والتي استخدم في بنائها البلاطات الحجرية الضخمة المنحوتة والمزخرفة مما يدل على وظيفة دينية واضحة لها،معابد ، وهي المعابد الأقدم والأهم في تاريخ المنطقة والعالم. ومن أهم المكتشفات النادرة أيضًا كانت الأحجار الصغيرة التي تحمل صوراً ومواضيع مختلفة حفر عليها أشكال طيور وحيوانات وأفاعي أو دوائر وقرون وخطوط وغير ذلك من الإشارات التي يجمع الباحثون أنها تحمل معاني وأفكاراً محددة يصعب فهمها علينا لكنها بالتأكيد كانت ذات دلالات ميثولوجية واضحة لدى صانعيها، الذين نقلوا من خلالها أفكارهم ورسائلهم ، فكانت بذلك أقدم نوع من الكتابة التصويرية التي سبقت الكتابات التصويرية المعروفة في المنطقة بأكثر من خمسة آلاف عام. وهناك في جرف الأحمر النصب الحجرية ذات الأشكال الحيوانية والمزخرفة، وأحجار عليها أشكال عقارب ورؤوس بشرية منحوتة وأدوات عظمية وحجرية وأدوات زينة وبقايا النباتات والحيوانات والطيور وغير ذلك من المعطيات الفريدة التي تجعل من هذا الموقع أحد أهم المواقع النيوليتية في المنطقة والعالم.

وهناك موقع آخر من هذا العصر هو تل قرامل في حوض نهر قويق إلى الشمال من مدينة حلب. لقد أتت المعلومات الأولية عن هذا الموقع منذ السبعينيات من القرن الماضي ثم بدأت فيه أعمال تنقيب نظامية في نهاية ذلك القرن وهي ما زالت مستمرة كشفت هذه الأعمال عن مستوطنة بقيت مسكونة لمدة حوالي الألف عام، بين منتصف الألف التاسع وحتى منتصف الألف الثامن قبل الميلاد. السويات الدنيا في الموقع تعود إلى ما يعرف بالحضارة الخيامية نسبة إلى موقع الخيام في فلسطين وهي الحضارة التي تفصل بين العصر النطوفي والعصر الحجري الحديث، وتمثلت هنا من خلال أدواتها الحجرية وأهمها «رؤوس نبال الخيام» ذات الساق المفرَّض، وهناك البيوت الدائرية الصغيرة المبنية من الطين والحجر. لكن الاستيطان الأهم في الموقع تعود إلى مرحلة النيوليت ما قبل الفخار - أ - حيث كشف عن مستوطنة كبيرة يبدو أنها كانت محصنة بسور حماية، كشف ما يمكن أن يكون منه برجاً دفاعياً قطره / ٤ / أمتار وسماكة جدرانه ٢،٥ م وهذا كشف فريد، إذا ما تأكد فعلاً من خلال متابعة التنقيب والكشف عن بقية أجزاء السور والأبراج، وهو يذكرنا ببرج أريحا الشهير ويدل على قيام المدن المسورة ذات البنى السياسية والاجتماعية المركبة منذ ذلك

الزمن الباكر. ومن المكتشفات الملفتة في تل قرامل أيضاً بيت دائري كبير له مدخل، مستطيل الشكل، مبلط في وسطه موقد وفي صدره ما يشير إلى محراب عرضه ٠,٥ م وأرضه مبلطة يتوسطه نصب حجري، وعلى جانبي البيت مصطبتان من الطين والجص وقد كشف في داخل البيت عن قبور بشرية ترافقها عظام حيوانات، وبينها هيكل بشري وقد قطع رأسه ودفن في مكان آخر. إن كل هذه المكتشفات تشير إلى بناء له طابع ووظيفة دينية واضحة «معبد» وهو بذلك أحد أبكر المعابد في الشرق القديم ويدل على الطابع الاجتماعي المتطور لهذه المستوطنة لقد تعزز هذا الطابع من خلال مكتشفات فنية، وهي عادة نادرة من ذلك العصر، بينها أحجار تحمل رسوماً وزخارف هندسية واحدة تحمل شكل فهد، وهناك تماثيل بشرية، نسائية، وأدوات زينة وخرز، والأدوات الحجرية والزراعية المنوعة وغير ذلك من المكتشفات التي تذكر بموقع جرف الأحمر على الفرات.

استمر استيطان محافظة حلب كثيفاً في المرحلة الثانية من هذا العصر؛ المسماة مرحلة النيوليت ما قبل الفخار - ب - في الألف الثامن ق.م، الذي تعود له مواقع هامة في منطقة الفرات الأعلى أيضاً، أهمها جعدة المغارة على بعد حوالي ٣٠ كم إلى الجنوب من جرابلس الذي كشف في سوياته الدنيا عن آثار من عصر النيوليت ما قبل الفخار - أ - وأهمها الأحجار المزخرفة والتي تحمل أشكالاً طبيعية مثل أحجار جرف الأحمر وقرامل ولكن الاستيطان الأهم في الموقع يعود إلى عصر النيوليت ما قبل الفخار - ب - حيث كشف عن مستوطنة تميزت في مجال البناء والعمارة وممارسات الدفن التي جرت بشكل ملفت للنظر إذ دفن عشرات الأشخاص، بعضهم بلا رؤوس، أو بلا أطراف وبعضهم بأوضاع مثنية وقد ضموا أطفالهم إليهم الخ.. كل ذلك يدل على معتقدات وممارسات جنائزية محددة سادت بين هؤلاء الناس. لقد هجرت هذه المستوطنة في نهاية عصر النيوليت ما قبل الفخار ثم أعيد استيطانها ففي عصر ما قبل حلف، نهاية الألف السادس ق.م. كما كشف فيها عن سويات أثرية تعود إلى الألف الثالث ق.م.

وفي عصر تزامن مع مستوطنة «جعدة» واستمر لفترة أحدث منها نشأت مستوطنة أخرى على الفرات الأعلى هي «تل حالولة»، الذي تبين أنه سكن بكثافة وبخاصة على امتداد الألفين السابع والسادس ق.م. لقد تمثل هذا العصر بحصول ابتكارات كبرى على المستويين الاقتصادي والاجتماعي دلت عليها الأبنية العامة الضخمة ومنشآت الري وتطور التجارة وتبادل المواد الخام لمسافات بعيدة.. ومن

هذه المستوطنة لدينا جدار ضخم « سور » أحاط بيوت القرية المتنوعة الأشكال والأحجام ، بلغ طول ما كشف منه حوالي ٢٥ م وعرضه ٣ - ٤ أمتار وارتفاعه ٤ أمتار . وهذا الجدار الوحيد من نوعه في سورية حتى الآن لا يزال يثير التساؤلات حول وظيفته الحقيقية. وهو يذكر أيضاً بسور تل قرامل الذي يشبه بدوره سور أريحا في فلسطين . من أكثر المكتشفات إثارة في حالولة هي الرسوم الجدارية التي وجدت على أرضية أحد البيوت وتألفت من ٢٣ شكلاً لنساء تتجمع حول شكل مربع، ربما محراب ولوحظ وجود نوعين مختلفين من النساء، الأول واقعي واضح لنساء بأردافهن العريضة وأجسادهن الواضحة وهناك نوع آخر مختزل ومبسط . ولا بد أن لهذه الأشكال كلها دلالة رمزية تتعلق بمعاني الخصب والأمومة وهي تذكر بالأشكال المشابهة التي أتت من الأناضول مع أنها أقدم منها بحوالي ١٠٠٠ سنة. كل هذه المكتشفات وغيرها الكثير جعلت من هذا الموقع أحد أهم القرى الزراعية النيوليتية في المشرق العربي القديم.

استمر الاستيطان البشري في محافظة حلب في عصر النيوليت الفخاري بعد أن أصبح الفخار من أهم المواد المستخدمة ، الدالة على الحضارة والشعوب وذلك منذ مطلع الألف السادس ق . م . لقد وجدت في مختلف مناطق المحافظة ، المواقع التي أعطت الفخار ذي اللون القاتم المصقول المسمى بفخار العمق واستمرت هذه المحافظة غنية بمواقعها في العصر اللاحق، العصر الحجري النحاسي ، حيث سادت حضارتا حلف وعبيد في الألفين الخامس والرابع ق . م التي دلت عليهما مواقع كثيرة في حوض نهر قويق خاصة وما إن حلّ الألف الثالث ق . م ، وانتهت عصور ما قبل التاريخ حتى غدت حلب إحدى أهم المناطق التي نشأت فيها الممالك والمدن الأولى في الشرق القديم ولعل إبلا هي المثال الساطع على ذلك.

ختاماً فقد اتضح كيف أن محافظة حلب قد سكنت على امتداد عصور ما قبل التاريخ كلها وبالرغم من محدودية أعمال البحث والتنقيب فقد ظهرت منها مكتشفات ذات دلالات تاريخية وحضارية محلية وعالمية كبرى وأما حول غياب مواقع عصور ما قبل التاريخ ضمن مدينة حلب نفسها فيعود إلى سبب بسيط، أشرنا إليه ونكرره وهو أن هذه المواقع موجودة وبخاصة على ضفتي نهر قويق الذي يخترق المدينة لكنها مطمورة تحت أبنية المدينة الحديثة كما أننا نعتقد بأن التل الذي تقوم عليه القلعة يمثل أحد أهم مواقع الاستقرار الأولى منذ العصر الحجري الحديث في مدينة حلب نفسها ولا بد لأعمال التحري اللاحقة أن تنير الكثير من هذه النقاط.

حلب في العصر الكلاسيكي
(الهيلينستي - الروماني - البيزنطي)

د. عدنان البني(*)

ليس للمدن العريقة والطويلة العمر والمتجددة العمران حظ كبير في الكشف عن سوياتها الأثرية العميقة القديمة ، وبالتالي في الوصول إلى وثائقها وأوابدها الأثرية . ومدينة حلب هي من هذا القبيل وكذلك دمشق ومدن أخرى في بلادنا وفي غيرها من البلاد .

كانت مدينة حلب العريقة عامرة منذ حوالي خمسة آلاف عام وهي جاثية الآن على سويات أثرية عديدة وعميقة . وليس بالمستطاع الوصول إلى تلك السويات ومعرفة مكنوناتها دون تدمير السويات العليا القائمة . وذلك أمر غير ممكن مبدئياً . وإذا افترضنا أن هذا الأمر

(*) د. عدنان البني : باحث وآثاري سوري له العديد من المؤلفات و الدراسات المنشورة . مدير التنقيب والدراسات الأثرية سابقاً في المديرية العامة للآثار والمتاحف..

- العمل الفني : الفنان قحطان الطلاع .

ممكن، فهل السويات الأدنى في المكان المختار هي من الأهمية بحيث تستحق التضحية بالسويات العليا. وقد يتحقق ذلك في بعض المدن في ظروف استثنائية، كما كان الحال في بيروت التي دمّر كثير من معالمها القائمة في ظروف الحرب الأهلية، وأمكن بعد انتهاء تلك الظروف المؤسفة، اكتشاف بعض معالمها الأثرية المجهولة كالمرفأ القديم والأسوار من عصر البرونز، بالإضافة إلى معالم هامة من العصور الكلاسيكية والإسلامية. وقد طُمر معظمها من جديد في مشروع ضخم لبناء العمارات المترفة الشاهقة والمقاصف الجميلة.

إن الهدف الأول والكبير في بحثنا هذا هوالسعي للحصول على منظور تاريخي عام وأثري نوعا لمدينة حلب الشهباء في الزمن الكلاسيكي، وذلك مركب صعب وخاصة من وجهة النظر الأثرية كما أسلفنا إن مصادر البحث ومراجعه شحيحة لا تشفي غليل الباحث. وقل أن يجد الباحث شيئًا جديدًا في معظمها، فجميع الباحثين، القدماء منهم والمحدثون ذكروا بإطناب معالم وأحداث الزمن العربي الإسلامي، لكنهم أتوا بالتليل المتناسخ كابرًا عن كابر حول الزمن الكلاسيكي. ونستثني من ذلك، إلى حد ما، الزمن البيزنطي حيث المعلومات أوفى نوعا ما وذلك لقرب العهد نسبيًا وللمجهود الكنسي الإيماني الذي كان له دور واف في هذا الصدد.

❖ ❖ ❖

إن الركام الأثري الضخم المتشكل خلال آلاف السنين في قلعة حلب يغري الباحثين عن الحقيقة التاريخية، ومن الضروري سبره دون إيذاء المعالم القائمة الثمينة الرائعة. وقد قدر الآثاري الألماني الشهير شليمن أن مدينة طروادة جاثية في قلب قلعة «حصارلك» التركية، وبعد التنقيب ظهرت طروادة وكنوزها التاريخية القيّمة. وما ذكر عن حلب في المصادر المسمارية سوف يتعزز بمزيد من الاستقصاء المنهجي في القلعة والتحري عن كل عنصر أعيد استعماله في البناء، المجدد أواستعمل في أهداف أخرى.

دام الزمن الكلاسيكي في بلادنا حوالي ألف عام، بدأ من زحف الاسكندر الكبير المكدوني عام ٣٣٣ على الشرق ووصوله إلى مشارف الهند، وانتهى بسقوط الحكم البيزنطي في سورية أمام الجحافل العربية المظفرة عام ٦٤١م. ومن المناسب قبل أن نتعرض للآثار أن نعرض بإيجاز، تذكرة للقارئ، أهم الأحداث السياسية في سورية خلال العصر الكلاسيكي وخاصة ما يتعلق



منه بحلب التي كانت إحدى أمهات المدائن فيه وما تبقى من الشواهد مع النصوص الخاصة بها، وهي من القلة بمكان .

سقطت الامبراطورية البابلية الحديثة (الكلدانية) في القرن السادس قبل الميلاد على يد الملك الفارسي قورش الذي جمع تحت سلطانة، علاوة عن امبراطورية بابل، بلاد ميديا وفارس كلها. وغدت حلب والمنطقة الشمالية من سورية" سترابية «أي ولاية فارسية . ولم يبق لها ولغيرها من الولايات القديمة ملوكها وأمراؤها. وغدت كل السلطات المدنية والعسكرية بيد «الستراب «أي الوالي الفارسي . وأُقطعت للقواد الفرس المحلين في الحروب أراض واسعة في سهول حلب الرحيبة الخصيبة. وغدا فلاحوها أقنانًا في النظام الجديد. وتلك كانت خطة الملك الفارسي قورش الذي يرى أن هؤلاء الفلاحين كلما افتقروا أكثر يصبحون أسلس قيادة وأكثر قبولاً لأعمال السخرة، كما ذكر المؤرخ اليوناني زينيقون وإذا كان حال الريف على هذا الشكل فإن المدن، ومنها حلب كانت نوعًا ما أحسن حالاً من الأرياف لحاجة المحتل لها كموقع استراتيجي هام ومركز تجاري ناشط.

بعد حكم الفرس اجتاح الاسكندر المكدوني سورية الطبيعية من الأمانوس إلى سيناء عام ٣٣٣ ق.م، وبعد موته عام ٣٢٣ ق.م . اقتسم قواد جيوشه الجرارة امبراطوريته الرحيبة بعد حروب بينهم طويلة وضارية. كانت حصة القائد سلوقوس نيكاتور (أي المظفر) تمتد من البحر الأبيض المتوسط إلى حدود نهر

السند. وقد أعلن قيام مملكته السلوقية عام ٣١٢ ق.م، وأصبح هذا التاريخ بداية لتقويم السلوقي الذي ظل هو التقويم الرسمي في بلادنا طوال زمن السلوقيين وحتى نهاية العصر الروماني في سورية على الأقل.

بنى سلوقوس عاصمته انطاكية على اسم أبيه انطيوخوس وسلوقية (السويدية) على اسمه، ومدينة أفاميا على اسم زوجته الفارسية، واللاذقية على اسم أمه. وأقام العديد من المدائن على طول امبراطوريته الرحيبة.

كما شيد هو أو خلفاؤه فوق مدينة حلب القديمة أو إلى جوارها المباشر، مدينة على الطراز الهيلنستي الشطرنجي سميت «بيروا» على اسم المدينة المكدونية التي أتى منها المكدونيين. وكان اسم حلب الأصلي ينطق باليونانية على شكل «خالفون» وكان اسم نهر قويق عندهم «خاليوس» أو(خالفوس). وظل اسم المدينة الأصلية حتى الزمن البيزنطي يلفظ محليًا بشكل (حَلِب)، وجاء في كتاب «زبدة الحَلَب» للصاحب كمال الدين، ج١ ص٢٥: كان اسم حلب باليونانية «باروا «وقيل «بيروا "» وذكر أيضًا في امتداح حلب قوله: «لما خرج الاسكندر يقصد دار الملك ومقاتلته كان أرسطاطاليس في صحبته فوصل إلى حلب ... ولما تحقق حال تربتها وصحة هوائها، استأذن الاسكندر في المقام بها».

أصبح عمران حلب الجديد على نسق التخطيط الشطرنجي المنتشر في المدن الهيلنستية وأنشئت فيها العناصر الرئيسية في تلك المدن ومنها الساحة العامة المعروفة باسم «الآغورا «المخصصة للاجتماعات الجماهيرية وتقوم غالبًا بمهمة السوق. وهناك المسرح والأوديون والهيبودروم (لسباق الخيل) والمعبد الرئيسي في القلعة التي تقوم مقام الاكروبول، ونفترض أنه للرب زوس / حدد. وقد سعت الأسوار لاحتواء المدينة الجديدة مع المدينة القديمة والمقابر تكون عادة خارج الأسوار.

وكان بعض وجهاء المتوطنين في حلب من المكدونيين هيراكليون وابناء سترابون وديونيزوس وقد جنحوا للاستقلال عن الدولة الأم فترة من الزمن. وكانت لهم مكانة مرموقة ومداخلات في الشؤون العليا للدولة السلوقية.

نالت حلب ومنطقتها إثر انتصارات الاسكندر المكدوني وقيام الدولة السلوقية أجزل الفوائد. إذ كانت في لب هذا العالم القديم فتحولت إلى عنبر ممتاز لتجارة

الترانزيت بين الشرق والغرب. وظلت محتفظة بهذا الامتياز طوال قرون. ومن الأمور التي مرت عليها في أواخر العصر السلوقي وبداية العصر الروماني احتلالها من قبل الملك الأرمني ديكران عام ٨٥ ق.م. مدة اثني عشر عامًا. وفي ربيع عام ٦٢ ق.م دخل بومبي الروماني دمشق وغدت سورية كلها ولاية رومانية. وفي عام ١٠٧ أو١١٧ م. أمر الامبراطور الروماني تراجان بضرب السكة في مدينة حلب دلالة على أهميتها. وتحمل نقود حلب المذكورة في وجهها الأول صورة الامبراطور تراجان وعلى وجهها الثاني اسم حلب باليونانية «بيروا» الذي ظل مستخدمًا في العصرين الروماني والبيزنطي. وخلال الفترة الرومانية احتل الفرس الساسانيون سورية مرات عدة وفي عام ٢٥٩ م دخلوا العاصمة أنطاكية. وقد أدى الصراع الفارسي الروماني إلى تأثر سورية بشكل عام وخاصة المنطقة الشمالية ومنها حلب وأضيف إلى هذا الوضع انتشار الصراع بين المسيحية الناشئة والوثنية الرومانية. إلى أن اعتبرت المسيحية، في عهد الامبراطور الروماني تيودوسيوس عام ٣٩٢، مذهبا رسميا في الامبراطورية الرومانية. ثم قسمت هذه الامبراطورية بين ولديّ ذلك الامبراطور إلى غربية وشرقية الأولى عاصمتها القسطنطينية التي كان اسمها القديم «بيزانتوم» ومنه اشتق في ما بعد اسم الامبراطورية البيزنطية، وكانت انطاكية عاصمة تلك الامبراطورية غير بعيدة عن حلب. وكان لهذا القرب فائدة للطرفين، وخاصة من الناحية التجارية، فحلب كانت عقدة رئيسة في تجارة الترانزيت وفي الطريق المسماة طريق الحرير، بين الشرق والغرب. ثم إن مسالك حلب هي من أيسر المسالك في بلاد الشام. وهي تربط بين الفرات والبحر الأبيض المتوسط بأقصر مسافة ممكنة.

خلف الفرس الساسانيون الفرس الفرثيين وتابعوا الحرب على البيزنطيين كما فعل أسلافهم ضد الرومان. ومن الواضح أن هدفهم، كهدف أسلافهم، هوالوصول للبحر الأبيض المتوسط مركز التجارة العالمية ومفتاح السيطرة السياسية والاستراتيجية على الدول المحيطة به. وعندما اعتلى كسرى الأول (أنوشروان) عرش بلاد فارس كان على عرش بيزنطة الامبراطور الشهير جوستينيان الذي أعلن رغبته بأن يحل السلام بين الدولتين العظيمتين. وكان عدوه الفارسي الساساني لديه رغبة مماثلة لتحقيق السلم على

الحدود الشرقية لامبراطوريته ليركّز مجهوده الحربي نحوالغرب والبحر الأبيض المتوسط. وفي هذا المنظور وقّع جوستينيان مع الفرس معاهدة سلم سمّي بالسلم الأبدي. ولكنه لم يدم أكثر من ثمان سنوات، فقد زحف كسرى الأول (أنوشروان) على المنطقة الشمالية من بلاد الشام عام ٥٤٠ م، واجتاح عددًا من المدن فدفعت بعضها فدية ومنها منبج. ولكنه طلب من حلب فدية مضاعفة نظرًا لأهميتها. ولما لم يؤمّن الحلبيون هذه الفدية الباهظة كما لم يدافعوا عن المدينة وراء أسوار القلعة المنيعة، قُطع الماء عنهم، الأمر الذي أجبرهم على فتح أبواب المدينة فدخلها الجيش الفارسي، وسبى الجند سكان المدينة وأحرقوها. تدخل ميغاس أسقف حلب، الذي كان له حظوة عند كسرى وطلب منه أن يعفو عن الجنود المتحصنين بالقلعة لقاء تخليهم عن كل ما لديهم من مال وسلاح. وتم الأمر على ذلك النحو، وتشتت الجند حتى إن بعضهم دخل في خدمة الفرس.

استمر الصراع القائم بين البيزنطيين والفرس الساسانيين واستولى هؤلاء بقيادة كسرى الثاني (أبرويز) عام ٦٢٨ م على الرها وأفامية وحلب ودمشق ونهب القدس واحتل مصر. ولكن جيش الفرس هُزِم أخيرًا ورُدّ الصليب المقدس الذي استولى عليه الفرس في غزوة القدس عام ٦١٤ م، فنقله الروم البيزنطيون من منبج إلى حلب ومن ثم إلى حمص وطبريا وهناك تسلمه الملك البيزنطي هرقل شخصيًا من تلك البلدة وأعاده إلى القدس في آذار ٦٣٠م.

وقد ورد في القرآن الكريم خبر هزيمة الروم ثم انتصارهم "غُلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين" (سورة الروم - الآية ٢/٣/٤).

❖ ❖ ❖

دخلت المسيحية حلب باكرًا وكان فيها منذئذ كرسي أسقفي واكليروس. ولكن في القرون الثلاثة الأولى للميلاد كانت المسيحية غالبًا في عهدها السرّي. وممارسة العبادة كانت تجري أحيانًا في الدياميس والأنفاق إلى أن أُعترف في مرسوم ميلان بالمسيحية عام ٣١٣م ،وذلك في عهد الامبراطور قسطنطين. ويقدر أن المواطنين المسيحيين آنئذ كانوا يساوون في حلب أعداد الوثنيين وبعضهم من أهل التقية خوفًا من السلطة وكان سكان حلب يتألفون من آراميين وعرب ويونان . وكانت اللغة الشعبية السائدة هي الآرامية، أما اللغة الرسمية فهي اليونانية . وفي مطلع

القرن السادس الميلادي حضر أساقفة حلب مجمّعي نيقية وخلقيدونيا، وفي مطلع هذا القرن أيضًا بدأ مذهب الملكيين «مذهب الطبيعة الواحدة للسيد المسيح (المونوفيزية) وعانت المسيحية كثيرًا قبل أن تتوطد . ومن النكسات الغربية أن الامبراطور جوليان الجاحد (المرتد) صعد إلى قلعة حلب عام ٣٦٣ م، وفي موضع العبادات الوثنية قدم ثورًا قربانًا للرب حدد / زفس، الأمر الذي يدل على أن المسيحية لم تكن قد ترسخت تماما في القرن الرابع الميلادي، ولم يكن لأسقفية حلب أسقفيات تابعة لها. وكانت المنافسة شديدة بين حلب ومدينة صور حول من هوالكرسي الأول بعد انطاكية. وفي مجمع القسطنطينة عام ٥٣٦ ميلادي جعلت حلب ميتروبوليتيه ملكية كما أصبحت بعد ذلك كرسيًا أسقفيا للمؤمنين بالطبيعة الواحدة للسيد المسيح. وكان عدد الموارنة كبيرًا في حلب ولهم أسقف وكنيسة. وكان مطران حلب للروم الأرثوذكس في الزمن العربي الإسلامي تشمل سلطته منطقة الرافدين كلها.

وكانت في حلب أيام البيزنطيين كنيسة على الأقل لكل من الفرق المسيحية لكن الكنيسة العظمى المكرسّة للسيدة مريم العذراء كانت كاتدرائية المدينة وهي بيزنطية الطراز، يعود بناؤها للقرن الخامس الميلادي. وقد هدمها كسرى سنة ٥٤٠ م، وجددت أيام حكم الامبراطور جوستينان . ونجد حاليًا داخل المدرسة الحلاوية من بقاياها ثمانية أعمدة ذات تيجان كورنثية رائعة تشبه تيجان كنيسة القديس سمعان العمودي. وهناك أيضًا من بقايا تلك الكنيسة جرن معمودية من البازلت. وفي رواية ثانية أن الجامع الأموي لم يقم مكان الكنيسة الكاتدرائية بل في باحة «الآغورا» وصالح المسلمون على مكانه هذا أهل حلب منذ يوم الفتح الإسلامي (ابن شداد، الاعلاق الخطيرة ١/٣٠) .

وأخيرا أتى الفتح الإسلامي لينهي الصراع الطويل القاسي في المنطقة، إذ تم القضاء على دولة الفرس واستيلائها على بلاد الشام ومصر وما ورائهما وحُصر البيزنطيون في قسم من الأناضول. ونختم البحث بشيء مريح من آداب الحرب :

يذكر البلاذري في تاريخه «أن أبا عبيدة رحل إلى حلب وعلى مقدمته عياض بن غنم الفهري فوجد أهلها قد تحصنوا فنزل عليهم فلم يلبثوا أن طلبوا الصلح والأمان على أنفسهم وأولادهم وسور مدينتهم وكنائسهم ومنازلهم، والحصن الذي بها «ويقصد القلعة وتحقق لهم ما يرغبون.

مراجع البحث

- د. عدنان البني ، سورية في العصرين الهيلينستي و الروماني، مؤلف (بين التراب والتراث)، منشورات وزارة الثقافة ٢٠٠٥ ، ص ١١٧ - ١٣٢.
- المهندس عبد الله الحجار ، معالم حلب الأثرية ومحاضرة له في الموضوع نفسه. جامعة حلب و جمعية العاديات ١٩٩٠ .
- د. عبد الرحمن حميدة، محافظ حلب ، منشورات وزارة الثقافة، دمشق ١٩٩٢ .
- القس جبرائيل رباط، حلب و منطقتها، محاضرة، عام ١٩٣١، تعريب فتح الله قسطون، حلب ١٩٣٣ .
- صبحي صواف، تاريخ حلب، الجزء الأول، حلب قبل الإسلام، حلب ١٩٧٢ .
- محمد أسعد طلس، الآثار الإسلامية والتاريخية في حلب، دمشق، منشورات المديرية العامة للآثار، ١٩٥٦ .
- محمد كامل فارس، الجامع الأموي الكبير في حلب، تاريخه ومعالمه الأثرية دار العالم العربي، حلب ١٩٩٥ .
- عبد الفتاح رواس قلعه جي ، حلب القديمة والحديثة ، بيروت ١٩٨٩ .
- الأب متري هاجي أثناسيو، تاريخ الحضارات العام، الجزء ١، سورية الشمالية، حلب.
- الفصل الخاص بحلب بقلم جان كلود دافيد في المؤلف الذي جمّعه عن حلب أندره ريمون في مؤلف «سورية اليوم» ١٩٨٠ (بالفرنسية).
- جان سوفاجيه، حلب وتطور مدينة سورية كبرى من نشأتها حتى منتصف القرن التاسع عشر، ١٩٤١، (بالفرنسية).
- جيرار دو جورج، سورية، ص ٧٨ (بالفرنسية).
- حلب و سورية الشمالية «مجلة العالم الإسلامي» العدد ٦٢ ، ص ٤ - ٩ (بالفرنسية).
- إرنست فيل ، مدن سورية الهيلينستية والرومانية في المؤلف الذي نشره ج . م دنتزر وأورتمان بعنوان، آثار و تاريخ سورية، الجزء الثاني / سورية من عصر الفرس الأخمينين حتى ارسلام ، زاربروكن ص ٥٦٧ - ٥٧٩ .
- بول بوران، حلب قديمًا وحديثًا، حلب ١٩٣٠ (بالفرنسية).

❖ ❖ ❖

٧٨

البيمارستانات في الدولة العربية الإسلامية

طباً وهندسياً

« البيمارستان الأرغوني في حلب نموذجاً »

الدكتور محمد يحيى خراط(*)

تعتبر البيمارستانات من مظاهر الحياة العربية الإسلامية ، وهي الإضافة الطبية الإنسانية لما حققته هذه الحضارة في هذا المجال على الصعيدين العلمي والعالمي.

أسست البيمارستانات في كبرى المدن العربية وكذلك في المدن الصغيرة على قاعدة حقيقية من التقدم والازدهار الطبي ، ولذلك نستطيع أن نقول إن هذه « المنشآت الطبية » كانت تعبيراً عن طب مزدهر وحضارة مستقرة ورعاية صحية واجتماعية للمواطنين.

(*) د . محمد يحيى خراط: باحث وصيدلاني ومؤرخ سوري - وزير الدولة لشؤون مجلس الشعب.

وقداكتسبت هذه البيمارستانات في مرحلة لاحقة خصوصيات إنشائية ومعمارية متناغمة أيضاً مع أدائها الوظيفي الطبي والتدريسي.

يتناول هذا البحث محورين أحدهما طبي صيدلاني والآخر معماري إنشائي التقيا معاً ليجسدا التكامل الذي كرسته معطيات الحضارة الإسلامية في تحقيق أهدافها.

١ - البعد الطبي والصيدلاني:

❖ إنجاز أوائل البيمارستانات لأسباب طبية إنسانية.

❖ البيمارستانات إحدى المؤسسات الرسمية المهمة في الدولة.

❖ الصيدلية (أو الشرابخانة) في البيمارستان - الصيدلاني (أو المهتار).

❖ البيمارستانات المحمولة والبيمارستانات الثابتة.

❖ العمل الصيدلاني في البيمارستان، وتحضير الأدوية والأشربة - الوصفات والتحاليل الطبية.

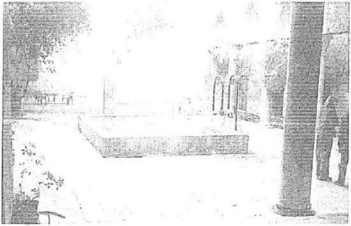
❖ التدريس الطبي والصيدلاني في البيمارستانات وأهم الأطباء الذين عملوا فيها وتخرجوا منها.

٢ - البعد المعماري والإنشائي:

❖ بدء بناء البيمارستانات بعد ظهور الإسلام.

❖ كيف اختيرت مواقعها؟

❖ خصوصيات التصميم (المساحات - الارتفاعات - الباحات الداخلية - الغطاء النباتي - البرك والنوافير..).



❖ التكوينات المعمارية داخل البيمارستان.

❖ التكوينات المائية في البيمارستان.

٣- البيمارستان الأرغوني الكاملي بحلب مثالاً:

البعد الطبي والصيدلاني:

- إنجاز أوائل البيمارستانات لأسباب طبية إنسانية:

إن أول من بنى البيمارستان في الإسلام ودوراً للمرضى هو الخليفة الأموي الوليد وهو أيضاً أول من عمل داراً للضيافة (سنة ٨٨ هـ / ٧٠٦ م) وجعل في البيمارستان الأطباء وأجرى لهم الأرزاق، وأمر بحبس المجذومين لئلا يخرجوا، وأجرى عليهم وعلى العميان الأرزاق.

ولكن إذا رجعنا في التاريخ قليلاً لوجدنا أن أول مستشفى في الإسلام أقيم في غزوة الخندق، في خيمة سيدة عربية تدعى رفيدة الأسلمية، عرف عنها أنها كانت تداوي الجرحى وتواسي المرضى. ولما تتابعت الفتوحات الإسلامية ازداد عدد **المشافي المتنقلة** (الميدانية)، كما ازداد عدد النساء اللاتي كن يصحبن جيوش المسلمين للاعتناء بالجرحى ومن أشهر هؤلاء النسوة أم عطية الأنصارية التي روى عنها محمد بن سيرين أنها قالت: «غزوت مع النبي صلى الله عليه وسلم سبع غزوات فكنت أصنع لهم طعامهم وأخلفهم في رحالهم وأداوي الجرحى وأقوم على المرضى».

والبيمارستان كلمة فارسية مشتقة من كلمتين هما (بيمار) وتعني المريض و(ستان) وتعني المكان، ولعل أول مشفى متكامل وكبير أسس في الدولة العربية الإسلامية كان في مدينة جنديسابور وأطلق عليه بالفارسية المحلية كلمة (بيمارستان)، وبقيت هذه التسمية شائعة فيما بعد..

ازداد عدد البيمارستانات في زمن العباسيين زيادة كبيرة فعمت المدن الإسلامية من سمرقند إلى فاس وغرناطة مروراً ببغداد ودمشق والقاهرة.

- البيمارستانات إحدى المؤسسات الرسمية المهمة في الدولة:

لقد حُبست على هذه المؤسسات الأوقاف الخيرية لتدر عليها ما يسدد نفقات إطعام المرضى وأجور الأطباء والصيادلة والمرضين، كما جهزت بوسائل الرفاهية والتسلية للمرضى، فكانت أجواق الموسيقيين تصدح في رحابها، وكان المطربون والقصاصون يُجلبون إلى قاعات المرضى أثناء النهار. وقد درجت عادة الإنشاد على المآذن قبل بزوغ الفجر بساعتين تخفيفاً لعناء السهر على المرضى والمؤرقين، ولما تزل هذه العادة جارية حتى

الآن في بعض الحواضر الإسلامية، وخاصة في مدينتي دمشق وحلب.

كانت الدولة تضفي على هذه المؤسسات صفة رسمية ، وذلك بتنصيب السلطان أو نائبه رئيساً أعلى لها، وهو الذي يقوم بتعيين مدير المشفى والناظر على أوقافه. وقد ذكر ابن إياس في كتابه وقائع الدهور: « **إن ناظر البيمارستان** كان من أهم وظائف الدولة يتولاه الأتابكي (قائد الجيش) ويذهب إليه في حفلة حافلة».

وسنذكر على سبيل المثال ما قام به **ناظر البيمارستان العضدي** في بغداد سنة ٤٤٩ هـ حينما أراد دعمه وتنشيطه : «لقد جمع فيه **الأشربة والأدوية والعقاقير** التي يعز وجودها شيئاً كثيراً ، وأقام الفرش واللحف للمرضى والأيارج الطبية، والأسرة والثلج للمستخدمين والأطباء والفراشين، وكان يعمل في ذلك البيمارستان ثمانية وعشرون طبيباً بالإضافة إلى النساء الطباخات والبوابين والحراس، وكان إلى جانب البيمارستان حمامات وبساتين تزرع فيها الثمار والبقول، وكانت السفن تنقل الضعفاء والفقراء منه وإليه ».

- البيمارستانات المحمولة والبيمارستانات الثابتة:

البيمارستانات المحمولة: إن حالة الحرب الدائمة في البلاد الإسلامية، اضطرت الخلفاء والسلاطين إلى إنشاء مشافي محمولة تصاحب الجيوش في تنقلاتها، وقد ذكر ابن خلكان في كتابه وفيات الأعيان والقفطي في كتابه تاريخ الحكماء أن أبا الحكم المغربي نزيل مدينة دمشق كان طبيب البيمارستان الذي كان يحمله أربعون جملاً، والذي كان يصحب معسكر السلطان محمود السلجوقي حيث يخيم ، كما كان القاضي السديد أبو الوفا **فاصداً** وطبيباً في هذا البيمارستان أيضاً.

وفي البيمارستانات الثابتة يقوم الطبيب بعد فحص المريض وتشخيص المرض بتدوين الوصفة على ورقة تؤخذ إلى **الشرابخانة**، حيث كان العلاج يصرف إلى المريض مجانًا، وإذا كان المريض مصابًا بمرض قليل الخطر يأخذ الدواء إلى منزله ، حيث يثابر على تعاطيه حسب تعليمات الطبيب ، أما إذا كان بوضع سيِّئ فإنه يرسل إلى إحدى قاعات البيمارستان، حيث يمكث تحت إشراف الأطباء، وكان هؤلاء يتناوبون العمل صباحاً ومساءً ويبيتون عند المرضى **بالنوبة**،كما ورد في كتاب عقد الجمان للعيني.

- التدريس الطبي والصيدلاني في البيمارستان:

كان للبيمارستانات دور في نشوء المدارس الطبية العربية، فمن المزايا المهمة لها أنها كانت دور استشفاء ودور علم بآن معاً ، فلم تكن مهمة البيمارستانات قاصرة

على تقديم الخدمات الصحية للمرضى، بل كانت في الوقت نفسه معاهد علمية ومدارس لتعليم الطب، يتخرج منها الأطباء والجراحون والكحالون وكانت تضم مكتبات حافلة بالمؤلفات الطبية لتكون مرجعاً للأساتذة والطلاب.

فكان طلاب الطب يدرسون ويتعلمون صناعة الطب على يدي كبير أطباء البيمارستان، وكانت تلك الدراسة عملية ونظرية . فإذا دققنا في طريقة العلاج في البيمارستان لوجدنا أن هناك طريقتان للعلاج هما: علاج خارجي وعلاج داخلي. ففي العلاج الخارجي كان الطبيب الشيخ يجلس إلى دكة ويحضر المرضى أمامه بمساعدة بعض العاملين في البيمارستان، فيقوم الطبيب الشيخ بفحص المرضى أمام طلابه فيشرح لهم المرض وعلاماته وكيفية الاستدلال على العلة، فإن آنس في المريض قدرة الذهاب إلى البيت وتناوله للعلاج هناك، أملى على أحد طلابه الدواء اللازم للمريض فيقوم طالب الطب بكتابة الدواء ومفرداته على ورقة يدفع بها إلى المريض الذي يتوجه إلى الشرابخانه ليأخذ الأدوية المدونة في الورقة - الوصفة التي وصفها له الطبيب ويعود بها لداره ليتناولها هناك.

أما في حالة العلاج الداخلي في البيمارستان فكان المرضى يوزعون في أقسامه بحسب أمراضهم ، وكان في كل قسم من أقسام البيمارستان طبيب أو طبيبان أو ثلاثة بحسب عدد المرضى الموجودين في القسم، وكان الأطباء في القسم يشتغلون بالنوبة، فجبراتيل بن بختشوع كانت نوبته في الأسبوع يومين وليلتين. يقول ابن أبي أصيبعة عن طريقة تعلمه الطب في البيمارستان - وهو أحد تلامذة وأطباء البيمارستان النوري في دمشق : (كنت بعدما يفرغ الحكيم مهذب الدين والحكيم عمران من معالجة المرضى المقيمين بالبيمارستان وأنا معهم أجلس مع الشيخ رضي الدين الرحبي فأعاين كيفية استدلاله على الأمراض وجملة ما يصفه للمرضى وما يكتب لهم، وأبحث معه في كثير من الأمراض ومداواتها) وكان كبار الأطباء يعقدون مجالس عامة لتدريس صناعة الطب على طلابهم ومريديهم، وكانت هذه الاجتماعات تعقد في البيمارستانات الكبرى الموجودة في المدن الرئيسية من العالم العربي وخاصة في البيمارستان العضدي في بغداد والنوري في دمشق والناصري في القاهرة، وقد ذكر ابن أبي أصيبعة أن العالم أبا الفرج ابن الطيب كان يُقرئ صناعة الطب في البيمارستان العضدي، وأن زاهد العلماء ألف كتابه في الفصول والمسائل والجوابات التي أجاب عنها في مجلس العلم المقرر في البيمارستان الفارقي (نسبة إلى ميافارقين).

وذكر ابن أبي أصيبعة أيضاً أن أبا المجد ابن أبي الحكم كان يدور على المرضى في البيمارستان الكبير النوري ويتفقد أحوالهم ويعتبر أمورهم .. وبعد فراغه من ذلك يأتي فيجلس في الإيوان الكبير في البيمارستان وجميعه مفروش ويحضر كتب الاشتغال ، فقد أوقف السلطان نور الدين محمود بن زنكي جملة كبرى من الكتب الطبية وكانت في الخزانة التي في صدر الإيوان، فكانت جماعة من الأطباء والمشتغلين بالطب يأتون إليه ويقعدون بين يديه ثم يجري مباحث طبية ويقرئ التلاميذ ولا يزال معهم في اشتغال ومباحث ونظر في الكتب الطبية مقدار ثلاث ساعات ثم يركب إلى داره.

ومن خصوصيات الأطباء العرب أن منهم من وقف الدار التي له وجعلها مدرسة يدرس فيها صناعة الطب ووقف لها ضياعاً وعدة أماكن يُستغل منها ما ينصرف في مصالحها.

وكان الدخوار يستعين بكتاب الصحاح للجوهري والمجمل لابن فارس وكتاب النبات لأبي حنيفة الدينوري في شرح بعض الكلمات التي يستعصي فهمها. وعندما مرض الدخوار أوصى بأن يقوم على التدريس مكانه في بيته الذي حوَّله إلى مدرسة طبية الحكيم شرف الدين علي ابن الرحبي، وبقي شرف الدين يدرس في المدرسة الدخوارية عدة سنين ثم خلفه الحكيم بدر الدين المظفر ابن قاضي بعلبك ثم توالى على مشيخة المدرسة الدخوارية كل من عماد الدنيسري ومحمد بن عبد الرحيم ابن مسلمة وأمين الدين بن سليمان ابن داود الدمشقي ثم شهاب الدين الكحال.

وقد تحولت البيمارستانات إلى كليات طب حقيقية ومشافي تعليمية تعالج المرضى وتُخرّج الأطباء في مختلف أصقاع الدولة الإسلامية. وإنَّ عدداً كبيراً من المؤلفات الطبية العربية ألفها أطباء عملوا في البيمارستانات وكانت كتاباتهم مبنية على دراسات ومشاهدات سريرية حقيقية، وكانت الأدوية التي ذكروها في مؤلفاتهم قد تم اختبارها وتأكدوا من صحة فاعليتها.

من الأطباء الكُتاب الذين عملوا في البيمارستان المنصوري في القاهرة علمٌ من أعلام الطب هو مدين بن عبد الرحمن القوصوني (٩٦٩ هـ / ١٥٦٢ م) الذي تقلد منصب مشيخة الطب في هذا البيمارستان ووضع معجماً طبياً متميزاً هو « قاموس الأطباء وناموس الألباء»[1] حيث ضمنهُ تعريفات موسعة في الطب

---

(١) المحبي ، خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر . مج٤. دار صادر - بيروت (بدون تاريخ) ص ٣٢٢. والبغدادي اسماعيل باشا. هدية العارفي في أسماء المؤلفين . مج٢ مكتبة المثنى، بغداد ، ١٩٥٥ ص ٤٢٣ - ٤٢٤ . والزركلي خير الدين ، الأعلام . دار العلم للملايين بيروت - لبنان ، ٧ : ١٩٨.

والصيدلة. ويبدو أنّ مؤلفات خاصة بالبيمارستان وآليات مزاولة العمل فيه قد وضعت أيضًا منها مثلاً « دستور البيمارستان»[2] لـ محمد بن محمد القوصوني (ت ٩٣١ هـ / ١٥٢٤ م) .

وسنذكر فيما يلي لمحات طبية عن أشهر البيمارستانات الحكومية التي كانت تعمل في الدول الإسلامية:

١ - بيمارستان الرشيد : أمر الخليفة هارون الرشيد الطبيب جبرائيل بن بختيشوع (١٧١ هـ / ٧٨٦ م) أن ينشئ في بغداد أول بيمارستان عرف فيها، وقد رشح لرئاسة الأطباء فيه ماسويه الخوزي أحد صيادلة جنديسابور ثم تولاها ابنه يوحنا، وقام جبرائيل بأمر رعاية البيمارستان والإشراف عليه.

٢ - البيمارستان المقتدري : أشار الطبيب سنان بن ثابت بن قرة على الخليفة المقتدر بالله(٣٠٦ هـ / ٩١٩ م) أن يقيم بيمار ستانًا ينسب إليه، فأمره باتخاذه في محلة باب الشام التي تقع في الجانب الغربي من مدينة بغداد، وقد عمل فيها طبيبان مشهوران هما يوسف الواسطي وتلميذه جبريل بن عبد الله بن بختيشوع.

٣ - البيمارستان العضدي : أنشأه عضد الدولة بن بويه، على طرف الجسر الغربي من مدينة بغداد وفرغ من بنائه سنة (٣٦٨ هـ / ٩٧٨ م) وعندما أراد بنائه استدعى الرازي وهو الطبيب الأول في بغداد في ذلك الحين، وأوكل إليه مهمة البحث عن مكان مناسب لبناء المشفى، ولتحقيق هذا الهدف عمد الرازي إلى تعليق قطع كبيرة من اللحم من مختلف الأنواع في كل أطراف بغداد ثم انتظر أربعاً وعشرين ساعة وبعدها انتقى المكان الذي ظل فيه اللحم على أحسن حال أوأقل سوءاً من غيره.

هذا البيمارستان كان يضم ثمان وعشرين طبيباً من أشهرهم : علي بن إبراهيم بن بكس، وأبو الحسن بن كشكرايان وأبو يعقوب الأهوازي وغيرهم من الطبائعيين والكحالين والجراحين..

وأما أشهر من قام في التدريس فيه فهو أبو الفرج بن الطيب (توفي سنة ٤٣٥ هـ / ١٠٤٣ م) وكان معاصراً لابن سينا ، وتتلمذ عليه ابن بطلان وعلي بن عيسى وغيرهم ، كما يجب أن نذكر أمين الدولة هبة الله ابن التلميذ، الذي انتهت إليه صناعة الطب في بغداد وبقي ساعوراً للبيمارستان العضدي حتى وفاته (٥٦٠ هـ / ١١٦٤م) . كان ابن التلميذ خبيراً باللسان الفارسي، ووضع أقرباذيناً يتألف من

(٢) حاجي خليفة ، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون . مكتبة المثنى - بغداد (بدون تاريخ) مج ١ : ٧٣٣-وهدية العارفين ٢ : ٢٣١.

عشرين باباً .. حل في شهرته محل **أقرباذين سابور** وقام باختصار وشرح بعض مؤلفات جالينوس وحنين والرازي وابن سينا وابن جزلة، كما ألف المقالة الأمينية في الفصد وكان يحضر مجلسه عدد كبير من التلاميذ الذين تعلموا منه صناعة الطب وليستمتعوا بحديثه وأدبه.

وقد بلغ عدد المشافي التي أنشئت في بغداد حتى القرن الخامس الهجري أربعة عشر مشفى بالإضافة إلى أربع بيمارستانات في كل من الموصل وحران والرقة ونصيبين.

٤ - البيمارستان الكبير أو النوري في دمشق: بناه السلطان نور الدين محمود ابن الزنكي سنة (٥٤٩ هـ / ١١٥٤ م) بناه من المال الذي حصل عليه كفدية من بعض ملوك الفرنج الذين أسرهم أثناء الحروب الصليبية. قال عنه المؤرخون إنه لم يكن له نظير في العالم في ذلك الوقت، زاره الرحالة ابن جبير الذي حط الرحال في مدينة دمشق سنة ٥٨٠ هـ وقال: « وبها مارستان قديم وحديث ، والحديث أحفلها وأكبرها».

ظل البيمارستان النوري يعمل في معالجة المرضى إلى سنة (١٢١٧ هـ / ١٨٩٩ م) وكان أطباؤه وصيادلته لا يقلون عن العشرين.

أما أشهر الأطباء الذين عملوا في البيمارستان النوري فنذكر منهم:

مهذب الدين النقاش ، وموفق الدين بن المطران، ورضاالدين الرحبي، ومهذب الدين عبد الرحمن بن علي، وشرف الدين الرحبي ، وعز الدين السويدي.

وقد أحصى الدكتور أحمد عيسى البيمارستانات المنتشرة في بلاد الشام فبلغ عددها عشرين، سبعة منها في دمشق وثلاثة في حلب والباقي موزعة في المدن الأخرى بين الرقة وإنطاكية شمالاً حتى القدس وغزة جنوباً.

- ومن أشهر البيمارستانات المعروفة في مصر:

❖ البيمارستان العتيق : أنشأه أحمد بن طولون سنة (٢٥٩ هـ / ٨٧٢ م).

وأشهر من عمل في هذا البيمارستان من الأطباء:

محمد بن عبدون الجبلي ، وشمس الدين محمد بن عبد الله المصري، الذي كان يدرس طلاب الطب في جامع ابن طولون إلى جانب عمله في البيمارستان ، وقد توفي سنة ٧٧٢ هـ.

❖ **البيمارستان الناصري :** فبعدما نصب صلاح الدين الأيوبي سلطانًا على مصر سنة (٥٦٧ هـ/ ١١٧١ م) استولى على أحد قصور الفاطميين وحول بعض قاعاته إلى بيمارستان . وكانت فيه **قاعات**

للرجال وأخرى للنساء، كما أفرد للمصابين بالأمراض العقلية **مقاصير خاصة بهم عليها شبابيك من حديد.**

أما أشهر الأطباء الذين عملوا في هذا المشفى فهم:

- الطبيب رضا الرحبي.
- الطبيب إبراهيم بن الرئيس موسى ابن ميمون.
- الشيخ السديد بن أبي البيان.

❖ **البيمارستان المنصوري: بناه الملك** المنصور قلاوون الصالحي الشهير بالألفي وذلك سنة (٦٨٣ هـ / ١٢٨٤ م).

ويتألف من عدة أقسام بعضها **للأمراض الداخلية وبعضها للأمراض العقلية وأخرى للجراحة والرمد، وقد ألحقت به مكتبة وقاعة للمحاضرات وصيدلية ومخزن للعقاقير.**

البعد المعماري والإنشائي للبيمارستانات:

١ - بدء بناء البيمارستانات بعد ظهور الإسلام:

البيمارستانات الأولى لم تعد لها آثار موجودة والدليل عليها وعلى وجودها موجود في النصوص التراثية والتاريخية وكذلك في النصوص التي أرّخت لفعاليات الطب العربي.

وإن أول بيمارستان بني في الإسلام كان في الربع الأخير من القرن الأول الهجري/ في سنة ٨٨ هـ ٧٠٦ م/[٣] وقد تم ذلك في زمن الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك.

كما تذكر المصادر التراثية العربية بيمارستاناً رائداً آخر كان قائماً وفاعلاً في منطقة خوزستان (جنوب العراق) حين دخل الإسلام إلى هذه المناطق هو بيمارستان جُنْدَيسابور الذي كان موجوداً قبل ذلك بثلاثة قرون وظلّ بدوره الطبي وتصدير الأطباء إلى ما بعد قيام الدولة العباسية - النصف الأول من القرن الأول الهجري - التي بدأت بعماراتها الخاصة وبدأت بالتأسيس لحركة طبية عربية عميقة.

ثم اشتُهرت **المجموعات المعمارية** التي تضم أكثر من مبنى ذي وظيفية واحدة، وإنما مجمعاً خدمياً وتعليمياً بآن معاً ولوحظ ذلك خصوصاً في مصر وشمالي إفريقيا وكانت غالباً ما تضم هذه المُجمعات مسجداً ومدرسة وأحياناً مستشفى ونزلاً للطلبة ومن الخارج يطل القسطل (أو سبيل الماء) لعابري السبيل. ومنها مثلاً البيمارستان الكبير المنصوري في القاهرة حيث إن الملك سيف الدين قلاوون» رسم بعمارتها مارستاناً وقبةً ومدرسةً».

(٣) ابن جرير الطبري، تاريخ الرسل والملوك. حوادث سنة ٩٦، ص ١٣٧.

اختيار موقع البيمارستان :

كان الإدراك لأهمية ذلك مبكراً ، فكان يراعى في الموقع أن يكون:

❖ **فسيحاً** ، بعيداً عن المناطق السكنية والازدحام ، وحَسن التهوية.

❖ **معتدلاً** ؛ ويبدو أن ذلك يعني الاعتدال التضاريسي والمناخي والقرب والبعد عن البلد.

❖ **الأهمية القصوى للغطاء النباتي** ؛ بحيث غُرِستْ في موقع البيمارستان جميع أنواع الأشجار والمشمومات والمأكولات.

❖ **« أصح بقعة صحيحة الهواء » من اختبارات اختيار الموقع** ؛ وهو من الاختبارات البسيطة والصحيحة التي خضع لها اختيار موقع البيمارستان النوري في حلب. ويلاحظ أن هذا الموقع هو قرب سوق يسمى سوق الهواء لأن المرء سرعان ما يخرج من باب أنطاكية إلى الهواء (الخارج) **فالتهوية مستمرة** لقربه من المخرج.

يمكن أن نلاحظ مدى الحرص الذي اختيرت به مواقع البيمارستانات لتنطبق عليها الشروط البيئية الصحيحة ويتم تحسين هذه البيئة في معظم الأحيان بإضافة الغطاء النباتي فيحافظ على المكان من التلوث ويمنح توازنًا هوائياً مما يكون له تأثير عميق في تحقيق الشفاء للمرضى.

التكوينات المائية:

كانت المياه تشكل بعداً أساسياً في عمارة البيمارستانات الإسلامية، فقد تمت تغذيتها بالمياه بكثافة غير عادية ويمكن إعادة ذلك إلى مجموعتين من الأسباب،أسباب عادية وأسباب عميقة. أما الأسباب العادية فقد هدفت إلى تزويد البيمارستان بكميات وفيرة من المياه لتحقيق أعلى درجات النظافة. وأما الأسباب العميقة فتعود إلى تحقق درجة عالية من الوعي الطبي والنفسي بل والجمالي أيضًا لأهمية الماء وإيجاده في البيمارستان في تكوينات معمارية جميلة تمنح « الأصوات المائية» وأيضًا « الرطوبة والرخاوة» التي يلقيها الماء حوله من خلال تشكيلات معمارية ونباتية. فنجد البركة المركزية ونافورتها وقد اتخذت مساحة كبيرة بالنسبة للفناء المركزي وكأن المساحة المائية هي المعنية بحد ذاتها في عمارة البيمارستان. يتضح هذا الأمر أكثر ما يمكن في البيمارستانات الإسلامية المركزية مثل البيمارستان المنصوري في القاهرة حيث يحيط بالفناء المركزي أربعة إيوانات بكل إيوان شاذروان وفسقية يصير إليها الماء من الشاذروان والمياه تجري في أكثر أماكن هذا البيمارستان . وفي البيمارستان الكبير النوري في دمشق ذُكر أيضًا أن الماء كان جارياً في كل قاعاته، أما في

بيمارستان مراكش في المغرب فالمياه كانت تدور في جميع أنحائه وهناك أربع برك داخل البيمارستان ويبدو أنها أعطيت بعداً فنياً بإضافة الرخام إلى إحداها، أما البيمارستان النوري في حلب ففيه بركتان تتزودان بالماء الحلو من قناة حيلان التي كانت قنواتها تغذي مدينة حلب وريفها حتى بدايات القرن العشرين.

الخصوصيات الوظيفية في عمارة البيمارستانات العربية:

احتوت هذه البيمارستانات على تكوينات ذات وظائف مختلفة :

١ - أقسام البيمارستان المرضية:

فقد خصصت أقسام لكل نوع من أنواع المرض. كما خصصت أجنحة خاصة بالنساء.

٢ - غرف المرضى العقليين:

تميزت هذه الغرف بمساحاتها الصغيرة وعزلتها عن الخارج وغالباً ما تنفتح بباب يؤدي إلى دهليز أو ممر داخلي، وإن زودت بشبابيك فقد وضع لها شبك حديدي.

٣ - المكتبة:

شكلت البيمارستانات الأساس الأكاديمي الذي قامت عليه(المدارس الطبية العربية) فكانت البيمارستانات الكبرى أكاديميات حقيقية وبسبب ذلك اتجهت عمارتها دومًا إلى الأخذ بعين الاعتبار مكان المكتبة أو (خزانة الكتب) ففي مكتبة البيمارستان العتيق في القاهرة وجد ما يزيد على مئة ألف كتاب في سائر العلوم وهذا العدد الهائل من الكتب يحتاج إلى قاعة ذات تجهيزات خاصة وموظفين مختصين . كما وجدت مكتبة طبية في البيمارستان النوري الكبير في دمشق.

٤ - الصيدليات (خزائن العقاقير):

ذُكر وجودها في معظم البيمارستانات، وهذا المكان يجب أن يتمتع بخصائص من الحرارة والتهوية تقي الأدوية من الفساد.

٥ - مخبر تصنيع الأدوية:

إن مثل هذا المخبر كان موجوداً في البيمارستان المنصوري في القاهرة وفي بيمارستان مراكش فقد ورد « وأقام فيه من الصيادلة لعلم الأشربة والأدهان والأكحال».

٦ - المطابخ :

وهو مكان مهم في فعاليات البيمارستان ففي البيمارستان المنصوري ذُكر « أفردت أماكن لطبخ الطعام والأشربة».

البيمارستان الجديد أو البيمارستان الأرغوني بحلب:

أسس هذا البيمارستان في منتصف

القرن الثامن الهجري وما زال بناؤه قائماً إلى اليوم داخل حي **باب قنسرين** في الجزء القديم من مدينة حلب السورية.

البناء كله ما زال قائماً ويتألف من:

١ - بوابة البيمارستان: وهي بوابة ضخمة ذات زخارف..» وقد كان لبابه حلقتان كبيرتان جميلتا الشكل من النحاس الأصفر، قلعتا منه منذ خمس عشرة سنة وأخذتا إلى متحف الآستانة..»

٢ - مدخل البيمارستان الرئيسي: تحتويه نصف قبة تتدلى من سقفها ثلاث صفوف من المقرنصات تم توزيعها بشكل فني جمالي بحيث ضمت بينها أشكالاً ورنوكاً (شعارات) مملوكية. مكتوب في أعلى البوابة مايلي:

« **بسم الله الرحمن الرحيم أمر بإنشاء هذا البيمارستان الملك الناصر مولانا السلطان الملك الصالح ابن السلطان الناصر محمد ابن الملك المنصور قلاوون خلد ملكه الله والفقير إلى ربه أرغون الكاملي نائب السلطنة المعظمة بحلب المحروسة غفر الله له وأثابه الجنة في شهور سنة ٧٧٥ هـ (١٣٥٤م)».**

إن الأقسام المعمارية لهذا البيمارستان هي:

❖ حجرتان متواليتان وهما مكان **لمناوبة الأطباء والصيدلية.**

❖ **الصحن الواسع.**

❖ **الرواقان الجنوبي والشمالي.**

❖ **حجرة حبس المجانين.**

❖ **دهليز من الجهة الشمالية.**

❖ **دهليزان.**

❖ **الحوض في وسط البيمارستان.**

❖ **الغطاء النباتي.**

❖ **دهليز ذو أعمدة.**

❖ **إيوانات ..**

- **بهو وفيه خلوات للمرضى ..**

- **القبة** التي تسقف المكان (أو جزء منه)..

- مظلة على إيوانه القبلي (يطلق عليها اسم سحابة) على نمط البيمارستان المنصوري في القاهرة..

الوصف الوارد في أعلام النبلاء والواقع الحالي للبيمارستان:

جاء في أعلام النبلاء» تدخل إلى البيمارستان فتجد عن يمينك حجرة هي الآن خربة ثم تدخل الباب الثاني فتجد عن يمينك حجرة أخرى، كانت هاتان الحجرتان لقعود الأطباء ووضع ما يحتاجون إليه من الأدوية والأشربة، ثم تجد صحناً واسعاً يحيط بطرفيه الجنوبي والشمالي رواقان ضيقان مرفوعان على أعمدة عظيمة،

ووراءهما حجرة صغيرة هي محل حبس المجانين فيها. ثم تدخل من الجهة الشمالية في دهليز وبعد خطوتين تجد دهليزين: الذي على اليمين يأخذ إلى باب آخر للمارستان تخرج منه إلى بوابة صغيرة وهو مغلق الآن والدهليز الذي على اليسار يأخذك إلى صحنين حولهما حجرة صغيرة وهي معدة أيضًا لحبس المجانين.. وقد بلغنا أنه كان في أطراف الصحن الخارجي وعلى أطراف الحوض الذي في وسطه أنواع الرياحين لينظارها المجانين وكانوا يأتون بآلات الطرب وبالمغنيين فيداوون المجانين بها أيضًا .. وكان بلاط الصحن متوهنًا جدًا فاهتم جميل باشا سنة ١٣٠٢ هـ بتبليطه وتجديد حوضه وترميمه..»

أما الواقع الحالي للبيمارستان فيظهر في المسقط التالي:

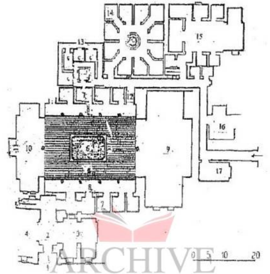
بعد المدخل تلاحظ ردهة إلى جنوبها حجرتان متقابلتان، يبدو أن إحداهما للانتظار والأخرى للمعاينة، وفي شمال الردهة حجرة واسعة وهي صيدلية البيمارستان. ثم تؤدي الردهة إلى **فناء البيمارستان المكشوف الذي تنطلق منه الفعاليات المائية للبيمارستان ،ففيه بئر بفوهتين والحوض المركزي وتعتبر مساحته كبيرة بالنسبة لمساحة الفناء.** يحيط بالصحن غرف المرضى من الطرفين الشرقي والغربي ويمتد أمام هذين الصفين من الغرب رواقان يستند كل منهما على أربعة أعمدة استند عليها سقف الرواق وهو على شكل قناطر مقوسة، يصل بين هذه الأعمدة ألواح خشبية في المنطقة تحت التيجان وهذا الإجراء الإنشائي هو لتخفيف تأثير الزلازل على البناء وتوزيع الاهتزاز عبر هذه الألواح الخشبية. أما في الطرفين الآخرين للصحن فيمتد إيوانان أحدهما كبير في الطرف الجنوبي، والإيوان الشمالي أصغر، **في صدر هذا الإيوان (الشمالي) سلسبيل ماء. ثم هناك ممر (دهليز) يؤدي إلى أجنحة البيمارستان الثلاثة:**

الجناح الأول: وهو عبارة عن أربعة غرف يدخل إليها من ممر داخلي (دهليز) لكل منها نافذة لها قضبان حديدية تطل هذه النوافذ على باحة صغيرة **وهذه الباحة مسقوفة بقبة فيها فوهات تدخل الهواء والضوء.** ويبدو من هذا الوضع الإنشائي الحذر أنّ هذه الغرف كانت مخصصة للخطرين من المرضى العقليين.

الجناح الثاني: ويتكون من إحدى عشر ة غرفة دون منافذ خارجية أيضًا تنفتح أبوابها الداخلية على باحة مسقوفة بشكل يدخل معه الهواء والنور.

الجناح الثالث: فيه أربع غرف وإيوانان ، شكله مستطيل وقبته مستطيلة أيضًا.

وفي البيمارستان أيضًا الخدمات الأخرى مثل المطابخ ودورات المياه.



١ - مدخل

٢ - ردهة

٣ - جنوب الردهة حجرتان متداخلتان هي مكاتب للأطباء ومراجعة المرضى

٤ - صيدلية البيمارستان

٥ - فناء البيمارستان المكشوف

٦ - حوض الماء المركزي

٧ - غرف المرضى في الطرفين الشرقي والغربي

٨ - رواقان يستند كل منهما إلى أربعة أعمدة

٩ - إيوان كبير جنوبي

١٠ - إيوان شمالي أصغر منه مساحة

١١ - سلسبيل ماء في صدر الايوان الشمالي

١٢ - ممر مسقوف (دهليز)

١٣ - أحد الأجنحة وهو مكون من أربع غرف مسيجة بالقضبان الحديدية

١٤ - جناح ثان يتكون من إحدى عشرة غرفة دون منافذ خارجية

١٥ - جناح ثالث وهو أربع غرف وإيوانان.

١٦ - مطابخ

١٧ - دورات مياه

مسقط أفقي للبيمارستان الأرغوني (مأخوذ من الواقع الحالي)

نتائج البحث:

شكلت البيمارستانات الإسلامية منجزاً حضارياً راقياً وذلك في استنادها إلى قواعد شاملة في الطب النظري والعملي والصيدلة بالإضافة إلى الإدارة العالية المرتبطة برأس الدولة مباشرة وإلى المسحات الطبية والمعمارية ذات الطابع الجمالي الخالص.

❖ البيمارستان بوظيفته الطبية الخدمية ظهر ونشأ بظهور الإسلام وبدء الجهاد على نحو ارتجالي ومتنقل، فعرفت المشافي الميدانية التي كانت تنتقل مع الجيوش والمواقع. **وميزة هذه المشافي أنها كانت قائمة على عمل** وإدارة النساء.

❖ انفصلت الوظيفة العسكرية عن البيمارستان وأضحى تكويناً مدنياً وجزءاً من تكوينات المدينة العربية الإسلامية.

❖ أصبح للبيمارستان مكانًا محدداً في العهد الأموي (الوليد بن عبد الملك ٨٨ هـ / ٧٠٦ م) وتبدو خدماته الطبية عامة. ويبدو أن اهتماماً توجه لإلجاء المرضى ذوو الأمراض الخطيرة وأصحاب الإعاقات إلى البيمارستان.

❖ ظهر البيمارستان بصفته مؤسسة طبية مسؤولة تقدم خدماتها الطبية من خلال مرجعيات معتمدة بدءًا ببيمارستان جنديسابور في منطقة خوزستان جنوب العراق ، الذي كان موجوداً قبل دخول الإسلام بثلاثة قرون وظل قائماً إلى ما بعد قيام الدولة العباسية.

❖ ظهرت البيمارستانات في جميع المدن العربية الإسلامية، وكانت في المدن العواصم المركزية تتميز بضخامة فريقها الطبي والصيدلاني كما تتميز بضخامة منشآتها من الناحية المعمارية وظهور الأقسام المتخصصة والقاعات والرواقات وإدخال الماء إلى هذه العمارة ليس بصفته العادية فقط، وإنما بإعطائه دوراً علاجياً بصفته عنصرًا جماليًا مانحاً للحياة. يلاحظ ذلك في البيمارستانات الكبرى في بغداد ودمشق والقاهرة والقدس وحلب.. فاكتسبت بذلك خصوصيات فائقة.

❖ تميزت البيمارستانات الإسلامية ببعد حضاري راقٍ فقد اعتمدت الموسيقا ونوافير المياه والبرك والجماليات الخاصة بصوت « الآذان » من أجل تخفيف حدة الألم والأرق على المرضى.

❖ وفي تطور لاحق ظهر البيمارستان وهو أحد المنشآت في مجمع معماري كبير يضم فعاليات دينية وتعليمية وثقافية وخدمية ضمن هدف محوري لمجتمع عربي إسلامي.

❖ اعتبر منصب رئيس البيمارستان أو «ناظر البيمارستان» من الوظائف الأولى المهمة في الدولة له تقاليد معينة في تسلمه.

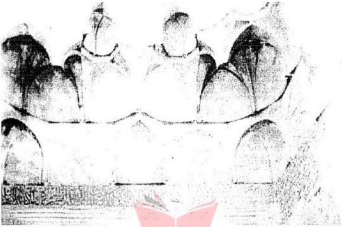
❖ معظم البيمارستانات المركزية ضمت مكتبة طبية وأحيانًا مكتبة متكاملة وتدريساً طبياً عملياً ونظرياً **فاتخذت وظيفة أكاديمية طبية وأجازت الأطباء وكان لها ظهوراً عالمياً واضحاً.**

❖ أنجزت هذه البيمارستانات مؤلفات طبية مهمة تدل على خبرة في الممارسة الطبية داخل البيمارستان.

❖ في التاريخ الطبي والمعماري لهذه المنشآت الطبية نحتاج إلى: تحرير هويتها العربية الإسلامية وإظهار خصوصياتها الطبية من حيث: المكتبات - المؤلفات - الأطباء العاملون والمدرسون والمتخرجون. وكذلك تصدير أسبقيتها وتقدمها في مجال استخدام الموسيقا والماء والجماليات النباتية والمعمارية في المعالجة.



مشهد كامل لبوابة البيمارستان تعلوها نصف قبة مقرنصة والكتابات الزخرفية التعريفية والرنوك.



مشهد مفصل للكتابات والخط الزخرفي وفيه تداخل بين الأسود والأصفر وزخارف خيطية هندسية والكتابة هي:

« بسم الله الرحمن الرحيم أمر بإنشاء هذا البيمارستان الملك الناصر مولانا السلطان الملك الصالح ابن السلطان الناصر محمد ابن الملك المنصور قلاوون خلد ملكه الله والفقير إلى ربه أرغون الكاملي نائب السلطنة المعظمة بحلب المحروسة غفر الله له وأثابه الجنة في شهور سنة ٧٥٥ هـ (١٣٥٤ م).

❖ ❖ ❖

الحياة الفكرية والأدبية في عهد الملك الظاهر غازي الأيوبي

محمد قجة(*)

إن الحديث عن الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين، يعني الحديث عن فترة من الازدهار الذي عرفته مدينة حلب أواخر القرن السادس الهجري - الثاني عشر الميلادي. ذلك الازدهار الذي شمل الجوانب السياسية والاقتصادية والعمرانية والثقافية.

لقد اجتمعت عوامل الازدهار في تلك الفترة لتجعل من حلب مركزاً فائق الأهمية في دورد السياسي والعسكري خلال الحروب الصليبية العدوانية، ومركزاً عمرانياً وثقافياً، استقطب عدداً كبيراً من المؤرخين والمفكرين والأدباء ورجال العلم.

(*) محمد قجة: باحث من سورية، عضو جمعية العاديات بحلب
- العمل الفني: الفنان سعد يكن.

ويمكننا إجمال هذه العوامل فيما يلي:

١- الموقع الاستراتيجي المتميز لمدينة حلب كهمزة وصل بين الأناضول وأوروبا من جهة، والشرق الأقصى وما بين النهرين من جهة ثانية، وأثر ذلك عسكريًا واقتصاديًا.

٢- التركيبة السكانية الحيوية والفاعلة للمدينة، وعودتها لبناء مدينتها بسرعة ونشاط رغم الحروب والكوارث والزلازل.

٣- القيادة الأيوبية المخلصة والحكيمة.

٤- الصحوة السياسية التي عمّت البلاد الإسلامية في القرن السادس، وتمثلت بظهور عماد الدين وابنه نور الدين ثم قيام الدولة الأيوبية. وقد كانت حلب نقطة التحول من الدفاع إلى الهجوم خلال هذه الصحوة، ومنها انطلقت جيوش عماد الدين لتحرير الرها سنة ٥٢٩ هـ - ١١٤٤م[١]

ولا يتسع المجال لذكر ما قاله المؤرخون في مدينة حلب وما امتازت به، ونكتفي بإيراد بعض عبارات ياقوت الحموي في كتابه معجم البلدان حول مدينة حلب:[٢]

«مدينة عظيمة واسعة كثيرة الخيرات، طيبة الهواء، صحيحة الأديم والماء، وشاهدت من حلب وأعمالها ما استدللت به على أن الله تعالى خصّها بالبركة وفضّلها على جميع البلاد، وما زال فيها على قديم الزمان وحديثه أدباء وشعراء، ولأهلها عناية خاصة بإصلاح أنفسهم وتثمير الأموال، فقلّ من ترى من نشئها من لم يتقبّل أخلاق آبائه في مثل ذلك، فلذلك فيها بيوتات قديمة معروفة بالثروة، ويتوارثونها، ويحافظون على حفظ قديمهم بخلاف سائر البلدان».

هذا عن حلب وسكانها، أما الفترة الأيوبية التي نحن بصددها، فقد بدأت مع صلاح الدين سنة ٥٦٧ هـ / ١١٧٢م، في مصر، وامتدت دولته لتشمل أقطار الشرق الأوسط ذات الجذور الحضارية الراسخة، وليكمل الدور الذي بدأه نور الدين في بلاد الشام.[٣]

أما الظاهر غازي، صاحب هذه الدراسة، فهو أبو الفتح غياث الدين غازي بن صلاح الدين يوسف بن أيوب صاحب حلب[٤]، ولد في القاهرة سنة ٥٦٨ هـ / ١١٧٥م وذلك في منتصف شهر رمضان. ورافق والده في حروبه وغزواته وهو صبي صغير، وشهد نصر حطين العظيم وتحرير بيت المقدس.

وحينما ضم صلاح الدين إلى دولته في شهر صفر عام ٥٧٩ / ١١٨٣م، عيّن ابنه الظاهر غازي سلطانا على حلب وذلك يوم ٣ ربيع الأول وجعل معه واليًا سيف الدين أزكش الأسدي، وقرر لابنه أربعة آلاف درهم كل شهر.[٥]

ولكن حكم الظاهر غازي لم يدم سوى بضعة أشهر، وخلفه الملك العادل أخو صلاح الدين في ٢٢ رمضان من العام نفسه، ويغتم الظاهر غازي لذلك ويُسر لمجد الدين بن الخشاب وهو يغادر حلب قائلاً:[٦] «لما بلغني أن السلطان أعطى حلب للملك العادل جرى عليّ ما قدم وما حدث، وأصابني من الهم ما لم أقدر على النهوض به، ووددت أني لم أكن رأيتها ولا دخلت إليها، لأن قلبي أحبها وقبلها وطاب لي هواؤها. ولما فارقتها كدت أحن إليها وأشتاقها».

ويوم الجمعة ٩ جمادى الآخرة ٥٨٢ هـ / ١١٨٦م يعود الظاهر غازي واليًا على حلب ويروي ابن الأثير لعودته سببًا طريفًا خلاصته[٧] «أن أحد كبار الجند الأيوبي في حلب، وصديق صلاح الدين قال له يومًا: بالله ما تستحي يكون الطائر أهدى منك إلى المصلحة، قال صلاح الدين: وكيف ذلك؟ وهو يضحك. قال: إذا أراد الطائر أن يعمل عشا لفراخه قصد أعالي الشجرة ليحمي فراخه، وأنت سلمت الحصون إلى أهلك، وجعلت أولادك على الأرض، هذه حلب وهي أم البلاد بيد أخيك.. قال صلاح الدين: صدقت، وأكتم الأمر، ثم أخذ حلب من أخيه».

ويروي ابن شداد عن الظاهر غازي أنه كان (رحمه الله) يعلم أن حلب هي أصل



الملك وجرثومته وقاعدته ولهذا دأب في طلبها ذلك الدأب، ولما حصلت له أعرض عما عداها من بلاد المشرق.[٨]

وحينما توفي صلاح الدين[٩] في ٢٧ صفر ٥٨٩ / ٣ آذار ١١٩٣. توزعت دولته بين أبنائه وأخوته وأبناء أخوته. وبقي الظاهر في حلب. وكان لا بد أن يحدث الصراع على السلطة بين أبناء الأسرة الأيوبية لأن نظام وراثة الحكم لم يكن واضحًا ولا راسخًا لدى هذه الأسرة. وقد استمر حكم الظاهر في حلب بين مد وجزر واتساع وانكماش وخلافات مع إخوته وعمه العادل الذي استطاع بحزمه ودهائه أن يقبض على زمام الأمور في الدولة الأيوبية، مما جعل الظاهر غازي يقوي مركزه الذي

ضعف في حلب بزواجه من ضيفة خاتون ابنة عمه العادل.

وقد توفي الظاهر غازي ليلة الثلاثاء ٢٠ جمادى الآخرة سنة ٦١٣هـ ودفن بالقلعة ثم بنى الطواشي شهاب الدين طغرل الخادم مدرسة تحت القلعة وعمر فيها تربة ونقله إليها (رحمه الله تعالى).[١٠]

❖ ❖ ❖

أصبحت حلب في عهد الظاهر الأيوبي بن صلاح الدين محجاً للعلماء والأدباء يأتون إليها من كل حدب وصوب، وقد عادت إليها مكانتها التي شهدتها أيام سيف الدولة الحمداني وبلاطه الأدبي الجليل. وكان الزنكيون قد بدأوا نهضة عمرانية وعلمية في المدينة تابع الأيوبيون مسيرتها في شتى المجالات. لهذا ليس بدعًا أن نرى حلب يتزاحم فيها رجال العلم والثقافة في ميادين علوم الدين من تفسير وحديث وفقه وتصوف، وعلوم اللغة من نحو وبلاغة، إلى جانب علماء التاريخ والجغرافية والتراجم والفلك والطب والفلسفة. وكان لا بد لذلك من التوسع في بناء المدارس والانفاق عليها وتشجيع أساتذتها وطلابها، إلى جانب الدور الكبير الذي كانت تقوم به المساجد في التدريس.

فبالإضافة إلى المدارس التي كانت قائمة قبل الظاهر غازي كالمدرسة الزجاجية والنورية والعصرونية، والقدمية، والشعبية، والأسدية، والحلاوية. فإن عهد الظاهر غازي شهد بناء مدارس عديدة منها الظاهرية السلطانية أمام القلعة وفيها تربته.

والظاهرية البرانية، والصاحبية التي بناها ابن شداد ٦٠١هـ والهروية، والجردكية، ومدرسة الفردوس بمحرابها النفيس وجوها الهادئ المريح وقد بنتها زوجته ضيفة خاتون.[١١]

أما بقية المدارس في عهد ابنه محمد العزيز وحفيده يوسف الناصر فقد زاد عددها على ١٥ مدرسة في حلب وحدها.

يقول ابن خلكان: «ولما وصلت إليها لأجل الاشتغال بالعلم الشريف، وكان وصولي إليها في مستهل ذي القعدة، وهي إذ ذاك أم البلاد مشحونة بالعلم والعلماء والمشتغلين».[١٢]

ومن أبرز العلماء الذين عرفتهم حلب في عهد الظاهر غازي:

الآمدي وتقي الدين عثمان ابن الصلاح، وإبراهيم بن يوسف القفطي وعبد الله بن أبي عصرون، والكاساني، والقطب النيسابوري[١٣] في مجال علوم الدين.

أما في مجال علوم العربية فقد ظهرت في حلب شخصيات لامعة على مدى

العصور من أبرزهم **ابن يعيش وابن مالك والواسطي والموصلي والجماعيلي وابن عمرون والشواء وابن خروف والمازنداني**.[١٤]

وفي التاريخ لمعت أسماء كبرى في مدينة حلب في طليعتهم **كمال الدين ابن العديم** صاحب «بغية الطلب في تاريخ حلب»[١٥] **وابن شداد** صاحب الأعلاق الخطيرة **وياقوت الحموي** في «معجم البلدان» و «معجم الأدباء» **وابن خلكان** صاحب كتاب «وفيات الأعيان وأبناء الزمان»[١٦]

وفي ميدان الفلك والرياضيات والطب نلاحظ أسماء لامعة مثل **القفطي والجماعيلي وعبد اللطيف البغدادي وعفيف بن سكرة الحلبي وحسون الرهاوي**.[١٧]

وعرفت حلب خزائن الكتب في المدارس والمساجد والبيوت، وكان في عصر الظاهر غازي أكثر من مكتبة من أهمها مكتبة **المدرسة النورية**[١٨] **ومكتبات بني جرادة**[١٩] **ومكتبة المدرسة الحلاوية والعصرونية** وغير ذلك.

❖ ❖ ❖

قبل أن ننتقل إلى الحياة الشعرية في عصر الظاهر غازي لا بد لنا من وقفة سريعة مع ظاهرة أربكت المؤرخين والباحثين، واختلفت آراؤهم حولها خلال العصور، وهي ظاهرة السهروردي. فمن هذا الرجل؟

ولد شهاب الدين أبو الفتوح يحيى ابن حبش بن أميرك في بلدة «سهرورد»[٢٠]، عام ٥٤٩ هـ / ١١٥٤م، وسافر إلى مراغة في أذربيجان حيث تلقى العلم عن الشيخ مجد الدين الجيلي وتعرف هناك إلى فخر الدين الرازي، ومنها قصد أصفهان حيث اطلع على كتب ابن سينا، ثم إلى خربوط في ديار بكر، ثم حط رحاله في حلب عاصمة الفكر والثقافة في ذلك العصر وذلك عام ٥٧٩ هـ، ونزل في المدرسة الحلاوية وهو ابن ثلاثين سنة. ويتحدث عنه ياقوت الحموي فيقول: «كان فقيها شافعي المذهب أصوليًا أديبًا شاعرًا حكيمًا متصنفا نظارًا لم يناظره مناظر إلا خصمه وأقحمه».[٢١]

وفي المدرسة الحلاوية تعرف إلى شيخها الشريف افتخار الدين وأصبح من أوثق تلامذته وأصدقائه، وسرعان ما ذاع صيته في المدينة وعرف ذكاؤه وفضله وعلمه وزهده في الحياة. كما قيل إنه كان على دراية بعلم السيمياء، وتروى عنه في ذلك بعض الطرائف[٢٢].

استطاع الشيخ افتخار الدين أن يقرب السهروردي من مجلس الملك الظاهر غازي، فأعجب به الملك ورحب به واستمع إلى حديثه بشوق ولهفة، ويبدو أن هذا القرب

من السلطان أوغر صدر بعض حاسديه فدفعهم للكيد له والحملة عليه واتهامه بالزندقة ثم الإلحاد. وهو منشغل عنهم بعلمه وتأملاته ورؤيته الإشراقية.

وحينما لم يجد خصومه من الفقهاء أذنًا صاغية لدى الظاهر غازي رفعوا الأمر إلى أبيه صلاح الدين، وكان صلاح الدين معروفا بالتقوى والورع والنفور من الفلسفة وأصحابها. وكان مما قالوه لصلاح الدين في رسائلهم: «أدرك ولدك وإلا تتلف عقيدته»[٢٣] فأمر صلاح الدين ولده الظاهر غازي بنفي السهروردي من حلب. ولكن الظاهر غازي تلكأ في انفاذ أمر أبيه، مما أغاظ الفقهاء الذين كان يقودهم الشيخان زين الدين ومجد الدين ابنا جميل مما اضطر الظاهر غازي إلى إقامة مناظرة بين السهروردي وخصومه، بعد موافقة أبيه صلاح الدين على إقامة هذه المناظرة، وقد دخل خصومه المناظرة بنية مسبقة لتكفيره ورفض حججه واعتبار الفلسفة أمرا محرّما، ورغم أنه كان يستخدم الحجج في نقاشه من صميم الدين، فقد أفتى الفقهاء بأنه كافر وأهدروا دمه. وانصاع الظاهر غازي لإرادتهم وخيّر السهروردي في أسلوب تنفيذ الحكم فاختار الموت جوعًا وعطشًا، وكأنه بذلك يمارس ترويض نفسه حتى آخر لحظة.

وفي يوم الجمعة العاشر من ذي الحجة سنة ٥٨٧ هـ أخرج الشهاب السهروردي ميتا من الحبس بحلب فتفرق عنه أصحابه. ويروى أنه أنشد قبيل موته[٢٤]:

أرى قدمي أراق دمي

وهان دمي فها ندمي

لقد كان السهروردي عالمًا موسوعيًا: كان فيلسوفًا، وكان متصوفًا، وكان شاعرًا، وكان حكيمًا، وكان أديبًا قاصًا، وعالمًا بالفلك، وقد كتب على ضريحه هذان البيتان[٢٥]:

قد كان صاحب هذا القبر جوهرة

مكنونة قد براها الله من شرف

فلم تكن تعرف الأيام قيمته

فردها غيرة منه إلى الصدف

وكان في الثامنة والثلاثين من عمره حين وفاته.

وقد أحصى له تلميذه الشهرزوري ٤٩ مؤلفًا. بينما ذكر له المستشرق الألماني «ريتر» ٩٣ رسالة في موضوعات مختلفة. ومن أبرز كتبه «هياكل النور - حكمة الإشراق - مجموعة في الحكمة الإلهية - الألواح العمادية - اللمحات - التنقيحات في أصول الفقه».

ومن أمثلة كتاباته في التصوف هذا الدعاء:

الله.. يا قيام الوجود وفائض الجود، ومنزل البركات، ومنتهى الرغبات، منور النور، ومدبر الأمور، واهب حياة العالمين، أمددنا بنورك، ووفقنا لمرضاتك، وألهمنا رشدك، وطهرنا من رجس الظلمات، وخلصنا من غسق الطبيعة إلى مشاهدة أنوارك ومعاينة أضوائك، ومجاورة مقربيك، وموافقة سكان ملكوتك، واحشرنا مع الذين أنعمت عليهم من الملائكة والصديقين والأنبياء والمرسلين.

ومن أشهر قصائده وأجملها حائيته في الحنين، ومنها قوله:[٢٦]

أبدا تحن إليكم الأرواح

ووصا لكم ريحانها والراح

وارحمتا للعاشقين تكلفوا

ستر المحبة والهوى فضاح

بالسرّ إن باحوا تباح دماؤهم

وكذا دماء العاشقين تباح

عودوا بنور الوصل في غسق الجفا

فالهجر ليل والوصال صباح

لا ذنب للعشاق ان غلب الهوى

كتمانهم، فنما الغرام فباحوا

ودعاهم داعي الحقائق دعوة

فغدوا بها مستأنسين وراحوا

قم يا نديم إلى المدام وهاتها

فبحانها قد دارت الأقداح

من كرم اكرام بدنّ ديانة

لا خمرة قد داسها الفلاح

ومن قصائده المشهورة رثاؤه نفسه وقد شعر بدنو أجله ومنها قوله:

قل لأصحاب رأوني ميتا

فبكوني إذ رأوني حزنا

لا تظنوني بأني ميت

لي ذا الميت، والله، أنا

أنا عصفور وهذا قفصي

طرت منه فتخلى رهنا

عنصر الأرواح فينا واحد

وكذا الأجسام جسم عمّنا

ما أرى نفسي إلا أنتم

وأعلموا أنكم في أثرنا

أما فلسفة الإشراقية فيلخصها في كتابه «هياكل النور».

«إن الله نور الأنوار، ومصدر جميع الكائنات، فمن نوره خرجت أنوار أخرى هي عماد العالم المادي والروحي، والعقول الفارقة ليست إلاّ وحدات من هذه الأنوار تحرّك الأفلاك وتشرف على نظامها».

وحاول السهروردي دمج الفيلسوف والمتصوف بكلمة «الحكيم». وقد تأثر إلى حد كبير بآراء ابن سينا وكتاباته الفلسفية، وبخاصة «الشفاء» و «الحكمة المشرقية».

وقبل أن نترك السهروردي لا بد لنا من الإشارة إلى أن عصر السهروردي شهد أعظم متصوف في تاريخ الإسلام وهو الشيخ محي الدين بن عربي الأندلسي الذي زار بلدان المشرق ووفد على الظاهر غازي من حلب في السنوات الأخيرة من حكمه، وكتب في حلب كتابه «الحكمة الإلهامية»، وقد نقم عليه فقهاء المدينة وحاولوا النيل منه ولكن الظاهر غازي لم يعرهم انتباها. ويبدو أنه كان قد ندم على ما فعله بالسهروردي. كما شهد عصر السهروردي واحدًا من أعظم علماء الفلسفة في تاريخ الإسلام وهو ابن رشد الأندلسي الذي [٢٩] توفي بعد ثماني سنوات من وفاة السهروردي. وقد تعرض ابن رشد لمحنة مماثلة على يد السلطان المنصور الموحدي، ولكن السلطان اكتفى بمصادرة كتبه وإحراقها وإلزامه الإقامة الإجبارية قرب قرطبة. ثم رضي عنه السلطان وقربه. وهكذا نجد أن السهروردي دفع ثمنًا غاليًا لم يدفعه معاصروه الآخرون من فلاسفة ومتصوفين.

❖ ❖ ❖

نصل الآن إلى الشعر في عصر الظاهر غازي صاحب حلب . و نحن نعلم أن الشعر كان دائمًا ديوان العرب و صحافتهم و جهاز إعلامهم .لذا لم يكن غريبًا أن يتبوأ الشعراء مكانة اجتماعية بارزة ، و أن يقربهم إلى حكامهم كسبا لألسنتهم .

و لقد استمرت موضوعات الشعر التقليدية التي عرفها العرب من مديح و نسيب و فخر و هجاء و غزل ووصف و رثاء و خمريات و اخوانيات و حكمة ، إلى جانب انتشار شعر الدعابات و الألغاز و التأريخ والغلمانيات ، و معرفة الموشحات والمخمّسات و قصائد الزهد و التصوف و الأناشيد الدينية [٣٠] .

و إلى جانب الموضوعات التقليدية استمر الشكل التقليدي للقصيدة العربية في صياغتها وألفاظها وتراكيبها وصورها وموسيقاها . و قد اتكأ الشعراء - عامة - على الشعر القديم يستوحون منه صورهم ، و ينظرون إليه بقدر كبير من الإعجاب و التقديس . ففي مجال المديح نلاحظ استمرار الصور نفسها : فالممدوح ليث في شجاعته، بحر في جوده، شمس في توهجه، شهاب في ضيائه .. الخ.

قال ابن العديم يمدح الظاهر غازي:

قرم ترى في الدرع منه لدى الوغى
أسدا على الأعداء وصلا أرقما [٣١]

و المرأة الجميلة ظبي في رشاقتها ولحظها وجيدها غصن في تأودها ، لها خد كالورد وقوام كالرمح ، وشعر كالليل ووجه كالصباح ...إلى آخر ذلك من الصور

المألوفة. كما وصف الشاعر العاشق شوقه ولوعته وارتقابه لقاء المحبوب.

يقول الشاعر ابن ممّاتي في وصف محبوبته:(٣٢)

سمراء قد أزرت بكل أسمر

بلونها ولينها وقدّها

أنفاسها دخان ندّ خالها

وريقها من ماء ورد خدّها

لو كتب البدر خدمتها

رسالة ترجمها بعبدها

وفي الهجاء نلاحظ كيف تراجعت المعاني القبلية لتفسح مجالا لتصوير سوء الخلق والمعايب الفردية وفساد المجتمع والهجاء السياسي أحيانا.

يقول الواسطي:

لا خير في أوجه صباح

تسفر عن أنفس قباح

كالجرح يبنى على فساد

بظاهر ظاهر الصلاح

فقل لمن ماله مصون

أصبت في عرضك المباح

ومن أبرز قصائد الرثاء قصيدة راجح الحلّي في وفاة الظاهر غازي وفيها تتردد معاني الرثاء المألوفة في الشعر العربي:(٣٣)

سل الخطب أن أصغى إلى من يخاطبه

بمن علقت أنيابه ومخالبه

فما لي أرى الشهباء قد حال صبحها

علّي دجى لا تستنير غياهبه

أحقا حمى الغازي الغياث بن يوسف

أبيح، وعادت خائبات مواكبه

فمن مخبري عن ذلك الطود هل هوت

قواعده، أم لان للخطب جانبه

فتى لم يفته من أبيه وجدّه

أباء وجدّ غالبا من يغالبه

ومن أمثلة الغزل بالمذكر قول ابن خروف يصف غلاما:(٣٤)

ومتنوع الحركات يلعب بالنهى

لبس المحاسن عند خلع لباسه

متأوّد كالغصن بين رياضه

متلفّت كالظبي عند كناسه

بالعقل يلعب مقبلا أو مدبرا

كالدهر يلعب كيف شاء بناسه

ويضم للقدمين منه رأسه

كالسيف ضم ذبابه لرئاسه

ويتغنى الشعراء بحلب ويصفون مرابعها ويشتاقون إليها.

قال عبد الرحمن بن النابلسي يصف

الميدان الأخضر الذي جدده الملك الظاهر غازي وأقام فيه مضماراً لسباق الخيل:(٣٥)

فحبذا في حلب مسارح

للحسن روح الروح في عيانها

وحبذا ما تمرح الأعين في

مروجه الفيحاء في ميدانها

رحب مجال الخيل ممتد مدى

السابق في الحلبة من فرسانها

لا يبلغ الغاية من أقطاره

ألا فتى يطلق من عنانها

وقال عيسى بن سعدان يشتاق إلى حلب:(٣٦)

يا حبذا التلعات الخضر من حلب

وحبذا طلل بالسفح من طلل

يا ساكني البلد الأقصى عسى نفس

من سفح جوشن يطفي لاعج الغلل

طال المقام فوا شوقاً إلى وطن

بيد الأحص وبين الصحصح الرمل

وممن كتبوا الموشحات من شعراء الظاهر غازي في حلب القاسم الواسطي، وقلد الموشحات الأندلسية في موضوعاتها وبنائها. ومن موشحاته قوله:

أيّ عنبريّه

في غلائل الغلس

من زبرجديّه

تنبّه النعس

وفي المخمسات نكتفي بمثال لحفيد الظاهر غازي وهو الملك الناصر بن العزيز، ويخيل لمن يسمع شعره أن شاعراً جاهلياً هو الذي يتكلم:(٣٧)

أقول وقد غنّت على باب لعلع

مطوّقة ما نوحها من تفجّع

وقد أضرمت في القلب نار التوجّع

حمامة غصن البان إن كنت تدعي

فراق حبيب بان من غير مرجع

❖ ❖ ❖

لقد شهد بلاط الظاهر غازي خلال السنوات الإحدى والثلاثين التي حكم فيها حلب عدداً كبيراً من الشعراء، منهم من لزمه واختص به، ومنهم من أقام في حلب ثم غادرها.

وفي طليعة هؤلاء الشعراء راجح الحلّي نديم الظاهر وصفيّه. والمتوفى ٦٢٧هـ. ومن جميل شعره قوله:(٣٨)

خداه وردي والعذار بنفسجي

والريق خمري واللواحظ نرجسي

فكأنني من خده وعذاره

ورضابه ولحاظه في مجلس

ومن هؤلاء الشعراء يوسف الشواء وهو

حلبي المولد والوفاة، توفي عام ٦٣٢هـ، وكان صديقًا لابن خلكان صاحب الوفيات. وهو خفيف الروح، كثير الغزل بالذكر لاذع الهجاء.[٣٩]

ومنهم: ابن ممّاتي، المتوفى ٦٠٦هـ، وأصله من أسيوط بمصر، ومن جميل قوله يصف الثلج في حلب.[٤٠]

قد قلت لما رأيت الثلج منبسطًا

على الطريق إلى أن ضل سالكها

ما بيض الله وجه الأرض في حلب

الا لأن غياث الدين مالكها

ومنهم ابن خروف الأندلسي المتوفى ٦٠٩هـ[٤١]. وقد طاب له المقام في حلب، وفيها يقول:

حلبت الدهر أشطره

وفي حلب صفا حلبي

ومنهم الشهاب السهروردي الذي مر ذكره. والقاسم الواسطي المتوفى ٦٢٦هـ، وهو من العراق واختار حلب دار إقامة، واتصل بالظاهر ومدحه[٤٢]، وله شعر كثير في الهجاء وشكوى الدهر. ومن ذلك قوله:

عذبت في النفاق ألسنة القوم

وفي الألسن العذاب العذاب

ومنهم القفطي وأصله من صعيد مصر، وأقام في حلب، وفيها توفي ٦٤٦هـ، وكان عالمًا أديبًا شاعرًا، واتصل بالظاهر غازي، ومن مدائحه فيه قوله[٤٣]:

وراحتاه راحة للورى

على كريم الخلق مخلوقتان

فكفه اليمنى لبسط الغنى

وكفه اليسرى لقبض العنان

ومنهم ابن العديم المؤرخ والأديب والكاتب والشاعر والخطاط والسفير. وله شعر كثير في الإخوانيات[٤٤] منه قوله يحن إلى حلب ويخاطب ابنه:

هذا كتابي إلى من غاب عن نظري

وشخصه في سويدا القلب والبصر

حتى الشمال التي تسرى على حلب

ضنّت علي فلم تخطر ولم تسر

ومن شعراء تلك الفترة في حلب ابن سعيد الأندلسي والتلعفري وابن المرصص والباز الأشهب علوان وعيسى ابن سعدان والهروي ومسعود بن الفضل النقاش والقيسراني وابن سنينيره. وسواهم ممن لا يتسع المجال لذكرهم.

إن بلاط الظاهر غازي بن صلاح الدين الأيوبي في حلب كان مجالاً رحبا لرجال الفكر والأدب والشعر، وقد عاشت حلب خلاله فترة من فترات ازدهارها الفكري والاقتصادي والثقافي التي تفخر بها على مر العصور.

هوامش

١- ابن الأثير - الكامل في التاريخ - ٨/٩
٢- ياقوت الحموي - معجم البلدان - ٢٨٢/٢
٣- ابن الأثير - الكامل في التاريخ - ١١١/٩
٤- ابن خلكان - وفيات الأعيان - ١٧٨/٣
٥- الطباخ - أعلام النبلاء - ١١٩/٢
٦- الطباخ - أعلام النبلاء - ١١٩/٢
٧- ابن الأثير - الكامل في التاريخ - ١٧٢/٩
٨- الطباخ - أعلام النبلاء - ١٣٦/٢
٩- ابن الأثير - الكامل في التاريخ - ٢٢٥/٩
١٠- ابن خلكان - وفيات الأعيان - ١٧٨/٣
١١- محمد كرد علي - خطط الشام ١٠٤/٦ وما بعدها
١٢- ابن خلكان - وفيات الأعيان - ٤٦/٦
١٣- الطباخ - أعلام النبلاء - ٦٦/٢
١٤- الطباخ - أعلام النبلاء - ٤٣٣/٤
١٥- الطباخ - أعلام النبلاء - ٣١٣/٢
١٦- الطباخ - أعلام النبلاء - ٤٣٠/٤
١٧- الطباخ - أعلام النبلاء - ٣٥٤/٤
١٨- ابن شداد - الأعلاق الخطيرة - ١١١/١
١٩- محمد كرد علي - خطط الشام - ١٩٣/٦
٢٠- ابن خلكان - وفيات الأعيان - ٣١٢/٥
٢١- ياقوت الحموي - معجم الأدباء - ١٩ / ٢١٥
٢٢- الطباخ - أعلام النبلاء - ٢٧٥/٤ وما بعدها.

❖ ❖ ❖

حلب في أسفار الرحالة العرب (ق٤هـ/١٠م - ق٨هـ/١٤م)

د. كارين صادر(*)

هي كلمة واحدة موحية، ممتدة المعنى على قصرها، قادرة على أن تحمل في حروفها الأربعة ما تعجز كل الكلمات والعبارات عن استيعابه واختصاره: فهي تختزل الحياة بكل محطاتها ومسالكها، بداية من العدم وانتهاء بالموت. إنها كلمة «الرحلة».

وإن حياة أي فرد منّا تبدأ برحلة من العدم إلى الوجود، ومن الرحم إلى مرفأ الحياة، ثم تليها رحلة تقلّنا من مرفأ الطفولة إلى مرفأ المراهقة، ولا نلبث بعدها أن نحزم أمتعتنا بكل فخر، نحو ميناء الشباب.

أما بعد هذه المرحلة، فيصبح من المحتّم علينا، وقد بلغنا في رحلتنا محطة النضج، أن نعوّد النفس على الترحال الذي أصبح طعمه مرّاً ومتعباً، لكنه إجباري:

(*) د. كارين صادر: أديبة وباحثة في التراث العربي، من لبنان الشقيق..

- العمل الفني: طاهر البني

فحتى لو أردنا التمنّع عن القيام بهذه الرحلة نراها تحدث فينا. ومن محطة الكهولة إلى محطة الشيخوخة، ومن رحلة الصحة إلى رحلة المرض، فالعجز إلى أن نحطّ الرحال في آخر محطاتنا ونسكن مستسلمين لما قدّر علينا جميعاً.

ومع أن الخط العريض لهذه الرحلة هو واحد لدى كل البشر، إلا أننا أحرار في اختيار ما نطعّم به حياتنا أثناء وجودنا في هذه الرحلة، برحلات صغرى شبه طوعية نقوم بها ضمن الرحلة الكبرى. فبعضنا يختار السفر ضمن المكان، فيقوم بهجرة داخل الوطن أو خارجه، وبعضنا يختار شريكاً له في الرحلة، أو يفضّل التخفف من أثقال الارتباط وينجز رحلته وحده. وهناك من يختار أن يقوم برحلة علمية، أو أدبية، أو فنية، أو حرفية حسب اهتماماته ومواهبه، وحسب ما تيسر له ظروفه من إمكانيات تؤهله لترجمة طموحاته وميوله الفطرية إلى واقع يحياه.

وما سنتناوله في بحثنا هذا؛ هو الرحلة بمعناها المادي، فمرادنا رحلات تمتّ فعلاً في إطار مكان هو: مدينة حلب الشهباء بوصفه البعد الرئيسي في إنتاج مادة ذات طبيعة جغرافية وإنسانية، انعكست بصورة أو بأخرى على رؤية كاتبها.

وكانت حلب قديماً تقع على طريق القوافل القادمة من أوروبا إلى الهند وبالعكس وكانت مركزاً تجارياً هاماً بين الشرق والغرب، وقد أهّلها موقعها لأن تكون ذات مركز تجاري هام بين الشرق والغرب، ميناؤها أنطاكية، وامتدادها عراق العجم شرقاً وفلسطين ومصر والحجاز جنوباً. فنشطت التجارة بالمدينة، وبنيت الخانات فيها وتعددت.

وهي جغرافيا تحتل ربوات في وطأة من الأرض بموقع تتوفر فيه جميع أسباب الحياة من المياه والخضرة والتربة الحسنة. يخترقها نهر قويق الصغير. وفي ربوعها ينبت الفستق الحلبي الذي ينسبه العالم إليها. وقديماً مرّ بها الإسكندر ورفقته أرسطاطاليس فلما عرف صحة هوائها استأذن الإسكندر بالإقامة بها فأجابه لطلبه[1].

- دوافع الرحلة:

تتعدد الدوافع التي تحمّس الإنسان للرحلات، وهي تختلف من شخص إلى آخر، ومن قوم لقوم، ومن عهد لعهد، لكنها إجمالاً لا تخرج عن أن تكون:

- **دوافع دينية:** من أهمها الحجّ إلى الأماكن المقدسة.

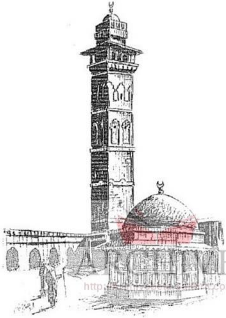
- **دوافع علمية أو تعليمية:** للاستزادة من العلم في مناطق ذاع صيتها في مجالات العلوم كافة.

- **دوافع سياسية:** منها الوفود

والسفارات التي كان يبعث بها الملوك والحكام إلى ملوك وحكام الدول الأخرى لتوطيد العلاقات ومناقشة شؤون الحرب والسلم.

- **دوافع سياحية:** وذلك يكون استجابة لرغبة في الطواف والسفر، وحب التنقل والتعرف على ثقافات وحضارات أخرى.

- **دوافع اقتصادية:** بحثاً عن سبل للتجارة وتبادل السلع، أو لفتح أسواق جديدة لمنتجات محلية، أو لجلب سلع تتوفر في بلاد أخرى.



- **دوافع صحية:** بحثاً عن علاج أو دواء.

وهناك دوافع أخرى عديدة كالهروب من عقوبة، وضيق العيش، أو سخطاً من الأحوال السائدة وغيرها[٢]...

ويطلعنا المسعودي، وهو من رحالة القرن الرابع الهجري/ العاشر للميلاد، على فوائد الرحلة فيقول: «ليس من لزم جهة وطنه وقنع بما نما إليه من الأخبار من إقليمه، كمن قسم عمره على الأقطار، ووزع بين أيامه تقاذف الأسفار، واستخراج كل دقيق من معدنه، وإثارة كل نفيس من مكمنه».

- **أهمية أدب الرحلة:**

رسّخت الرحلة كل العوامل والمفاهيم التي بنيت عليها مسألة وحدة البشر على الأرض، بل إنها فجّرت في الإنسان استشعار المصالح المشتركة التي وثقت عرى

هذه الوحدة على الأرض. ومن غير الرحلة ينفرط عقد هذه الوحدة وتتضرر حركة الحياة ومصيرها المشترك[٣].

وقدّمت الرحلة الخدمة الكبرى لعلم الجغرافيا؛ فقد كان الرحالة في وصفه المسالك والممالك معيناً للجغرافي، لأنه يكتب بقلم المتصل مباشرة بالظواهر الجغرافية والطبيعية، فهو قد رأى، وسمع، ولامس كل ما كتب عنه، كما أنه ذو نفع للمؤرخ، ولعالم الاجتماع، والأديب، والفلكي، والفيلسوف، والسياسي، والاقتصادي.

ومن المعروف أن العديد من المؤرخين والجغرافيين يعتبرون رحالين، وقد قدّموا لنا معلومات ليس فقط عن البلاد الإسلامية وحدها، وإنما تعدّوها في رحلاتهم وأخبارهم إلى بلاد أجنبية أخرى في آسيا، وأفريقيا، وأوروبا فيما بعد. وكان لهم الفضل في حفظ ودراسة المادة الجغرافية الهائلة التي أورثها العلماء اليونان من أمثال: إسترابون، وبلينيوس، وبطليموس[٤].

أما القيمة الأدبية، فتتجلى فيما يقول د. حسني محمود حسين في ما تعرض فيه موادها من أساليب ترتفع بها إلى عالم الأدب، وترقى بها إلى مستوى الخيال الفني.

وإن أبرز ما يميز أدب الرحلة هو أسلوب الكتابة القصصي المعتمد على السرد المشوق بما يقدمه من متعة ذهنية كبرى. وهذا ما حدا بالدكتور شوقي ضيف إلى اعتبار أدب الرحلة عند العرب:

«خير ردّ على التهمة التي طالما اتهم بها الأدب العربي، تهمة قصوره في فن القصة[٥].

وعن هذا النوع من الأدب يقول كراتشكوفسكي: «أثار هذا الأدب اهتماماً بالغاً بسبب تنوعه وغنى مادته: فهو تارة علمي وتارة شعبي، وطوراً واقعي وأسطوري على السواء. تكمن فيه المتعة كما تكمن فيه الفائدة. لذا فهو يقدم لنا مادة دسمة متعددة الجوانب لا يوجد مثيل لها في أدب أي شعب معاصر للعرب[٦].

وقد أفاد أدب الرحلة بغنى موضوعاته في صرف أصحابه في غالب الأحيان عن اللهو، والعبث اللفظي، والتكلف وتزويق العبارة، إيثاراً للتعبير السهل المؤدي للغرض لنضجه بغنى تجربة صاحبه، مما يفتقده كثير من الأدباء في بعض عصورنا الأدبية.

وبهذه الميزات والشمولية يمكن اعتباره نمطاً خاصاً من أنماط القول الأدبي، قد لا يرقى إلى مستوى الفن بذاته كفن القصة أو الشعر أو المسرحية أو المقالة الأدبية، فهو خليط منها كلها[٧].

- تاريخ الرحلة عند العرب:

كانت حياة العربي قبل الإسلام رحلة

دائمة بحثاً عن أماكن الكلأ والماء في الصحراء، كما كانت لهم رحلات تجارية مع العراق، والشام، واليمن، ورحلات أخرى شعرية يقوم بها الشعراء داخل الجزيرة وخارجها.

وقبيل الإسلام، شارك العرب بدور بارز في التجارة البحرية في المحيط الهندي، وارتحلوا بمنتجاتهم إلى شواطئ السند، والهند، وجزيرة سيلان، حتى أصبحت للفرس اليد الطولى على العرب إبان الدولة الساسانية، ونازع البطالمة والرومان العرب في النفوذ على المحيط الهندي، والبحر الأحمر، والأبيض[٨].

ثم جاء الإسلام يدعو المسلمين للسعي في الأرض، والسير في البر وركوب الفلك، وخوض البحار والانتفاع بها تجارة أو صيداً. وكان من أسسه الخمسة حجّ البيت لمن استطاع إليه سبيلاً، وكانت فتوحاته قد خلقت ظروفاً جديدة اقتضت الرحلة والبحث: فقد وحّد العرب بلداناً كان عليهم التعرف عليها لضبط شؤونها المالية والإدارية[٩].

ومن أهم الرحلات التي تمت في عهد الرسول (ص) اثنتان: واحدة تنسب إلى تميم الداري؛ وهو صحابي ولاه الرسول أرضاً بالقرب من الخليل أحد أقاليم فلسطين. والثانية: قام بها عبادة بن الصمت[١٠].

وفي الحقبات التالية، كان المسلمون قد علقوا بعلوم اليونان وكتبهم، فتأثرت أبحاث العرب الجغرافية في عهدها الأول بما وصل إليه اليونان من قبل. وكان أثر بطليموس على الجغرافيين كبيراً جداً، وقد حاكوه في كثير من كتبهم لكنهم لم يبدأوا في تمثل الخبرات الخاصة بهم إلا بعد رسوخ قدمهم وازدياد معارفهم العلمية بعد عام ٨٠٠م.

وكان من أحذقهم في هذا الباب «سلام ترجمان» الذي يروي أن الخليفة الواثق (٨٤٤ - ٨٤٧م) أرسله في بعثة إلى بلاد الصين ليشاهد السدّ الذي بناه الإسكندر في ديار يأجوج ومأجوج، وعادت الرحلة لتقص على الناس أخبار الصين وعجائبها[١١].

واستمرت الرحلات بعدها بشكل فردي وخجول حتى كان القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي الذي شهد الاضمحلال النهائي للخلافة الإسلامية، ولكنه شهد أيضاً ازدهار الرحلة العربية ففيه:

- زاد عدد الرحالة بشكل يفوق الوصف، ومنهم نذكر: المسعودي، ابن حوقل، والمقدسي، البلخي، وقدامة بن جعفر، وابن فضلان وسواهم..

- ظهرت لأول مرة خرائط للبلاد العربية الإسلامية.

- ظهرت بعض المعاجم التي تضمّ أسماء الأقطار والأماكن المختلفة.

- وصل الرحالة إلى آفاق بعيدة، خاصة الأصقاع الشمالية من العالم[12].

وأما أول من وضع الأساس لهذا الفن فكان «ابن العربي» الفقيه الإشبيلي الذي طاف في الشام والعراق والحجاز ومصر وعاد إلى الأندلس، لكن وصف رحلته الذي ضمنه كتابه «الرحلة» أو ترتيب الرحلة فمفقود.. وقد نقل عنه كل من ابن خلدون والمقري.

وجاء ابن جبير بعده ليؤصل هذا الاتجاه في كتابه الرحلة بصياغة أدبية عالية، حتى ليمكن القول بأن كتب الرحلات تبدأ من هذا العهد برحلة ابن جبير.

واستمرت الرحلة تحمل رايتها من قرن إلى قرن حتى توّجها في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر للميلاد، ابن بطوطة بكتابه «تحفة النظار في غرائب الأمصار» ليقدم في ظروف خاصة نمطاً جديداً من الرحلات يختلف عن سابقه في أنه نحا منحى الغرائب والخرافات في رحلته[13].

وبعد هذا القرن انحسرت الرحلات أو كادت، ورغم ما شهدته القرون التالية من رحلات إلا أنها لا يمكن مقارنتها بالرحلات الكبرى. وفي القرن الحادي عشر الهجوي/ السابع عشر للميلاد، قام كل من النابلسي، والطرابلسي، وسواهما بعدد من الرحلات البسيطة.

وابتداءً من القرن السابع للهجرة/ الثالث عشر للميلاد، بدأ طابع الرحلة في طلب العلم يطغى على نمط الرحلة، وشهدت القرون التالية كثيراً من الرحالة مثل: البغدادي، وياقوت. وبعد القرن التاسع للهجرة/ الخامس عشر للميلاد، مني العرب بفترة من التأخر امتدت ثلاثة قرون أو يزيد عمّ خلالها الضعف والجهل في جميع ميادين الحياة.

وظل الجمود حتى كانت النهضة الحديثة، فعادت شمس الرحلة تشرق مجدداً في القرن التاسع عشر الميلادي، لكنها يممت الوجه نحو الغرب بسبب الثورة العلمية والصناعية التي كانت تشهدها. ففتحت على أساسها أبواب أوروبا على البلاد العربية وراح الكثيرون من أبنائها يرحلون على تلك البلاد طلباً للعلم أو العمل أو السياحة، فعادت زهوره في التفتح. ومن أبرز أصحابه في القرن الماضي: الطهطاوي، والألوسي، والشدياق، وسليمان البستاني. وزاد الاتصال في القرن العشرين، وتعمّقت آثاره؛ وكان من أعلامه: طه حسين، وأمين الريحاني، ومحمد حسين هيكل[14].

وبعد أن وقفنا على الرحلة، وتاريخها، ودوافعها، وأهميتها، وأعلامها، سنولي وجهنا نحو فئة معينة من أعلام الرحالة لنلتقط من مدوناتهم ما خصوا به مدينة

«حلب الشهباء» من أوصاف طالت كل مناحي الحياة فيها في حقبات متنوعة من تاريخها، لنضم الشتيت إلى شتيته لعلنا نتوصل إلى ما هو جيد، فننظم ذلك كله في عقد نضيء به جيد مدينة حلب العريقة، وسيكون التناول حسب التسلسل التاريخي للرحالة.

١ - ابن حوقل: (ت ٣٣١ هـ / ٩٤٣م):

هو أبو القاسم النصيبيني، واحد من أبرز جغرافيي ورحالة القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، ولد في نصيبين، إحدى مدن الجزيرة، وانتقل في صباه **إلى بغداد إبان** حكم المقتدر (٢٩٥ - ٣٢٠هـ)، ومن بعده القاهر (٣٢٠ - ٣٢٢هـ)، ثم جاء الراضي (٣٢٢ - ٣٢٩هـ)، الذي ضعفت الخلافة في عهده، وتحولت إلى دويلات.

وبعد أن تلقى تعليمه في بغداد، تحوّل إلى التجارة، لكن أحوال الدولة غير المستقرة واطّلاعه على آثار ابن خرداذبة والبلخي دفعاه إلى أن ينطلق في جولة يجوب به البلاد العربية والإسلامية، وبلدان المغرب وصقلية لمدة ثماني وعشرين سنة من عمره[١٥].

- رحلة ابن حوقل:

بدأ رحلته عام ٣٣١هـ ماراً بالشام، ثم اتجه إلى مصر، فبحر الروم، والمغرب، ونزل الأندلس، ثم اتجه إلى الجزيرة العربية.

وضع المسودة الأولى من كتابه نحو عام ٣٥٦هـ، وكان معنياً فيه بشؤون المال، وانعكس هذا على أسلوبه في جمع المادة؛ إذ جعل للنشاط الاقتصادي الحظ الأوفر؛ فكان حريصاً على ذكر الحاصلات الزراعية، والمنتجات الحرفية، وتوقف طويلاً عند الخيرات، والأسعار، ومصادر الدخل، ونظام الحكم، وطبائع الناس عقلاً وروحاً[١٦].

ويعدّ كتابه موسوعة كاملة تتضمن الكثير من المعارف الجغرافية والاقتصادية والاجتماعية إلى جانب قرب خرائطه من الدقة[١٧].

- صورة حلب في رحلة ابن حوقل:

يقول: «وجند قنسرين فمدينتها حلب، وكانت عامرة غاصّة بأهلها، كثيرة الخيرات على مدرج طريق العراق إلى الثغور وسائر الشامات، وافتتحها الروم (وكان الروم قد افتتحها في تاريخ ثلاثمائة ونيف وسبعين) مع سور عليها حصين من حجارة، ولم يغن عنهم من العدو شيئاً بسوء تدبير سيف الدولة، وما كان به من العلة. فأخرب جامعها وسبي ذراري أهلها وأحرقها، ولها قلعة غير طائلة، وقد عمرت في وقتنا هذا، ولجأ إليها في وقت فتح حلب قوم فنجوا. وهلك بحلب وقت فتحها من المتاع، والجهاز للغرباء وأهل البلد، وسُبي منها وقتل من أهل سوادها ما في إعادته على وجهه

إرماض لمن سمعه ووهن على الإسلام وأهله.

وكان لها أسواق حسنة وحمامات وفنادق كثيرة ومحال وعراص فسيحة، ومشائخ وأهل جلة. (وهي الآن في زماننا وهو تاريخ نيّف وسبعين وخمسمائة للهجرة أحسن مما كانت عليه قديماً، وأكثر عمارة مأهولة بالمشايخ والرؤساء، وأما قلعتها فهي حصينة منيعة في غاية الإحكام لا يقدر عليها).

وهي الآن بخسة أميرها ودناءة نفسه مملوكة من جهتين: إحداهن: أنها في قبضة الروم مجزية يؤدي كل إنسان عن داره ودكانه جزية، والثانية: أن أميرها إذا وردها متاع من خسيس ونفيس اشتراه من جالبه وباعه هو لأهلها على أقبح صورة وأخس جهة. وما يستثار بها من خل وصابون، فهو يعمله ويبيعه وليس بها مبيع ولا مشترى إلا وله فيه مدخل قبيح.

وشرب أهلها من نهر بها يعرف بأبي الحسن قويق، وفيه قليل طفسي، ولم تزل أسعارها في الأغذية قديماً وجميع المآكل والمشارب واسعة رخيصة. وعليهم الآن للروم في كل سنة قانون يؤدونه، وضريبة تستخرج من كل دار وضيعة معلومة. وكأن الهدنة التي هم فيها مع الروم محلولة معقودة، لأن الأمر في حلها وعقدها إلى الروم. وإن كانت أحوالها كالمتماسكة والأمور التي تجري معهم كالراخية، فليست في جزء من عشرين جزءاً مما كانت عليه. وفيه في قديم أوقاتها وسالف أيامها[١٨].

إن ابن حوقل في هذا النص يطالعنا بعبارات واضحة دقيقة وسليمة، دون أن يبذل جهداً في تطريزها بالسجع الذي كان سائداً في تلك القصور. وهذا يعود على كونه تاجراً، لا أديباً يباري أمثاله بجمل الأسلوب.

وتظهر روحه العربية المتأججة ضد أي عدو ينال من أرض العرب وأهلها، وهو صريح في إبداء رأيه، ويهاجم هذا الأمير المستبد الذي يحتكر شؤون البلد ويحتكر سلعها ويتحكم في أسعارها.

٢ - المقدسي (ت ٣٩٠هـ - ١٠٠٠م):

هو شمس الدين، أبو عبد الله محمد ابن أحمد بن أبي بكر المقدسي، أحد أبرز رجالات الرحلة والجغرافيا الوصفية في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي. ولد ونشأ بالقدس في عام ٣٣٦هـ /٩٤٧م، ثم انتقل إلى بغداد للدراسة. ساهم في رسم صورة للعالم الإسلامي من خلال كتابه «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم» الذي ضمّنه وصفاً إثنوجرافياً لطبائع عدد من الشعوب الإسلامية، وخصال أهلها، وطرائق عيشهم[١٩].

- رحلة المقدسي:

بعد أن درس كتب من سبقوه من الرحالة والجغرافيين، لاحظ المقدسي أن

أغلب كتاباتهم اعتمدت على السماع مما جعله يقدم على ارتياد خراسان، وجرجان، وطبرستان، وبلاد فارس وأرمينيا، وبلاد السند، وشبه جزيرة العرب، والشام، ومصر، وبلاد المغرب.

وإن معلوماتنا عنه قليلة لأنه كان في رحالات لا تنتهي. وقد لخصّ تجاربه خلالها بقوله: لقد تفقهت، وتأدبت، وخطبت على المنابر، وسحت في البراري، وتهت في الصحاري، وسجنت في الحبوس على أنني جاسوس، ودبّر في قتلي غير مرة، وكسبت خلع الملوك، وعريت وافتقرت مرات».

وكان منهجه يقوم على بسط وصف دقيق لمختلف ألوان الثقافة الإنسانية في بيئة من البيئات، ووصف طبيعة كل بلد، وطبائع أهلها، وطرق حياتهم. وقد فرغ من كتابه أول مرة في شيراز عام ٣٧٥هـ، وكان في نحو الأربعين من عمره، فأهداه إلى آل سامان، ثم أهدى نسخة إلى الفاطميين[٢٠].

- صورة حلب في رحلة المقدسي:

يقول: «وأما قنسرين فقصبتها حلب ومن مدنها أنطاكية، بالس، السويدية، سميساط، منبج، بيّاس، التينات، قنسرين، إسكندرونة، حماة، شيزر، معرة النعمان، معرّة قنسرين، وادي بطنان، جوسية، لجّون، رفنيّة.

أما حلب؛ فبلد نفيس خفيف حصين، وفي أهلها ظرف، ولهم يسار وعقول، مبني بالحجارة عامر، في وسط البلد قلعة حصينة واسعة فيها ماء وخزائن السلطان، والجامع في البلد. شربهم من نهر قويق يدخل إلى البلد دار سيف الدولة في شباك حديد، والقصبة ليست بكبيرة إلا أن بها مستقر السلطان.

لها سبعة أبواب: باب حمص، باب الرقة، باب قنسرين، باب اليهود، باب العراق، باب دار البطيخ، باب إنطاكية، وباب الأربعين مسدود. وأهم تجارة حلب القطن والثياب والأشنان والمعزة؛ وهو مسحوق أوكسيد الحديد في أعمال الطلاء»[٢١].

ونلمس من خلال ما أوجز عن حلب أنه يتناول بشكل علمي كل مواضيعه، ويركز على جغرافية البلد الطبيعية والمناخية والاقتصادية والبشرية والعمرانية.

٣ - الإصطخري (ت ٣٤٦هـ/٩٥٧م):

هو ابن اسحق، إبراهيم بن محمد الفارسي الإصطخري المعروف بالكرخي. جغرافي ورحالة معروف من العلماء، ومن أهل إصطخر بإيران. زار أكثر أقطار آسيا الإسلامية حتى سواحل المحيط الهندي جنوباً ووصل الهند سنة ٣٤٠هـ. استعان بكتاب «صور الأقاليم» لأبي زيد البلخي ولم تكن مصادر علم البلدان موفورة في عصره. ولياقوت نقول من كتابيه «المسالك والممالك» و «صور الأقاليم»[٢٢].

- رحلة الإصطخري:

اقتصر في كتابه «المسالك والممالك» على وصف العالم الإسلامي وقسمه إلى عشرين إقليماً معتمداً الأقاليم الجغرافية والتقاسيم الإدارية أساساً لتحديد الأقاليم.

وكتب عن البحار ثم وصف شبه الجزيرة العربية والخليج العربي والمحيط الهندي وبلاد السند والهند وأنهار سجستان وبلاد المغرب والأندلس ومصر والشام وصقلية وبحر الروم وغيرها.

وهو يذكر عن كل بلد درسه معلومات تتعلق بالحدود والمسافات والمدن والطرق والمواصلات، ويورد عنه الكثير من المعلومات المتعلقة بما ينتجه البلد من محاصيل، ويتعرض لتجارته وصناعته وأجناس سكانه، وشملت معظم هذه التفاصيل البلد التي زارها شخصياً[٢٣].

- صورة حلب في رحلة الإصطخري:

يقول: «وجند قنسرين ميدنتها حلب، وهي عامرة بالأهل جداً، على مدرج طريق العراق إلى الثغور وسائر الشامات وقنسرين مدينة تنسب الكورة إليها وهي أصغر المدن بها[٢٤].

٤ - ابن بطلان (ت٤٥٨هـ/١٠٦٤م):

هو أبو الحسن، المختار بن الحسن بن عبدون ابن بطلان. طبيب مشهور، وشاعر، وفيلسوف، ورحالة نصراني من الكرخ بالعراق. بلغ ولعه بالعلم أنه كان يرتحل من بلد إلى بلد بحثاً عن المعارف والعلوم، وسعياً إلى اكتشاف الجديد في الفكر والطب.

وكان مغرماً بمطالعة مصنّفات الأوائل متأملاً ما انجزوه، ومنقباً عن أخبارهم. وكان مولعاً بالجدل والمناقشة والمشاركة في المناظرات العلمية، وأشهرها ما جرى بينه وبين الفيلسوف والطبيب المصري ابن رضوان. وكان هذا الأخير، وهو الحسن بن علي بن رضوان بن علي بن جعفر المصري، قد ولد ونشأ في الجيزة بمصر في أواسط القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي لأب فرّان. وقرأ أغلب ما وجد من كتب العلماء والفلاسفة، ومارس الطب وصنّف الكتب حتى بلغت نحو مئة، وكان رئيس الأطباء بمصر على عهد المستنصر. توفي عام ٤٥٥هـ/١٠٦١م.

وقد ترك لنا ابن بطلان أهم المسائل التي دار حولها الجدل والمناظرة بينهما في خمس رسائل حققها ونشرها المستشرقان يوسف شاخت وماكس مايرهوف. وكان أول من لفت إليه الأنظار هو البارون روزن في دراسته عن يحيى الأنطاكي الذي كان معاصراً له.

عاش ابن بطلان طويلاً، وقد خلّف لنا مصنفات عديدة في الطب، منها: تقويم الصحة، دعوة الأطباء، المدخل إلى الطب،

عمدة الطبيب، وغيرها... وقد ترجمت معظم مؤلفاته إلى عدد من اللغات الأجنبية، كما حققت في عدة جامعات أوروبية. وقضى حياته كلها متفرغاً للعلم والأدب ولم يتخذ امرأة ولم يعقب ولداً.

- رحلة ابن بطلان:

يقول ابن أبي أصيبعة في عيون الأنباء: «كان بين ابن بطلان وابن رضوان الطبيب المصري المراسلات العجيبة والكتب البديعة الغريبة، ولم يكن أحد منهما يؤلف كتاباً أو يبتدع رأياً إلا ويردّ الآخر عليه ويسفه رأيه فيه.

وقد تفجرت في رأس ابن بطلان فكرة الالتقاء بابن رضوان وجهاً لوجه بوصفه أكبر مناظريه، وقد كان معروفاً بالتحدي والعناد رغم أن أهل السبب والمؤرخين وصفوه بأنه كان أعذب الناطقاً وأكثر ظرفاً وأخبر في الأدب وما يتعلق به، كما كان أكثر منطلقاً وإقناعاً وأقلّ عدوانية وحقداً وشراسة...».

سار ابن بطلان في رحلته العلمية بمحاذاة نهر عيسى متجهاً صوب الأنبار والرحبة فالرصفة والهاشمية حتى وصل حلب، فأقام بها مدة ولما لم ترق له، رحل إلى إنطاكية فاللاذقية ثم مصر ليلقى ابن رضوان، وبقي على جواره وفي مواجهته ثلاث سنوات انتهت بغضبه وعدم رضاه عن مناظره وأفكاره، فرحل إلى القسطنطينية ليبقى فيها سنوات، ثم عاد إلى إنطاكية حيث آثر الاعتزال في الأديره وترهّب وانقطع للعبادة.

ومن الملاحظ أنه لم يخلف لنا وصفاً لمعالم مصر وعمائرها وأقاليمها، ولم يتناول عادات أهلها. ولعل السبب في ذلك هو انشغاله بالمحاورة وتدبيج المقالات التي كتبها في دحض أفكار ابن رضوان. وقد كان ولا شك مهموماً بمطالعة الكتب التي وجد منها بمصر الكثير.

وتكشف نصوصه عن مدى دقة ابن بطلان ووصفه الجغرافي والعمراني والاقتصادي والديني والاجتماعي حريصاً على أن لا يضمّن وصفه الخرافات(٢٥).

- صورة حلب في رحلة ابن بطلان:

يقول: «... وحلب بلد مسوّر بحجر أبيض وفيه ستة أبواب، وفي جانب السور قلعة في أعلاها مسجد وكنيستان، وفي إحداهما كان المذبح الذي قرّب عليه إبراهيم الخليل عليه السلام. وفي أسفل القلعة مغارة كان يخبّئ بها غنمه. وكان إذا حلبها أضاف الناس بلبنها فكانوا يقولون حلب أم لا؟ ويسأل بعضهم بعضاً في ذلك فسميت لذلك حلباً. وفي البلد جامع وست بيع وبيمارستان صغير، والفقهاء يفتون على مذهب الإمامية. وشرب أهل البلد من صهريج فيه مملوء بماء المطر، وعلى بابه نهر يعرف بقويق يمدّ في الشتاء وينضب

في الصيف، وفي وسط البلد دار علوة صاحبة البحتري.

وهو بلد قليل الفواكة والبقول والنبيذ إلا ما يأتيه من بلاد الروم. ومن عجائب حلب أن في قيسارية البز عشرين دكاناً للوكلاء يبيعون فيها كل يوم متاعاً قدره عشرية ألف دينار مستمر ذلك منذ عشرين سنة وإلى الآن، وما في حلب موضع خراب أصلا[٢٦].

نحن هنا أمام نص شامل يصدر عن نظرات بانورامية سديدة لكل سمات المدينة من البيمارستان إلى المبيعات إلى صديقة البحتري. فهي خلاصة رحلة مكثفة من قربان إبراهيم الخليل عليه السلام إلى يوم زارها ابن بطلان.

وقد صاغ رحلته بأسلوب بسيط سليم العبارة، خال من الصنعة والتكلف إلا ما ندر. كما نلمس حرصه على توشية عباراته بالسجع الخفيف المحبب.

٥ - ناصر خسرو القبادياني (ت ٤٨١هـ/١٠٩٢م):

هو رحّالة فارسي، وأحد أشهر الرحالة المسلمين في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر للميلاد. ولد سنة ٣٩٤هـ في نواحي بلخ لأسرة نبيلة، وصل إلى أعلى المراكز الإدارية وخدم السلاجقة، وكان يتمتع بعقل جبار وفؤاد ذكي.

- رحلة ناصر خسرو:

تعدّ الرحلة التي قام بها من أهم مصادر دراسة التاريخ الإسلامي والجغرافيا التاريخية؛ فقد شملت جزءاً مهماً من النواحي الشرقية للخلافة العباسية؛ وهي تكاد تغطي الجزء الفارسي الذي كان تحت قبضة السلاجقة وبلاد الأفغان، وآسيا الصغرى، والشرق الأدنى، وأطراف العراق الشمالية الشرقية، كما تناولت أفريقيا من شمالها في تونس إلى جنوبها الشرقي مصر، وأجزاء من الجزيرة العربية.

ورحلته بهذا تعد سجلاً خطيراً للعالم الإسلامي في فترة حرجة هي تحول خطير إذ كانت نذر عاصفة الحروب الصليبية تتجمع لتكتسح سواحل الشام بعد ثلاثة عقود من تسجيل هذه الرحلة[٢٧].

- صورة حلب في رحلة ناصر خسرو:

يقول: «مدينة حلب جميلة ذات سور عظيم ارتفاعه خمس وعشرون ذراعاً في الجانب الذي قسته، ولحلب قلعة عظيمة مبنية من الحجارة، وهي أعظم من قلعة بلخ بمراتب، وأبنية حلب ذات طوابق متعددة وكلها عامرة.

ومدينة حلب مركز من مراكز جمع الضرائب في أرض الشام تجبى إليها أموال الروم وديار بكر ومصر والعراق ويأتي إليها التجار من كل أطراف الأرض. وللمدينة

أربعة أبواب هي: باب اليهود، باب الله، باب الجنان، باب إنطاكية، وموازين حلب هي الرطل الضاهري ويزن أربعمئة وثمانين درهماً. وإذا غادرت حلب واتجهت جنوباً وصلت إلى مدينة حماة على بعد عشرين فرسخاً. وبعد حماة حمص، ومن حلب إلى دمشق خمسون فرسخاً ومن حلب إلى إنطاكية أحد عشر فرسخاً، ونفس المسافة بين حلب وطرابلس ويقولون إن المسافة من حلب إلى القسطنطينية مئتا فرسخ»[٢٨].

٦ - الإدريسي (ت ٥٦٠هـ/١١٦٥م):

هو محمد بن محمد بن عبد الله بن عمر بن إدريس بن يحيى بن علي بن حمود ابن ميمون بن أحمد بن عبد الله بن عمر بن الحسين بن علي بن أبي طالب، ولذا لقب بالشريف، والإدريسي نسبة على جده الأعلى. ولد بمدينة سبتة المغربية سنة ٤٩٣هـ/١١٠٠م، ثم رحل على قرطبة حيث تلقى العلم. وكان له اهتمام أيضاً بالصيدلة والنباتات والطب ونظم الشعر[٢٩].

- رحلة الإدريسي:

بدأ رحالتنا أسفاره مبكراً، فزار بلاد المغرب ولشبونة وسواحل فرنسا، وزار إنكلترا وصقلية كما زار آسيا الصغرى عام ٥١٠هـ/ ١١١٦م. وهو واحد من أبرز جغرافيي العرب في القرون الوسطى، وأكثرهم أهمية خاصة في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي طلب إليه ملك صقلية «الملك روجر» عام ١١٣٨م، وضع كتاب عن جغرافية العالم المعروف آنذاك، فلبّ الدعوة مع فريق من الرحالة والجغرافيين الذين عملوا تحت إمرته.

من أشهر أعماله الخريطة التي رسمها للعالم وقد حفرت على أسطوانة من الفضة، ولم يكن لأوروبا مصور جغرافي للعالم إلا ما رسمه الإدريسي، وهو خلاصة علوم العرب في هذا المجال. ولم يقع في الأغلاط التي وقع فيها بطليموس في هذا الباب[٣٠].

خلّف لنا مصنفات مهمة منها: «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق» و«الجامع لصفات أشتات النباتات» و«روض الأندلس ونزهة النفس».

- صورة حلب في رحلة الإدريسي:

يقول: «هي دار الإمارة بقنسرين، وهو بلد كثير الخلق على رصيف الطريق إلى العراق وبلاد فارس وخراسانات، وعليها سور حجارة بيض. ونهر قويق يجري على بابها: وهو نهر صغير ليس بالكثير الماء ويدخل منه إلى البلد في قناة تجري في الشوارع والأسواق والديار، ومنه يشرب أهل المدينة، وبه يتصرفون.

ونهر قويق يخرج من قرية تدعى «سيناب» على ستة أميال من دابق، ثم يسير إلى حلب ثمانية عشر ميلاً، ثم يمر إلى مدينة قنسرين عشرين ميلاً، ثم يمر

إلى مرج الأحمر اثني عشر ميلاً ثم يغيض في الأجمة فمن مخرجه إلى مغيضها اثنان وأربعون ميلاً.

ولمدينة حلب في قصبتها عين ماء حسنة ومن حلب إلى الرقة طريقان أحدهما من حلب إلى الناعورة ثم إلى خساف ثم إلى بالس ثم إلى دوس، ومن الدوس إلى الرقة، والرقة واسطة ديار مضر. ومن منبج إلى حلب ثلاث مراحل يسير من منبج إلى قورس مرحلتين، ومن قورس إلى حلب يوماً، وقورس حفر على جبل متصل بجبل اللكام[٢١].

وإن ما أورده من معلومات يظهر غزارة علمه وسعة معارفه التي اكتسبها من ترحاله واستكشافاته.

٧ - أسامة بن منقذ (ت٥٨٤هـ/١١٨٨م):

هو أسامة بن منقذ بن علي بن مؤيد الدولة مجد الدين. الأمير الفارس والأديب الشاعر والرحالة المغامر والمحارب الجسور، صاحب تجربة ثرية في عالمي الحرب والسلم. عمّر حتى بلغ ستة وتسعين عاماً هجرياً/ ثلاثة وتسعين عاماً ميلادياً. لم يتوقف خلاله يوماً عن الحركة والعمل والارتحال واقتحام المخاطر والقتال وصيد الأسود والنمور، وهو صفحة هامة من كتاب الرحلة العربية.

ولد أسامة بن منقذ بقلعة شيزر مقرّ الإمارة لأسرة بني منقذ الذي كانوا يحكمون القلعة التي تقع شمالي حماة بسورية في عام ٤٨٨هـ/١٠٩٥م. وكان الجو الذي نشأ فيه يحتشد بأنباء الحرب والغزوات التي يشنّها الأعداء على القلعة وبعضها كان من قبائل متخاصمة تقيم في حلب وبعضها من البيزنطيين وأخيراً الصليبيين.

فألف الحياة العسكرية الخشنة التي تقوم على المخاطرة في الحرب والصيد، ودرس الدين والأدب وحفظ القرآن ودرسه ونسخه، كما حفظ شعر العرب منذ الجاهلية وحتى عصره، وقيل إن حصيلته تجاوزت من الشعر عشرين ألف بيت.

تنقل بين دمشق ومصر ومكة والعديد من العواصم إلى أن حط رحاله أخيراً في دمشق وبقي فيها حتى وفاته. ودفن في جبل قاسيون.

ويحوي كتابه «الاعتبار» مادة متميزة يقل نظيرها؛ إذ يتضمن مواقف ومشاهدات وخبرات من نوع خاص لا نكاد نعثر على مثلها في غيره من الكتب، فضلاً عن كونه سيرة ذاتية لصاحبه ذي الحياة الفريدة المبهرة. وقد جاءت مواد كتابه غير متصلة الأجزاء لكنها دونت حسب ورودها في فكر صاحبها[٢٢].

- صورة حلب في رحلة أسامة بن منقذ:

يقول: «إن رجلاً أتى يوحنا ابن بطلان

الطبيب المشهور بالمعرفة والعلم والتقدم في صنعة الطب، وهو في دكانه بحلب فشكا إليه مرضه فرآه قد استحكم به الاستسقاء، وكبر بطنه ودقت رقبته وتغيرت سحنته. فقال له: «يا ولدي ما لي والله فيك حيلة ولا بقي الطب ينجع فيك فانصرف».

ثم بعد مدة اجتاز به وهو في دكانه، وقد زال عنه ما كان به من المرض وضمر جوفه وحسنت حاله. فدعاه ابن بطلان فقال: «ما أنت الذي حضرت عندي من مدة وبك الاستسقاء وقد كبر بطنك ودقت رقبتك وقلت لك: ما لي فيك حيلة؟ قال: «بلى» قال: «فبماذا تداويت حتى زال ما كان بك»؟ قال: «والله ما تداويت بشيء، أنا رجل صعلوك ما لي شيء ولا لي من يدور بي سوى والدتي: وهي عجوز ضعيفة كان لها في دنين خل، فكانت لك يوم تطعمني فيه بخبز».

فقال ابن بطلان: «أبقي من الخل شيء؟ «قال: «نعم». قال: امش معي أرني الدن الذي فيه الخل». فمشى بين يديه إلى بيته أوقفه على دن الخل، فأفرغ ابن بطلان ما كان فيه من الخل فوجد في أسفله أفعيين قد تهرأتا. فقال له: «يا بني ما كان يقدر يداويك بخل فيه أفعيان حتى تبرأ إلا الله عزّ وجل».

ويقول: «وكان لهذا ابن بطلان إصابات عجيبة في الطب، فمن ذلك أن رجلاً أتاه وهو في دكانه بحلب والرجل قد انقطع كلامه فلا يكاد يفهم منه إذا تكلم فقال له: «ما صنعتك؟ «قال: «أنا مغربل». فقال:

«احضر لي نصف رطل خل حاذق. «فأحضره، فقال»اشربه» فشربه، وجلس لحظة فذرعه القيء فتقيأ طيناً كثيراً في ذلك الخل، فانفتح حلقه واستوى كلامه، فقال ابن بطلان لابنه وتلامذته: «لا تداووا بهذا الدواء أحد فتقتلوه. هذا ما كان قد علق بالمرئ من غبار الغربلة تراب ما كان يخرجه إلا الخل».

ويقول: «وكان ابن بطلان ملازماً لخدمة جدي الأكبر أبي المتوج مقلد بن نصر بن منقذ، فظهر في جدي أبي الحسن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ وضح وهو صبي صغير، فاقلق ذلك أباه وأشفق عليه من البرص. فأحضر ابن بطلان وقال له: «أبصر ما قد ظهر في جسم علي!» فنظره وقال: «أريد خمسمائة دينار حتى أداويه وأذهب هذا عنه». فقال له جدي: «لو كنت داويت علياً ما كنت رضيت لك بخمس مئة دينار». فلما رأى الغضب من جدي، قال: «يا مولاي أنا خادمك وعبدك ومن فضلك ما قلت ما قلته إلا على سبيل المزح. هذا الذي بعلي بهاق الشباب وإذا أدرك زال عنه فلا تحمل منه هماً ولا يقول لك سواي: أنا أداويه ويتسوق علك فهذا يزول عند بلوغه» فكان كما قال.

ويقول: «وكان في حلب امرأة من وجوه نساء حلب يقال لها «برة» لحقها برد في رأسها، فكانت تعمل عليه القطن العتيق والقلنسوة والمخملة والمناديل حتى تصير كأنها على رأسها عمامة كبيرة وهي تستغيث من البرد.

فأحضرت ابن بطلان وشكت إليه مرضها فقال: «حصلي في غدٍ خمسين مثقالاً من كافور رياحي عارية أو مكرى من بعض الطيبيين فهو يعود إليه بأسره. «فجعلت له الكافور ثم أصبح ألقى كل ما على رأسها وحشاً شعرها بذلك الكافور، وردّ على رأسها ما كان عليه من الدثار وهي تستغيث من البرد. فنامت لحظة وانتبهت تشكو الحر والكرب في رأسها، فألقى عنها شيئاً مما كان على رأسها حتى بقي على رأسها قناع واحد، ثم نفض شعرها من ذلك الكافور وذهب عنها البرد وصارت تتقنع بقناع واحد[٣٣].

٨ - بنيامين التطيلي الأندلسي (ت٥٦٩هـ/ ١١٧٣م):

هو بنيامين التطيلي الأندلسي. رحالة يهودي من أهل القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي. لسنا نعلم من أمره شيئاً يفدنا في الترجمة له. غير أن رحلته تعد من أقدم الرحلات، وقد نالت قسطاً من اهتمام المؤرخين والمحققين، وتمت ترجمتها إلى أغلب اللغات[٣٤].

- رحلة بنيامين:

هي تحوي معلومات هامة عن أحوال العالم عامة، والشرق خاصة في عصر من أخطر العصور التاريخية في الشرق والغرب في القرن السادس الهجري، مما يجعلها في مصاف أهم الرحلات القديمة، وأوثق المصادر التاريخية المعروفة.

وقد جاب مؤلفها الغرب و الشرق ودوّن ما شاهده تدويناً تؤيده أغلب المصادر التي لدينا عن الحالة التي كانت سائدة في ذلك العصر. ومع أن نزعته جعلته يعنى بأحوال أبناء الطائفة اليهودية؛ فقد أعطانا الخبر الوافي والوصف المسهب عن العراق وسائر البلاد الإسلامية بالقدر الذي كان يستطيعه أوروبي يزور الشرق لأول مرة.

ولعل أموراً كثيرة قد فاتته بسبب النزاع الذي كان بين الشرق والغرب بسبب الحروب الصليبية، لكن ما توصل إليه من معلومات ومشاهدات ومسموعات له قيمته التي لا تنكر[٣٥].

- صور حلب في رحلة بنيامين التطيلي:

يقول: «هي أرم صوبة الواردة في التوراة وكرسي مملكة نور الدين. تتوسطها قلعة حصينة ويحوطها سور متين، ولا يسقي المدينة نهر أو عيون. لذا يضطرّ الأهلون إلى شرب مياه المطر. وبكل دار في البلد بئر تسمى «الجب» تجمع فيها مياه المطر. وبحلب نحو ألف وخمسمئة يهودي على

رأسهم الربيون موسى الفلسطيني، وإسرائيل وشيث. وهي تبعد يومين عن بالس[٣٦].

٩ - الهروي (ت٦١١هـ/١٢١٥م):

هو أبو الحسن بن أبي بكر الهروي. رجل دين ورحالة مشهور طاف معظم بلاد العالم العربي والإسلامي وبلاد الروم، كما كان مولعاً بالأسفار وبزيارة قبور الأولياء والصالحين ويرى في زياراتها تكريماً لأصحابها وتعظيماً لهم واقتداءً بهم بصفتهم القدوة، إضافة إلى أنه طلب العلم وحصل عليه.

ولد بالموصل لأسرة هروية من هراة بخراسان، وعاش أكثر عمره بحلب في سورية طاف البلاد وأكثر الزيارات. وكان يطبق الأرض بالدوران.

يقول عنه ابن خلكان: «لم يترك بلداً ولا بحراً ولا سهلاً ولا جبلاً من الأماكن التي يمكن قصدها ورؤيتها إلا رآه. ولم يصل إلى موضع إلا كتب خطه في حائطه. ولقد شاهدت ذلك في البلاد التي رأيتها مع كثرتها.. والهروي كانت له معرفة بالسيمياء وبه تقوم به عند الملك الظاهر ابن السلطان صلاح الدين صاحب حلب، وأقام عنده، وكان كثير الرعاية له. وبنى له مدرسة بظاهر حلب، وفي ناحية منها قبة وهو مدفون فيها. وفي تلك المدرسة بيوت كتب على باب كل منها ما يليق به»[٣٧].

عاش الهروي فترة مزدهرة من تاريخ العروبة والإسلام إبان حكم صلاح الدين الأيوبي، وقد تابع حروبه وانتصاراته وشهد استعادة بيت المقدس. وكان معاصراً لابن جبير، وأسامة بن منقذ.

- رحلة الهروي:

وكان الهروي قد خرج في رحلته من حلب عام ٥٦٩هـ/١١٧٣، وطاف بأنحاء سورية وفلسطين ثم العراق وإيران إلى اليمن وما حولها ثم اتخذ طريقه جهة الغرب فزار مصر وبلاد المغرب وجزر البحر المتوسط حتى صقلية، وعاد إلى الشرق فزار القسطنطينية وحطّ في حلب.

وكان هاوياً لزيارة قبور الشيوخ للتبرك وبها استهل كتابه، وكانت له نزعة صوفية يدلنا عليها أسلوبه في الوصف والتعبير. وقد ضمن كتابه ذكر المئات من الأماكن الدينية التي سعى إليها سعياً حثيثاً. وهو لم يكن يدوّن وإنما كان يعتمد على ذاكرته عندما همّ بوضع مؤله لذلك نجد اضطراباً في السماء والأرقام والأحداث[٣٨].

- صورة حلب في رحلة الهروي:

يقول: «الزيارات بمدينة حلب وأعمالها: بقلعتها مقام إبراهيم الخليل عم، وبه صندوق فيه قطعة من رأس يحيى بن زكريا عم ظهرت سنة خمس وثلاثين وأربعمئة، وبها عند باب الجنان مشهد علي بن أبي طالب رضي الله عنه رؤي في المنام، وبها داخل باب

العراق مسجد غوث به حجر عليه كتابة ذكروا أنها خط علي بن أبي طالب ﷺ وله حكاية والله أعلم.

وبها غربي البلد مشهد الدكة به قبر المحسن بن الحسين ﷺ، وبالجبانة مقام إبراهيم الخليل ﷺ ظهرت في تربة مؤلف هذا الكتاب وبانت فضيلتها، وبها قبور جماعة من الصالحين رضهم، وبها قبر بلال بن حمامة إلا أنه لا يُعرف، وبها قبر عبد الله الأنصاري كما ذكروا، وبها حجر في ظاهر باب اليهود على طريق يُنذر له النذور ويُصبّ عليه ماء الورد والطيب للمسلمين فيه اعتقاد ولليهود والنصارى ويقال تحته قبر الأنبياء عم أو الأولياء والله أعلم[٣٩].

١٠ - ابن جبير (ت٦١٤هـ/١٢١٧م):

هو محمد بن أحمد بن جبير الكناني الأندلسي، أبو الحسن، رحالة أديب وفقيه، ولد في بلنسية وبرع في الأدب ونظم الشعر الرقيق وحذق الإقراء. درس العلوم الدينية واللغوية واستهواه الشعر كما كتب نثراً جميلاً، فذاع صيته وطلبه حاكم غرناطة لينضم إلى كتّاب ديوانه، ثم بات مقرّباً إليه يدعوه إلى جميع مجالسه حتى مجلس شرابه دون أن يشاركهم فيه، وفي إحدى المرّات طلب إليه الحاكم أن يشرب معهم فاعتذر ابن جبير، فأقسم الأمير ليشرب أبو الحسن سبعة كؤوس، فاضطر أن يشرب على بغض كأساً بعد كأس.

وسرّ الأمير بطاعته له، لكن ابن جبير كان قد بلغ أعلى درجات السخط والكمد حتى أدرك الأمير ذلك، وأراد أن يطيب خاطره فملأ له الكأس التي شرب فيها بالدنانير الذهبية وأفرغها في حجره سبع مرات بعدد الكؤوس التي تجرّعها مرغماً.

غير أن ابن جبير ظلّ مقطّب الجبين إلى أن خامرته فكرة رضيت لها نفسه وابتهج، وهي أن ينفق هذه الدنانير على رحلة حجّ إلى بيت الله فيجعلها كفّارة شرابه.

ومن كتبه: «نظم الجمان في التشكي من أخوان الزمان» وهو ديوان شعره، «نتيجة وجد الجوانح في تأبين القرن الصالح» وهو مجموع ما رثى به زوجته أم المجد.

- رحلة ابن جبير:

زار ابن جبير المشرق ثلاث مرات: كان إحداها سنة ٥٧٨هـ، وهي المدة التي ألف فيها كتابه «رحلة ابن جبير». ومات بالإسكندرية في رحلته الثالثة.

ويقال إنه لم يصنف كتاب رحلته، وإنما قيّد معاني ما تضمنته فتولى ترتيبها بعض الآخذين عنه..

كتب رحلته على شكل يوميات بلغة سهلة بسيطة عباراتها مفصّلة دون تكرار أو استطراد، وهو يجيد صناعة السجع وسكبه دون تكلف.

وقد أثر في كثير ممن جاء بعده فنقلوا فقرات من كتابه، وأشهرهم ابن بطوطة الذي نقل عنه وصفه لكل من حلب ودمشق وبغداد. وهو وإن فاته إحصاء السكان، لكن لم يفته ولو بالنقل والسماع تحديد عدد المساجد والمدارس والمستشفيات. وهو يتمتع بحس قصصي متدفق يرصّعه بآيات من الذكر الحكيم يحسن توظيفها[٤٠].

- صورة حلب في رحلة ابن جبير:

يقول: «حلب مدينة قدرها خطير وذكرها في كل زمان يطير، خُطابها من الملوك كثير، ومحلها من النفوس أثير، فكم هاجت من كفاح، وسُلَّ عليها من بيض الصفاح، لها قلعة شهيرة الامتناع بائنة الارتفاع معدومة الشبه والنظير في القلاع. تنزهت حصانةً من أن ترام أو تُستطاع قاعدة كبيرة ومائدة من الأرض مستديرة منحوتة الأرجاء موضوعة على نسبة اعتدال واستواء، قد طاولت الأيام والأعوام ووسعت الخواص والعوام.

هذه منازلها وديارها، فأين سكانها قديماً وعُمّارها؟ وتلك دار مملكتها وفناؤها، فأين أمراؤها الحمدانيون وشعراؤها؟ أجل فني جميعهم ولم يأن بعد فناؤها. فيا عجباً لبلاد تبقى وتذهب أملاكها ويهلكون ولا يُقضى هلاكها. وتخطب بعدهم فلا يتعذر مِلاكها وترام فيتيسر بأهون شيء إدراكها.

هذه حلب كم أدخلت ملوكها في خبر كان ونسخت صرف الزمان والمكان. أنّث اسمها فتحلّت بزينة الغوان ودانت بالغدر فيمن خان، وتجلت عروساً بعد سيف دولتها ابن حمدان.

هيهات هيهات سيهرم شبابها ويُعدم خُطّابها، ويسرع فيها بعد حين خرابها، وتتطرق جنبات الحوادث إليها حين يرث الله الأرض ومن عليها، لا إله سواه سبحانه جلّت قدرته. وقد خرج بنا الكلام عن مقصده، فلنعد إلى ما كنّا بصدده فنقول عن شرف هذه القلعة أنه يُذكر أنها كانت قديماً في الزمان الأول ربوة يأوي إليها إبراهيم الخليل عليه وعلى نبيّنا الصلاة والتسليم بغنيمات له فيحلبها هناك ويتصدق بلبنها فلذلك سميت حلب والله أعلم.

وبها مشهد كريم له يقصده الناس ويتبركون بالصلاة فيه، ومن كمال خلالها المشترطة في حصانة القلاع أن الماء بها نابع وقد صنع عليه جُبّان فهما ينبعان ماء فلا تخاف الظمأ أبد الدهر، والطعام يصير فيها الدهر كله وليس في شروط الحصانة أهم ولا آكد من هاتين النحلتين.

ويطيف بهذين الجبّين المذكورين سوران حصينان من الجانب الذي ينظر للبلد ويعترض دونهما خندق لا يكاد البصر يبلغ مدى عمقه، والماء ينبع فيه وشأن هذه

القلعة في الحصانة والحسن أعظم من أن تنتهي إلى وصفه. وسورها الأعلى كله أبراج منتظمة فيها العلالي المنيفة والقصاب المشرقة قد تفتحت كلها طيقانا ولك برج منها مسكون وداخلها المساكن السلطانية والمنازل الرفيعة الملوكية.

أما البلد فموضوعه ضخم جداً حفيل التركيب بديع الحسن واسع الأسواق كبيرها متصلة الانتظام مستطيلة تخرج من سماط صنعة إلى سماط صنعة أخرى إلى أن تفرغ من جميع الصناعات المدنية وكلها مسقف بالخشب، فسكانها في ظلال وارفة فكل سوق منها تقيد الأبصار حسناً وتستوقف المستوقف تعجباً.

أما قيساريّتها فحديقة بستان نظافة وجمالاً مطيفة بالجامع المكرم لا يتشوق الجالس فيها مرأى سواها، ولو كان من المراعي الرياضية. وأكثر حوانيتها خزائن من الخشب البديع الصنعة قد اتصل السماط خزان واحدة وتخللتها شُرف خشبية بديعة النقش وتفتحت كلها حوانيت فجاء منظرها أجمل منظر وكل سماط منها يتصل بباب من أبواب الجامع المكرم.

وهذا الجامع من أحسن الجوامع وأجملها وقد أطاف بصحنه الواسع بلاط كبير متسع مفتح، كله أبواب قيصرية الحسن على الصحن عددها ينيف على الخمسين باباً فيستوقف الأبصار حسن منظرها. وفي صحنه بئران معينتان والبلاط القبلي لا مقصورة فيه، فجاء ظاهر الاتساع رائق الانشراح وقد استفرغت الصنعة القرنصيّة جهدها في منبره فما رأى في بلد من البلاد منبراً على شكله وغرابة صنعته، واتصلت الصنعة الخشبية منه إلى المحراب، فتحللت صفحاته كلها حسناً عن تلك الصفة الغريبة وارتفع كالتاج العظيم على المحراب وعلا حتى اتصل بسمك السقف وقد قوس أعلاه وشرف بالشرف الخشبية القرصنية، وهو مرصع كله بالعاج والأبنوس، واتصال الترصيع من المنبر إلى المحراب مع ما يليهما من جدار القبلة دون أن يتبين بينهما انفصال فتجتلي العيون منه أبدع منظر يكون في الدنيا.

وحسن هذا الجامع المكرم أكثر من أن يوصف ويتصل به من الجانب الغربي مدرسة الحنيفية تناسب الجامع حسناً وإتقان صنعة فهما في الحسن روضة تجاور أخرى.

وهذه المدرسة من أحفل ما شاهدناه من المدارس بناءً وغرابة صنعة، ومن أظرف ما يُلحظ فيها أن جدارها القبليّ مفتح كله بيوتاً وغرفاً لها طبقات يتصل بعضها ببعض، وقد امتد بطول الجدار عريش كرم مثمر عنباً فحصل لكل طاق من تلك الطبقات قسطها من ذلك العنب متدلياً

أمامها، فيمد الساكن في يده ويجتنيه متكئاً دون كلفة ولا مشقة. وللبلدة سوى هذه المدرسة نحو أربع مدارس أو خمس ولها مارستان.

وأمرها في الاحتفال عظيم، فهي بلدة تليق بالخلافة وحسنها كله داخل لا خارج لها إلا نهير تجري من جوفيّها إلى قبليّها، ويشق ربضها المستدير بها، فإن لها ربضاً كبيراً فيه من الخانات ما لا يحصى عدده، وبهذا النهر الأرحاء، وهي متصلة بالبلد وقائمة وسط ربضه، وبهذا الربض بعض بساتين تتصل بطوله، وكيف ما كان الأمر فيه داخلاً وخارجاً فهو من بلاد الدنيا التي لا نظير لها والوصف يطول. فكان نزولنا بربضه في خان يعرف بخان أبي الشكر فأقمنا به أربعة أيام ورحلنا ضحوة يوم الخميس السابع عشر لربيع المذكور والثامن والعشرين ليونيه ووصلنا قنسرين قبيل العصر..[41].

١١ - ياقوت الحموي (ت٦٢٦هـ - ١٢٢٩م)

هو أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله شهاب الدين الحموي البغدادي. أحد الوجوه المضيئة في تاريخ حلب. كان رحالة وعالماً جمع من المعارف وأبحر في علوم عديدة منها: الجغرافيا والأدب، وعلوم الشريعة، واللغة العربية. وصنّف كتباً أهمها كتابان: «معجم الأدباء» و«معجم البلدان» الذي يعدّ من أعظم كتب الجغرافيا التي ظهرت في القرنين الثاني عشر والثالث عشر للميلاد[42].

إنه من أبرز خدّام الرحلة والجغرافيا، ولد في بلاد الروم ثم أسر صغيراً، فاشتراه تاجر من حماة هو عسكر بن أبي نصر، الذي انتقل به إلى بغداد وأقام فيها. وقد عني صاحبه بتعليمه العلوم الشرعية والحساب، وأرسله في مهام تجارية كثيرة حببت إليه السفر إضافة إلى عشقه النهم للقراءة.

وبعد أن حصل على حريته عام ٥٩٦هـ/ ١٢٠٠م، كان قد تجاوز العشرين فعمل في نسخ الكتب إلى أن طلبه صاحبه للعمل معه من جديد، فعاد إلى السفر والمتاجرة إلى أن توفي سيده، فتقاسم أموال التجارة مع زوجته وأولاده، وقرر إنفاق ما جمعه في تجارة الوراقة.

- رحلة ياقوت الحموي:

بدأ ياقوت سلسلة من الرحلات استمرت نحو ستة عشر عاماً من سنة ٦١٠هـ/١٢١٣م وحتى سنة ٦٢٦هـ/١٢٢٩م، وفي رحلته عام ٦١٣هـ، انطلق إلى دمشق ومنها على حلب وإربل وأرمينية، وعاد إلى تبريز ومنها إلى إيران الشرقية ثم نيسابور حيث قضى عامين بالقرب من فتاة علق قلبه بها.

وبعد جولة في بلاد فارس دخل الموصل

فقيراً معدماً، وسرعان ما غادرها إلى حلب حيث لقي العطف والترحيب على يد وزيرها الفيلسوف ابن القفطي، ووجد هناك الفرصة ملائمة ليتم المسودة الأولى من مؤلفه معجم البلدان عام ٦٢١هـ، ويبدأ العمل في معجم الأدباء.

وبعد عدة سنوات تجدد الحنين إلى الرحلة فزار دمشق وفلسطين ومصر في عام ٦٢٤هـ/١٢٢٧م، ثم رجع إلى حلب وبدأ العمل في تهذيب المعجم غير أنه توفي قبل أن يفرغ منه، وذلك عام ٦٢٦هـ/١٢٢٩م، ولم يتجاوز الخمسين. وقد خلّف لنا أيضاً من الكتب «المشترك وضعاً والمفترق صقعاً» وكتاب «المبدأ والمآل» و«أخبار المتنبي» وغيرها. ومعجمه هو دائرة معارف جغرافية تتسلل إليها لمحات تاريخية وأدبية ولغوية ودينية، وقد استهلك ما يتجاوز الربع قرن في إنجازه.

- صورة حلب في رحلة ياقوت الحموي:

يقول: «حَلَبُ: بالتحريك: مدينة عظيمة وساحة كثيرة الخيرات، طيبة الهواء صحيحة الأديم والماء، وهي قصبة جند قنسرين في أيامنا هذه. والحلب في اللغة: مصدر قولك حلبتُ، أحلبُ حلباً، وهربتُ هرباً، وطربتُ طرباً، والحلب أيضاً: اللبن الحليب. يقال: حلبنا وشربنا لبناً حليباً وحلباً. والحلب من الجباية مثل الصدقة ونحوها.

قال الزجاجي: سميت حلب لأن إبراهيم ﷺ كان يحلب فيها غنمه في الجمعات ويتصدق به فيقول الفقراء حلب، حلبَ. فسمي به.

قلت أنا: وهذا فيه نظر، لأن إبراهيم ﷺ وأهل الشام في أيامه لم يكونوا عرباً إنما العربية في ولد ابنه إسماعيل ﷺ وقحطان. على أن لإبراهيم في قلعة حلب مقامان يزاران إلى الآن، فإن كان لهذه اللفظة، أعني حلب، أصل في العبرانية أو السريانية لجاز ذلك لأن كثيراً من كلامهم يشبه كلام العرب لا يفارقه إلا بعجمة يسيرة، كقولهم كهنم في جهنم.

وقال قوم: إن حلب وحمص وبرذعة كانوا إخوة من بني عمليق فبنى كل واحد منهم مدينة فسميت به، وهم بنو مهر بن حيص بن جان بن مكنف.

وقال الشرقي: عمليق بن يلمع بن عائذ ابن اسليخ بن لوذ بن سام. وقال غيره: عمليق بن لوذ بن سام. وكانت العرب تسميه غريباً وتقول في مثل: من يطع غريباً يُمس غريباً. يعنون عمليق بن لوذ.

ويقال: إن لهم بقية في العرب لأنهم كانوا قد اختلطوا بهم، ومنهم الزبّاء. فعلى هذا يصح أن يكون أهل هذه المدينة كانوا يتكلمون بالعربية فيقولون: حلب، إذا حلب إبراهيم عليه السلام.

قال بطليموس: طول مدينة حلب تسع

وستون درجة وثلاثون دقيقة، وعرضها خمس وثلاثون درجة وخمس وعشرون دقيقة، داخلة في الاقليم الرابع. طالعها العقرب، وبيت حياتها: إحدى وعشرون درجة من القوس، لها شركة في النسر الطائر تحت إحدى وعشرون درجة من القوس، لها شركة في النسر الطائر تحت إحدى عشرة درجة من السرطان. وخمس وثلاثون دقيقة، يقابلها مثلها من الميزان.

قال أبو عون في زيجه: طول حلب ثلاث وستون درجة، وعرضها أربع وثلاثون درجة وثلث. وهي في الإقليم الرابع.

وذكر أبو نصر يحيى بن جرير الطبيب التكريتي النصراني في كتاب ألفه: أن سلوقس الموصلي ملك خمسة وأربعين سنة، وأول ملكه كان في سنة ثلاثة آلاف وتسعمئة وتسع وخمسين لآدم ﷺ - وهي سنة أربعة آلاف وثماني عشرة لآدم. ملك طوساً المسماة سميرم مع أبيها وهو الذي بنى حلب بعد دولة الإسكندر وموته باثنتي عشرة سنة. وقال في موضع آخر: كان الملك على سورية وبابل والبلاد العليا سلوقس نيقطور؛ وهو سرياني. وملك في السنة الثالثة عشرة لبطليموس بن لاغوس بعد ممات الإسكندر، وفي السنة الثالثة عشر من ملكه بنى سلوقوس اللاذقية وسلوقية وأفاميا وباروا وهي حلب وإداسا وهي الرها وكمل بناء أنطاكية. وكان بناها قبله، يعني أنطاكية أنطيقوس في السنة السادسة من موت الإسكندر.

وذكر آخرون في سبب عمارة حلب: أن العماليق لما استولوا على البلاد الشامية وتقاسموها بينهم استوطن ملوكهم مدينة عمان ومدينة أريحا الغور ودعاهم الناس الجبارين. وكانت قنسرين مدينة عامرة.

وكانت قنسرين مدينة عامرة ولم يكن يومئذ اسمها قنسرين وإنما كان اسمها صوبا وكان هذا الجبل المعروف الآن بسمعان يعرف بجبل بني صنم، وبنو صنم كانوا يعبدونه في موضع يعرف اليوم بكفر نبو، والعمائر الموجودة في هذا الجبل إلى اليوم هي آثار المقيمين في جوار هذا الصنم، وقيل: إن بلعام بن باعور البالسي إنما بعثه الله إلى عباد هذا الصنم لينهاهم عن عبادته، وقد جاء ذكر هذا الصنم في بعض كتب بني إسرائيل، وأمر الله بعض أنبيائهم بكسره.

ولما ملك بلقورس الأثوري الموصل وقصبتها يومئذ نينوى كان المستولي على خطة قنسرين حلب بن المهر أحد بني الجان بن مكنّف من العماليق فاختط مدينة سميت باسمه، وكان ذلك على مضي ثلاثة آلاف وتسعمئة وتسعين سنة لآدم. وكانت مدة ملك بلقورس هذا ثلاثين عاماً، وكان بناها بعد ورود إبراهيم ﷺ إلى الديار الشامية بخمسمئة وتسع وأربعين سنة لأن

إبراهيم ابتلى بما ابتلى به من نمرود زمانه واسمه راميس وهو الرابع من ملوك آثورا ومدة ملكه تسع وثلاثون سنة. ومدة ما بينه وبين آدم ﷺ ثلاثة آلاف وأربعمئة وثلاث عشرة سنة، وفي السنة الرابعة والعشرين من ملكه ابتلى به إبراهيم فهرب منه مع عشيرته إلى ناحية حران ثم انتقل إلى جبل البيت المقدس.

وكانت عمارتها بعد خروج موسى ﷺ من مصر ببني إسرائيل إلى التيه وغرق فرعون بمئة وعشرة أعوام. وكان أكبر الأسباب في عمارتها ما حلّ في العماليق في البلاد الشامية من خلفاء موسى، وذلك أن يوشع بن نون ﷺ لمّا خلف موسى قاتل أريحا الغور وافتتحها وسبى وأحرق وأخرب ثم افتتح بعد ذلك مدينة عمان وارتفع العماليق عن تلك الديار إلى أرض صوبا: وهي قنسرين، وبنوا حلب وجعلوها حصناً لأنفسهم وأموالهم ثم اختطوا بعد ذلك العواصم. ولم يزل الجبارون مستولين عليها متحصنين بعواصمها إلى أن بعث الله داود عليه السلام فانتزعهم عنها.

وقرأت في رسالة كتبها ابن بطلان المتطبب إلى هلال بن المحسن بن إبراهيم الصابي في نحو سنة ٤٤٠هـ في دولة بني مرداس فقال: دخلنا من الرصافة إلى حلب في أربع مراحل، وحلب بلد مسوّر بحجر أبيض وفيه ستة أبواب وفي جانب السور قلعة في أعلاها مسجد وكنيستان وفي إحداهما كان المذبح الذي قرّب عليه إبراهيم ﷺ. وفي أسفل القلعة مغارة كان يخبئ بها غنمه، وكان إذا حلبها أضاف الناس بلبنها فكانوا يقولون حلب أم لا؟ ويسأل بعضهم بعضاً عن ذلك فسميت لذلك حلباً.

وفي البلد جامع وست بيع وبيمارستان صغير والفقهاء يفتون على مذهب الإمامية، وشرب أهل البلد صهاريج مملوءة بماء المطر. وعلى بابه نهر يعرف بقويق يمد في الشتاء وينضب في الصيف وفي وسط البلد دار علوة صاحبة البحتري، وفيها من الشعراء جماعة منهم: شاعر يعرف بأبي الفتح بن أبي حصينة ومن جملة شعره قوله:

ولما التقينا للوداع ودمعها

ودمعي يفيضان الصبابة والوجدا

بكت لؤلؤاً رطباً ففاضت مدامعي

عقيقاً، فصار الكل في نحرها عقدا

وفيها كاتب نصراني له في قطعة من الخمر أظنه صاعد بن شمّامة:

خافت صوارم أيدي المازجين لها

فألبست جسمها درعاً من الحبب

وفيها شاعر يعرف بأبي محمد بن سنان قد ناهز العشرين وعلا في الشعر طبقة المحنكين فمن قوله:

إذا هجوتكم لم أخش صولتكم
وإن مدحت فكيف الريُّ باللهب
فحين لم ألق لا خوفاً ولا طمعاً
رغبت في الهجو إشفاقاً من الكذب

وفيها شاعر يعرف بأبي العباس يكنى بأبي المشكور، مليح الشعر سريع الجواب حلو الشمائل. له في المجون بضاعة قوية وفي الخلاعة يد باسطة. وله أبيات إلى والده:

يا أبا العباس والفضل
أبــا العبــاس تكنــى
أنت مع أمي بلا شك
تحـاكي الكركنـدنـا
أنبت في كـل مجـرى
شعرة في الرأس قرنا

فأجابه أبوه:

أنت أولى بأبي المذمـو
م بين النـاس تكنـى
ليـت لي بنتـاً ولا أنت
ولـو بنـت يُحنـا

قال: ومن عجائب حلب أن في قيسارية البزّ عشرين دكاناً للوكلاء يبيعون فيها كل يوم متاعاً قدره عشرون ألف دينار مستمر ذلك منذ عشرين سنة وإلى الآن. وما في حلب موضع خراب أصلاً. وخرجنا من حلب طالبين أنطاكية. وبينها وبين حلب يوم وليلة؛ آخر ما ذكر ابن بطلان.

وفي قلعة حلب مقام إبراهيم الخليل، وفيه صندوق به قطعة من رأس يحيى بن زكريا (عليه السلام) ظهرت سنة ٤٣٥.

وعند باب الجنان مشهد علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) رؤي فيه في النوم وداخل باب العراق مسجد غوث فيه حجر عليه كتابة زعموا أنه خط علي بن أبي طالب رضي الله عنه. وفي غربي البلد في سفح جبل جوشن قبر المحسن بن الحسين يزعمون أنه سقط لما جيء بالسبي من العراق ليحمل إلى دمشق أو طفل كان معه بحلب فدفن هنالك. وبالقرب منه مشهد مليح العمارة تعصّب الحلبيون وبنوه أحكم بناء وأنفقوا عليه أموالاً. يزعمون أنهم رأوا علياً (رضي الله عنه) في المنام في ذلك المكان.

وفي قبلي الجبل جبانة واحدة يسمونها المقام بها مقام لإبراهيم (عليه السلام). وبظاهر باب اليهود حجر على الطريق ينذر له ويصبّ عليه ماء الورد والطيب ويشترك المسلمون واليهود والنصارى في زيارته، يقال إن تحته قبر بعض الأنبياء. وأما المسافات فمنها إلى قنسرين يوم وإلى المعرة يومان وإلى أنطاكية ثلاثة أيام وإلى الرقة أربعة أيام وإلى الأثارب يوم وإلى توزين يوم وإلى منبج يومان، وإلى بالس يومان، وإلى حماة ثلاثة أيام وإلى حمص أربعة أيام، وإلى

حران خمسة أيام، وإلى اللاذقية ثلاثة أيام وإلى جبلة ثلاثة أيام وإلى طرابلس أربعة أيام وإلى دمشق تسعة أيام.

قال المؤلف (رحمة الله عليه): شاهدت من حلب وأعمالها ما استدللت به على أن الله تعالى خصّها بالبركة وفضّلها على جميع البلاد، فمن ذلك أنه يزرع في أراضيها القطن والسمسم والبطيخ والخيار والدخن والكروم والذرة والمشمش والتين، والتفاح عذباً لا يسقى إلا بماء المطر، ويجيء مع ذلك رخصاً غضاً روياً يفوق ما سقى بالمياه، والسيح في جميع البلاد، وهذا ما لم أره فيما طوّفت من البلاد في غير أرضها.

ومن ذلك أن المسافة ما بيد مالكها في أيامنا هذه، وهو الملك العزيز محمد بن الملك الظاهر غازي ابن الملك الناصر يوسف بن أيوب، مدبر دولته والقائم بجميع أموره شهاب الدين طغرل، وهو خادم رومي زاهد متعبد حسن العدل والرأفة برعيته لا نظير له في أيامه في جميع أقطار الأرض، حاشا الإمام المستنصر بالله أبي جعفر المنصور بن الظاهر بن الناصر لدين الله. فإن كرمه وعدله ورأفته قد تجاوزت الحد، فالله بكرمه يرحم رعيتهما بطول بقائهما.

من المشرق إلى المغرب مسيرة خمسة أيام، ومن الجنوب إلى الشمال مثل ذلك، وفيها ثمانمئة ونيف وعشرون قرية ملك لأهلها ليس للسلطان فيها مقاطعات يسيرة، ونحو مئتين ونيف قرية مشتركة بين الرعية والسلطان. وقفني الوزير الصاحب القاضي الأكرم جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف بن إبراهيم الشيباني القفطي أدام الله تعالى أيامه، وختم بالصالحات أعماله، وهو يومئذ وزير صاحبها ومدير دواوينها، على الجريدة وأسماء القرى وأسماء ملاكها وهي بعد ذلك تقوم برزق خمسة آلاف فارس مراخى الغلة موسع عليهم.

قال لي الوزير الأكرم أدام الله تعالى علوه: لو لم يقع إسراف في خواص الأمراء وجماعة من أعيان المفايد لقامت بأرزاق سبعة آلاف فارس، لأن فيها من الطواشية المفايد ما يزيد عن ألف فارس يحصل الواحد منهم في العام من عشرة آلاف درهم إلى خمسة عشر ألف درهم. ويمكن أن يستخدم من فضلات خواص الأمراء ألف فارس.

وفي أعمالها إحدى وعشرون قلعة يقام بذخائرها وأرزاق مستحفظيها خارجاً عن جميع ما ذكرناه، وهو جملة أخرى كثيرة ثم يرتفع بعد ذلك كله من فضلات الإقطاعات الخاصة بالسلطان من سائر الجبايات إلى قلعتها عنباً وحبوباً ما يقارب في كل يوم عشرة آلاف درهم.

وقد ارتفع إليها في العام الماضي وهو

سنة ٦٢٥هـ من جهة واحدة هي دار الزكاة التي يُجبى فيها العشور من الإفرنج والزكاة من المسلمين وحق البيع سبعمئة ألف درهم وهذا مع العدل الكامل والرفق الشامل بحيث لا يرى فيها متظلم ولا متهضّم ولا مهتضم، وهذا من بركة العدل وحسن النية.

وأما فتحها فذكر البلاذري أن أبا عبيدة رحل على حلب، وعلى مقدمته عياض ابن غنم الفهري، فكان أبوه يسمى عبد غنم، فلما أسلم عياض كره أن يقال له ابن عبد غنم فقال: أنا عياض بن غنم، فوجد أهلها قد تحصنوا فنزل عليها فلم يلبثوا أن طلبوا الصلح والأمان على أنفسهم وأولادهم وسور مدينتهم وكنائسهم ومنازلهم، والحصن الذي بها فأعطوا ذلك واستثنى عليهم موضع المسجد. وكان الذي صالحهم عياض، فأنفذ أبو عبيدة صلحه. وقيل: بل صالحوا على حقن دمائهم وأن يقاسموا أنصاف منازلهم وكنائسهم، وقيل: إن أبا عبيدة لم يصادف بحلب أحداً لأن أهلها انتقلوا إلى أنطاكية وأنهم إنما صالحوا على مدينتهم بها ثم رجعوا إليها.

أما قلعتها فيها يضرب المثل في الحسن والحصانة لأن مدينة حلب في وطاء من الأرض وفي وسط ذلك الوطاء جبل عال مدور صحيح التدوير مهندم بتراب صح به تدويره، والقلعة مبنية في رأسه، ولها خندق عظيم وصل بحفره إلى الماء. وفي وسط هذه القلعة مصانع تصل إلى الماء المعين، وفيها جامع وميدان وبساتين ودور.

وكان الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين يوسف بن أيوب قد اعتنى بها بهمّته العالية فعمرها بعمارة عادية وحفر خندقها، وبنى رصيفها بالحجارة المهندمة فجاءت عجباً للناظرين إليها لكن المنية حالت بينه وبين تتمتها.

ولها في أيامنا هذه سبعة أبواب: باب الأربعين، وباب اليهود، وكان الملك الظاهر قد جدد عمارته وسماه باب النصر، وباب الجنان، وباب أنطاكية، وباب قنسرين وباب العراق وباب السر، وما زال فيها على قديم الزمان وحديثه أدباء وشعراء ولأهلها عناية بإصلاح أنفسهم وتثمير الأموال. فقلّ ما ترى من نشئها من لم يتقيل أخلاق آبائه في مثل ذلك، فلذلك فيها بيوتات قديمة معروفة بالثروة ويتوارثونها ويحافظون على حفظ قديمهم بخلاف سائر البلدان.

وقد أكثر الشعراء من ذكرها ووصفها والحنين إليها، وأنا أقتنع من ذلك قصيدة لأبي بكر محمد بن الحسن بن قرار الصنوبري، وقد أجاد فيها ووصف متنزهاتها وقراها القريبة منها فقال:

احبسا العيس احبساها
وسلا الدار سلاها
واسألا أين ظباء الـ
ـدار أم أين مهاها

أين قطانُ محاهم   بانقوساها بها با
ريبُ دهر ومحاها   لا ربا مثلي وتاها
صُمَتِ الدارُ عن السا   وبيا صفرا وبابا
ئل، لا صمّ صداها   هي المباهي حين باهى
بليت بعدهم الـدا   لا قلى صحراء نافر
رُوأبلاني بلاها   قل شوقي لا قلاها
آية شطت نوى الأظـ   لا سلا أجبال باسلـ
ـعان لا شطت نواها   لين قلبي لا سلاها
من بدور من دجاها   وبباسلين فليبـ
وشموس من ضحاها   ـغ ركابي من بغاها
ليس ينهى النفس ناهٍ   وغلى باشقليثا
ما أطاعت من عصاها   ذو التناهي يتناهى
بأبي من عُرسها سُخـ   ويعاذين فواها
ـطي ومن عرسي رضاها   لبعاذين وواها
دمية إن جليت كا   بين نهر وقناة
نت حلى الحسن حلاها   قد تلته وتلاها
دمية ألقت إليها   وجاري برك يجلو
راية الحسن دُماها   همومي مجتلاها
دمية تسقيك عينا   وبياض تلتقي آ
ها كما تسقي مداها   ما لنا في ملتقاها
أعطيت لوناً من الـور   زاد أعلاها علوا
دِ وزيدت وجنتاها   جوشناً لما علاها
جندا الباءات باءت   وازدهت برج أبي الحا
وقويق وربـاها   رث حسناً وازدهاها

واطبت مستشرف الحصـ
ـــن اشتياقاً واطباها
وأرى المنيـــــة فـــازت
كل نفس بمنـــاهـــا
إذا هواي العوجان السا
لب النفس هـواهـا
ومقيلي بركـة التلـــ
ـل وسيباتُ رحـاهـا
بركـة تربتهـا الكـا
فـور والـدر حصاها
كم غراني طربي حيـ
ـتانهـا لما غـراهـا
إذا تلى مطبخ الحيـ
ـتان منها مشتواها
بـمـروج اللهـو ألقت
عيـر للذاتي عصاهـا
وبمغنى الكاملي اسـ
ـتكملت نفسي مناها
وغرتْ ذا الجوهري الـ
ـمزنَ غيثاً وغراها
كلأ الراموسة الحسـ
ـناء ربي وكـلاهـا
وجزى الجنات بالسعـ
ـدى بنتمى وجزاها[٤٢]

ويتوقف القارئ في قراءته لمادة حلب في المعجم عند بحث تاريخي وجغرافي وأدبي ضخم المادة يكاد يجمع فيه كل ما قيل في حلب حتى زمانه مستعيناً بالمواد التي خلّفها الرحالة السابقون له. كما تدهشنا هذه ملكة نقدية التي يتمتع بها: إذ نراه يمحّص في كل خبر أو وصف ولا يتجاوز حدود المنطق والمقبول ويتشكك فيما لا يأمن صدقه وفيه معلومات كثيرة عن كتب ضاع أغلبها.

١٢ - القزويني (ت ٦٨٢/١٢٨٣م):

هو زكريا بن محمد بن محمود من سلالة أنس بن مالك **الأنصاري البخاري**. مؤرخ وجغرافي من القضاة، ولد بقزوين إلى الشام والعراق، فتولى قضاء واسط والحلة في أيام المستعصم العباسي. له عدة تصانيف منها: «آثار البلاد وأخبار العباد» و«خطط الشام» و«عجائب المخلوقات»[٤٤].

- صورة حلب في رحلة القزويني:

يقول: «حلب مدينة عظيمة كثيرة طيبة الهواء، صحيحة التربة، لها سور حصين وقلعة حصينة. قال الزجاجي: كان الخليل عليه السلام يحلب غنمه بها ويتصدق بلبنها يوم الجمعة فيقول الفقراء: حلب، فسميت بذلك.

ولقد خصّ الله تعالى هذه المدينة ببركة عظيمة من حيث انه يزرع في أرضها القطن والسمسم والبطيخ والخيار والدخن

و الكرم والمشمش والتفاح والتين عذباً يسقى بماء المطر فياتي غضاً روياً يفوق ما يسعى بالسيح في غيرها من البلاد. قال كشاجم:

أرتكَ يـدُ الغيثُ آثـارهـا

وأخـرجت الأرضُ أزهـارهـا

ومـا منعتْ جـارهـا بلـدةً

كمـا منعت حلبُ جـارهـا

هي الخلدُ يجمعُ ما تشتهي

فزُرها فطـوبى لمن زارهـا

والمدينة مسورة بحجر أسود، وفي جانب السور قلعة حصينة لأن المدينة في وطاء من الأرض. وفي وسطها جبل مدوّر متهدم والقلعة عليه. ولها خندق عظيم وصل حفره إلى الماء، وفي وسطه مصانع للماء المعين وجامع وبساتين وميدان ودور كثيرة، وفيها مقامان للخليل ﷺ يزاران إلى الآن، وفيها مغارة كان يجمع الخليل فيها غنمه.

وفي المدينة مدارس ومشاهد وبيع وأهلها سنية وشيعية. وبها حجر بظاهر باب اليهود على الطريق ينذر له ويصبُّ عليه الماورد المسلمون واليهود والنصارى. يقولون تحته قبر نبي من الأنبياء وفي مدرسة الحلاوي حجر على طرف بركتها كأنه سرير ووسطه منقور قليلاً. يعتقد الفرنج فيه اعتقاداً عظيماً وبذلوا فيه أموالاً فلم يجابوا إليه.

ومن عجائبها سوق الزجاج فإن الإنسان إذا اجتاز بها لا يريد أن يفارقها لكثرة ما يرى فيها من الطرائف العجيبة والآلات اللطيفة تحمل إلى سائر البلاد للتحف والهدايا. وكذلك سوق المزوّقين ففيها آلات عجيبة مزوقة.

ولهم لعب كل سنة يسمونه «الشلاق»؛ وهو أنهم يخرجون إلى ظاهر المدينة وهم فرقتان تتقاتلان أشدّ القتال حتى تنهزم إحدى الفرقتين فيقع فيهم القتل والكسر والجرح والوحي ثم يعودون مرة أخرى.

ومن عجائبها بئر في بعض ضياعها إذا شرب منها من عضة الكلب الكلِب برئ، وهذا مشهور. قال بعض أهل هذه القرية شرطه أن العضّ لم يجاوز أربعين يوماً، فإن جاوز أربعين يوماً لم يبرأ. وذكر أنه أتاهم ثلاثة أنفس من المكلوبين وشربوا منه فسلم اثنان لم يجاوزا الأربعين ومات الثالث وقد جاوز الأربعين. وهذه بئر منها شرب أهل الضيعة.

وحكى بعضهم أنه ظهر بأرض حلب سنة أربع وعشرين وستمئة تنين عظيم بغلظ منارة وطول مفرط ينساب على الأرض يبلغ كل حيوان يجده، ويخرج من فمه نار تحرق ما تلقاه من شجر أو نبات، واجتاز على بيوت أحرقها، والناس يهربون يميناً ويساراً حتى انساب قدر اثني عشر فرسخاً، فأغاث الله تعالى الخلق منه

بسحابة نشأت ونزلت إليه فاحتملته، وكان قد لفّ ذنبه في كلب فيرفع الكلب رفعة والكلب يعوي في الهواء والسحاب يمشي به والناس ينظرون إليه إلى أن غاب عن الأعين. قال الحاكي: رأيت الموضع الذي انساب فيه كأنه نهر.(٤٥).

١٣ - ابن سعيد المغربي (٦٨٤هـ/١٢٨٥م):

هو أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد المغربي. ولد عام ٦١٠هـ في قلعة يحصب من أعمال غرناطة في الأندلس، ملوك الطوائف، لأسرة عرفت بالعلم والأدب، فأرسله والده إلى إشبيلية لتحصيل العلم، ثم عاد ليكمل مع والده ما باشر جده بتأليفه، وهو الكتاب الشهير المسمى «الغرب في حلى المغرب» انتقل مع والده ليؤدي فريضة الحج، فاستقر في مصر مكوناً حوله ثلة أصدقاء من أدبائها. ثم تابع تطوافه ليزور بغداد. فحلب الذي دعاه صديقه ابن العديم إلى زيارتها، ثم انتقل إلى البصرة فدمشق. ألف ما يربو على ٤٠٠ كتاب في شتى الميادين منها: «نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب» و«عنوان المرقصات» و«القدح المعلى» وغيرها...(٤٦).

- **صورة حلب في رحلة ابن المغربي:**

يقول: «... وتقع هذه المدينة المشهورة التي ضخمت بدولة بني حمدان فيها ثم بالدول العربية والعجمية التي توالت عليها إلى أن دخلها التتر في عصرنا فخربوها وسكنوا ديار أهلها. وذلك حيث الطول ثلاث وستون درجة وثلاثون دقيقة والعرض أربع وثلاثون درجة وثلاثون دقيقة.

وهي في جنوب نهر قويق وشرقيه. وهو يأتي من جهة عزاز وهو حصن مشهور في شمالي حلب. ولهذه المدينة جهات في نهاية الحسن والطيبة والخصب معظم تربتها حمراء، فهي تفرح النفس وأكثر ما يزرع فيها القطن الذي يحمل في المراكب إلى سبتة فيعم بلاد المغرب، وقد خصبت أرضها بالفستق الكبير.

ومن أنزه المساكن التي في جهتها الباب، من أملح مما تبصره عين وترتاح إليها نفس. وهنالك الناقورة التي ذكرها امرؤ القيس في شعره. والوادي الذي أتى في وصفه المناري بالعجب. وفي هذا المكان مدينة إلا أنها غير مشهورة ولها حمام وبزازون وعطارون. وهي على مرحلة جيدة من حلب في طريق الفرات. وفي الجهة الشمالية نهر الجوز من أحسن أنهار الدنيا وأكثرها خيرات وأكنفها ظلالاً.

وفي تلك الجهة حصن تل باشر على مرحلة جيدة من حلب فيه المياه والبساتين. وقد خصّ بالعين، وبالأخص الذي لا نظير له ولا يستطيعون توصيله على حلب لأنه يستحيل إلى ماء في الطريق.

وبين حلب وأنطاكية حازم، وهو حصن كثير الرزاق. وقد خص بالرمان الذي يظهر

باطنه من ظاهره مع عدم العجم وكثرة الماء، وهو على مرحلة جيدة من حلب.

وفي شرقي الباب المتقدم الذكر فيما بين حلب والفرات مدينة منبج[٤٧].

١٤ - ابن بطوطة (ت٧٧٩هـ/١٣٧٧م):

هو محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم الطنجي، أبو عبد الله، ابن بطوطة. رحالة مؤرخ، ولد ونشأ في طنجة بالمغرب الأقصى، وخرج منها سنة ٧٢٥هـ، فطاف بلاد المغرب ومصر والشام والحجاز والعراق وفارس واليمن والبحرين وتركستان وغيرها... واتصل بكثير من الملوك والأمراء، فمدح وكان ينظم الشعر. انقطع مدة إلى السلطان أبي عنان من ملوك بني مرين، فأقام في بلاده وأملى أخبار رحلته على محمد ابن جزّي الكلبي بمدينة فاس سنة ٧٥٦هـ. وجاءت صياغة ابن جزي لها أدبياً تأثر فيه كثيراً بكتاب ابن جبير. وقد ترجمت هذا الرحلة لأهميتها إلى لغات عدة[٤٨].

- رحلة ابن بطوطة:

كان أداء فريضة الحج هو المحرض الأول لتجواله وقام ابن بطوطة بثلاث رحلات وكان قد بدأ بالأولى حين بلغ الحادية والعشرين من عمره. زار من المدن: المغرب والجزائر وتونس وليبيا ومصر والشام وفلسطين. وزار صور وصيدا وبيروت وبعلبك، ووصف جبل لبنان. كما زار مدينة طرابلس الشام وطبرية، وتجول حتى وصل دمشق التي ترك فيها زوجته، ثم رافق الحجاج قاصداً الحجاز والعراق وفارس، ثم سواحل البحر الأحمر والمحيط الهندي والخليج، وبعدها توجه إلى آسيا الصغرى فبلاد الأوزبك وشرق أوروبا فآسيا الوسطى فالهند فالصين، ثم عاد المغرب فزار الأندلس والسودان.

ولا تخلو رحلته من الإشارة إلى بعض المظاهر الطبيعية لسطح الأرض وبعض المعلومات الجغرافية رغم أن اهتمامه الأول كان لوصف السكان والحياة الاجتماعية[٤٩].

- صورة حلب في رحلة ابن بطوطة:

يقول: «حلب المدينة الكبرى والقاعدة العظمى. قال أبو الحسين بن جبير في وصفها: «حلب مدينة قدرها خطير وذكرها في كل زمان يطير، خُطابها من الملوك كثير، ومحلها من النفوس أثير. فكم هاجت من كفاح، وسُلّ عليها من بيض الصفاح، لها قلعة شهيرة الامتناع بائنة الارتفاع معدومة الشبه والنظير في القلاع، تنزهت حصانة من أن ترام أو تُستطاع قاعدة كبيرة ومائدة من الأرض مستديرة منحوتة الأرجاء موضوعة على نسبة اعتدال واستواء، قد طاولت الأيام والأعوام ووسعت الخواص والعوام.

هذه منازلها وديارها، فأين سكانها

قديماً وعُمّارها؟ وتلك دار مملكتها وفناؤها، فأين أمراؤها الحمدانيون وشعراؤها؟ أجل فني جميعهم ولم يأن بعد فناؤها. فيا عجباً لبلاد تبقى وتذهب أملاكها ويهلكون ولا يُقضى هلاكها. وتُخطب بعدهم فلا يتعذر مِلاكها وترام فيتيسر بأهون شيء إدراكها.

هذه حلب كم أدخلت ملوكها في خبر كان ونسخت صرف الزمان والمكان. أنث اسمها فتحلّت بزينة الغوان ودانت بالغدر فيمن خان، وتجلت عروساً بعد سيف دولتها ابن حمدان.

هيهات هيهات سيهرم شبابها ويُعدم خُطابها، ويسرع فيها بعد حين خرابها».

وقلعة حلب تسمى الشهباء وبداخلها جبلان ينبع منهما الماء فلا تخاف الظمأ. ويطيف بها سوران، وعليها خندق عظيم ينبع منه الماء. وسورها متداني الأبراج. وقد انتظمت بها العلالي العجيبة المفتحة الطبقات، وكل برج منها مسكون. والطعام لا يتغير بهذه القلعة على طول العهد.

وبها مشهد يقصده بعض الناس يقال إن الخليل ﷺ كان يتعبد به. وهذه القلعة تشبه قلعة رحبة مالك بن طوق على الفرات بين الشام والعراق. ولما قصد قازان طاغية التتر مدينة حلب حاصر هذه القلعة أياماً ونكص عنها خائباً.

ويقال في مدينة حلب: «حلب إبراهيم»؛ لأن إبراهيم الخليل صلوات الله وسلامه على نبينا وعليه كان يسكنها، وكانت له الغنم الكثيرة فكان يسقي الفقراء والمساكين، والوارد والصادر من ألبانها. فكانوا يجتمعون ويسألون: «حلب إبراهيم»؟ فسميت بذلك.

وهي من أعز البلاد التي لا نظير لها في حسن الموضع وإتقان الترتيب واتساع الأسواق، وانتظام بعضها ببعض. وأسواقها مسقفة بالخشب، فأهلها دائماً في ظل ممدود، وقيسارتها لا تماثل حسناً وكبرا وهي تحيط بمسجدها. وكل سماط منها محاذ لباب من أبواب المسجد ومسجدها الجامع من أجمل المساجد، في صحنه بركة ماء، ويطيف بل بلاط عظيم الاتساع ومنبرها بديع العمل مرصع بالعاج والأبينوس، وبقرب جامعها مدرسة مناسبة له في حسن الوضع وإتقان الصنعة ينسب لأمراء بني حمدان.

وبالبلد سواها ثلاث مدارس، وبها مارستان. وأما خارج المدينة فهو بسيط أفيح عريض به المزارع العظيمة وشجرات الأعناب منتظمة به والبساتين على شاطئ نهرها، وهو النهر الذي يمرّ بحماة ويسمى العاصي، وقيل إنه سمي بذلك لأنه يخيل لناظره أن جريانه من أسفل إلى علو[٥٠].

والنفس تجد في خارج مدينة حلب إشراقاً وسروراً، ونشاطها لا يكون في سواها، وهي من المدن التي تصلح للخلافة. وبحلب ملك الأمراء أرغون الدوادار أكبر أفراد الملك الناصر. وهو من الفقهاء موصوف بالعدل لكنه بخيل. والقضاة بحلب أربعة للمذاهب الأربعة؛ فمنهم القاضي كمال الدين بن الزملكاني: شافعي المذهب، عالي الهمة، كبير القدر كريم النفس، حسن الأخلاق، متفنن بالعلوم. وكان الناصر قد بعث إليه ليوليه قضاء القضاة بحضرة ملكه فلم يقض له ذلك، وتوفي ببلبيس وهو متوجه إليها.

ولما ولي قضاء حلب قصدته الشعراء من دمشق وسواها. وكان فيمن قصده الشاعر الشاب شهاب الدين أبو بكر محمد ابن الشيخ المحدث شمس الدين أبي عبد الله محمد بن نباتة القرشي الأموي الميافارقيني، فامتدحه بقصيدة طويلة حافلة أولها:

أسفت لفقدك جلّق الفيحاء
وتباشرت لقدومك الشهباء
وعلى دمشق وقد رحلت كآبة
وعلا ربا حلب سنا وسناء
قد أشرقت دار سكنت فناءها
حتى غدت ولنورها لألاء

وهي أزيد من خمسين بيتاً. وأجازه عليها بكسوة ودراهم. وانتقد عليه الشعراء ابتداءه بلفظ «أسفت». ومن قضاة حلب قاضي من قضاة الحنفية الإمام المدرس ناصر الدين ابن العديم، حسن الصورة والسيرة، أصيل مدينة حلب:

تراه إذا ما جئته متهللا
كأنك تعطيه الذي أنت سائل

ومنهم قاضي قضاة المالكية لا أذكره، كان من الموثقين بمصر، وأخذ الخطة من غير استحقاق، ومنهم قاضي قضاة الحنابلة لا أذكر اسمه، وهو من أهل صالحية دمشق، ونقيب الأشراف بحلب بدر الدين بن الزهراء، ومن فقهائها شرف الدين بن العجمي، وأقاربه هم كبراء مدينة حلب[٥١].

١٥ - أبو الفداء (ت ٧٣٢هـ/١٣٣١م):

هو الملك المؤيد إسماعيل بن علي بن محمود، أحد آل نجم الدين أيوب. ولد في دمشق عام ٦٧٢هـ/١٢٧٣ واشتهر بعماد الدين. شاعر ومؤرخ وجغرافي ورحالة شهير، ذاع صيته خلال القرن الثامن الهجري. وكان أميراً على دمشق ثم أصبح سلطان حماة.

كان يتمتع بموهبة عالية في نظم الشعر،

وشهوة للمعرفة يشجعها ذهن متقد، وشهد معاصروه بشجاعته وقدراته العسكرية، وفي الوقت ذاته بمرونته وسياساته الحكيمة وأساليبه الدبلوماسية في معاملة خصومه. توفي في الستين من عمره، ولا تزال مقبرته حتى اليوم بمدينة حماة قرب المسجد المعروف بمسجد «الحيايا» الذي أمر ببنائه قبل وفاته بنحو أربعة أعوام[٥٢].

- رحلة أبي الفداء:

تعددت أسفار أبي الفداء وكانت لأغراض شتى منها: الحرب، أو تلبية لدعوات أصدقائه في مصر والشام، وكان له أيضاً جولات مع سلطان مصر الملك الناصر بلغ بها دندرة.

شرع بتدوين مصنفه «تقويم البلدان» عام ٧١٧هـ/١٣١٦م، وأتمه في نهاية عام ٧٢١هـ/١٣٢٠م. وإذا كان لم يرتحل إلى أغلب بلاد المملكة الإسلامية وإنما وطأت أقدامه فقط المنطقة الوسطى منها المتمثلة في مصر والشام وبلاد العرب والسودان وآسيا الصغرى، فإنه استكمل معارفه عن الباقي بالسماع والنقل عن الاصطخري، وابن حوقل، والإدريسي، والحموي وسواهم..

ويقع كتابه في قسمين: الأول: هو كوزموغرافيا عامة، والثاني: جعله في ثمانية وعشرين قسماً. وتكمن أهميته في الجداول التي اشتملت على طبائع البلدان، وسبل عيش أهله وعاداتهم وحاصلات الأمطار وطرقها وغير ذلك. وقد تم ترجمته إلى العديد من اللغات.

- صورة حلب في رحلة أبي الفداء:

يقول: «حلب: الإقليم الحقيقي من الرابع. والإقليم العرفي: من قواعد الشام العظام، وهي من جند قنسرين. ضبط الأسماء: من اللباب بفتح الحاء المهملة وفي آخرها باء موحدة. الأوصاف والأخبار العامة: حلب بلدة عظيمة قديمة ذات قلعة مرتفعة حصينة، وبها مقام إبراهيم الخليل صلوات الله عليه، ولها بساتين قلائل، ويمر بها نهر قويق، وهي على مدرج طريق العراق إلى الثغور وسائر الشامات. وبين حلب وبين قنسرين اثنا عشر ميلاً.

قال في العزيزي[٥٣]: وهي مدينة جليلة عامرة حسنة المنازل عليها سور من حجر وفي وسطها قلعة على تل لا ترام، وبينها وبين معرة النعمان ستة وثلاثون ميلاً، وبينها وبين بالس خمسة عشر فرسخاً»[٥٤].

- صورة حلب في رحلة كبريت:

يقول: «ثم قدمنا حلب المحروسة،

وانتشقنا عبقة بساتينها المأنوسة وحمدنا الله تعالى على الخلاص من تلك الطريق التي هي غير قويمة، وفراق هاتيك المنازل التي هي كما يقال: خداج عقيمة، فأول مرة قرت بها العين وسُرّ بها الجنان، دخولنا إلى فردوسها من باب الجنان (شعر).

فنزلنا من تلك الأحياء، بوجوه زانها الحياء وقد جادت السماء بوابلها وفاضت بطلّها وهاطلها، فيا لها من بلدة كما تصفها الألسن فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذّ الأعين (شعر).

بعد استعراض كل ما جاء عن حلب في مؤلفات أعلام الرحالة العرب الذين أتوا على ذكر حلب في مصنفاتهم، وكان منهم من مرّ بها كابن جبير، ومنهم من أقام فأحب المقام ووضع فيها كتاب رحلته مثل ياقوت الحموي، نجد أن جميع من اجتاز كان من الهدف العلمي يسير جنباً إلى جنب مع هدف الحج إلى بيت الله. وأن كلاً ممن حبّر في حلب سطراً كان يدوّن ما يراه بقلبه وعقله معاً ويبدو فيما طرح مشدوداً رغماً منه إلى ما يهوى، وما يتقن من حرفة، وما ينتمي إليه من مذهب، وما يميل من أمراء أكرموه.

وقد اتفقوا جميعاً، رغم تباعد الحقبات الزمنية بينهم، على توجيه اهتمامهم إلى نواح بعينها، بعينها في حلب ومنها:

- الناحية التاريخية: وقد اتفقوا جميعاً على إعادة تسمية حلب إلى غنيمات إبراهيم الخليل.

- الناحية الإنسانية: وقد مدحوا جميعاً طبائع أهل حلب، ووقفوا في صفّهم مهاجمين من كان سيّىء التولي عليهم من أمراء.

- الناحية العمرانية: وقد جذبهم جميعاً مشهد قلعتها الشهباء وسورها وأبوابها وجامعها المدهش البنيان ومدارسها وخاناتها وأسواقها.

- الناحية الاقتصادية: وقد عدّد أغلبهم، وخاصة من كان يُعنى منهم بالتجارة، محاصيلها الزراعية التي كانت تعود على أهلها باليسار وصناعاتها البسيطة، وعني الجميع بتحديد مصدر شرب أهل حلب؛ وهو نهر قويق.

وقد انفرد كل من ياقوت وابن جبير وابن بطوطة، بذكر شيء من أحوالها السياسية التي كانت قائمة في أزمانهم، وكان ابن جبير في هذا المجال شديد النقمة على أميرها، وشديد الجرأة في نقده لسياسته الجائرة مع أهلها.

أما الأمير أسامة بن منقذ، فقد كان له السبق والتفرد في تناول الجانب العلمي

الطبي الذي كان في حلب، وفي ذكر عدد من الأمراض التي كان يعاني منها العامة والخاصة، وتناول أساليب العلاج التي كانت مستخدمة من قبل ابن بطلان؛ أشهر أطباء حلب في وقت من الأوقات.

كما حرص من كان منهم ينتمي إلى الأقليات كبنيامين اليهودي، وابن بطلان النصراني على الاهتمام بما يتعلق بطوائفهم من حيث حجم الطائفة أو عدد أماكن العبادة. وحذا حذوهم الهروي الذي فصل في ذكر أماكن الزيارات الخاصة بالمسلمين.

وهنا علينا أن لا نغفل اعتماد بعضهم على تقول البعض لآخر، وكان الأخذ عن ابن جبير جلياً من قبل معاصريه ومن تلاه من رحالة.

سنختم البحث بمسك حلبي، هو ابن هذه الأرض التي جذبت الكثير من العلماء والأدباء إليها، هو رحالة حلبي اسمه فتح الله الصائغ الحلبي، شدّ رحاله فيها إلى غيرها من الأماكن والأصقاع، ولعل من الرحالة الحلبيين القلائل إن لم يكن الأوحد.

- الرحالة فتح الله الصائغ الحلبي (منتصف القرن التاسع عشر الميلادي):

هو شاب سوري نصراني يدعى فتح الله الصائغ، ولد بحلب سنة ١٧٩٠م. وحدث أن اتصل به رجل من الإفرنج يدعى «لاسكاريس»، وهو في العقد الثاني من عمره، وطلب إليه أن يعلمه العربية مقابل أجر مغر. وكان ذلك في حلب سنة ١٨٠٩م، وهي وقتئذ مركز تجاري هام ومحط قوافل الهند والأناضول. ومع أن فتح الله المذكور كان يميل إلى التجارة ويجهل مهنة التعليم، فإنه قبل هذه المهمة لأنه كان صفر اليدين على أثر صفقة تجارية خاسرة له في جزيرة قبرص.

وبعد مضي أشهر على ذلك كان «لاسكاريس» قد تعلم القليل من العربية قراءة وكتابة، فعرض على فتح اللهأن يرافقه برحلة في أنحاء بادية الشام وصحاري العراق والعجم والجزيرة العربية، سعياً وراء أرباح التجارة، وأعطاه الأموال اللازمة لشراء البضائع التي تصلح لأهل البادية. واشترط عليه أن يطيعه طاعة عمياء ولا يخالفه في شيء. فقبل فتح الله وراح يستعد للسفر.

غادر لاسكاريس وترجمانه فتح الله حلب إلى سرمين في ١٨١٠/٢/١٨م على طريق القوافل، ثم قصدا معرة النعمان ثم على خان شيخون ثم على حماة حيث حكم عليهما بالسجن بتهمة التجسس، لكن البرطيل أنقذهما فتابعا على حمص حيث

أقاما إلى نهاية الشتاء. وبعدها تابعا رحلتهما.

وهناك يتضح لفتح الله الهدف السياسي الذي وراء سيده وهو التعرف إلى أمراء البدو والاطلاع على أحوالهم، وكسب صداقتهم والسعي لجمع كلمتهم ضد الحكم العثماني، والعمل على معرفة الصحاري ومسالكها ومياهها وتوحيد صفوف البدو ليكونوا عوناً لجيش كبير سيمر بالشرق قاصداً الهند. لذا طلب المعلم من ترجمانه أن يُسجل يومياً جميع ما يقع لهم من حوادث. ويعلمنا الصائغ انه استمر يدونّ مجريات حياتهم مدة ست سنوات. ونجهل تاريخ وفاته.

- أهميـة هذه الرحلـة:

شكّ بعض المستشرقين في صحة رحلة الصائغ، ويعود السبب في ذلك إلى كثرة الأخطاء التاريخية الواردة فيها، فضلاً عن عما يشوبها من مبالغات لا تصدق.

غير أن هذه الرحلة تتميز عن سواها من الرحلات، بما تتضمنه من وصف سريع ودقيق لكثير من الأمكنة في البادية والصحاري وسواها، مما يدل على أنه رآها حقاً. كما أن حديثه عن البادية وحياة أهلها وترحالهم وعاداتهم وتقاليدهم يجعل من مؤلفه وثيقة هامة وحيدة عن بلاد الشام وباديتها.

وقد عرف الغرب هذه الرحلة منذ مئة وخمسين عاماً، وترجمت إلى الفرنسية على يد الشاعر الرومانتيكي «لامارتين»، وكان قد اشترى مذكرات الصائغ سنة ١٨٣٢م. وقد بلغ من شدة إعجاب لامارتين بها أنه حرص على أن تكافئ الحكومة الفرنسية مؤلفها لأجل الخدمات التي قدمها لعلم الجغرافيا وأخلاق الأمم، فعينته وكيلاً في قنصليتها بحلب سنة ١٨٤٧م[٥٥].

هكذا تنتهي من رحلتنا في أسفار رحالتنا، ووجدنا أنها سجلات حقيقية لمختلف مظاهر الحياة ومفاهيم أهلها على مر العصور، وهي محفورة بجهد الرحالة، ومحبرة بعرقهم ومهمورة بعلمهم.

ولا شك في أن الرحالة يختلفون فيما بينهم في دقة ملاحظتهم وفي درجة اهتمامهم، وفي نوع هذا الاهتمام، كما يختلفون في درجة صدقهم وأمانتهم، وفي تنوع فهمهم للأمور تحت الظروف المتغايرة التي يخضعون لها، وفي هذا الاختلاف تكمن الفائدة وتكتمل أجزاء الصورة.

الحواشي

(١) شعث، شوقي، بكور، فالح، حلب في كتب البلدانيين العرب، دمشق، دار النمير، ١٩٩٥، ص٦.

(٢) قنديل، فؤاد، أدب الرحلة في التراث العربي، القاهرة، مكتبة الدار العربية للكتاب، ط٢، ٢٠٠٢، ص١٨.

(٣) الشامي، صلاح، الرحلة عين الجغرافيا المبصرة، الإسكندرية، منشأة المعارف، ١٩٨٢، ص٢.

(٤) حسين، حسني، أدب الرحلة عند العرب، بيروت، دار الأندلس، ص٢، ١٩٨٣، ص٨.

(٥) ضيف، شوقي، الرحلات، مصر، دار المعارف، لا تاريخ، ص٦.

(٦) كراتشكوفسكي، أغناطيوس، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ترجمة صلاح الدين هاشم، مصر، لجنة التأليف والترجمة، ١٩٦٨، ص٢٤.

(٧) حسين، أدب الرحلة، ص٩.

(٨) قنديل، أدب الرحلة، ص٧٢.

(٩) حسين، أدب الرحلة، ص١١.

(١٠) قنديل، أدب الرحلة، ص٧٣.

(١١) حسين، أدب الرحلة، ص١١.

(١٢) قنديل، أدب الرحلة، ص٧٢.

(١٣) حسين، أدب الرحلة، ص١٢.

(١٤) نفسه، ص ٧٩ - ٨١.

(١٥) قنديل، أدب الرحلة، ص٢٢٨.

(١٦) قنديل، أدب الرحلة، ص٢٢٩.

(١٧) النهيوم، الصادق، فهرس الرحالة والرحلات، جنيف، دار المختار، لا تاريخ، ص ٤٤.

(١٨) ابن حوقل، أبو القسم النصيبيني، بيروت، دار مكتبة الحياة، ١٩٧٩، ص١٦٣، ١٦٤.

(١٩) قنديل، أدب الرحلة، ص١٦.

(٢٠) النهيوم، الصادق، فهرس الرحالة والرحلات، ص٦١، قنديل أدب الرحلة ص٢٧.

(٢١) المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، تقديم محمد مخزوم، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٩٨٧، ص١٣٦.

(٢٢) الزركلي الأعلام، خير الدين، بيروت، دار العلم للملايين، ط٩، ١٩٩٠، ١/ ٦١.

(٢٣) الزركلي، الأعلام، ١/ ٦١، النهيوم، الفهرس ص٤٩.

(٢٤) الاصطخري، إبراهيم محمد، المسالك والممالك، تحقيق محمد جابر الحسيني، الجمهورية المتحدة، وزارة الثقافة، ١٩٦١، ص٤٦.

(٢٥) قنديل، أدب الرحلة ص ٣١٤ - ٣١٦.

(٢٦) الحموي، ياقوت، معجم البلدان، بيروت دار صادر، ١٩٦٥، ٢/ ٢٨٣.

(٢٧) ناصر خسرو، سفرنامه، رحلة ناصر خسرو القبادياني، الرياض، جامعة الملك سعود، ١٩٨٢، ص٥.

(٢٨) خسرو، سفرنامه، ص٣٩ - ٤٠.

(٢٩) قنديل، أدب الرحلة، ص ٣٦٢.

(٣٠) قنديل، أدب الرحلة، ص ٢٦٣.

(٣١) الإدريسي، محمد بن محمد بن إدريس، نزهة المشتاق في اختراق، بيروت، عالم الكتب، ١٩٨٩، ص٦٤٨/٢ - ٦٥١.

(٣٢) قنديل، أدب الرحلة، ص ٣٦٨.

(٢٣) ابن منقذ، أسامة، الاعتبار، تقديم قاسم السامرائي، الرياض، دار الأصالة، ١٩٨٧، ص ١٩٦ - ١٩٨.

(٣٤) التطيلي الأندلسي، بنيامين، ترجمة عن الأصل العبري وعلق عليها عزرا حداد، بغدا، ١٩٤٥، ص٧.

(٣٥) التطيلي الأندلسي، بنيامين، الرحلة ص٩.

(٣٦) المصدر نفسه، ص ١٢١ - ١٢٢.

(٣٧) ابن خلكان، وفيات الأعيان، تحقيق إحسان عباس، بيروت، دار صادر، ١٩٦٨، ٣١/٣ - ٣٢.

(٣٨) قنديل، أدب الرحلة، ص ٤٠٦ - ٤٠٨.

(٣٩) أبو الحسن الهروي، علي بن أبي بكر، الإشارات إلى معرفة الزيارات، تحقيق جانين سورديل - طومين، دمشق، المعهد الفرنسي، ١٩٥٣، ص٤.

(٤٠) قنديل، أدب الرحلة، ص ٢٨٥ - ٢٨٨.

(٤١) ابن جبير، الرحلة، تنقيح م. دي خويه، /إعادة طبع لندن ١٩٠٧، فرانكفورت، معهد تاريخ العلوم، ١٩٩٤، ص ٣٥٠ - ٣٥٣.

(٤٢) قنديل، أدب الرحلة، ص ٤٣٤.

(٤٣) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ٣/ ٣٩٦.

(٤٤) الزركلي، الأعلام، ٤٦/٣.

(٤٥) القزويني، زكريا بن محمد، آثار البلاد وأخبار العباد، بيروت، دار صادر، ١٩٦٠، ص١٨٣، ١٨٤.

(٤٦) ابن سعيد المغربي، كتاب الجغرافيا، تحقيق اسماعيل العربي، بيروت، المكتب التجاري، ١٩٧٠، ص٥.

(٤٧) ابن سعيد المغربي، كتاب الجغرافيا، ص ١٥٤.

(٤٨) الزركلي، الأعلام، ٢٣٥/٦، دائرة المعارف الإسلامية، ٩٩/١.

(٤٩) النهيوم، فهرس الرحالة والرحلات، ص٤٠.

(٥٠) هنا أخطأ ابن بطوطة فاسم نهر حلب هو قويق، وهو غير نهر العاصي الذي يمر بمدينة حماة.

(٥١) ابن بطوطة، تحفة النظّار في غرائب الأمصار، تحقيق علي الكتاني، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط٤، ١٩٨٥، ٨٧/١ - ٨٩.

(٥٢) قنديل، أدب الرحلة، ص ٤٧٧.

(٥٣) هو عنوان كتاب للهلبي.

(٥٤) أبو الفداء، تقويم البلدان، تحقيق رينو، دي سلان، إصدار فؤاد سزكين، فرانكفورت، معهد تاريخ العلوم العربية الإسلامية، ١٩٩٢، ص ٣٦٦ - ٣٦٧.

(٥٥) الصائغ الحلبي، فتح الله، رحلة فتح الله الصائغ الحلبي إلى بادية الشام وصحارى العراق والعجم والجزيرة العربية، تحقيق د. يوسف سلحد، دمشق، دار طلاس، ١٩٩١.

«حَلَب» في قلوبِ قاطنيها

حسن موسى النميري (*)

مُقدّمة: حلبُ عَروسُ الشَّمالِ، وفُؤادُ بِلادِ الشَّام، وإنسانُ عينِ سُوريَا : هيَ حَلبُ التَّاريخ قَديمِه وحَديثِه، وهيَ مِصباحُ الحَضارةِ، ومِشعَلُ الفكْرِ، هي عاصِمَةُ الشَّام، وشَقيقَةُ دِمَشق، تَقاسَمَتا الشُّهْرَةَ، وتَعاوَنَتا على إظهارِ مَنائرِ الحَضارةِ، وتآزَرَتا على إعْلاءِ مَنابرِ الرُّقيِّ العالَمي، والتَّقَدُّمِ البشريِّ، وإبْرازِ نَواصي الفكرِ والأدب، والعِلمِ والمَعرفة، فَهُما من أبْرزِ مَعَالِمِ الإنجازِ الحَضَاري، والتَّقَدُّمِ الفِكري منذُ أقدَمِ العُصور.

(*) حسن موسى النميري:أديب وباحث في التراث العربي (سورية)

- العمل الفني : الفنان طاهر البني

إذا اتُّخذت إحداهما «عاصمةً» شمخت أختها إلى جانبها، لا لمُبارزة، ولا لمُنافسة، وإنَّما لمُعاونة ومُساعدة ومُؤازرة، وإنْ لم تكن المُنافسةُ على إبراز مُنجزات الحضارة عَيْباً ولا المُبارزةُ على إظهار حقائق العلم والفكر والمعرفة عاراً.

أوّلُ مَنْ سمّاها حلب:

ذكرَ مُؤرّخُ حلب الكبير «ابنُ الشّحنة» في كتابه «الدُّرّ المُنتخب في تاريخ مملكة حلب» أن أوّل مَنْ بَناها:

١- بلوكوش المُوصليّ، بَناها في أوَّل فترة مُلكه سنة ٣٩٨٩ لآدم عليه السَّلام [(١)].

٢ - أمَّا أبو الرّيحان (أحمد بن محمد البيروتي) فقد ذكر في كتاب القانون للمسعودي (أنَّ الذي بَنَى حلب (بلقورس) ويَبدو أنَّ الاسمَ واحدٌ، فبلوكوش هو بلقورس، لكن اختلافَ نُطقُ الناس لاسمه.

٣- وقيل إنَّ (سلوقورس) الذي يُقالُ لَهُ (بيكانور) في السنة الأولى من تاريخ الاسكندر، مَلَكَ (سلوقورس) على سوريّا وبابل، وهذا الرّجل بَنَى: سلوقية وأفامية، والرُّها وحلب واللاذقيّة[(٢)].. قال: ويَبْدو أنَّ (سلوقورس) هذا أعادَ بناءَ حلب، وكانت قد خربت بعدَ بناء (بلوكوش) سنة ٥٢٢١ لظهور آدم عليه السلام، وبينَ المُدّتين أكثر من ألف ومئتي سنة.

٤ - وقيل إنَّ : / حلبَ وحمصَ (ابنَي مَهْر بن حمص بن حاب بن مكنف، من بني عمليق هما اللذان بَنَيا حلبَ وحمصَ فنُسبتا إليهما [(٤)] /.

سَببُ تسميتها حلب:

١- سُمّيت حلب نسبةً لبانيها من العمالقة وهو :[حلبُ بنُ المَهْر، أحد بني الحارث بن مكنف من العمالقة عام ٢٩٦٢ بعد آدم عليه السَّلام][(٥)].

٢- نُقلَ عن كمال الدين بن العديم قولُه: / كانَ إبراهيمُ عليه الصَّلاةُ والسلام، إذا اشتمل من الأرض المقدّسة ينتهي إلى هذا التَّلّ (يَعني التَّلّ الذي بُنيَتْ عليه قلعة حلب فيما بعد) فيَضَعُ به أثقالَهُ، ويَبُثُّ رَعاياهُ إلى نهر الفرات، والجبل الأسود، وكانَ مُقامُهُ بهذا التَّلّ، يَحبسُ فيه بعضَ الرُّعاة بما مَعَهم من الأغنام والمَعز والبَقَر، وكانَ الضُّعَفاءُ إذا سَمعُوا بقُدومه أتَوهُ من كُلّ وجه من بلاد الشام، فيَجتمعونَ معَ مَن



اتّبَعَهُ من الأرضِ المُقَدّسةِ، لِينالوا مِن بِرِّهِ، فكانَ يأمرُ الرُّعاةَ بِحلبِ ما معَهم، طَرَفَي النَّهارِ، ويأمرُ ولَدَهُ وعبدَهُ باتّخاذِ الطّعامِ، فإذا فُرِغَ لَهُ منهُ أمَرَ بِحَمْلِهِ إلى الطُّرُقِ المختلفةِ بإزاءِ التَّلِّ، ليتصدّقَ بهِ على الضُّعفاءِ والمساكينِ، فيُنادي الضُّعفاءُ: إبراهيم حلب، إبراهيم حلب (٦)./.

٢- ومن قراءاتنا القديمة في رحلة ابن بطوطة أنّ إبراهيمَ عليهِ السّلامُ، كانَ عندهُ بقرةٌ شهباءُ يَحلبُها، ويُوزّعُ حليبَها على الفُقراءِ والمُعوزينَ، فيجتمعونَ ويُنادي بَعضُهُم بَعضاً: حلبَ إبراهيمُ الشّهباءَ، حلبَ إبراهيمُ الشّهباءَ. فَسُمّيَتْ حلبَ الشّهباءَ، واللّهُ أعلم.

دعاءُ إبراهيم لحلب:

نُقلَ عن كمال الدين بن العديم في كتابه المُسمّى (تاريخ حلب) قولُهُ : [كانت حلب الشّهباء في قديم الزمان من أوسعِ البلادِ قُطراً، وكانَ بها مَقامُ إبراهيمَ الخليلِ

واستوطنها، وطابت له مدة، ثم أمر بالمهاجرة إلى الأرض المقدسة، فخرج عنها، فلما بعد عنها ميلاً، نزل وصلى هناك، وهو إلى الآن يعرف ذلك المكان بمقام الخليل، قبل حلب، فلما أراد الرحيل التفت إلى مكان استيطانه كالحزين الباكي لفراقها، ثم رفع يديه وقال: [**اللهم طيب ثراها، وهواءها، وماءها، وحببها لأبنائها**] فاستجاب الله دعاءه، وصار كل من أقام في بقعة حلب- ولو مدة يسيرة- أحبها، وإذا فارقها يعز عليه، وربما إذا فارقها التفت إليها وبكى[7].

ذكر من آثرها على دمشق من القدماء:

قال المؤرخ ابن الشحنة: / وقد كان جماعة من بني أمية اختاروا المقام بناحية حلب، وآثروها على دمشق - مع طيب دمشق، وحسنها، وكونها وطنهم - ولا يرغب الإنسان عن وطنه إلا لما هو أفضل، منهم:

أ- هشام بن عبد الملك، الخليفة الأموي، انتقل إلى الرصافة[8] وسكنها، واتخذها منزلاً؛ لصحة تربتها، واختار المقام بها على دمشق[9].

٢- عمر بن عبد العزيز، الخليفة الأموي أقام بخناصرة[10] واختارها منزلاً له.

٣- مسلمة بن عبد الملك، من أكبر قادة الجيوش الأموية، وأخو الخلفاء، يزيد، وهشام، وسليمان أبناء عبد الملك ابن مروان، سكن بالناعورة[11] وابتنى بها قصراً بالحجر الأسود الصلد، وبقي بها ولده بعده[12].

٤- صالح بن علي بن عبد الله بن عباس (وكان قد ولي الشام جميعه سنة ١٣٧هـ) فاختار أن يكون مقامه في حلب، وابتنى بظاهرها قصراً ببطياس[13] وهي شرقي حلب، من غربي النيرب وشمالها، وولد له بها عامة أولاده.. وكل ذلك لما اختصت به هذه البلاد من الصحة والاعتدال والحصانة فاختاروا المقام بحلب قراراً، وجعلوها لهم مسكناً وداراً[14].

حلب في ديوان العرب:

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه/ الشعر ديوان العرب[15]/ وسأنقل فيما يلي أقوالاً لأبناء حلب ومحبيها، معظمها من

الشّعر، من ديوان العرب، وقليلٌ منها من (النّثر) الذي هو بالشّعر أشبه، وربَّما تجاوزَ الشعرَ لامتلائه بالعواطف والمشاعر، وسيكونُ حضوري في الصّفحات القادمة قليلاً، لكي أفسحَ المجالَ (لعُشّاقِ حلب) أنْ يُبرزوا مشاعرَهم، ويُظهروا أحاسيسَهُم وعواطفَهم تُجاهَ مدينتهم الحبيبة وأستميحُ القرّاءَ عذراً أنْ أبدأ بالأقوال النّثريَّة أوّلاً:

أ - **ابنُ الشّحنة** [١٦]: قال في مُقدّمة كتابه، مُعتزّاً بحلب، ومُفاخراً بمكانتها:

[**وكانتْ حلب- وطني- عظيماً قدرُها، جليلاً أمرُها. مع حصانة حصنها، وكثرة أعمالها ومُدنها. وطيب بقعتها، وصحة تربتها. ورقّة هوائها، وعذوبة مائها. وعراقة فضلها، وكثرة العلماء والفضلاء من أهلها. ووفود الطّارقينَ من العلماء عليها، والواردينَ من الأعيان والفضلاء إليها**[١٧]].

❖ وقال ابنُ الشّحنة أيضاً مُنوّهاً بمدينة حلب:

[**واعلمْ أنّ حلبَ مطلعُ شمسي، ومرتعُ أُنسي، ومسقطُ رأسي ورأس آبائي وأجدادي وأولادي وأحفادي. من أفقها نَجموا، وبربوعها رأسوا وحكموا، وكانَ جدّي الأعلى (محمود) مشكوراً في شحنكيّتها**[١٨] **من أواخر الدّولة النّوريَّة**[١٩] **إلى آخر الدولة الظّاهريَّة**[٢٠] **بها آثارُهم ومعاهدُهم، ووُقوفُهم**[٢١] **ومدارسُهم ومساجدُهم. وفيها مجرُ ذُيُولي ومجرى خُيُولي. وقضاء مآربي، ونجاحُ مطالبي. وهي وطني الحبيبُ إليّ، وبها سكني العزيزُ عليّ. بها قضيتُ أيامَ الشّباب، وظفرتُ بغاية الوطر من الأحباب. ورشفتُ كؤوسَ الأدب، ورضعتُ ثديَ الطّلب. واقتطفتُ ثمارَ العلوم النّافعة، واجتليتُ أنوارَ بدور العلماء الطّالعة. أحببتُ أنْ أشيرَ إلى نُبذةٍ من محاسنها، وأنْ أتعرّضَ إلى ذكر محلّها وأماكنها. وكلّ ذلك على وجه التّلخيص والإجمال، وإنْ لم أوفِ حقّها من الإحسان والأجمال**[٢٢]].

❖ ونقلَ ابنُ الشّحنة عن ابن شدّاد في كتابه (تاريخ حلب) قولَهُ:

/ **وقد تقدّمَ لنا أحاديثُ كثيرةٌ في فضل «الشّام» بأسره، وإذا اعتبرنا الحالَ في حلب وجدناها منهُ (أي من الشام) الواسطةَ من العقد، والقلبَ من الصّدر، والإنسان**[٢٣] **من العين**[٢٤]/.

❖ وروى ابنُ الشّحنة عن (البُجلي[٢٥]) [**عن النّبي صلى الله عليه وسلم أنّه قال:**

أوحيَ إليه، (أيْ الثلاثة[٢٦]) نَزلتَ، فهيَ دارُ هجرتكَ: المدينة، أو البحرين، أو قنسرين) أخرجه الطبري والترمذي[٢٧]].

❖ وعلّقَ ابنُ الشحنة على مَقُولة «أرض الشام المُباركة» فذَكَر:

(رُوِيَ عن معاذ بن جبل: أنَّ الأرضَ المُقدَّسة ما بينَ العريش والفرات[٢٨]، أي حلب من ضمنها. (ونقلَ ابنُ عساكر.. حديثَ أنَّ اللهَ تعالى باركَ ما بينَ العريش إلى الفرات، وخصَّ فلسطين بالتقديس؛ أي التطهير[٢٩]).

❖ ❖ ❖

٢- أبو بكر الصنوبري[٣٠]: قال يتشوّق لحلب، واصفاً مشاعرَهُ تجاهها، جاعلاً ترابَها مُعطَّراً بعطر الصندل، ممزوجاً بالعنبر والزعفران:

سَقَى «حلباً» ساقي الغمام، ولا وَنَى
يروحُ على أكنافها ويُبكّرُ
هي المألفُ المألوفُ والموطنُ الذي
تخيّرتُه من خيرِ ما أتخيّرُ
صحبتُ لديها الدهرَ، والدهرُ أبيضٌ
ونادمتُ فيها العيشَ، والعيشُ أخضرُ
ترى تُرْباً شتّى: فتُربٌ مُصندَلٌ
يُنافسُهُ في الحسن تُربٌ مُزعفرُ[٣١]
ورَوضاً تُلاقي بينَ أثناء نبتِهِ
مُمسَّكَ نَوْرٍ يُجتَنَى ومُعنبرِ[٣٢]

❖ وقال الصنوبري أيضاً يتغنّى ببعض معالم «حلب»

تَصَبَّرتُ ولكن لم
أجِدْ عن «حلبٍ» صَبْرا
فلم أسلُ «بعاذين»
ولا أمَلُّ «باصفرا»[٣٣]
ولا أمنحُ «بابلّى»
ولا «العافية» الهجْرا[٣٤]
بنفسي «قصرُ» بطياس
وما قد جاورَ القصرا
إلى أعلى «قُوَيْق» حَيْ
ثُ يلقى نهرُهُ نهرا[٣٥]

❖ وقال الصنوبري أيضاً يذكرُ حلبَ، ويدعو لها بالخصب والنماء، والغيث ثَجّاجاً مُتواصلاً، ويصفُ ربيعَها وقد تناثرتْ بِرَكُه، وتلألأتْ أزهارُهُ كأنّها قطعٌ من زُجاج، أو ذَوْبٍ من فِضّة، وقد أمرعَت الأرضُ، ومرّتْ عليها ريحُ الصَّبا فنَسجتْ على وجهِ

الماء دَرَجاً، ودَبَّجت رُسوماً، وحَبَكتْ أشكالاً...

سَقى «حَلَباً» سافِكٌ، دمعُهُ

بَطيءُ الرُّقوءِ إذا ما سَفَكْ (٣٦)

مَيادينُهُ بُسْطُهُنَّ الرِّياض

وساحاتُهُ بَينَهُنَّ البِرَكْ

تَرَى الرِّيحَ تَنسُجُ مِن مائِهِ

دُرُوعاً مُضاعَفَةً أو شَبَكْ

كأنَّ الزُّجاجَ عليها أُذيبَ

وماءَ اللُّجينِ بها قد سُبِكْ (٣٧)

وقد نُظِمَ الزَّهرُ نَظْمَ النُّجُوم

فَمُفْتَرِقُ النَّظمِ أو مُشتَبِكْ

كما دَرَّجَ الماءَ مَرُّ الصَّبا

ودَبَّجَ وجهَ السَّماءِ الحُبُكْ (٣٨)

يُباهِينَ أعلامَ قُمْصِ القِيانِ

ونَقْشَ عَصائبِها والتِّكَكْ (٣٩)

❖ ومن أجمل ما قال الصنوبري قصيدةٌ هائيَّة، نَيَّفت على مئة بيت، جاءَ فيها على ذِكْر كثيرٍ من مَعالِمِ «حلب»منها قولُهُ:

حَبَّذا الباباتُ: بابا

تُ «قُوَيْقٍ» ورُباها

«بانقوساها» بها با

هَى المُباهي حين باهَى (٤٠)

وبِـ «باصَفْرا» و«باب

لاً» رَنا مِثْلي وتاها

لا قِلَى صَحْراءَ «بافَرْقـ

ـلَ» شَوقٌ لا قَلاها

لا سَلى أجبالَ «باسِلـ

ـينَ» قَلبي لا سَلاها

و«بِباسِلِّينَ» فَلْيَبْـ

ـغِ رِكابي مَنْ بَغاها

والى «باشَقْليتا»

ذو التَّناهي يَتَناهَى (٤١)

وبِمَغْنَى «الكامليّ» اسْتَكْـ

ـمَلَتْ نَفسي مُناها

كلاَّ «الرأموسةَ» السـ

ـحَسْناءَ ربّي وكَلاها (٤٢)

«حلبٌ» بَدرُ دُجًى

أنجُمُها الزُّهرُ قُراها

قِبْلَةٌ كَرَّمَها اللهُ

بِنُورٍ وحَباها (٤٣)

أنا أحمي «حلباً» دا

راً، وأحمي مَنْ حَماها

أيُّ حُسْنٍ ما حَوَتْهُ

«حلبُ» أو ما حَوَاها

سَرْوُها الدَّاني كما تَدْ

نو فَتَاةٌ مِن فَتَاها

وَدَّ إذْ فاهَتْ بِشَجْوِ

أنَّهُ قَبَّلَ فاها

«حلبٌ» أكرَمُ مَأْوَى

وكريمٌ مَنْ أواها

بَسَطَ الغيثُ عليها

بُسْطَ نَوْرٍ ما طَواها[44]

وكَساها حُلَلاً أبْـ

ـدَعَ فيها إذْ كَسَاها

حُلَلاً لُحْمَتُها السَّوْ

سَنُ، والوردُ سَدَاها[45]

صاغَ آذريونَها إذْ

صاغَ مِن تِبْرٍ ثَرَاها[46]

وطَلَى الطَّلُّ خُزَامَا

ها بِمِسْكٍ إذْ طَلاها[47]

فاخِري يا «حلبُ» المُدْ

نَ، يَزِدْ جاهُكِ جاها[48]

٢ - أبو فراس الحَمْداني[49] قال أبو فِراس يَتَشوَّقُ إلى حَلَبَ ومَغانيها، ويَدعو لَها بِالخيرِ والغيثِ ويُمَيِّزُها عن غيرها من البُلدانِ:

سَقَى ثَرَى «حلبٍ» ما دُمْتَ ساكنَها

يا بَدرُ، غَيثانِ: مُنْهَلٌ ومُنْبَجِسُ[50]

أسيرُ عنها، وقلبي في المُقامِ بِها

كأنَّ مُهري لِثِقْلِ السَّيْرِ مُحتَبَسُ

هذا، ولولا الذي في قلبِ صاحبِه

منَ البَلابِلِ، لم يَقلَقْ بِه فرَسُ[51]

كأنَّما الأرضُ والبُلدانُ مُوحِشَةٌ

ورَبْعُها دُونَهُنَّ العامِرُ الأنِسُ

مِثْلُ الحَصاةِ التي يُرْمَى بِها أبَداً

إلى السَّماءِ فتَرْقَى ثم تَنْعَكِسُ[52]

وقال أبو فِراس يَتذَكَّرُ «حلب» ولَعَلَّهُ كانَ بَعيداً عنها، ويَبكي على فِراقِها:

لأيِّكُمُ أذكُرُ؟

وفي أيِّكُمْ أفْكِرُ؟

وكَمْ لِي على بَلدَةٍ

بُكاءٌ ومُستَعبَرُ؟

فـفـي «حـلـب» عُـدَّتِـي

وعِـزَّتـي والمَـفْـخَـرُ

وفـي «مَـنْـبِـج» مَـنْ رِضَـا

هُ، أنْـفَـسُ مَـا أذخَـرُ

ومَـنْ حُـبُّـهُ زُلْـفَـةٌ

بِـهـا يُـكـرَمُ المَـحْـشَـرُ(٥٣)

❖ وقال أبو فراس يذكرُ بعضَ المعالمِ التي تُزارُ للتَّرفيهِ والاسْتِجمامِ وتجديد النشاط في منطقة حلب:

قِـفْ فـي رُسـومِ «المُسْـتَـجـا

بِ» وحـيِّ أكـنـافَ «المُصَلَّى»

«فـالجَـوْسَقِ المَيْـمُـونِ» «فالسُّقْـ

ـيـا» «بِـهـا» «فـالـنـهـرِ» أعلى

تـلـكَ المَـنـازِلُ والمَـلا

عِـبُ، لا أراهـا الـلـهُ مَـحْـلا

أوطَـنْـتُـهـا زَمَـنَ الـصِّـبـا

وجَـعَـلْـتُ «مَنْبِجَ» لِي مَحَلاًّ

حَـيْـثُ الـتَـفَـتَّ رأيْـتَ مَـا

ءً، سـابِـحـاً، وسَـكَـنْـتَ ظِـلاًّ

تَـــر دارَ «وادي قـــ

صـرَ» مَـنْـزِلاً رَحْـبـاً مُـطِـلاًّ

وتَـحُـلُّ بـ «الجـسـرِ» الجِـنـا

نَ، وتَـسْـكُـنُ «الحِـصْـنَ المُعَلاَّ»

وإذا نَـزَلْـنـا بـ «الـسَّـوا

جيـر» اجْتَنَيْنا العَيْشَ سَهْلا

والمـاءُ يَـفْـصِـلُ بـيـنَ زَهْـ

ـرِ «الرَّوْضِ» في الشَّطَّيْنِ فَصْلا

كَـبِـسـاطِ وَشْـيٍ جَـرَّدَتْ

أيدي القُيُونِ عليهِ نَصْلا(٥٤)

٤ - الخالدِيّان (٥٥) اقتطفنا من قصيدةٍ للخالديَّين أبياتاً في «قلعة حلب» بعثا بها للأمير سيفِ الدولة، يَرِدُ فيها ذكرُ شُمُوخِ هذه القلعة، وتمرُّدها على المُغيرينَ والعابثين، وهزْئِها بجَحافل الطامعين وكتائبهم، ويُنَوِّهان بصُمودها بفضل دفاعِ سيفِ الدولة العنيدِ عنها:

وقلعةٍ عانَقَ العَيُّوقَ سافِلُها

وجازَ مَنْطقةَ الجَوْزاءِ عالِيها(٥٦)

لا تَعرِفُ القَطْرَ، إذ كانَ الغَمامُ لَها

أرضاً، تَوَطَّأُ قُطْرَيهِ مَواشيها(٥٧)

إذا الغَمامةُ لاحتْ، خاضَ ساكِنُها

حياضَها، قبلَ أنْ تَهمي عَزاليها(٥٨)

يَعُدُّ من أنجُم الأفلاك مَرْقَبُها

لو أنّهُ كانَ يَجري في مجاريها

على ذُرَى شامخٍ وعْرٍ قد امتلأتْ

كِبْراً به، وهو مَمْلوءٌ بها تيها(٥٩)

رَدّتْ مَكايدَ أملاكٍ، مَكايدُها

وقَصَّرَتْ بدَواهيهِمْ دَواهيها(٦٠)

أوطَأتَ همَّتَكَ العلياءَ هامتَها

لَمّا جعلتَ العَوالي من مَراقيها(٦١)

ولم تَقِسْ بِكَ خَلْقاً في البَريَّة إذْ

رأتْ قِسِيَّ الرّدَى في كفّ باريها(٦٢)

❖ وقال الخالديّان في وصف قلعة حلب (ولم أجدْ لهما شعراً في وصف حلب ذاتها) من قصيدة بَعثا بها أيضاً للأمير سيف الدولة، يُصَوّرانِ مَنعةَ هذه القلعة، وصُمُودَها، وحُسنَ دفاعِ سيفِ الدَّولةِ عنها، وقهرَهُ لكتائبِ المُغيرين عندَ حدودِها، وبقاءَها شامخةً مُمَنَّعةً عزيزةً مَدَى الأيام

وخَرْقاءَ قد تاهَتْ على مَنْ يَرُومُها

بمَرْقَبِها العالي، وجانبِها الصّعبِ(٦٣)

يَزُرُّ عليها الجوُّ جَيبَ غَمامةٍ

ويُلبسُها عِقداً بأنجُمِهِ الشُّهْبِ

إذا ما سَرَى بَرْقٌ بَدَتْ من خلالِهِ

كما لاحتِ العَذراءُ من خَلَلِ الحُجْبِ

وفيها يقول عن سيف الدولة:

فكم ذي جُنودٍ قد أماتَ بِعَضْبِهِ

وذي سَطَواتٍ قد أبانَ على عَقْبِ(٦٤)

سَمَوتَ لها بالرأي يَشْرِقُ في الدُّجى

ويَقطعُ في الجُلّى ويَصدعُ في الهَضْبِ(٦٥)

فأبرَزْتَها مَنْهُوكَةَ الجَيبِ بالقَنا

وغادَرْتَها مَلصوقَةَ الخدِّ بالتُّرْبِ(٦٦)

❖ وقال أبو بكر محمد الخالدي في وصف دارٍ بَناها سيفُ الدولة في حلب، في صَحنِها حديقةٌ حوَتْ من بَدائعِ الزهور ما لم تَحوِهِ جِنانُ الدنيا، تتَلألأُ في جوانبِها شقائقُ النّعمانِ، والفُلُّ والياسمينُ، والمنثورُ والآذريون .. منها قولُهُ:

غَدَتْ دارُ الأميرِ كما روَينا

منَ الأخبارِ عن حُسْنِ الجِنانِ

علَتْ جُدرانُها حتّى تَقُلْنا

سيقصُرُ عن مَداها الفَرقدانِ(٦٧)

وجالَ الطَّرفُ في مَيدانِ صَحنٍ

يَرُدُّ الطَّرفَ دونَ مَداهُ وانِ(٦٨)

ترى فيه حدائقَ ناضِراتٍ

تُشَبِّهُهُنَّ أقداحَ الغَواني(٦٩)

وصبغُ شَقائقِ النُّعمانِ تَحكي

يَواقِيتاً نُظِمْنَ على اقتِرانِ

ولِـلمَنـثـورِ أنـوارٌ تَـراهـا

كما أبصرتَ أثوابَ القِيانِ(٧٠)

وآذريـونُـهُ قـد شَـبَّـهـوهُ

بِتَشبيهٍ صَحيحٍ في المَعاني

كَكأسٍ من عَقيقٍ فيهِ مِسْكٌ

وهذا الحَقُّ أيِّـدَ بِالبَيانِ(٧١)

٥- المُتَنَبِّي(٧٢) /سَلَبَ سيفُ الدولة عقلَ المُتنبّي (فَجَيَّرَ) كُلَّ شِعرِهِ لِذِكْرِهِ، ووَصفِ وقائعه ومَعاركِه مع الرومِ، وحياته الاجتماعيَّة في حلبَ مع أهله وشُعرائه وزُوَّارِه.. فَشَغَلَهُ ذلكَ عن ذِكرِ حلب وغير حلب إلا إذا كان ذِكرُها على صلَةٍ بِشُؤون حياة سيفِ الدَّولة .. لقد طَغَى حُبُّ سيف الدولة فَغَطَّى تَفكيرَ المُتَنبّي، وجعلَهُ مَحصوراً بهذا الأمير وما لَهُ صِلَةٌ بِه. لذلكَ لم يَرِد اسمُ حلبَ في شِعرِهِ إلا عَرَضاً ، ولم يأتِ ذِكرُها على لسانِهِ إلا بِصِفَتِها عُنصُراً من عناصرِ مَدحِ الأميرِ ، أو جُزءاً من مُكوِّناتِ شَخصيَّتِه.. من ذلك قولُهُ من قَصيدة يمدَحُ فيها سيفَ الدولة، وأرسَلَ لَهُ بِها من الكوفة:

كُلَّما رَحَّبَتْ بِنا الرَّوضُ قُلنا

«حلبٌ» قَصدُنا وأنتِ السَّبيلُ

فيكِ مَرعَى جِيادِنا والمَطايا

وإليها وَجِيفُنا والذَّميلُ(٧٣)

والمُسَمَّوْنَ بالأميرِ كَثيرٌ

والأميرُ الذي بِها المأمولُ(٧٤)

❖ وقال المتنبّي يذكرُ منطقةً من بلاد «الشام» من بينها «حلب» (ولم يُسَمِّ حلب بالاسم)... وذكرَ فيها حمصَ، وخُناصِرةَ(٧٥) ووصفَ فيها مَصيفَهُ،ومَشتاهُ، وخُروجَهُ للصَّيدِ والقَنَصِ في رُبوعِها.

أُحِبُّ «حِمصاً» إلى خُناصِرةٍ

وكلُّ نَفسٍ تُحِبُّ مَحياها

حيثُ التَقَى خَدُّها و«تُفّاحُ لُبـ

ـنانَ» وثغري على حُمَيّاها(٧٦)

وصِفتُ فيها مَصيفَ باديةٍ

شَتَوتُ بالصَّحصَحانِ مَشتاها(٧٧)

إنْ أعشَبَتْ روضَةٌ رَعيناها

أو ذُكِرَتْ حِلَّةٌ غَزَوناها(٧٨)

أو عَرَضَتْ عانَةٌ مُقَزَّعَةٌ

صِدْنا بأُخرَى الجِيادِ أُولاها(٧٩)

❖ وقال المتنبّي من قصيدة يَمدحُ فيها سيف الدولة.. يذكرُ فيها وَقفتَهُ الجبَّارةَ بوجه الطّامعينَ، وعساكرهم، وعادَ من غَزوته، وقد أصابَ الحفَى والوَجا خيلَهُ، أمَّا أرضُ الروم فقد أصابَها الخرابُ، والرومُ أصابَهم الهلاكُ والدَّمار:

الرَّاجعُ الخيلَ مُحفاةً، مُقَوَّدَةً

من كُلّ مِثلِ وَبَارٍ أهلُها إرَمُ[٨٠]

كَـ «تَلّ بِطريقٍ» المَغرورِ ساكِنُها

بأنَّ دارَكَ «قِنّسرونَ» والأجَمُ[٨١]

وظنّهم أنّكَ المِصباحُ في «حلب»

إذا قصَدتَ سواها عادَها الظُّلَمُ

فلم تُتِمَّ «سَروجُ» فَتحَ ناظِرها

إلاّ وجيشُكَ في جَفنَيْه مُزدحِمُ[٨٢]

والنَّقعُ يَأخُذُ «حَرَّاناً» و«بقعَتَها»

والشَّمسُ تُسفِرُ أحياناً وتَلتَثِمُ[٨٣]

❖ يَرَى المتنبّي أنَّ «حلب» تُصابُ بحُزنٍ وكآبة إنْ فارَقَها سيفُ الدولة، فهيَ (هيَّتُهُ) مَدينَتُهُ التي تَفرحُ وتبتَهجُ إذا ابتَهَجَ، وتأسَى وتَحزَنُ إن أصابَهُ مَكروهٌ؛ فعندما غادَرَ سيفُ الدولة حلب مُتَّجهاً إلى المُوصلِ لنُصرةِ واليها (أخيه ناصر الدولة) حزنت حلبُ لِفراقه، وأسفت لمُغادَرَته،

قال المتنبّي:

على الفُراتِ أعاصيرُ، وفي «حلب»

تَوحُّشٌ لِمُلقَى النصرِ، مُقتَبِلِ[٨٤]

يَلقَى المُلوكَ، فلا يَلقَى سوى جَزَرٍ

وما أعَدُّوا فلا يَلقَى سوَى نَفَلِ[٨٥]

٦- أبو الفتح كُشاجم [٨٦] قال كُشاجم يذكرُ (حلب) ومنطقتَها في فَصلين،فصل الشتاء،حيثُ يزدادُ مَنسوبُ نهر (قُوَيق)حتّى تَكادَ مياهُهُ تُصافحُ الآكامَ والتّلالَ المُجاورةَ لِمَجراهُ، وتَستَقبِلُهُ الأشجارُ، مُطلقةً أزهارَها، وناشرةً عَبَقَها، ترحيباً بقُدومه، وفي فصل الرَّبيع، فصل الحياة، حيثُ يَكونُ عُرسُ الطَّبيعة،تلبَسُ البلادُ ثوباً مُوشًّى مُزَركشاً، تَبرُقُ أزهارُهُ، وتتلألأُ مَناقعُ المياه في جَنَباته، يُداعبُها نسيمُ الصبَّا .. قال كُشاجم:

أرَتْكَ يَدُ الغيثِ آثارَها

وأعلَنَتِ الأرضُ أسرارَها

يُفتّحُ فيها نَسيمُ الحَيَا

خِلافاً، فَيَهتِكُ أستارَها[٨٧]

ويَسفَحُ فيها دِماءَ الشَّقيقِ

إذا ظَلَّ يَفتَضُّ أبكارَها[٨٨]

إذا مُزنَةٌ سَكَبَتْ ماءَها

على بُقعةٍ أشعَلَتْ نارَها[٨٩]

وما أمتعت جارها بلدةٌ
كما أمتعت (حلبُ) جارَها(٩٠)
هي الخلدُ تجمعُ ما تشتهي
فزُرها فطوبى لمن زارَها(٩١)
ولِلَّهو فيها شهورُ الربيـ
ـعِ، حينَ تقطّرُ أشجارُها
إذا ما أمدَّ (قُوَيق) السماءُ
بها، فأمدَّتهُ أمطارُها(٩٢)
وأقبلَ ينظمُ أنجادَها
بفيضِ المياه، وأغوارَها(٩٣)
فأرضعَ جنّاتِهِ دَرَّهُ
فنمنمَ بالنَّورِ أشجارَها(٩٤)
كأنَّ ملوكاً حَبَتْهُ السِّوا
رَ، وسلَّبَ الكفُّ إسوارَها(٩٥)

❖ ❖ ❖

وبعدُ، فهَنيئاً لكِ يا (حلبُ) ما وَهبكِ مُحِبُّوكِ من عِشقٍ ووِداد، وما مَنَحكِ قاطنُوكِ من مشاعرِ الحُبِّ، وما أحاطوكِ بِهِ من عَواطفِ الهَوَى والتَّبجيلِ والاحترام، بل بما قدَّموا لكِ من ألفاظ التَّقديرِ والتَّقديس، وطُوبَى لكم يا أهلَ حَلَبَ، بما أنعمَ الله عليكم من نَعيم، وما وهَبَكم من عَيْشٍ رَخيٍّ رَغيد.

المراجع

(١) انظر تاريخ ابن الشحنة ص ٢٠

(٢) السابق.

(٣) في الأصل ابن

(٤) تاريخ ابن الشحنة ٢١-٢٢-٢٤.

(٥) تاريخ ابن الشحنة ص ٢٤.

(٦) السابق ص ٢٦ .

(٧) السابق ص ٢٧ .

(٨) الرّصافاتُ كُثرٌ في الوطن العربي، ورُصافةُ هشام تقع غربي الرَّقَّة بينهما أربعة فراسخ على طَرَف البريَّة، ويبدو أنَّ لها أصلاً منذ أيام الغساسنة قبل الإسلام (انظر معجم البلدان).

(٩) تاريخ ابن الشحنة ص ١٨ .

(١٠) وهي بلدةٌ صغيرةٌ، تُحاذي قِنَّسرين من ناحية البادية.

(١١) على بعد ثمانية أميال من حلب، بينَها وبينَ بالس.

(١٢) ابن الشحنة ص ١٨ .

(١٣) قرية قُرب حلب، بينَ النيرب وبابلَّى.

(١٤) ابن الشحنة ص ١٨ .

(١٥) الحيوان للجاحظ ٧٢/١.

(١٦) (٨٠٤-٨٩٠ هـ ١٤٠٢- ١٤٨٥م) صاحب كتاب (الدرّ المُنتخب في تاريخ مملكة حلب) وهو من أبناء حلب وفقهائها، ولهُ عَقِبٌ، أسرةٌ كبيرةٌ إلى اليوم في حلب

(١٧) مقدمة كتاب الدرّ المنتخب ص ٣ .

(١٨) أي حُكمها وضَبْط سُلطانها .

(١٩) نِسبةٌ لنور الدين زنكي، من دولة السَّلاجقة .

(٢٠) نسبةٌ للظّاهر بيبرس من دولة المماليك.

(٢١) ما جَعَلوهُ من أملاكِهم وَقْفاً لوجوه الخير.

(٢٢) تاريخ حلب ١١/١٢/.

(٢٣) إنسان العين هو البؤبؤ.

(٢٤) تاريخ حلب ص ١٥.

(٢٥) في الحاشية (في إحدى النُّسَخ (الهَحيل)).

(٢٦) الثلاثة مَواضع التي سيأتي ذكرها.

(٢٧) وفي تاريخ ابن شدّاد ما يَقتضي إطلاق (قِنَّسرين) على حلب نفسها- انظر تاريخ ابن الشِّحنة ص ١٦.

(٢٨) تاريخ ابن الشحنة ص ١٧.

(٢٩) السابق ص ١٧.

(٣٠) أحمد بن محمد بن الحسن بن مراد، من قبيلة ضَبَّة العربية، لم يُعرَف بالضّبط تاريخ ميلاده ولكنَّ وفاتَهُ كانت عام ٣٣٤هـ. لهُ ديوان مُعظَمُهُ في وصف الطبيعة، أوردَ فيه من أسماء الأزهار ما لم يورده شاعرٌ آخر.

(٣١) مُصَنْدل: مُعَطَّر بعطر الصَّندل، ومُزَعفر: بالزَّعفران .

(٣٢) ديوانه ٤٣٦/دار صادر/ تحقيق د. إحسان عباس.

(٣٣) بعاذين من قُرَى حلب (وقد وردت في الديوان (بغاذين) وأخذتُ (بعاذين) من معجم البلدان، أمَّا باصَفْرا فقال عنها ياقوت قريةٌ شرقي الموصل، ورُبَّما نُقِلَ الاسمُ إلى قرية من قُرَى حلب، على عادة العرب في نقل أسماء مُدُنهم وقُراهم.

(٣٤) بابلَّى: قرية كبيرة بظاهر حلب، أمَّا عافية فلم أهتَدِ إليها ولم يَذكرها ياقوت في معجم البلدان.

(٣٥) ديوانه ٥٨/٥٩، وقويق نَهرٌ مَعروفٌ يسقي بساتين حلب .

(٣٦) سَفك: صَبٌّ ماءَهُ. والسَّافك: المطر الهاطل. الرُّقوء: السُّكون والانقطاع.

(٣٧) اللُّجَين: الفضّة .

(٣٨) الحبك: مَسير النجوم، وانتشارُها.

(٣٩) قمص: جمع قَميص. التِّكَك: جمع تِكَّة وهي رِباط السَّراويل (والعامة تقول : دِكَّة).

(٤٠) بانقوسا: جبل بظاهر حلب من جهة الشَّمال.

(٤١) لم أهتَدِ إلى باشقليتا، ولم يذكرها ياقوت.

(٤٢) الرَّاموسة: من ضياع حلب، على فرسخين من جهة قِنَّسرين. كلأ: حفظ. كلاها : سَتَرَها .

(٤٣) حباها: مَنَحها.

(٤٤) نَوْر: زهر .

(٤٥) السَّدَى واللُّحْمة: خيطان النَّسيج الطُّوليَّة والعرضيَّة.

(٤٦) الأذريون: من الأزهار ذات الرَّائحة الطيّبة.

(٤٧) الطَّلُّ المطر الخفيف. الخُزامى: نوع من الأزهار الفوّاحة الشّذى.

(٤٨) ديوانه ٤٥٦/٤٦٠.

(٤٩) (٣٢٠-٣٥٧هـ ٩٣٢-٩٦٨م) اسمُهُ الحارث بن سعيد، وهو ابنُ عمّ سيف الدولة أمير حلب المشهور، رُبّيَ على الفروسية والحياة العسكريّة، تَوَلّى إمارة مَنْبج، أسرَهُ الرُّومُ وظَلَّ في الأسر سبعَ سنين، ولم يُطلق إلا قبلَ وفاته بسنتين.

(٥٠) انبجَسَ الماء: انفجرَ، والمُنْبَجِس المطر الغزير.

(٥١) البلابل: الوساوس والهموم.

(٥٢) ديوانه ٢٨٦/ دار مكتبة الحياة، وأرادَ بالبيت الأخير التّعبيرَ عن صُمود حلب وقُوّتها وتماسُكها بوجهِ الغُزاةِ الغُيرين.

(٥٣) ديوانه ص ١٩٦.

(٥٤) ديوانه ص ١٧٥.

(٥٥) أبو بكر محمد بن هاشم الخالدي، وأخوهُ أبو عثمان سعيد، نسبةً إلى قرية اسمها الخالدية من أعمال الموصل. عاشا معاً، أكثر أيّام حياتهما، وكانا مسؤولين عن مكتبة الدولة الحمْدانيّة، فصَحبا سيفَ الدولة فترةً من الزمن، ثم غادرا حلب، اختلطَ شعرُهُما اختلاطاً عجيباً من الصّعب أن تفصلَ شعرَ أحدهما عن شعر الآخر مات الأول عام ٣٨٠ هـ ومات الثاني عام ٣٩٠هـ، لهما ديوان حقّقَه الدكتور سامي الدهان.

(٥٦) العيّوق: نجم أحمر مضيء، يتلو الثُّريّا.

(٥٧) القَطر: المطر. تَوَطّأ أصلُهُ تَتَوطّأ - بتاءين- حُذفت إحداهما تخفيفاً: تَدوس. مَواشي: في الأصل جمع ماشية (لأنَّ فواعل من صيغ جمع المؤنث كرواحل وبواكي) وأرادَ المُشاة.

(٥٨) تهمي تُمطر. عزاليها: مَصَبّاتُ مائها.

(٥٩) ذرى: جمع ذِروة وهي القِمَّة. شامخ: عالٍ. التّيهُ: الكِبرُ.

(٦٠) أملاك: جمع ملك (ملوك).

(٦١) العوالي الرّماح.

(٦٢) ديوانهما دار صادر / د. سامي الدهان ١٦٥/ ١٦٦. القِسِيّ جمع قوس.

(٦٣) الخرقاء: في الأصل وصف للفلاةِ التي تتخَرق فيها الرّيح لسَعتها، ولعلّهُ أرادَ هنا: أنّها تَخرقُ الريحَ بارتفاعها.

(٦٤) العضب: السيف القاطع.

(٦٥) الجُلّى: الأمر العظيم.

(٦٦) ديوانهما ١٥٥/١٥٦. منهوكة خائرة القوى. القنا الرماح.

(٦٧) الفرقدان: نجمان في السماء.

(٦٨) الطّرف.النّظر. صَحْن الحديقة: باحتُها. وانٍ: فاتر، ضعيف.

(٦٩) الغواني: الجميلات.

(٧٠) المنثور: زهرٌ ذو راحة طيبة. القيان: جمع قَيْنة وهي الجارية المُغنيةُ، وكُنَّ يَلبسنَ ثياباً مُزركشة.

(٧١) ديوانهما ٩٨/ ٩٩.

(٧٢) أحمد بن الحسين الجُعفي ولد في الكوفة (٣٠٢-٣٥٤هـ ٩١٥-٩٦٦م) تَشَرَّدَ في شبابه في كثير من البلدان، والجأتهُ أحوالُهُ الصّعبةُ لوُلوجِ البَوادي والعيش مع الأعراب. عاشَ في بَلاطِ سيفِ الدولة تسعَ سنين تُعدُّ أحلى سنيّ عمره.

(٧٣) الوجيف والذَّميل: نوعان من سَيْر الخيل السَّريع.

(٧٤) ديوانه بشرح العكبري٣/١٥٢/ دار المعرفة ببيروت.

(٧٥) بلدة صغيرة تحاذي قنَّسرين من جهة البادية.

(٧٦) الحُميَّا سورة الخمر .

(٧٧) صفت: قضيت فصل الصيف. الصَّحصحان: الأرض الواسعة المُستوية .

(٧٨) حِلَّةجماعة حُلول (نازلون بمكان).

(٧٩) ديوانه ٤/٢٧٢ والعانة: الجماعة من حُمُر الوحش. مُقزّعة: مُتفرّقة.

(٨٠) مُحفاة أصابها الحَفَى من كثرة الطارد وبُعد المسافة. مُقوَّدة: يَقودها من مكان لآخر. وبارِ: مدينة قديمة الخراب (وهي مَبنيّة على الكسر دائماً مثل : حذامِ) إرَم : قوم عاد أو جزء منهم.

(٨١) تل بطريق: موضع ببلاد الروم. قنسرون وقنسرين: بلد من أعمال حلب. الزجم موضع بالشام.

(٨٢) سروج : موضع على الفُرات. جُفنَيْه: يريد جَفني الفجر في قوله (فتح ناظرها) .

(٨٣) ديوانه ٤/١٧-١٨. النَّقع غبار الحرب. تلتثم : تتَّخذ لثاماً.

(٨٤) مُلَقَّى النصر: سيف الدولة، لأنَّهُ يُلَقَّى النَّصرَ حيثُ قَصد. مُقتبَل: مُكتمل الشَّباب والرُّجولة.

(٨٥) ديوانه٣/٧٢. جزر: شاة تُذبَح. نَفَل: غنائم.

(٨٦) اسمُهُ محمود بن الحسين السِّندي بن شاهق (أو ساهك) وكشاجم اسمٌ مَنحوتٌ من عدَّة علوم كانَ يُتقنُها (فالكاف للكتابة، والشين من الشعر والألف من الإنشاء والجيم من الجَدَل والميم من المنطق) قيل هو فارسيٌ أو هنديٌ الأصل، كانَ جدُّهُ صاحب شُرطة هارون الرشيد، لم تذكر المراجع مكانَ ولادته ولا تاريخها، ولكنَّها ذكرت أنَّهُ عاش في صِباهُ بالرَّملة بفلسطين وماتَ سنة ٣٦٠هـ، استقَرَّ بحلب زمناً يَمدحُ أبا الهيجاء والدَ سيف الدولة، كما مدحَ سيف الدولة. ذكرت بعض المراجع أنَّهُ (طبَّاخ) سيف الدولة.

(٨٧)الحَيَا: المطر. الخلاف: شجر الصفصاف.

(٨٨)الشقيق: شقائق النُّعمان. يَفتَضُّ: يفتح. أبكارها: الفَتيَّة منها.

(٨٩)مزنة: غيمة/

(٩٠) البيت مُشوَّهٌ في الديوان تَصويبُهُ من معجم البلدان.

(٩١) الخُلد: جنّة الفردوس. طُوبَى: مَرحَى.

(٩٢) السَّماء: هنا المطر.

(٩٣) الأنجاد: المرتفعات. الأغوار: المنخفضات.

(٩٤) الدَّرّ: الخير، والمُرادُ هنا: المَطَر. الجنّات: البساتين. نُمنَم : نَقَش. ولوّن. النَّوْرُ والنُّوَّار: الزَّهر.

(٩٥) ديوانه ١٢٥/١٢٦ دار صادر / تحقيق مجيد طراد. الهَلوك: المرأة اللَّعوب. حَبَتْهُ : أعطتْهُ.

١٦٣

الحياة العلمية في حلب زمن أبناء صلاح الدين الأيوبي

(٥٧٩ـ٦٥٨هـ = ١١٨٣ـ١٢٦٠م)

الدكتور أحمد فوزي الهيب (*)

تألقت الحركة الجهادية و العلمية والأدبية في حلب ، ووصلت إلى ذروة سامقة زمن سيف الدولة الحمداني الذي سطّر صفحات من أعظم الصفحات المضيئة في التاريخ العربي . و جعل بلاطه مجمعاً عقلياً ضم أعلى القمم شموخاً في عصره ، مثل الفارابي والمتنبي وابن جني وابن خالويه وأبي فراس والصنوبري وغيرهم .

(*) د. احمد فوزي الهيب: أستاذ جامعي وباحث ومؤلف سوري .

* العمل الفني: الفنان سعد يكن

بيد أن هذا التألق في حلب قد خبا بعد سيف الدولة، وبقي كذلك إلى أن ارتفعت فوق قلعتها رايات الزنكيين، ولا سيما نور الدين محمود الذي شجع العلماء، وأجرى عليهم الإدرارات الكثيرة والصلات العظيمة[1].

وبعد نور الدين محمود زنكي جاء صلاح الدين الأيوبي الذي ألح على فتح حلب، لأنها حجر الزاوية في مشروعه العظيم الهادف إلى توحيد بلاد الشام ومصر والعراق وسيلةً استراتيجيةً للانتصار على المحتلين الفرنجة، وطردهم إلى بلادهم وراء البحار، وإنهاء ما سموه هم أنفسهم الحروب الصليبية، وسماها أجدادنا العظام حروب الفرنجة، وتوسل في سبيل ذلك باللين والقوة، وبالسياسة والحرب، حتى دخلها بعدما طيّب قلوب من فيها من ساسة وقادة وعلماء وعامة وغيرهم، وأكرمهم[2]، ثم صعد قلعتها الشماء قائلاً: " ما سُررت بفتح قلعة أعظم سروراً من فتح مدينة حلب "[3].

ولّى صلاح الدين على حلب ابنه الملك الظاهر (غازي)[4]، ثم جعلها لأخيه الملك العادل، ثم أعادها إلى ابنه الظاهر ثانية عام ٥٨٢ هـ[5].

جدد الملك الظاهر عمارة قلعة حلب وتحصين أسوارها[6]، و كان لأبيه صلاح الدين عوناً كبيراً في جهاده ضد الفرنجة[7]، وكذلك كان لخلفاء أبيه من بعده، أخيه الملك العزيز[8]، وعمه الملك العادل[9] الذي تزوج ابنته ضيفة خاتون[10]، تلك السيدة العظيمة التي قامت بدور عظيم في إدارة دفة الحكم بعد وفاة زوجها عام ٦١٣ هـ، وتملّك ابنهما الملك العزيز محمد الذي كان صغيراً، والذي لم تطل مدة ملكه، لأنه توفي شاباً عام ٦٣٤ هـ، ثم ازدادت أهمية هذا الدور في عهد خلفه حفيدها الملك الناصر يوسف بن العزيز محمد إذ غدت المرجع في كل الأمور.[11]

ازدادت حلب زمن الملك الناصر تألقاً وقوة وعظمة واتساعاً شملت بلاد الشام جميعها[12]، وكاد أن يصل إلى مصر[13]، بيد أن الإعصار المغولي بقيادة هولاكو سحق تلك الحقبة المشرقة بتدمير حلب عام ٦٥٨ هـ، وقتل ملكها الناصر يوسف عام ٦٥٩ هـ[14]، وأسدل الستار بوحشية على فترة من أعظم الفترات التي مرت على حلب ازدهاراً واتساعاً وحضارة وقوة، وامتدت تسعة وسبعين عاماً، كانت خلالها كعبة قصدها ولاذ بها كثير من أعلام العلم والأدب والأمراء الأيوبيين الذين ضاقت عليهم الأرض بما رحبت بعدما فقدوا المأوى، فوجد فيها كل منهم ملاذاً وأمناً.

سار الأيوبيون سيرة الزنكيين في دعمهم الحركة العلمية والأدبية في حلب وفي غيرها، بل إنهم تفوقوا عليهم، لأنهم

شاركوا بأنفسهم فيها. وما نراه من نتاج ثقافي وأدبي في حلب هذا العصر، إنما يدل على حركة ثقافية عظيمة نمت وتفرعت بجهود جبارة، قام بها أعلام كبار في الأدب والشعر واللغة والنحو والبلاغة والفقه والحديث والتفسير والتصوف والتاريخ والجغرافية والفلك والطب وغيرها، سهّل لهم أبناء صلاح الدين السبل كافة، فاجتذبتهم حلب إليها بمساجدها التي بلغ عددها خمسة وعشرين وسبعمئة مسجد[15]، ومدارسها التي بلغت قرابة الستين[16]، بناها أهلوها ملوكاً[17] وأمراء[18] ورجال دولة[19]، فضلاً عن العلماء[20] والأثرياء[21]، كما أسهمت المرأة في ذلك إسهاماً طيباً، مثل الملكة ضيفة خاتون بنت الملك العادل[22]. ولا بد من أن نشيد بالدور الذي قام به بهاء الدين بن شداد في ازدهار الحركة العلمية في حلب، فقد كانت قبله قليلة المدارس والعلماء، فاعتنى بها، ورتب أمورها، وجمع الفقهاء، وعمرت في أيامه المدارس الكثيرة[23]، وقد دعم تلك المساجد والمدارس وأمّن لها الاستمرار المديد نظام الوقف الإسلامي الفريد الدقيق، إذ كان بُناتها لا يكتفون ببنائها فقط، وإنما يلحقون بها بساتين وقرى ومحلات وما يشبهها، مما يضمن ريعُها صيانةَ المساجد والمدارس ورواتب موظفيها وجرايات طلابها واستمرارها في



أداء وظائفها الهامة المتعددة وفق شروط دقيقة، وضعها الواقف، وقام على تنفيذها موظفون مختصون يرأسهم ناظر الوقف. كما اجتذبتهم حلب أيضاً بمكتباتها الثرية المتعددة، والتي كان بعضها ملحقاً بالمساجد كالجامع الكبير[24] أو ملحقاً بالمدارس الكبرى[25]، أو مكتبات خاصة للعلماء مثل القفطي[26]، وكذلك اجتذبت حلب العلماء والأدباء والشعراء بمجالسها العلمية والأدبية التي أقامها الملوك الذين حرصوا على أن يحيطوا أنفسهم بحاشية كبيرة من العلماء والأدباء يدفعون لهم الرواتب الكبيرة، ويعطونهم الهدايا القيمة[27]، والتي أقامها أيضاً العلماء مثل القفطي الذي وصف ياقوت الحموي مجلسه وصفاً رائعاً بكثير من الإعجاب[28]، وكانت هذه

المجالس شبيهة بالمجامع العلمية رقياً وتقاليد وآداباً وثراء[29]، كل ذلك جذب رجال العلم والأدب من كل فج عميق، ليسهموا جميعاً على مدى ثمانية عقود من السنين في ازدهار علوم عدة، أهمها:

- العلوم الإسلامية:

شجع الملوك الأيوبيون علماء الدين تشجيعاً كبيراً أدى إلى ازدهار العلوم الدينية، ولاسيما ما يتصل بالقرآن الكريم تلاوة وتفسيراً ودراسة، حتى إن الصبية الصغار كانوا يتعلمون تلاوته وحفظه في الكتاتيب والمساجد، وكذلك الطلاب الكبار، وأرزاقهم تأتيهم من الملوك أو الواقفين كافية كريمة، وهذا دفع عالي بن إبراهيم الغزنوي إلى أن يكتب تفسيراً للقرآن الكريم، سماه تفسير التفسير[30].

وأما الحديث النبوي الشريف فقد رأى في هذا الزمن عصره الذهبي لأن صلاح الدين الأيوبي كان - مثل سلفه نور الدين محمود زنكي - كثير العناية به والسماع له، وكذلك كان أبناؤه من بعده، ولا غرو في ذلك فهو المنبع الثاني للثقافة الإسلامية بعد القرآن الكريم. لذا كثر علماء الحديث وطلابه في هذا العصر كثرة لافتة للنظر، وبنى لهم الأيوبيون مدارس أو دوراً خاصة للحديث النبوي الشريف، سكنها المحدِّثون وطلابهم، ذكر عدداً منها عز الدين بن شداد، أنشأها علماء وأثرياء صالحون، مثل القاضي بهاء الدين بن شداد ومجد الدين بن الداية وبدر الدين الأسدي والقفطي[31] إبراهيم بن يوسف[32]. كما عرفت حلب في هذا العصر أيضاً محدثين عظماء، مثل تقي الدين عثمان بن الصلاح الذي تولى التدريس في المدرسة الأسدية[33]، وإبراهيم بن يوسف القفطي[34]. ومثلما شاركت المرأة في بناء دور الحديث شاركت أيضاً في روايته، مثل السيدة الجليلة شهدة بنت الصاحب كمال الدين بن العديم التي سمعت من الكاشغري بحلب حضوراً وأجازها جماعة من المحدثين[35].

وكذلك ازدهر الفقه أيضاً بحلب ذلك العصر، وصار للفقهاء منزلة كبيرة لدى الخاصة والعامة على حد سواء، فأمَّنوا لهم البيئة المناسبة للبحث والتحصيل والاجتهاد، الأمر الذي أدى إلى وجود كثير من الأعلام الذين لمعت أسماؤهم في ميدان الفقه، مثل ملك العلماء الكاساني[36]، وعالي بن إبراهيم الغزنوي[37]، وعبد الله الجماعيلي[38]، وعبد المطلب بن عبد الفضل الهاشمي رئيس الحنفية[39] وعبد الرحمن بن العديم[40] وغيرهم. ومن المفيد أن نشير إلى أن المذهبين الحنفي والشافعي كانا شائعين أكثر من بقية المذاهب الفقهية.

. علوم العربية :

أولى علماء ذاك العصر في حلب علمي اللغة والنحو عناية عظيمة، فازدهرا أيما ازدهار، وحمل لواءهما فيها إمام العربية ابن مالك[٤١] الذي اجتذبته الشهباء، فأتاها ليدرس مع غيره من الطلاب الكثيرين على يد شيخ العربية ابن الصانع يعيش بن علي ابن يعيش[٤٢] وعلى يد ابن عمرون[٤٣]، وغيره [٤٤]، كما نجد فيها أيضاً الوزير العلامة القفطي[٤٥] والحسين بن هبة الله الموصلي[٤٦] وسعيد بن أبي منصور الحلبي[٤٧] وعبد الله الجماعيلي[٤٨] ومحمد بن علي المازندراني[٤٩] وابن خروف النحوي[٥٠] وغيرهم من أصحاب المؤلفات العظمى التي تدل على بلوغ اللغة والنحو هذا العصر ذروة شماء اتسمت بالنضج والكمال من جهة، كما تدل، من جهة أخرى،على المدى الذي بلغته حلب في العصر الأيوبي.

وازدهرت البلاغة والنقد أيضاً، وتركز الاهتمام على الصناعة اللفظية والتفنن في البديع، فأكثر العلماء التأليف فيهما، وقسّموا كل فرع من البلاغة إلى أقسام كثيرة، وتباروا في ذلك حتى أوصلوها إلى أكثر من خمسين ومئة نوع مما يدل على استقصاء وجهد كبيرين، وذلك لأنها غدت طريقاً واسعة للوصول إلى الوظائف الكتابية العليا في الدولة. ومن علمائها في حلب هذا العصر عبد اللطيف بن يوسف البغدادي الذي يعرف بابن اللباد صاحب كتاب قوانين البلاغة[٥١]. كما ألّف بعضهم كتب مختارات أدبية غايتها صقل الذوق الأدبي عند الطلاب مثل كتاب التذكرة للكمال بن العديم[٥٢]، وكتاب الحماسة البصرية لصدر الدين علي بن أبي الفرج البصري الذي ألفه للملك حلب الناصر يوسف[٥٣]، وكتاب نهزة الخاطر ونزهة الناظر في أحسن ما نقل من ظهور الكتب لعلي بن يوسف القفطي[٥٤]، وثمة كتب أخرى في النقد مثل علم النثر وكتاب ميسور النقد وكتاب سر الشعر للأسعد بن مماتي[٥٥].

وهذه العناية بالصناعة اللفظية أثّرت في كتابة الإنشاء، وتأثرت بها في الوقت نفسه، وازداد التأنق الشديد في الكتابة بصورة لم تعرفها العصور السابقة، حتى غدت كتابة الإنشاء فناً مستقلاً له قواعده وأصوله، وصار لكل موضوع مقام ومناسبة ومخاطَب ومخاطِب طريقة وأسلوب وألقاب وعبارات وأوراق وأقلام ونوع خط وطقوس خاصة لازمة لا تليق بغيره. ومن البديهي أن نرى في حلب هذا العصر عدداً كبيراً من الذين نبغوا في كتابة الإنشاء، وإن لم يكتفوا بها، فجمعوا معها فنوناً أخرى، مثل كمال الدين بن العديم الذي كان يُضرب

بخطه المثل[٥٦]، ولحسن الحظ أن نموذجاً رائعاً من خطه لما يزل خالداً حتى يومنا الحاضر يشهد على ذلك، ويزين محراب المدرسة الحَلَوية الواقعة غرب الجامع الأموي الكبير، ومثل جمال الدين القفطي[٥٧] وابن العجمي محمد بن أحمد[٥٨] وابن المولى محمد بن محمد[٥٩] والتاج يحيى بن محمد[٦٠]

- علم التاريخ

شهد علم التاريخ هذا العصر ازدهاراً كبيراً في حلب على أيدي مؤرخين كبار، مثل مؤرخ عصر صلاح الدين الأيوبي بهاء الدين بن شداد الذي قال: ما سطرتُ إلا ما شاهدته أو أخبرني به من أثق به خبراً يقارب العيان[٦١]، وغدا علم التاريخ العلم الذي لا بد لكل مثقف من أن يلم به ويتمثله، ولا يخفى تأثره القديم بعلم الحديث النبوي الشريف وأسانيده ومتونه.

ونرى في تأليفه ثلاثة مناهج:

الأول: التأريخ حسب توالي السنين، ومثله في حلب ابن أبي طي يحيى بن حميدة الحلبي[٦٢]، ومن كتبه كتاب تاريخ مصر وكتاب مختار تاريخ المغرب وكتاب سلك النظام في تاريخ الشام[٦٣]، كما مثّله فيها أيضاً القفطي، ومن كتبه كتاب تاريخ مصر من ابتدائها إلى ملك صلاح الدين إياها وكتاب تاريخ اليمن منذ اختطت إلى الآن[٦٤]

الثاني: التأريخ للمكان، كأن يؤرخ المؤرخ لمدينة أعجب بها واستحقت ذلك، مثل حلب التي حظيت بمؤرخ من أكبر مؤرخي ذلك العصر، هو كمال الدين بن العديم الذي أتحف المكتبة العربية بكتاب عظيم عنها، هو كتاب بغية الطلب في تاريخ حلب[٦٥]، ثم أوجزه ابن العديم نفسه لأنه رآه كبيراً جداً في كتاب من جزأين، هو كتاب زبدة الحلب من تاريخ حلب[٦٦]. ونرى في حلب هذا العصر أيضاً مؤرخاً آخر أرخ لها، هو ابن أبي طي صاحب كتاب معادن الذهب[٦٧]، وكتاب ذيل معادن الذهب[٦٨].

الثالث: التأريخ لشخصية عظيمة تستحق التأريخ لأنها اختزلت العصر الذي عاشت فيه، أو لأن عصرها قد اُختزل فيها، مثل صلاح الدين الأيوبي محرر القدس، والذي أرخ له بهاء الدين بن شداد في كتابه العظيم النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية أو سيرة صلاح الدين[٦٩]، كما أرخ له أيضاً يحيى بن أبي علي بكتابه كنز الموحدين في سيرة صلاح الدين، والذي نظمه على شكل أرجوزة الأسعد بن مماتي[٧٠]، ولا يخفى هنا تأثر المؤرخين بكتب السيرة النبوية كسيرة ابن هشام

الرابع: التأريخ لأسرة حاكمة معينة، مثل كتاب القفطي الإيناس في أخبار آل مرداس وغيره[٧١]، ومثل كتاب ابن العديم

الأخبار المستفادة في ذكر بني جرادة.[٧٢]

الخامس: التأريخ لطائفة متجانسة متميزة، وكان القفطي مغرماً بهذا النمط من التأليف، فألف كتباً عدة، منها كتاب إخبار العلماء في أخبار الحكماء وكتاب الدر الثمين في أخبار المتيمين وكتاب أخبار المصنفين وما صنفوه و كتاب إنباه الرواة على أنباه النحاة وغيرها[٧٣]، ويشبهه في ذلك ابن العديم في كتابه الدراري في ذكر الذراري[٧٤] وياقوت الحموي في كتابه العظيم معجم الأدباء[٧٥]، وابن أبي طي صاحب كتاب طبقات العلماء[٧٦].

. السياسة والحرب

وتعني السياسة هنا إدارة البلاد بالطريقة المثلى، ونجد في هذا الميدان من التأليف في حلب هذا العصر محمد بن طلحة نزيل الذي اتخذ حلب مقامه الدائم ومثواه الأخير، صاحب كتاب العقد الفريد للملك السعيد، وقد أراد فيه أن يضرب المثل الأعلى للملوك في كيفية سياستهم ورعايتهم لشعوبهم[٧٧]. كما ألف علي بن أبي بكر الهروي كتاب التذكرة الهروية في الحيل الحربية، وهو من كتب السياسة والحرب، أودعه ما يحتاج إليه الملوك في سياسة الرعية وما يعتمدون عليه في الحروب وما يدخرونه لدفع المصاعب حتى تبقى دولهم عادلة مزدهرة قوية، وجعله في أربعة وعشرين باباً في واجبات السلطان والوزراء والحجاب والولاة والقضاة وغيرهم[٧٨].

. الجغرافية

وكذلك ازدهر علم الجغرافية في حلب آنذاك، ويكفي للدلالة على ذلك أن كتاباً من أعظم المصادر العربية في هذا التخصص رأى النور في حلب، وهو معجم البلدان الذي لما يزل موسوعة جغرافية لا يستطيع الباحث أن يستغني عنها بعامة[٧٩]، كما ألف الهروي في حلب أيضاً كتابه الإشارات إلى معرفة الزيارات، وصف فيه المزارات والمشاهد التي رآها في بلاد الشام مبتدئاً بحلب [٨٠].

- الفلك

حظيت حلب ذاك العصر بعدد من العلماء الذين برعوا في علم الفلك والأزياج، وهو علم يعنى بحركة الكواكب ومنازلها وما يشبه ذلك[٨١]، واشتهر في ذلك القفطي وأبو الفضل بن يامين الحلبي الشريطي[٨٢] وعبد الله الجماعيلي[٨٣] وأبو الحجاج يوسف المغربي نزيل حلب.[٨٤] ومن الجدير بالذكر أن نربط ما تقدم بعناية كثير من الناس، وخاصة العامة، واعتقادهم بالتنجيم واستشراف المستقبل والمنجمين، الأمر الذي دفع الفقهاء ليشنوا حرباً شعواء ضدها. [٨٥]

. علوم الرياضيات:

أسهم ازدهار علم الفلك الآنف الذكر برواج علوم الحساب والجبر والهندسة ذاك الزمن، فضلاً عن شدة حاجة الناس

إليها في السلم والحرب على حد سواء لبناء القصور والمنازل والجسور، أو لبناء الأسوار والقلاع والحصون، وممن اشتهر فيها الجماعيلي والمغربي اللذان مر ذكرهما قبل قليل[٨٦].

- الطب :

راج الطب في حلب ذاك العصر رواجاً لافتاً للنظر، وأضحى مهنة تؤمن لصاحبها الغنى والمنزلة السامية، الأمر الذي أدى إلى كثرة الأطباء من جهة، وإلى ظهور نوع من التخصص، مثل الطب الباطني وطب العيون الذي كان المختص به يدعى الكحال والطب البيطري، وبنى رجال الدولة المشافي، وكانت تسمى آنذاك البيمارستانات لمداواة المرضى[٨٧]، ولتكون في الوقت نفسه مدارس عملية يتدرب فيها طلاب الطب ويطبقون بصورة عملية ما درسوه نظرياً في الكتب.

بلغت مدارس الطب في حلب ثلاثاً[٨٨]، وكان مستوى العناية جيداً فيها، يشير إلى ذلك ما وجد على صك وقف إحداها، وهو: يُخَصّ كلُّ مجنون بخادمين يخدمانه، فينزعان منه ثيابه كل صباح، وينظفانه بالماء ثم يلبسانه ثياباً نظيفة، ويحملانه على أداء الصلاة، ويسمعانه قراءة القرآن، يقرؤه قارئ حسن الصوت، ثم يفسحانه في الهواء الطلق، ويسمع في الآخر الأصوات الجميلة والنغمات الموسيقية الطبية[٨٩].

ومن البديهي أن يكون بجوار كل مشفى صيدلية يأخذ المرضى منها الأدوية اللازمة، كما كان سوق العطارين الشهير في حلب، ولما يزل، صيدلية أو صيدليات كبرى تحتوي على كثير من أدوية الأعشاب والزهور.

وكان من أشهر الأطباء في حلب آنذاك عبد اللطيف البغدادي[٩٠] وعفيف بن عبد القاهر بن سكرة الحلبي اليهودي صاحب كتاب القولنج[٩١] وحسون الرهاوي المسيحي[٩٢]. وكان يشاركهم موظفون إداريون في الإشراف على المشافي وإدارتها مثل ابن خروف علي بن محمد[٩٣].

- الفلسفة :

لم تلق الفلسفة في حلب الازدهار الذي لقيه غيرها من العلوم، لأن علماء الدين والملوك آنذاك كانوا يرون فيها ضلالاً للعقول وفساداً للدين، وقد راح ضحية ذاك، فضلاً عن أسباب أخرى، شهابُ الدين السُّهْرُوَرْديُّ الذي حُكم عليه بالإعدام، ونُفِّذ فيه عام ٥٨٧ هـ[٩٤]، وبإعدامه لفظت الفلسفة آخر أنفاسها. وهذا لا يضير ازدهار الحياة العلمية في حلب الذي تحدثنا عنه آنفاً، وذلك لأن العصور والدول والأشخاص لايقاسون بالنقاط السوداء وخاصة إذا كانت قليلة، بل بالنقاط البيضاء وخاصة إذا كانت كثيرة كبيرة عظيمة كالتي رأينا.

ولعل من المفيد أن نشير إلى موضوع الاختصاص آنذاك، فلكثير من العلماء، إن لم يكن لهم جميعاً، قدم صدق راسخة ومؤلفات يشار إليها بالبنان في علوم عدة، قد تكون متباعدة، وقد لا تكون، كما مر من قبل، مثل القفطي الذي جمع بين التاريخ واللغة والنحو والحديث وعلم الكلام والأدب والشعر مع القضاء والوزارة، ومثل عبد الله الجماعيلي الذي جمع بين النحو والفلك والرياضيات، وبهاء الدين بن شداد الذي جمع بين علم القراءات والتاريخ والحديث والفقه مع القضاء، ومثل ابن العديم الذي جمع بين التاريخ والفقه والأدب والشعر مع القضاء والعمل الدبلوماسي، وغيرهم كثير، الأمر الذي يدل على أن التخصص بمفهومه المعاصر الدقيق لم يكن معروفاً آنذاك، وإنما كانت السمة الموسوعية هي المعروفة السائدة لدى جميع أعلام ذلك العصر، وإن اشتهر أحدهم بعلم أكثر من اشتهاره بغيره.

ولابد من أن نذكر أخيراً أن ما تقدم لم يقم به أهل حلب فقط، وإنما أسهم فيه، أناس آخرون جذبتهم حلب الشهباء، فأتوها من كل فج بعيد، على اختلاف في الأجناس والأديان، واتخذوها لهم موطناً أنساهم مواطنهم الأولى بتسامحها وطيبها وثرائها. وأن نذكر أيضاً أن العامة والبسطاء لم يقفوا موقفاً سلبياً من العلم ورجالاته، بل وقف عدد منهم موقفاً إيجابياً، فحضروا حلقات العلماء في المساجد التي كانت جامعات مفتوحة مجانية، دفعهم إلى ذلك الرغبة في الثواب وحب العلم والاحترام والإعجاب، الأمر الذي أوجد منهم شعراء ورواة وطلاب علم على الرغم من أميتهم.

وهكذا نستطيع أن نعدَّ الحقبة التي تملك فيها حلب صلاح الدين وبنوه العصر الذهبي الثاني لها بعد عصر سيف الدولة الحمداني، عصر حلب الذهبي الأول.

الحواشي

(١) (مفرج الكروب ١/١٣٦)

(٢) (زبدة الحلب ٣/٦٩)

(٣) (البداية والنهاية ١٢/٣١٢)

(٤) (زبدة الحلب ٣/٧٢)

(٥) (سيرة صلاح الدين ٥٩)

(٦) (مفرج الكروب ٣/١١٦)

(٧) (سيرة صلاح الدين ٧١)

(٨) (الكامل ٩/٢٣٦)

(٩) (مفرج الكروب٣/١١٤)

(١٠) تتمة المختصر ٢/١٩٥)

(١١) (المصدر نفسه ٢/٢٤١)

(١٢) (المصدر نفسه ٢/٢٧٨)

(١٣) (تاريخ ابن خلدون ٥/٧٨٦)
(١٤) (تتمة المختصر٢/٣٠٢
(١٥) (خطط الشام ٦/٥٠)
(١٦) (الأعلاق الخطيرة ١/ ١٢١و١٢٢)
(١٧) (المصدر نفسه ١/١٠٧)
(١٨) (المصدر نفسه ١/١٠٣ و١١٤)
(١٩) (خطط الشام٦/١٠٨ و١١٠)
(٢٠) (الأعلاق الخطيرة ١/١٢١و١٢٢)
(٢١) (المصدر نفسه ١/١٠٤)
(٢٢) (المصدر نفسه ١/١٠٧)
(٢٣) (المصدر نفسه ١/١٢٢)
(٢٤) (خطط الشام ٦/٢٠٤)
(٢٥) (الأعلاق الخطيرة ١/١٠٠)
(٢٦) (فوات الوفيات٢/١٩٢)
(٢٧) (ذيل مرآة الزمان١/٤٦٤)
(٢٨) (معجم الأدباء ١٥/١٧٩)
(٢٩) (أعلام النبلاء ٤/٣٩٠)
(٣٠) (كشف الظنون ١/٤٦٦).
(٣١) هو أخو سميه الصاحب علي بن يوسف القفطي، استلم الوزارة في حلب بعد أخيه، وتوفي عام ٦٥٨هـ
(أعلام النبلاء٤/٤٤٩)
(٣٢) (الأعلاق الخطيرة١/١٢٢)
(٣٣) (طبقات الحفاظ للسيوطي ٢/٥٨)
(٣٤) (الطالع السعيد٧١)
(٣٥) (أعلام النبلاء ٤/٥٤١).
(٣٦) (الجواهر المضية ٢/٢٤٤
(٣٧) (أعلام النبلاء ٥/ ٢٥٨)
(٣٨) (خطط الشام ٤/٤٧)
(٣٩) (الجواهر المضية ١/٣٢٩)
(٤٠) (شذرات الذهب ٥/ ٢٥٨)
(٤١) (فوات الوفيات ٢/٤٥٣)
(٤٢) (شذرات الذهب ٥/٢٢٨)
(٤٣) (أعلام النبلاء ٤/٤٣٣)
(٤٤) (كشف الظنون١/١٤٤)
(٤٥) (الطالع السعيد ٢٣٧)
(٤٦) (بغية الوعاة ١/٥٤١)
(٤٧) (بغية الوعاة ١/٥٩١)
(٤٨) (خطط الشام ٤/٤٧)
(٤٩) (الوافي بالوفيات ٤/١٦٤)
(٥٠) (بغية الوعاة ٢/٢٠٣)
(٥١) (فوات الوفيات ٢/١٦)
(٥٢) (زبدة الحلب، المقدمة ٤٦)
(٥٣) (كشف الظنون ١/٦٩٣)
(٥٤) (معجم الأدباء ١٥/١٨٧)
(٥٥) (المصدر نفسه ٦/١١٧)
(٥٦) (المصدر نفسه ٦/١٨)
(٥٧) (المصدر نفسه ١٥/١٨٧)
(٥٨) (مرآة الزمان ٨/٥٧٩، تاريخ ابن الفرات ٧/٣٨)
(٥٩) (الوافي بالوفيات ١/٢٨٣)
(٦٠) (أعلام النبلاء ٤/٤٤٧)
(٦١) (النوادر السلطانية ٧١)
(٦٢) (أعلام النبلاء ٤/ ٤٢٢)
(٦٣) (كشف الظنون ١/٢٠٤و٢٠٦و٢/٩٩٧)
(٦٤) (معجم الأدباء١٥/١٨٧).
(٦٥) (قدم له ونشره سهيل زكار في دمشق عام ١٩٨٨ في أحد عشر جزءاً)
(٦٦) (حققه سامي الدهان، ونشره المعهد

الفرنسي للدراسات العربية، دمشق ١٩٥١، ثم أعاد تحقيقه سهيل زكار ونشرته دار الكتاب العربي، دمشق ١٩٩٧)

(٦٧) (مقدمة زبدة الحلب ٥٠)

(٦٨) (كشف الظنون ١/ ٢٩٢)

(٦٩) (طبع في مطبعة الآداب والمؤيد بالقاهرة عام ١٣١٧ هـ، وطبع أيضاً غير هذه الطبعة)

(٧٠) (حسن المحاضرة ١/ ٢٧٠)

(٧١) (فوات الوفيات ٣/ ١١٨)

(٧٢) (كشف الظنون ١/ ٣٠)

(٧٣) (معجم الأدباء ١٥/ ١٨٧)

(٧٤) (كشف الظنون ١/ ٣٠)

(٧٥) (طبع دار المأمون، مصر ١٩٣٦)

(٧٦) (كشف الظنون ٢/ ١١٠٤)

(٧٧) (شذرات الذهب ٥/ ٢٥٩)

(٧٨) (وفيات الأعيان ٣/ ٣٠١، أعلام النبلاء ٤/ ٣٢٤).

(٧٩) (طبع دار إحياء التراث العربي، بيروت ١٩٧٩)

(٨٠) (نشر الكتاب في دمشق عام ١٩٥٣).

(٨١) (الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام ٢٠٤)

(٨٢) (أعلام النبلاء٤/ ٣٢٢)

(٨٣) (خطط الشام ٤/ ٤٧)

(٨٤) (عيون الأنباء ٦٩٦)

(٨٥) (تاريخ الصفدي المخطوط ٤/ ١٥٤أ).

(٨٦) (خطط الشام٤/ ٤٧ وعيون الأنباء٢/ ١٨٩)

(٨٧) (العصر المماليكي في مصر والشام ٤٦٨)

(٨٨) (خطط الشام ٦/ ١١٧)

(٨٩) (المصدر نفسه ٦/ ١٦٦)

(٩٠) (فوات الوفيات٢/ ١٦)

(٩١) (عيون الأنباء ٦٢٨)

(٩٢) (أعلام النبلاء ٤/ ٣٥٤)

(٩٣) (فوات الوفيات ٢/ ١٦٠)

(٩٤) (المصدر نفسه ٦/ ٢٧٣)

أهم المصادر والمراجع

ابن الأثير الجزري

- الكامل في التاريخ، المطبعة المنيرية، مصر ١٣٥٧هـ

الأدفوي

- الطالع السعيد، ت: سعد محمد حسن، الدار المصرية، مصر ١٩٦٦

ابن أبي أصيبعة

- عيون الأنباء في طبقات الأدباء، ت: نزار رضا، مكتبة الحياة، بيروت ١٩٦٥

بدوي، أحمد أحمد

- الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام، مكتبة نهضة مصر ١٩٥٤

ابن الجوزي، سبط

- مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، حيدر آباد ١٩٥٢

الحموي، ياقوت

- معجم الأدباء، دار المأمون، مصر ١٩٣٦

. معجم البلدان، دار إحياء التراث العربي، بيروت ١٩٧٩

ابن خلكان

. وفيات الأعيان، ت: إحسان عباس، دار صادر، بيروت ١٩٦٨.

خليفة، حاجي

. كشف الظنون، مطبعة وكالة المعارف، استانبول ١٩٤١

السيوطي

. حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، القاهرة ١٣٢٧ هـ

ابن شاكر الكتبي

. فوات الوفيات، ت: محمد محيي الدين عبد الحميد، مكتبة النهضة المصرية، مصر ١٩٥١

ابن شداد، محمد بن علي

. الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، ت: دومينيك سورديل، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، دمشق ١٩٥٦

ابن شداد، يوسف بن رافع

. سيرة صلاح الدين(النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية)، مطبعة الآداب والمؤيد، القاهرة ١٣١٧ هـ

الطباخ، محمد راغب

. أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء، المطبعة العلمية، حلب ١٣٤٣ هـ

عاشور، سعيد عبد الفتاح

. العصر المماليكي في مصر والشام، دار النهضة العربية، القاهرة ١٩٧٦

ابن العديم

. بغية الطلب في تاريخ حلب، ت: سهيل زكار، دمشق ١٩٨٨

. زبدة الحلب في تاريخ حلب، ت: سامي الدهان ،المعهد الفرنسي للدراسات العربية، دمشق ١٩٥١

ابن العماد الحنبلي

. شذرات الذهب في أخبار من ذهب، مكتبة القدس، القاهرة ١٣٥٠ هـ

ابن كثير

. البداية والنهاية، مطبعة السعادة مصر ١٩٣٢

كرد علي، محمد

. خطط الشام، المطبعة الحديثة، دمشق ١٩٣٥

ابن واصل

. مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، ت: جمال الدين الشيال، وزارة الثقافة، مصر١٩٥٣و١٩٦٠

ابن الوردي

. تتمة المختصر في أخبار البشر، ت: البدراوي، دار المعرفة، بيروت ١٩٧٠

اليونيني

. ذيل مرآة الزمان، مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد ١٩٥٤

❖ ❖ ❖

الدراسات والبحوث

١٧٥

حلب حاضنة الموشّحات والسّماح

ياسر المالح (*)

مقـدمـة:

إذا أردت أن تغني غناءً متقنًا فاذهب إلى حلب، فهناك يجيزك أساطين النغم أو لا يجيزونك. ويبدو أن هذا القول شاع منذ زار محمد عبد الوهاب حلب في العام ١٩٣٢ ليغني على أحد مسارحها بعض أغنياته، فلم يجد في الصالة إلا عدداً قليلاً من الحاضرين، فاعتذر عن الغناء لمتعهد الحفلة، فأقنعه المتعهد أن يغني أمام أولئك القلة فهم الصفوة. فغنى محمد عبد الوهاب وأبدع، وفي اليوم التالي غصّت الصالة بالجمهور الحلبي، فصفق للمطرب الشاب ما شاء له التصفيق، فأيقن محمد عبد الوهاب أن حلب فيها يستقر الفن الأصيل.

(*) ياسر المالح: أديب وباحث سوري.

- العمل الفني: الفنان جورج عشي.

والذين قصدوا حلب قبل محمد عبد الوهاب مبدعون أرسوا قواعد المسرح الغنائي العربي في كل من سورية ومصر. وفي مقدمتهم أحمد أبو خليل القباني وسلامة حجازي وسيد درويش. وكلهم أخذوا عن جهابذة حلب في الموسيقا والموشحات ورقص السماح العلم الوفير في هذه الشؤون مما أفادهم في فضاء المسرح الغنائي.

أصول الموشحات:

في الحديث عن الأصول والأصالة تضيء الموشحات في الأفق. ومن الباحثين من يرى أن بذور الموشحات مشرقية. وهي في تجديدات أبي نواس واردة. ومما تغنى به المتأخرون في قالب الموشح من شعره قوله:

حامل الهوى تعِبُ
يستخفُّهُ الطربُ
إنْ بكى فحقَّ له
ليس ما به لَعِبُ
كلما انقضى سَبَبٌ
منكَ عادَ لي سَبَبُ
تعجبينَ من سَقَمي
صِحَّتي هيَ العَجَبُ
تَضحكينَ لاهيةً
والمحبُّ يَنتحِبُ

وقد غنت بذلك فيروز ووديع الصافي والمجموعة، واللحن للأخوين رحباني في السبعينيات من القرن العشرين في العرض المسمى «أندلسيات».

لكن إجماع الباحثين استقر على أن الموشح فن أندلسي صرف. وأول من اخترع الموشح وصنع أوزانه محمد بن محمود القَبْريّ الضرير كما روى ابن بسام في كتابه «الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة» أو مقدّم بن معافى القبريُ كما أثبت ابن خلدون في مقدمته.

وكان ذلك في أواخر القرن التاسع وبداية القرن العاشر الميلادي في عهد الخليفة عبد الله بن محمد المرواني. ثم أزدهر فن الموشح في عصر ملوك الطوائف ومن عاصرهم من المرابطين والموحّدين.

ومن الموشحات ما كان على أوزان الشعر العربي، ومنها ما كان خارجًا عليها وله وزنه الخاص. وفي الأحوال كلها صار للموشح صيغ مختلفة. ويكون تامًا في حال ويكون أقرعَ في حال. وصار لأجزائه تسميات. فهو يتألف من قُفل ودور وخرجة.

فالقُفل يبتدئ به الموشح عادة ويتألف من جزأين مثل:

شمسٌ قارنتْ بدرًا
راحٌ ونديمْ

أو من ثلاثة أجزاء مثل:



حلّتْ يدُ الأمطارْ

أزرّةَ النوّارْ

فيا خذْني

أو من أربعة أجزاء مثل:

أدرْ لـنـا أكـــوابْ

يُـنـسـى بـهـا الـوجـدُ

واستحضرِ الجُلاّسْ

كـمـا اقـتـضـى الـودُّ

أومن خمسة أجزاء مثل:

قُلْ هل علمْ أوهل عهْدْ

أوكان كالمعتصمْ

والمعتضدُ ملكانْ

وأما الدور فيشتمل على أجزاء تدعى الأغصان، تقع بين قفلين. وكل غصن قد يكون في جزأين أو ثلاثة أو ثلاثة ونصف على وزن واحد. وتتنوع القوافي بين دور ودور.

وأما الخرجة فهي القفل في آخر الموشح. وقد تكون فصيحة أو عامية أو بلغة أخرى كالفارسية. وهي تحمل مفاجأة الختام.

والموشح التام يبدأ بقفل وينتهي بقفل هو الخرجة. أما الموشح الأقرع فلا يبدأ بقفل وإنما يبدأ بالدور ذي الأغصان.

والموشح التام يحتوي ستة أقفال متماثلة الأجزاء ملتزمة التوافي.

ويحسن أن نعرض موشح «أيها الساقي إليك المشتكى» لأبي بكر بنُ زهر الإشبيلي[1] نموذجًا للموشح التام.

قفل (١)

أيها الساقي إليكَ المشتكى

قد دعوْناكَ وإنْ لم تسمع

ونديم همتُ في غُرّتهِ

(غصن)

دور (١)

وَبشُرب الراح من راحته

(غصن)

كلما استيقظ من سكرته

(غصن)

قفل (٢)

جذبَ الكأسَ إليه واتّكا

وسقاني أربعًا في أربَعِ

ما لِعَيْني عَشيتْ بالنظر

دور (٢)

أنكرتْ بعدكَ ضوءَ القمر

وإذا ما شئتَ فاسمعْ خبري

قفل (٣)

عَشيتْ عيناي من طول البُكا

وبكى بَعضي على بَعضي معي

غُصنُ بانٍ مالَ من حيثُ استوى

دور (٣)

باتَ يَهواه من فرطِ الجوى

خَفقَ الأحشاءِ موهونَ القُوى

قفل (٤)

كلما فكّر بالبَيْنِ بكى

ويحَهُ يبكي لما لَمْ يَقَعِ

وليسَ لي صبرٌ ولا لي جَلَدُ

دور (٤)

يا لَقومي عذلوا واجتهدوا

أنكروا شكوايَ ممّا أجِدُ

قفل (٥)

مثلُ حالي حَقّه أنْ يشتكى

كَمَدُ اليأسِ وذلُّ الطمَعِ

كبدي حرّى ودمعي يَكِفُ

دور (٥)

يعرفُ الذنبَ ولا يعترفُ

أيها المُعرض عمّا أصِفُ

خرجة

قد نما حبكَ عندي وزكا

لا تقل في الحُبِّ إني مُدَّعِ

يلاحظ في هذا الموشح اتفاق القوافي في الأقفال الستة صدرًا وعجزًا. واتفاق القوافي في أغصان الدور الواحد. ووزن أبيات الموشح كلها من بحر الرمل.

هذا الفن الغنائي ابتكره المبدعون في الأندلس ليعبر عن البيئة الجديدة المختلفة عن البيئة المشرقية. فهي حافلة بالعرب والبربر والصقالبة من كل إقليم يدينون بالديانات الثلاث الإسلامية والمسيحية واليهودية. والطبيعة الأندلسية طبيعة جميلة، قال فيها ابن خفاجة الشاعر الأندلسي:

يا أهلَ أندلس للهِ درُّكُمُ
ماءٌ وظلٌ وأنهارٌ وأشجارُ
ما جنّةُ الخُلدِ إلاّ في ديارِكُمُ
ولو تخيّرتُ هذي كنتُ أختارُ

والأندلس حافلة بالقصور المغرقة في الرفاهية. وأصحاب هذه القصور مغرمون بالموسيقا والغناء، والجواري المغنيات والراقصات يملأن عليهم حياة الليل، والشعراء والملحنون متفرغون للإنشاد والتلحين والتلقين.

فالموشح هو الصيغة المتجددة التي ترضي السمع والبصر جميعًا.

رحلة الموشحات إلى الشرق

اجتازت الموشحات مضيق جبل طارق وحلّت في المغرب. حملها وشاحون أندلسيون في البداية كابن باجة وابن زُهر وابن الخطيب وغيرهم. ثم بدأ الوشاحون المغاربة يقلدون الأندلسيين في نظم الموشحات مثل محمد بن حسون الحلا وابن المرحل، لكنهم لم يلتزموا بالتفاصيل إما لعجز عن بلوغ مستوى الموشح الأندلسي أو لرغبتهم في المخالفة فالشخصية المغربية لها ملامح مختلفة.

وسارت الموشحات إلى الجزائر، فاستقبلها الجزائريون، ونسجوا على منوالها. وظهر منهم محمد بن جمعة التلاليسي ومحمد بن عفيف التلمساني وغيرهم. لكن البارز المجدد فيهم كان مفتي المالكية أبو العباس سيدي أحمد بن عمار صاحب الرحلة المسماة «نحلة اللبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب»، والمقصود بالحبيب هنا النبي محمد (ص). وقد نظم هذا الشاعر موشحًا يتألف من أربعة وأربعين قفلاً يتخللها ثلاثة وأربعون دورًا. وهو أطول موشح في تاريخ الموشحات. يقول في مطلعه:

يا نسيمًا باتَ من زهرِ الرُبا
يقتفي الركبانْ
احمِلنْ منّي سلامًا طيبا
لأهَيلِ البانْ

ومن الجزائر سارت الموشحات في رحلتها إلى تونس، حملها بعض الوشاحين الأندلسيين. وطرب لها التونسيون. فظهر منهم وشاحون كأبي الحسن الحصري القيرواني وابن مخلوف وابن الصباغ. ومعظمهم كان يعارض الموشحات الأندلسية الأصيلة فينظم على شاكلتها.

وتستمر الموشحات في مسيرتها نحو الشرق، وتحل في مصر، ويظهر ابن سناء الملك[٢] مبدعًا في الموشح يعارض ويؤلف، وباحثًا في الموشحات تاريخًا وقواعد. وكتابه «دار الطراز» يعد المرجع الأول لقواعد الموشحات. وابن سناء الملك عاصر القاضي الفاضل وتتلمذ على يده، فكان

أغزر شعراء الأيوبيين إنتاجًا. ونبغ وشاحون مصريون آخرون. منهم ابن الوكيل وابن النبيه وابن نباتة. لكنهم لم يبدعوا شيئًا جوهريًا في الموشح الأندلسي. وكل ما فعلوه زيادة في الأقفال وتنوع في القوافي والخرجة ومعارضة الموشحات الأندلسية أو تضمين الموشح بعض أشعار الأندلسيين من غير الوشاحين. وبقي الموشح في صيغته الأندلسية متماسكًا حيثما حلّ في رحلته نحو الشرق.

الموشح في بلاد الشام

كانت رحلة الأندلسيين إلى بلاد الشام مما هو مألوف. ومنهم من هاجر واستقر، خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر للميلاد. وكان منهم الفقيه والمتصوف والطبيب والشاعر والزجال والوشاح.

ومن أبرز الصوفيين الوشاحين محيي الدين بن العربي[٣]. فقد كان يبسط نماذج من الموشحات أمام شعراء الشام، ويلفت نظرهم إلى قالبها ومحتواها وأغراضها.

وظهر من الوشاحين في بلاد الشام ابن الدهان الموصلي الحمصي وخليل بن أيبك الفلسطيني المشهور باسم صلاح الدين الصفدي وعبد الكريم النقيب وأحمد السلامي وشهاب الدين العزاوي.

والمعارضة للموشحات الأندلسية هي الشغل الشاغل لوشاحي بلاد الشام. وكذلك كان من سبقهم من وشاحي الشمال الأفريقي ومصر، وعلى سبيل المثال نذكر موشحًا أندلسيًا لعبادة بن ماء السماء،[٤] عارضه ابن سناء الملك المصري وأحمد بن حسن الموصلي وشهاب الدين العزاوي من بلاد الشام.

مطلع موشح ابن ماء السماء الأندلسي:

مَن ولِي في أمةٍ أمرًا ولم يعدلِ

يُعزَلِ إلاّ لحاظَ الرشأ الأكحلِ

عارضه ابن سناء الملك بموشح مطلعه:

كلّلي يا سحبُ تيجانَ الرُّبا بالحُلي

واجعلي سِوارَكِ مُنعطَفَ الجَدولِ

وعارضه أحمد بن حسن الموصلي بموشح مطلعه:

جَلّل يا راحُ كأسي ولَها كلّلي

بالحلي سوارَها ثم لها خلخلي

وعارضه شهاب الدين العزاوي بموشح مطلعه:

أرسلي سِترَ دياجي شعرِكِ المسبَلِ

وانجلي كالبدرِ في ثوبِ الدجى الأليَلِ

وتبدو المعارضة أكثر ما تبدو في أجزاء القفل وقوافيه. وقد يجري المعارض بعض التعديل حتى لا يكون معارضًا حرفيًا.

ويمكن تعليل ظاهرة المعارضة عند الوشاحين الشاميين وغيرهم بمايلي:

- سهولة النظم على ما هو جاهز.

- عدم القدرة على الإبداع والتطوير.

- منافسة الوشاحين بعضهم بعضاً في المعارضة.

حلب والموشحات

منذ نشأت الموشحات في القرن التاسع للميلاد وهي بين علوّ وانخفاض وفق الأحوال السياسية والبيئة الاجتماعية وحال المبدعين من ناظمين وملحنين. واستمرت على ذلك عشرة قرون،حتى كان القرن التاسع عشر، فإذا بها تزدهر وتورق في حلب. وصار ذكر حلب يستدعي بالضرورة ذكر الموشحات وفن الغناء الأصيل ورقص السماح والقدود الحلبية.

يقول الشيخ كامل الغزي في رسالة إلى محمد كرد علي:

«إن حلب لا تخلو في أكثر أوقاتها من الشداة والمترنمين الذين يعدّون بالمئات، ومن أشهرهم في القرن الماضي (التاسع عشر) محمد بن عبده وطاهر النقش والدرويش صالح قصير الذيل وأحمد بن عقيل. وعن أحمد بن عقيل أخذ أبو خليل القباني الشامي فصول الرقص المسمى بالسماح. وكذلك فعل عبده الحامولي المصري. ومن تلامذة ابن عقيل زوجة قنصل بريطانيا في حلب التي قالت عنه: إن ابن عقيل يقل نظيره في هذا الفن حتى في أوروبا.»

ومن أعلام الوشاحين في القرن العشرين الحلبي عمر البطش[٥]. يقول مجدي العقيلي عن عمر البطش:

«من معجزات هذا الفنان أنه كان يحفظ ما ينوف عن ألف موشح[٦]. كما كان يحفظ سائر النغمات العربية والموازين الإيقاعية مع سيرها (رقص السماح). وكان عالماً بفنون الموسيقا وفنون تدوينها (النوطة). فهو نسيج فني رائع لا يجارى في ميدانه الموسيقي الذي اتسم بطابعه.»

وقد أمضى عمر البطش عمره في التعلم والتعليم والإبداع في كل من حلب ودمشق ويعد الملحن الأول للموشحات الحلبية الغزلية والدينية.

وكان للبطش زملاء من الوشاحين والموسيقيين الذين ساهموا في النهضة الفنية بحلب. وكان علي الدرويش[٧] من أقرب الأصدقاء إليه.

وكان للبطش تلاميذ كثر من أشهرهم عبد القادر حجار وصبري مدلل والشيخ عمر دربي وعبد الرحمن مدلل وأحمد فرواتي. وقد سجّل هؤلاء وغيرهم كل ما أبدع عمر البطش من أعمال.

أما الموشحات التي شاعت في حلب فهي أربعة أنواع:

- نوع يكون فيه الموشح قديماً لوشاح مجهول. وكذلك اللحن متوارث لا يعرف واضعه.

- نوع مجهول الناظم وملحنه معاصر.
- نوع يعرف ناظمه وملحنه معاصر.
- نوع ناظمه معاصر معروف وملحنه معاصر.

ومثال النوع الأول مجهول القائل والملحن موشح:

قد حركت أيدي النسيم
قد الغصون الميس
فانهض وبادر يا نديم
إلى رياض السندس
قم واسقنا الخمر القديم
بكرا حياة الأنفس
والشوق في قلبي مقيم
يحكي شهاب القبس

ومثال النوع الثاني مجهول القائل والملحن معاصر هو نديم درويش موشح مطلعه:

بدت لنا في طالع الإسعاد
يمحو سناها الليل
شمس على غصن رطيب ناد
تزهو بجر الذيل

ومثال النوع الثالث معروف القائل وملحنه معاصر موشحان. الأول موشح:

جادك الغيث إذا الغيث همى
يا زمان الوصل بالأندلس

وهو نظم لسان الدين بن الخطيب الأندلسي[8] وتلحين مجدي العقيلي.

والثاني موشح:

أيها الساقي إليك المشتكى
قد دعوناك وإن لم تسمع

فالناظم ابن زهر الأندلسي والملحن مجدي العقيلي أيضاً.

ومثال النوع الرابع ناظمه معاصر وملحنه معاصر موشح مطلعه:

فتاكة اللحظ
ممشوقة القد
فتانة اللفظ
وثابة النهد

فهو من نظم فؤاد رجائي آغا قلعة ولحن عمر البطش

ويجب أن نذكر بفخر أن حلب قدمت أصواتاً رائعة متمكنة ذات مساحات واسعة تنشد الموشحات بحرفية لا تدانيها حرفية مطربي الأقطار العربية الأخرى. وصباح فخري مثل حيّ، أطال الله عمره، وهو أستاذ الأساتذة في هذه الصنعة.

والحديث عن الموشحات الحلبية وأصحابها من الناظمين والملحنين والمغنين

لا توفّيه هذه العجالة حقه. فنحن نذكرُ ولا نستقصي. فالاستقصاء يحتاج إلى دراسة تاريخية ودراسة ميدانية ودراسة فنية مجموعة في مجلد ضخم يقصر عنه مقال أشبه بالتحية لحلب موطن الفن الأصيل.

حلب ورقص السماح

اختلف الباحثون في أصل رقص السماح. فمنهم من نسبه إلى عقيل المنبجي المتوفى سنة ٥٥٠ هـ والذي عاش في الفترة الزنكية الأيوبية. ومنهم من نسبه إلى محمد المنبجي المتوفى سنة ١١٩٠هـ. وهذا الرقص متفرع من دعاء استغاثة للسيد عبد الغني النابلسي[٩] في فاصل «أسق العطاش» وقد لحن هذا الفاصل محمد الصيداوي ثم وضع له أصول سير الإيقاع بالأرجل محمد المنبجي كما يقول مجدي العقيلي.

وهذا الرقص سوري محدث لا ينتمي إلى الفرس بحال كما يرى بعض الباحثين. ولا صلة له بالأندلس وموشحاتها، فالمصادر التاريخية لم تذكر شيئًا عن رقص السماح في الحقبة الأندلسية.

أما فاصل «أسق العطاش» فقد ظهر حين انحبس الغيث عن حلب، واشتد فيها العطش، فخرج أهلوها إلى ظاهرها يتضرعون إلى الله تعالى أن يجود عليهم بالغيث. وكان بينهم محمد المنبجي فأنشد المنشدون هذا الفاصل الدعائي:

يــــــا ذا الـــعَـــطـــا
يـــــا ذا الـــسّـــخـــا
أســـق الـــعِـــطـــا
شَ تــــكــــرّمـــا
فــــالـــعـــقـــلُ طـــا
شَ مـــن الـــظـــمـــا

وما زال هذا الفاصل الدعائي في قالب الموشح محل اعتزاز أهل حلب والمعجبين من العرب.

وأشهر الحلبيين من أساتذة رقص السماح أحمد عقيل[١٠] الذي تتلمذ عليه أحمد أبو خليل القباني وصالح الجذبة[١١] وقد تتلمذ على يديه علي درويش وعمر البطش وعبد الوهاب سيفي.

ويعد عمر البطش أشهر فناني الجيل الثاني في تصميم رقص السماح الموافق للحن الموشحات. وقد أخذ هذا الفن عن مجموعة من الأساتذة منهم أحمد عقيل وصالح الجذبة وأحمد مشهدي وأحمد الشعار وكذلك أخذه عن خاله بكري القصير.. ويجمع الباحثون على أن عمر البطش كان خير من ابتكر حركات رقص السماح وتنظيم الوصلات من مقامات مختلفة على إيقاعات متنوعة.

وقد دعا فخري البارودي[١٢] عمر البطش إلى دمشق لتعليم تلميذات دوحة

الأدب رقص السماح في العام ١٩٣٦. ودعاه مرة أخرى إلى دمشق لتعليم الطلبة في المعهد الموسيقي الشرقي الموشحات ورقص السماح في العام ١٩٤٧.

وكان من تلاميذ عمر البطش في حلب مصطفى الصابوني وأحمد الصابوني ومصطفى البابا واديب حبال وحسن بصّال وبهجت حسان وغيرهم. وكان من تلاميذه في دمشق زهير منيني وعدنان منيني وعمر العقاد وغيرهم.

وقد جاء فيما بعد من طوّر رقص السماح وفق الألحان الجديدة للموشحات ذات الإيقاعات السريعة وفق توزيع علمي. وأهم المجددين في ذلك عدنان أبو الشامات الدمشقي الذي لحن فاصلاً من الموشحات على جمل موسيقية حديثة، وصمم له رقص السماح على إيقاعها عمر العقاد، وأداها راقصون وراقصات على مسرح معرض دمشق الدولي في العام ١٩٦٧.

كلمة أخيرة

ما سجلناه في هذا المقال عن ريادة مدينة حلب في شأن احتضان الموشحات ورقص السماح،ما هو إلا خطوط عريضة لبحث أكاديمي شامل، يعود فيه الباحث إلى مؤلفات سابقة، منها ما هو وثائقي، ومنها ما هو تاريخي يروي القصة من أولها بشيء من التفصيل حتى وقتنا هذا.

وإذا سلّمنا بأن الحفاظ على التراث الموشحي وما يتصل به هو واجب وطني وقومي، وأن البحث العلمي الموثق هو أحد السبل للحفاظ عليه، وأن للإعلام دورًا في نشره والتذكير به فإن كل هذا لا يمنع من تطوير هذا التراث والتجديد فيه ليلائم إيقاع العصر. وقولنا هذا لا يعني وأد الأصول وإنما يعني إحياء الأصول كما هي إلى جانب التجديد الملائم. واستيحاء الجديد من الأصول خير من استيحائه من فن لا يمت إلى الفن العربي بصلة.

لكن القضية التي تلوح في الأفق تكمن في رحيل جيل الروّاد. ترى من هم الوارثون للحفاظ على الأصول؟ ومن هم الوارثون المجددون؟

ترى هل ستبقى حلب عاصمة التراث الموسيقي العربي وحاضنة الموشحات ورقص السماح والقدود؟ أم أنها ستبقى مكتبة لوثائق هذا التراث؟

وتقدير ما ستأتي به الأيام صعب غاية الصعوبة. فالأمانيّ المتفائلة شيء ومسير الأمور في أجواء غائمة شيء آخر.لكن هذا لا يقلل من اعتزازنا بما أنتجته حلب خلال قرن ونصف من الزمن، فقد كان إنتاجًا رائعًا أصيلاً تفخر به العروبة ويعجب به كل دارس لموسيقى الشعوب.

المراجع

- مقدمة ابن خلدون المطبعة الأزهرية ١٩٣٠.
- دار الطراز لابن سناء الملك. تحقيق د. جودت الركابي، دمشق ١٩٤٩.
- الموشحات الأندلسية نشأتها وتطورها، سليم الحلو، دار مكتبة الحياة، بيروت ١٩٦٥.
- الموشحات في بلاد الشام. مقداد رحيم، عالم الكتب، بيروت، طبعة أولى ١٩٨٧.
- السماع عند العرب. مجدي العقيلي.
- أعلام الأدب والفن. أدهم الجندي. ١٩٥٤.
- من كنوزنا فؤاد رجائي ونديم الدرويش. مطبعة الشرق. حلب ١٩٥٥.
- رقص السماح والدبكة. عدنان ابن ذريل. منشورات وزارة الثقافة ١٩٩٦.
- مجلة الحياة الموسيقية العدد (٣١) من منشورات وزارة الثقافة ٢٠٠٤، مقال عن عمر البطش. د محمود كحيل.

الحواشي

(١) هو المشهور بابن زهر الحفيد (٥٠٤-٥٩٥هـ) من أسرة مشهورة بصناعة الطب والأدب. وكان ابن زهر طبيب الأمير الموحدي يعقوب بن يوسف الملقب بالمنصور.

(٢) هبة الله بن سناء الملك (١١٥٦-١٢١٢م).

(٣) محيي الدين بن العربي (-١٢٤٠م) ولد في مرسية بالأندلس وتوفي بدمشق يلقب بالشيخ الأكبر.

(٤) عبادة بن ماء السماء (-٩٨٩م).

(٥) عمر البطش (١٨٨٥-١٩٥٠) لحن حوالي مئة وثلاثين موشحاً.

(٦) من المصادر ما يجعل محفوظ عمر البطش من الموشحات أربع سفن. والسفينة تضم ألف موشح. فهو يحفظ أربعة آلاف موشح.

(٧) علي الدرويش (١٨٧٢- ١٩٥٢).

(٨) لسان الدين بن الخطيب (١٣١٣-١٣٧٤م) من كبار وزراء بني الأحمر وكان يلقب بذي الوزارتين.

(٩) عبد الغني النابلسي (-١٧٣١م) متصوف ولد وتوفي بدمشق له كتاب (إيضاح الدلالات في سماع الآلات) و(ديوان الحقائق) في الشعر.

(١٠) أحمد عقيل (١٨١٢- ١٩٠٢م)

(١١) صالح الجذبة (١٨٥٨- ١٩٢٢م).

(١٢) فخري البارودي (١٨٨٦- ١٩٦٦م) أحد المناضلين الكبار. وهو شاعر ومنشئ أول معهداً خاصاً لتعليم الموسيقى.

العمارة السلجوقية الزنكية في حلب الإسلامية

د . شوقي شعث(*)

عند مقتل شرف الدولة مسلم العقيلي ، الذي ورث الأسرة المرداسية انتقلت حلب إلى السيادة السلجوقية المباشرة ، وعلى الرغم من أن الفوضى والاضطراب خيم على الحياة السياسية في شمال سورية في هذه الفترة، إلا أنه سرعان ما بدأت الحياة السياسية تميل إلى الاستقرار بسبب الخطر الخارجي الافرنجي الذي أخذ يهدد البلاد . وبسبب ظهور الاتابك عماد الدين آتابك الموصل السلجوقي الذي أخذ على عاتقه رفع راية الجهاد وتحرير البلاد من الأعداء.

(*) شوقي شعث : باحث وأثري ومدير آثار ومتاحف المنطقة الشمالية سابقاً .

- العمل الفني: الفنان سعد يكن.

وحتى يصل إلى هدف الأهداف كان لزاماً عليه توحيد البلاد وبالتالي فرض السيطرة على حلب وسورية الشمالية برمتها أولاً ثم بلاد شرق البحر المتوسط وكان له ما أراد، فالاستقرار السياسي والتوجيه نحو الجهاد في سبيل الله وبالتالي تخليص المسلمين وبلادهم من أيدي أعداء الاسلام، لقد سمح ذلك الاستقرار بإدخال فنون جديدة في الهندسة المعمارية والفنون الزخرفية والأفكار، وعلى الرغم من أهمية تلك الفنون، إلا أنها لم تستطيع إلغاء الفنون الموروثة من العهود السابقة فتفاعلت معها كما تمت الحياة الفكرية الدينية التي حركت تلك الفنون فظهرت نتيجة ذلك التفاعل المدارس المعمارية والفنية التي يتميز العصر السلجوقي الزنكي بها.

كما أدخلوا مؤسسات جديدة لم تكن بلاد الشام قد عرفتها مثل الخانقاوات والبيمارستانات ومدارس الطب والأبنية العسكرية وغيرها مما كانت تفرضه روح الجهاد التي المحنا إليها والتي سيطرت على جميع جوانب الحياة في الدولة الزنكية.

ومما يميز عمائر العصر السلجوقي الزنكي ببلاد الشام هو احتوائها على أواوين ذات عقود حجرية واسعة تطل على الساحة الوسطى من جهاتها الثلاث أو الأربع، وكانت تتوسط تلك الساحة بركة ماء، كما أصبحت القباب ترتكز على حنايا ركنية أو مقرنصات، كما شاع استخدام الأقباء ذات العقود نصف الأسطوانية أو المتقاطعة من أجل تسقيف الغرف والقاعات، أما مداخل المباني فأصبحت قليلة الارتفاع تنتهي في الأعلى بعقد ذي قوس مدبب، والملفت للنظر أن المقرنصات استخدمت لأول مرة في هذا العصر كعنصر معماري وزخرفي بآن واحد[1]، كما استخدم كذلك الخط النسخي أو الثلث لأول مر، إلى جانب الخط الكوفي في تزيين المباني.

عموماً بلغت العمارة والزخرفة السلجوقية الزنكية في عهد السلطان نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي بحلب والمدن السورية الأخرى كدمشق وحمص وحماه والمعرة وغيرها ذروتها، وصفوة القول أن المبتكرات الفنية المعمارية التي أدخلها السلاجقة الزنكيون إلى سورية قد تأصلت وحدث امتزاج بينها وبين التقاليد الفنية الموجودة قبلها في إطار عملية إحياء لم تشهدها سورية منذ العهد الأموي[2].

لقد كان لحلب نصيب كبير من المباني السلجوقية الزنكية فقد أشيدت فيها كثير من المباني كالمدارس والجوامع والبيمارستانات لا تزال آثارها باقية بحلب



تشهد على روعة عمارتها ، وان تخرب الكثير منها، إلا أن ما بقي منها كاف ليقدم شهادة بانتعاشها بحلب في عهد نور الدين محمود وأسرته.

أدخلت كثير من التحويرات على هذه المباني كما رممت عدة مرات بعد أن لحق بعضها الخراب وبدلت وظائفها واعتدى عليها سكان الجوار وأدخلوا بعضها أو أجزاء منها في عقاراتهم كما أن بعض الهيئات الرسمية قامت ببناء إضافات لأبنيتها الأصلية مما أذهب رونقها.

وسنقصر حديثنا في هذا المقال عن العمائر السلجوية الزنكية التالية وهي أهم ما بقي منها من هذه الفترة الإسلامية بحلب وسيتضمن حديثنا تاريخها ووصفه لحالتها الراهنة والتعديات التي لحقت بها[٣].

إن أهم العمائر السلجوقية الزنكية في حلب الإسلامية أو ما بقي منها ما يلي:

١ – الجامع الزموي خاصة مئذنته المربعة (الجامع الكبير أو جامع زكريا)

٢ – المدرسة الشرفية.

٣ – المطبخ العجمي.

٤ – جامع الشيخ معروف (المدرسة الشاذبختيه).

٥ – جامع الحلوية أو المدرسة الحلوية.

٦ – المدرسة المقدمية (مدرسة خان التتن فان البنين).

٧ – مسجد القلعة السفلي(الجامع الصغير ، مسجد ابراهيم).

٨ – البيمارستان النوري (البيمارستان العتيق).

ومن المفيد أن نقدم وصفاً لأهم المعالم

التاريخية السلجوقية الزنكية أو ما بقي منها في حلب لنقف على تقدم تلك العمارة في ذلك العصر:

١ - الجامع الكبير ومئذنته المربعة: يعتقد البعض أنه كان في موضع الجامع بستانًا يتبع المدرسة الحلوية التي تقوم قبالة الجامع اليوم، وعندما حرر المسلمون مدينة حلب صالحوا عليه وأقاموا الجامع الكبير بحلب في العهد . الأموي ، ويقال إني باني الجامع هو سليمان بن عبد الملك وجعله يضاهي الجامع الأموي الكبير بدمشق الذي بناه أخوه الخليفة الوليد، ويتحدث المؤرخون أنه كان يضاهي جامع دمشق مخططاً وزخرفةً وتأنقاً (٤). إلا أن الجامع تعرض للتخريب في العصور اللاحقة كما تعرضت زخارفه وحجارته للنقل إلى جامع الأنبار، على قول بعض المصادر، وعندما جاء سيف الدولة رمم الجامع إلا أنه مالبث أن تعرض للحريق على يد الامبراطور البيزنطي نقفور عام ٣١٥ هـ ، ولما عاد سيف الدولة من منفاه رمم بعض أجزاء الجامع من جديد ، وفي عام ٤٨٣ هـ قام القاضي أبو الحسن محمد بن يحي الخشاب بعمارة مأذنيه الجامع في عهد آقسنقر وذلك بصنعة حسن ابن معاذ السرميني طبقاً لما ذكره راغب الطباخ، مكان منارة قديمة كانت للجامع.

وفي عام ٥٦٤ هـ تعرض الجامع من جديد إلى حريق مع الأسواق المجاورة(٥). فأعاد بناءه وفق مخطط مربع بعد أن استفتى الفقيه علاء الدين أبا الفتح عبد الرحمن بن محمود الغزنوي نور الدين محمود الزنكي مما استلزم إضافة سوق البز إلى الجامع فاتسع به (٦). وفي عام ٦٧٩ هـ احترق الجامع من جديد على يد صاحب سيس ، وعندما تولى قراسنقر نيابة حلب أعاد عمارته بتولي القاضي شمس الدين بن صقر الحلبي وفرغ منه في رجب سنة ٦٨٤ هـ، ويقال إن الحائط الشمالي من القبلية الذي يلي الصحن كان أن ذلك من بقايا عمارة نور الدين. ويقول فلس (٧) إن بناء الجامع الحالي يرقى إلى العهد المملوكي باستثناء المنارة ، ويناؤه مثل هام من الأمثلة على الريازة السورية في الفترات الإسلامية المتعاقبة. أما منارة الجامع فهي من بناء حسن بن معاذ السرميني كما أسلفنا ، وتتألف من عدة أقسام يرقى إليها بدرج داخلي تزينها بعض الحليات المعمارية وعليها كتابات . يقول ابن الشحنة في الأعلاق (٨)ص ٣٤ إنه قرأ في تاريخ منتخب الدين يحيى بن أبي طي النجار أن منارة الجامع الكبير بحلب أسست في أول الأمر زمن سابق بن محمود بن صالح المرداسي على يد القاضي أبي الحسن بن الخشاب وكان عمرها رجل من سرمين وبلغ بأساساتها

الماء وعقد حجارتها بالكلاليب الحديدية والرصاص وأتمها في أيام قسيم الدولة آق سنقر، وطول هذه المنارة إلى الدرابزين، بذراع اليد سبعة وتسعون ذراعاً وعدد مراقيها مائة وأربع وستون درجة.

٢ - المدرسة الشرفية:

تقع المدرسة في محلة سويقة حاتم وبنيت في عام ٥١٧ هـ / ١٢٤٢ م وتنسب إلى شرف الدين أبي طالب عبد الرحمن بن الحسن بن عبد الرحمن الحلبي المعروف بابن العجمي (٤٨٠ هـ - ٥٦١ هـ) (٩)، لم يبق من عمارتها القديمة إلا المدخل والعقد ذي المتدليات والقبلية والمحراب. يتحدث الغزي عن المدرسة قائلاً: أنشأها الإمام شرف الدين ابن العجمي وصرف على عمارتها ما يزيد عن أربع مئة ألف دينار (١٠)، وينقل ابن شداد عن الذهبي. في وصفة للمدرسة قوله» هي حسنة مليحة غاية بالارتفاع وحسن البناء والصنعة بوابتها فريدة في بابها ومحرابها في غاية الإتقان ورخام أرضها محكم وبركتها من أعاجيب الدنيا عشرة أحجار مركبة في بعضها تركيباً غريباً ، وهي مبنية بالحجارة الهرقلة واسم معلم بنائها مكتوب على باب محرابها وهو أبو بكر النصيفة واسم النحات مكتوب على بابها واسمه أبو الثناء بن ياقوت». ويضيف أن عمارتها استغرقت أربعين عاماً وكان لها ثلاثة أدوار من الحلاوى المحكمة البناء والأبواب والخزائن (١١). قامت مديرية الأوقاف بحلب بإضافة أبنية إلى المدرسة ومخططها(١٢).

والمدرسة الوم مشغولة بالمكتبة الأحمدية التي تضم كثيراً من المخطوطات القديمة والكتب.

٣ - المطبخ العجمي:

يقع هذا البناء في منطقة المعروفة باسم «سويقة علي » قبالة خان الوزير ويعتقد البعض أنه كان في الأصل بقايا قصر يعود إلى القرن الثاني عشر الميلادي ، وجرى ترميمه في القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين ، ويميل البعض وعلى رأسهم سوفاجية بأنه كان يخص الملك العادل نور الدين ولعله القصر الوحيد في الشرق الإسلامي (١٣). يتألف البناء الحالي من قبة كبيرة تقوم على متدليات جصية ومن ثلاثة أو اوين مقطوعة ، ولكن البناء الحالي ناقص لأنه في عام ١٩٥٠ أقدمت بلدية حلب على فتح شارع خان الوزير أزالت قسماً منه. ثم قامت مديرية الآثار بترميم ما بقي من البناء. وجعلت له واجهه تتوسطها بوابة كبيرة. استخدم كمتحف مؤقت أثناء بناء المتحف الوطني الحديث، ثم استخدمت كمتحف للتقاليد الشعبية وعندما استكملت مديرية الآثار بيت اشقباس (اجقباش) نقل إليه المتحف

بسبب ارتفاع الرطوبة النسبية فيه، واليوم تقوم وزارة السياحة بترميمه أي ترميم بناء المطبخ العجمي وإعادة إحيائه ليستخدم في وظيفة سياحية قريبة من وظيفته الأولى وأضيفت إليه بعض الأجزاء التي يعتقد أنها اقتطعت منه سابقاً . لم يذكره الغزى في كتابه النهر، كذلك لم يذكره الطباخ في كتابه أعلام النبلاء ويبدو أن التعرف إليه جاء متأخراً عن زمن تأليف الكتابين المذكورين ويقول طلس نقلاً عن سوفاجيه أن الأخير اكتشفه في الأربعينات أثناء قيامه بإعداد قوائم لآثار حلب[14]، حالته اليوم جيدة.

٤ - جامع الشيخ معروف:

يعرف أيضاً بالمدرسة الشاذبختية التي يعود تاريخها إلى القرن الثالث عشر الميلادي . يقع في السوق المعروف بسوق الزرب . يذكر الغزي في كتابه النهر (٦٣/٢)، الطبعة الثانية[15] حول مسجد الشيخ معروف : محله في أواسط سوق الطرب (الزرب) بالصف المتجه شمالاً ، وهو ليس مسجد وإنما هو مدرسة كانت تعرف باسم الشاذبختيه نسبة إلى منشئها الأمير جمال الدين شاذبخت الذي كان نائباً عن نور الدين محمود بن زنكي.

بحلب ، ويعرف أحياناً باسم المدرسة العديمية نسبة إلى أحد مدرسيها من بني العديم وأما الشيخ معروف المنسوبة إليه في عصرنا فهو رجل يقول الناس عنه أنه أحد أبطال الفداوية ولم أر له ترجمة، وعلى وجه الأجهال فإن هذه المدرسة معطلة فيها بعض خلوات ولها قبلية في وسطها ضريح يعرف بضريح الشيخ معروف وتقام فيها حفلة ذكر على الطريقة البدوية بعد صلاة العصر يوم الجمعة ولها أربعة حوانيت في جوارها في سوق الضرب[16] يذكرها الشيخ راغب الطباخ في أعلام النبلاء في الجزء الأول بقوله : قال أبو ذر هذه المدرسة بدرب العدول وهو سوق النشابين أنشأها الأمير جمال الدين ومحرابها عجيب وبها ايوان وخلاو الفقهاء..

بنى بحلب مدرستين هذه والأخرى بظاهر حلب شمالاً وكانت تعرف بمشهد الزرازير ثم أن الدولة هدمته وأخذت حجارته لعمارة سور حلب . ويضيف الطباخ في نفس الجزء من كتابه نقلاً عن الدر المنتخب: هذه المدرسة أنشأها الأمير جمال الدين شاذبخت الخادم الهندي الأتابكي وأول من درس بها موفق الدين أبو الثناء محمود بن النحاس ثم عمر ابن العديم، قال ابن الشحنة : ولم يزل المدرسون ينتقلون بها إلى أن اتصلت إلى سيدي الوالد ومن بعده إلى بورود توقيع شريف باسمي بعرض الأمير سيف الدين قصره نائب حلب.. لجامع الشيخ معروف (المدرسة الشاذبختية) باب كبير تزينه من

الأعلى متدليات جميلة يغطي عقد السوق نصفه تقريباً ، لهذا الباب مصراعان وعليه مطرقتان حديديتان ويزين بيت الصلاة فيه محراب جميل يعد من أجمل محاريب حلب من الرخام يحف به عمودان من الرخام الأبيض وهو على نمط محرابي الفردوس والبهرامية، يوجد في أعلاه كتابة تنص « عمل أبي الرجاء عبد الله بني يحي رحمة الله ».

وتوجد على باب المدرسة كتابة تقول»

١ - بسم الله الرحمن الرحيم وقف هذه المدرسة على أصحاب الإمام.

٢ - الأعظم سراج الأمة أبي حنيفة رضي الله عنه في أيام.

٣ - الملك الظاهر غازي بن يوسف عز نصر العبد الفقير إلى رحمة.

٤ - ربه شاذبخت عتيق الملك العادل محمود بن زنكي في سنة تسعة وثمانين وخمسمائة (١٧).

للمدرسة أوقاف ينفق من ريعها على المدرسة منها خمس حوانيت في نفس السوق ونصف دار في محلة ساحة بزة وحانوتين أخرجهما المتولي عليها محمد رضا الخواجكي ويذكر الطباخ أن الخواجكي أيضاً عمر حجرتين صغيرتين عن يسار القبلية وعمر ثالثة كبيرة عن يمينها(١٨).

ويقول الريحاوي المدرسة الشاذبختية وتعرف اليوم بجامع الشيخ معروف مكانها في سوق الزرب ، بقي منها بابها ذي المقرنصات ومحرابها الجميل والشبيه بمحراب مدرسة الفردوس شيدت في عهد الملك الظاهر غازي عام ٥٨٩ هـ كما تشير الكتابة المنقوشة على بابها(١٩).

٥ - جامع الحلوية (المدرسة الحلوية):

تقع في المنطقة العقارية السابعة في محلة جب أسد الله وقد عمل لها جوبر مخططاً ونشره في مجلة المعهد الفرنسي للدراسات العربية بدمشق (م١١).

يقول البعض أنها كانت أصلاً كنيسة حلب العظمى شيدت في القرن الخامس ميلادي وعندما احتل الفرس شمالي سورية عام ٥٤٠ م هدموها ، ولكن الإمبراطورية البيزنطية جددتها في عهد الإمبراطور جيتنيان.

وفي عام ٥١٠ هـ / ١١٤٧ م حولت إلى مدرسة إسلامية ويلاحظ الزائر في الوقت الحاضر بقايا البناء من العهد البيزنطي خاصة الأعمدة الجميلة والتيجان المزينة بأوراق الأكانت البديعة. كما يوجد في الإيوان المواجه للمدخل مباشرة محراب خشبي جميل الصنعة يعود تاريخه إلى عام ٦٤٣ هـ/١٢٤٥ م أي إلى العهد الأيوبي زمن الملك صلاح الدين يوسف الثاني (٢٠). يتحدث الغزي في النهر (٢ / ١٦٧ -

١٧٠) عن هذه المدرسة قائلاً « ذكر في التاريخ أن هذه المدرسة كانت كنيسة عظيمة بنتها هيلانة أم قسطنطين وكانت معظمة عند النصارى ولم تزل كذلك إلى أن حاصر الإفرنج الصليبيون حلب عام ٥١٨ هـ وكانت بيد صاحب ماردين ايلغازي بن أرتق التركماني ، فعندما هرب منها بسبب حصار الإفرنج لها، قام بأمر البلد ومن فيه القاضي أبو حسن بن محمد بن يحي بن الخشاب ، فلما بلغه فظائع الإفرنج عمد إلى الحلوية فصيرها مسجداً عرف بمسجد السراجين، وعندما جاء نور الدين جدد إيوانها وبعض غرفها وجعلها مدرسة للتدريس على مذهب الإمام أبي حنيفة وأوقف عليها أوقافاً وكان الانتهاء من عمارتها عام ٥٤٤ هـ (٢١). يصفها الرحالة الأندلسي ابن جبير اثر زيارته لها ولمدينة حلب عام ٥٨٠ هـ قائلاً « ويتصل بالجامع الأموي من الجانب الغربي مدرسة للحنفية تناسب الجامع حسناً وإتقاناً فهما في الحسن روضة تجاوز أخرى ، وهذه المدرسة من أحفل ما شاهدناه في المدارس بناءً وغرابة صنعةً ومن أظرف ما يلحظ فيها أن جدارها القبلي مفتح كله بيوتاً وغرفاً لها طيقان يتصل بعضها ببعض وقد امتد بطول الجدار عريش كرم مثمر عنباً فحل لكل طاق من تلك الطيقان قسطها من العنب متدلياً أمامها فيمد الساكن فيها يده ويجتنيه متكئاً دون كلفة ولا مشقة(٢٢). وينقل الطباخ عن المنتخب المنسوب لأبن الشحنة (٢٣) «إن مبدأ عمارتها في سنة أربع وأربعين والصواب ثلاث وأربعين كما هو مكتوب على جدار بابها» وعندما أهمل شأن التدريس فيها في فترة من الفترات أهملت المدرسة وتداعت أبنيتها إلى الخراب في نهاية القرن التاسع عشر ، ولما تولى المدرسة الشيخ مصطفى بن الشيخ محمد طلس عقد العزم تعمير المدرسة وبدأ بذلك فعلاً إلا أن المنية أدركته عام ١٣١٥ هـ فخلفه في هذا العمل الجليل ولده الشيخ محمد إلى أن توفي عام ١٣٣٣ هـ، فقام بزمرها الشيخ عبد الوهاب طلس فتابع ما بداه السابقون إلى أن عمرت المدرسة وفرشت بالرخام وصار لها أوقاف كثيرة(٢٤). يصف الغزي(٢٥) المدرسة في زمانه بقوله :« هي الآن عمارة واسعة بابها موجه شرقاً كان مكتوباً عليه (بسم الله الرحمن الرحيم من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها) جدد هذه المدرسة البنية السعيدة المباركة وأنشأها مدرسة للفقهاء على مذهب الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه مولانا الأمير الاسفهلار الأجل السيد الكبير الملك العالم العارف العادل المجاهد المؤيد المنصور المظفر الأعز الكامل مؤيد الدين ومظهر الملة الإسلامية بسبقه صفي الأنام بنصره قسيم الدولة وعماد ما اختاره الأنام رضي الخلافة تاج الملوك والسلاطين وجلالها حافظ بلاد المسلمين شمس المعالي

وفلكها قاهر للمشركين وقامع الملحدين وقاتل الكفرة والمشركين.. أبو القاسم محمود بن زنكي بن آق سنقر ناصر أمير المؤمنين على يد عبد الصمد الطرسوسي الفقير إلى ربه تعالى في شوال سنة ٥٤٣ هـ . تضم المدرسة إيواناً في الجهة الشمالية طول فضائه تسعة أذرع وخمسة عشر قيراطاً وعرضه ستة أذرع وثلاثة عشر قيراطاً وفيه محراب خشبي جميل تحيط به كتابة تشير إلى انه يعود إلى العهد الأيوبي هذا نصها « بسم الله جدد هذا المحراب في أيام مولانا السلطان الملك الغازي المجاهد المرابط المؤيد المنصور الملك الناصر صلاح الدنيا والدين سلطان الإسلام والمسلمين منصف المظلومين من الظالمين رافعاً لسوية العدل في العالمين قامع الكفرة والملحدين أبي المظفر يوسف بن محمد ناصر أمير المؤمنين خلد الله ملكه وأعز أنصاره وأعلاه راتبه وأبان برهانه بولاية الفقير إلى رحمة الله تعالى، عمر بن أحمد بن هبة الله بن محمد بن أبي جرادة غفر الله له والوالديه ٦٤٣ هـ، وهناك كتابة أخرى تحت سقف المحراب تقول (صنعه أبي الجيش محمد بن الحراني) وتحته (نجارة العبد الفقير إلى رحمة ربه الله بن أحمد النجار..) وإلى الجنوب من الإيوان قبلية المدرسة تقوم فوقها قبة ترتكز على أربعة قناطر تحت قاعدة كل قنطرتين عمود من الرخام الأصفر البعاديني [٢٦] وفوقه قاعدة من الحجر الأحمر السماقي مؤزرة بازار رائع الصنعة في زاوية من زواياها دائرة داخلها صليب [٢٧].

ويذكر البعض أن اسم الحلاوية جاء من الحلوى التي كانت توزع في شهر شعبان من كل سنة أمام نور الدين زنكي [٢٨]. يوجد في أعلى الإيوان الذي يضم المحراب الخشبي كتابة يستدل منها على أن المدرسة رميت زمن السلطان العثماني محمد الرابع بن ابراهيم (١٠٥٨ - ١٠٩٩م) في أيام ولاية أبي النور محمد باشا نصها ما يلي» بسم الله الرحمن الرحيم.. جددت هذه المدرسة المباركة في أيام مولانا السلطان الأعظم والخاقان المكرم مالك رقاب الأمم سلطان العرب والعجم مولانا السلطان الغازي محمد خان ابن السلطان ابراهيم خان أعز الله أنصاره باشرة الدكتور المكرم المشير المضخم نظام العالم مدير أمور الجمهور بالرأي الصائب متمم مهام الأيام بالفكر الثاقب الوزير أبو النور محمد باشا حافظ الديار الحلبية حفظه الله سنة ١٠٧٠ هـ [٢٩].

المدرسة المقدمية :

تقع في محلة الجلوم ، وهي تعرف اليوم بمدرسة خان التوتون (التتن) لأنها تقع بالزقاق المعروف اليوم بزقاق خان التتن الذي كان يعرف قديماً باسم درب

الحطابين وبدرب ابن السلار [٣٠]. ويتحدث الغزي في النهر (٢ / ٥٧) [٣١] عن هذه المدرسة قائلاً أنها كانت إحدى كنائس حلب الأربع التي أخذها ابن الخشاب وحولها إلى مسجد ردا على العدوان الإفرنجي الصليبي على حلب، ثم حولها عز الدين عبد الملك المقدم إلى مدرسة، ويضيف بأن المدرسة الشرفية بنيت على مثالها، كملت المدرسة المقدمية عام ٥٦٤ هـ وكانت بداية عمارتها عام ٥٤٥ هـ ، على نجفة بابها كتابة هذا نصها .

« بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما وقفه تقريباً إلى الله تعالى في أيام الملك العادل محمود بن زنكي بن آق سنقر عز نصره الفقير إلى رحمة الله بن عبد الملك بن محمد في سنة ٥٦٤ فرحم الله من قرأه ودعا له بالمغفرة [٣٢].

يعتقد المؤرخون أن المدرسة المقدمية هي أقدم مدرسة بمدينة حلب الشهباء وثاني مدرسة بسوريا ، حيث أن أقدم مدرسة بسورية هي المدرسة التي أقيمت بالجامع الذي عرف بجامع مبرك الناقة في بصرى الشام عام ٥٣٠ هـ / ١١٣٦ م وتشتمل المدرسة على قبلية وحجرات في الجانب الغربي منها وهي مشرفة على الخراب لها صحن يبلغ طوله من الشمال إلى الجنوب (٤٣) ذراعاً وعرضها (٤٢) ذراعاً ، بها رواق جميل عليه نقوش بديعة وفيها مصلى يضم محراباً من الرخام ، كما يوجد حول الصحن غرف عديدة للطلاب. ويضيف الطباخ أن هذه المدرسة كانت أواوين لها خانقاه . باب المدرسة في الغرب لم يزل على حاله منذ عهد الواقف وفيه هندسة بديعة . ويصف المدرسة في زمانه بقوله : « إن باب المدرسة اخذ إلى الخراب ويحتاج إلى ترميم كما هو الحال في قبلتيها، والغرف الموجودة في أطرافها الثلاث تخربت ومكانها عرضه ما عدا حجرتين في الجانب الغربي وأما الخانقاه فلا أثر لها الآن وربما كانت في الجانب الشرقي من المدرسة [٣٣].

٧ - مسجد القلعة الصغير:

يسمى أحياناً بالمسجد أو الجامع السفلي وأحياناً أخرى جامع ابراهيم أو المقام الأسفل . يقع إلى اليسار الصاعد في القلعة بعد الحمام المعروف بحمام نور الدين، ويدخل إليه من الشارع الرئيسي بالقلعة . يتألف هذا المسجد من قبلية وصحن مكشوف يتوسطه بئر ماء، وفي الجانب الغربي منه توجد ثلاث غرف ربما كانت لإقامة الساهرين على خدمة الجامع، أما في الجانب الشمالي فتوجد بعض الأشجار . يقول راغب الطباخ نقلاً عن الهروي: « بقلعة حلب مقام كان موضعه كنيسة للنصارى إلى أيام بني مرداس، وكان فيه المذبح الذي قرب إبراهيم عليه السلام

فغيرت بعد ذلك وجعلت مسجداً ، وجدد عمارته نور الدين الشهيد ووقف عليه وقفاً ورتب فيه مدرساً بدرس الفقه على مذهب أبي حنيفة (٣٤) . ويصف الغزي في نهر الذهب هذا المسجد موجهاً كلامه للزائر قائلاً: «ويكون على يسارك باب المقام موجه شرقاً، وهذا الباب مركب من ثلاثة أحجار سود عضاوتين ويخف مكتوب عليه « أمر بعمارته الملك الصالح نور الدين أبو الفتح اسماعيل بن محمود زنكي بن أقسنقر ناصر أمير المؤمنين بتولي العبد شاذبخت في سنة ٥٧٥ ، فتنزل إلى هذا الباب بثلاث درجات وتدخل منه إلى صحن الجامع السماوي الذي يبلغ طوله ١٥ ع و ٢٠ ط وعرضه ٢٣ ع و ٤ ط .. وفي غربي هذا الصحن ثلاث حجرات.. ثم تدخل إلى القبلية وسقفها، في وسطه قبة عالية وفي وجهتها المتجهة شرقاً حجرة صغيرة في جهتها الجنوبية خزانة في أسفلها جرن مربع.. ومحراب هذه القبلية تجاه بابها وهو طبس بخشب فيه، بدائع النقوش وقد كتب في حواشي هذا التخشيب بالقلم الكوفي المزهر البسملة وآية الكرسي (٣٥) وهناك كتابات أثرية على واجهة القبلية وهي كتابات تتعلق بالأوقاف وراتب الإمام وراتب الإمام وراتب القائمين عليه. وقد كان هذا الجامع آيلاً للسقوط فقامت مديرية الآثار بتدعيم جدار القبلية الشمالي بواسطة دعائم خشبية ، ثم في مطلع السبعينات قامت بفك الجدران الآيلة للسقوط وأعيد بناؤها وجددت بطانتها الداخلية وأصبح المسجد في وضع جيد كما قامت المديرية نفسها مؤخراً بتنظيف الغرف الملحقة به وترميمها بعد أن كانت خربة ومملوءة بالبقايا . يذكر ابن شداد أن كان هناك مذبح لسيدنا ابراهيم عليه السلام به صخرة لطيفة تزار لا أثر لها اليوم ان إبراهيم الخليل كان يجلس عليها ثم أقيمت كنيسة فوق هذا المذبح ثم حولت الكنيسة إلى مسجد ولا يعرف متى تم ذلك على وجه الدقة (٣٦) .

٨ - البيمارستان النوري (المارستان النوري)؛

ويعرف بالبيمارستان العتيق لأنه الأقدم بين المارستانات التي ما تزال آثارها قائمة في حلب (٣٧) ، يقع في الجلوم بناءه الملك العادل نور الدين الشهيد نور الدين بن عماد الزنكي حوالي منتصف القرن الثاني عشر الميلادي، ثم جدد في العهد المملوكي في القرن الخامس عشر الميلادي، إلا أنه فيما بعد ترك وتهدم ولجأ الفقراء إلى السكن فيه وحولوه إلى مساكن بسيطة لهم، ولم يبق منه إلا واجهته التي تعد نادرة في العمارة الإسلامية فقد حافظ باب مدخله الرئيسي على مصراعيه الخشبيين بزخرفتها الجميلة . إن هناك بيمارستانات أقدم منها بيمارستان بني الدقاق

بيمارستان ابن خرخان ولكنها درست اليوم ولم يبق إلا البيمارستان النوري موضوع حديثنا والبيمارستان الأرغوني الكامل بحلب . اللذين يعودان إلى القرن الثاني عشر. منذ عدة أعوام اهتمت مديرية الآثار بصيانة هذا البيمارستان فأفرغته من سكانه وأزالت الأبنية الطفيلية منه وأعادت دراسة مخططة الذي وضعه السيد سوفاجيه [٣٨] وعملت له مخططاً جديداً يحمل إضافات جديدة١٩٦[٣٩]وإذا أردنا مقارنة مخططه مع مخطط البيمارستان النوري بدمشق الذي يعاصره نجد كثيراً من الشبه بينهما من حيث الأروقة والباحة السماوية وغيرها [٤٠]. يتحدث ابن الشحنة في كتابه الدر المنتخب عن هذا البيمارستان قائلاً « البيمارستان النوري بناء الملك العادل نور الدين محمود داخل باب أنطاكية بالقرب من سوق الهواء.[٤١] ويصفه الطباخ: هو لأن خراب لم يبق منه سوى بابه وجدران أطرافه يأوي إليه الفقراء ، ومن الغريب أن معتمد إيطاليا أدولف صولاً عمر فوق باب البيمارستان المذكور قنطرة جعل طرفها تحت أطراف قصر داره التي هي تجاه البيمارستان المذكور حفظاً للقصر وذلك منذ خمس عشرة سنة (قبل عصر ما كتبه الطباخ) وكان ذلك في ليلة واحدة ولم ينتبه أحد لذلك غير أن المتولي على البيمارستان رفع الأمر إلى الحكومة وإلى المجلس البلدي فلم يلتفت إليه أحد [٤٢] . ويصف الغزي في النهر هذا البيمارستان بقوله «البيمارستان النوري لصيق جامع البهرامية من الجنوب الشرقي .. توجد على نجفة بابه كتابه تشير أنه من عمارة نور الدين بتولى بن أبي الصعاليك ، وكانت فيه قاعة للنساء، مكتوب عليها عمر هذا. المكان في دولة السلطان صلاح الدين يوسف الثاني بن العزيز محمد بتولي أبي المعالي محمد بن عبد الرحمن بن عبد الرحيم ابن العجمي في شهر رمضان سنة ٦٥٥ هـ ، وعلى ايوان فيه أنه عمر في أيام الأشرف شعبان وأن هذا الإيوان وقاعة النساء الصيفية أنشأها سبط ابن السفاح وعلى الشباك الذي على بابه أنه أحدث عام ٨٤٠ هـ على يد الحاج محمد المارستاني وكانت قاعة المسيلين سماوية فسقفها القاضي شهاب الدين بن الزهري[٤٣] ويضيف الغزى القول إن البيمارستان في زمانه معطل : داخله خراب وقد صارت حجراته تلالاً ولم يبق منها إلا بعض حجرات متشعثة متوهنة يسكنها بعض العبيد الضعفاء وقد استولى بعض الناس على قطعة عظيمة من جهته الجنوبية وأدخلها في العمارة (البناء) المعروفة بالبانكة وقد ضاعت أوقافه [٤٤] مكتوب على بابه كتابة هذا نصها : (بسم الله الرحمن الرحيم . أمر بعمله المولى الملك العادل المجاهد المرابط الأعز الكامل صلاح

الدنيا والدين قيم الدولة رضي الخلافة تاج الملوك والسلاطين ناصر الحق بالبراهين محي العدل في العالمين قامع الملحدين قاتل الكفرة والمشركين أبو القاسم محمود بن زنكي بن آق سنقر ناصر أمير المؤمنين أدام الله دولته بمجد النبي وآله بتولي العبد الفقير إلى رحمة مولاه عتبة بن أسعد بن الموصلي (٤٥) .

الخاتمة :

إن الأبنية التي أتينا على وصفها التاريخي والمعماري إنما قامت لتكون مراكز دعوى للجهاد ضد الإفرنج الصليبين الذين أخذوا يغتصبون البلاد ويقيمون الممالك والقلاع قصد الاستيطان الدائم(٤٦) سيما وأن العهد السلجوقي الزنكي كان عهد الصحوة الإسلامية ضدهم فكان الجامع مركزاً للدعوة للجهاد حيث كان الخطباء يعظون الناس ويحثونهم على محاربة الكفار والتبرع بمالهم وإيقاف الأوقاف أو الالتحاق بكتائب الجهاد في سبيل الله ومن مات منهم فهو شهيد ، وفي المدرسة كان الطلاب يستمعون إلى دروسهم في الفقه واللغة والتاريخ والحساب ودروساً غيرها وكلها تحت الجهاد وتحرير الأرض ، فهي إذن مبان أقيمت بدافع ديني لغرض سياسي ومن هنا إقبال الأمراء وكبار التجار والعلماء والفقهاء على التعاون في سبيل تطوير تلك المؤسسات ومحاولة استمرار الحياة فيها عن طريق تخصيص الأوقاف في شكل أراضي ذات ريع أو مؤسسات إنتاجية كالطواحين مثلاً للاستفادة من ريعها، لقد قدمت هذه المؤسسات خدمات جمة للمجتمع الإسلامي التي عاشت فيه، ومن المؤسف أن تتراجع هذه المؤسسات وتتوقف عن أداء دورها بسبب الاستيلاء على أوقافها أو تراجع ريع تلك الأوقاف.

لم ينته دور هذه المؤسسات ، بالطبع مع انتهاء العصر الزنكي بل استمرت في العهد الأيوبي الذي كان امتداداً للعصرالزنكي وكذلك في العهد المملوكي ويبدو أن تراجعها كان بعد الخلاص من الخطر (الإفرنج الصليبيون) حين ساد السلم واسترخى الناس واتجهوا إلى الصراع الذي دب فيما بينهم وزاد الأمر تعقيداً جشع المولين على الأوقاف وسوء إدارتهم فقلت مواردها وبالتالي ضعفت وظيفتها وأخذت تتراجع يوماً بعد يوم فهجرها نزلاؤها من طلاب ومدرسين ومرضى وفقراء مما أدى إلى هجرها كلياً وتركها للنهب والاستيلاء أو تركت لعاديات الزمن لتصل إلى الحالة التي هي عليه اليوم. فهل من سبيل إلى إعادتها إلى حالتها الأولى؟.. أو إلى حالة شبيهة بالطبع يصعب ذلك كثيراً لأن بعض وظائفها تقوم بها مؤسسات كبيرة اليوم تستفيد من تقنيات العصر كالمستشفيات والمدارس الداخلية والجامعات والمعاهد

مثلاً ، ومنها ما تتفق عليه الدولة من موازنتها كالمستشفيات والمدارس والمساجد، كما أن إعادتها إلى حالتها الأولى غير اقتصادية فهي مكلفة جداً ولكن كل ما يتمناه مؤرخو العمارة والفن باعتقادي هو دراسة هذه المباني عمارة وزخرفة وتوثيقها ليستفيد منها دارسو تاريخ العمارة وليستلهم منها طلاب العمارة والفن موضوعات تنمي مواهبهم المعمارية والفنية ولتظل شاهداً حياً على تراث الأمة العربية الإسلامية في مضمار العمارة والفن في مدينة حلب الإسلامية . وتعتبر مدينة حلب الإسلامية من أجمل وأكمل المدن العربية الإسلامية أدت دورها عبر مئات السنين بكل كفاءة واقتدار فهي لا تزال تحافظ على مخططها العمراني القديم الذي يعود إلى الفترات السابقة للإسلام (المخطط الشطرنجي) وهي لا تزال تحافظ على الكثير من مكوناتها الإسلامية، فالزائر لمدينة حلب الذي يتجول في شوارع المدينة وأسواقها، خاصة في المدينة القديمة الإسلامية ، داخل الأسوار التي لا تزال بقاياها ماثلة للعيان ، ويذهب بعض علماء الآثار الإسلامية إلى القول بأن مدينة حلب لاتزال تحافظ على حياتها الإسلامية التي عاشتها عبر مراحلها الإسلامية فلا تزال الأبواب والقلعة والأسواق وغيرها من مكونات المدينة الإسلامية وتعتبر حلب في طليعة المدن الإسلامية فهي تأتي سابقة على مدينة القاهرة الإسلامية ودمشق والقدس وغيرها، لعل ذلك عائد إلى طغيان العمارة الحديثة وتأثيرها في تلك المدن كونها عواصم لبلدانها، أما القدس فلها خصوصية كون أن العدو الصهيوني يسعى إلى تغييب المعالم العربية الإسلامية وإن كانت عصبية عليها ، لتحويلها إلى مدينة يهودية لتسهيل فك ارتباط العرب المسلمين بالمدينة المقدسة . وعليه والحال هذه فإن الجهود الحثيثة لابد أن تكثف نحو الحفاظ على التراث الإسلامي المعماري والعمراني في حلب توثيقاً ودراسة لتظل شاهداً حياً على عظمة حلب الإسلامية وعلى عظمة الحضارة العربية الإسلامية وازدهارها صنواً للفكر وروح الأجيال الناشئة ولا شك أن ذلك من مسؤولية المؤسسات العلمية في الجامعات ، حكومية كانت أو خاصة ومسؤولية الإدارات المعنية بالحفاظ على التراث العمراني والمعماري والفني ودراسته ونشره ليستفيد منه كافة الناس خاصة الدارسين والباحثين والطلاب. وفي مقدمة تلك الإدارات المديرية العامة للآثار والمتاحف التابعة لوزارة الثقافة وبلدية حلب وكلية الهندسة المعمارية.

بعض المصادر والمراجع التي رجعنا إليها:

١ - ابن جبير: الرحلة. دار صادر ودار بيروت، بيروت ١٩٥٩.

٢ - ابن شداد: الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، مطبوعات المعهد الافرنسي للدراسات العربية بدمشق ١٩٥٢ عني بنشرة وتحقيقه دومنيك سورديل.

٣ - ابن العديم: زبدة الحلب في تاريخ حلب تحقيق سامي الدهان ج٢، ١٩٥٤، مطبوعات المعهد الافرنسي بدمشق.

٤ - ابن العديم: بغية الطلب في تاريخ حلب، تحقيق سهيل زكار، دمشق ١٩٨٨.

٥ - أسعد طلس: الآثار الإسلامية والتاريخية في حلب مطبوعات مديرية الآثار العامة في سورية، مطبعة الشرقي، ١٩٥٦.

٦ - راغب الطباخ: أعلام النبلاء في تاريخ حلب الشهباء ط٢ حلب ١٩٩١.

٧ - سبط بن العجمي: كنوز الذهب في تاريخ حلب، مخطوط في مكتبة الفاتيكان ودار الكتب الوطنية بالقاهرة، يجري الآن تحقيقة وقد انجز هذا العمل وطبع في حلب من قبل دار القلم العربي بحلب ١٩٩٦ - ١٩٩٧ بتحقيق الدكتور شوقي شعث وفالح بكور.

٨ - شوقي شعث: حلب تاريخها ومعالمها التاريخية جامعة حلب ١٩٩١.

٩ - عبد الله حجار: معالم حلب الأثرية جامعة حلب ١٩٩٠.

١٠ - عبد القادر ريحاوي: العمارة العربية الإسلامية خصائصها وآثارها في سورية ١٩٧٩.

١١ - الغزي كامل: نهر الذهب في تاريخ حلب قدم له وصححه وعلق عليه شوقي شعث ومحمود فاخوري وطبعه دار القلم العربي عام ١٩٩٢٣ ثلاثة أجزاء.

١٢- David J. claude, Alep dans la Syrie d,anjourdhui, paris, 1980.

١٣- Gaube H. und With E. Aleppo, Wiesdaden.1984.

١٤- HerzFeld E. lnscription et Monuments d,Alep caire, 1954 - 1955.

١٥- Sauvaget J. Alep. text et album, paris 1941.

الهوامش

(١) انظر ريحاوي عبد القادر: العمارة العربية الإسلامية خصائصها وآثارها في سورية، دمشق، ١٩٧٩ ص ١٠٠. ويذكر عبد الرحيم غالب في موسوعته المعروفة بموسوعة العمارة الإسلامية في مادة مقرنص، أن المقرنصات فارسية الأصل ومن هناك انتشرت في سائر بلاد الخلافة ويبقى مسجد الجمعة في أصفهان من أقدم وأروع الآثار المقرنصة والتي يعود تاريخها إلى القرن الخامس الهجري /

الحادي عشر الميلادي، وربما عادت أصولها إلى قرنين أو ثلاثة سبقت تأسيس مسجد الجمعة هذا كما تدل التنقيبات الأثرية التي جرت مؤخراً في نيسابور.

(٣) انظر ريحاوي عبد القادر : المصدر نفسه ص ١١٠ / ١٠١ ، ١٩٧٩ .

(٣) من أهم أسباب تهدم هذه العمائر نقص الموارد المالية التي كانت تأتيها من الأوقاف الخاصة بها حيث استولى المتولون على تلك الأوقاف بطريقة أو بأخرى على موارد الأوقاف.

(٤) الغزى كامل نهر الذهب ص ١٨٠، طلس الآثار الإسلامية ص ٤٣، ١٩٥٦ . ويقال إنه من بناء الوليد نفسه وإنه نقل إليه الحجارة من قورش (النبي هوري اليوم).

(٥) ابن العديم في الزبدة (٢ / ٣٣٠) تهدم جامع حلب الكبير مع كثيرة من بيوت المدينة وخرب خرابا شنيعاً نتيجة زلزلة حدثت عام ٥٦٥ هـ فاهتم نور الدين بعمارته.

(٦) ابن شداد : الاعلاق الخطيرة ج١ ق ١ ص ٢٢.

(٧) الآثار الإسلامية ص ٤٥ ، ١٩٥٦.

(٨) الإعلاق / ج١ ، ص ١٠ ص ٣٤.

(٩) هناك مدرستان تنسبان إلى شرف الدين أبي طالب عبد الرحمن هما : الشرفية الزجاجية التي تقع في الجلوم والشرفية التي تقع في سويقة حاتم . ويذكر طلس الآثار الإسلامية (٩١) أن الشيخ راغب الطباخ خلط بينهما وجعلها مدرسة واحدة في حين أنهما اثنتان ، إلا أن الشرفية الزجاجية التي في الجلوم درست ولم يبق لها أثر أما الشرفية التي في سويقة حاتم فلا تزال بقاياها قائمة والظاهر أن شرف الدين درس بالأولى وبنى الثانية .

(١٠) الغزي: النهر ج٢ ص ٢٠٢ ، ابن شداد الاعلاق الخطيرة ، ص ١٠٦ ، ج١ ق ١٠ دمشق ١٩٥٣.

(١١) الغزي : النهر ج٢ ، ص ٢٠٣ ، ١٩٩٢.

(١٢) كان ذلك زمن إدارة المرحوم يحيى الكيالي (الغزي النهر ج٢ ، ص ٢٠٤).

(١٣) طلس أسعد : الآثار الإسلامية ، ص ٦٨ ، ١٩٥٦.

(١٤) طلس أسعد : الآثار الإسلامية ، ص ١٢ ، ١٩٥٦.

(١٥) أعيدت طباعة كتاب نهر الذهب بأجزائه الثلاثة من قبل دار القلم العربي بحلب بضبط وتصحيح الدكتور شوقي شعث ومحمود فاخوري.

(١٦) طلس أسعد : الآثار الإسلامية ص ٤٢ - ص ٤٦ نقلاً عن الغزي في كتابه المشار إليه : الغزي : نهر الذهب، ص ٦٣ الطبعة الثانية.

(١٧) طلس : الآثار الإسلامية ص ٧٣ / ١٩٠٦/

(١٨) حول المدرسة الشاذبختية أنظر : كنوز الذهب لسبط بن العجمي الجزء الأول ص

٢٤٥ - ٢٤٧ دار القلم العربي ١٩٩٦ تحقيق الدكتور شوقي شعث وفالح بكور.

(١٩) ريحاوي عبد القادر : العمارة العربية الإسلامية خصائصها وآثارها في سورية ١٩٧٩ ص ١٤٢.

(٢٠) طلس أسعد : الآثار الإسلامية .. ص ٩٥ / ٦٠ ، ١٩٥٦.

(٢١) الغزي : النهر ٢ / ١٦٧ - ١٧٠ ط٢ دار القلم العربي بحلب ، ١٩٩٢.

(٢٢)ابن جبير: الرحلة عندما زار حلب عام ٥٨٠ هـ ، وقد أورد هذا الكلام طلس في كتابه الآثار الإسلامية والتاريخية ص ٦٠.

(٢٣) الطباخ : أعلام النبلاء ٢ نقل هذا الطباخ عن ابن الشحنة في كتابه الدر المنتخب ، وذكر ذلك طلس في كتابه الآثار الإسلامية ص ٦٠ .

(٢٤) الطباخ : نفس المصدر ونفس الصفحة.

(٢٥) الغزي : النهر (٢/ ١٦٧ وما بعدها) دار القلم العربي بحلب.

(٢٦) البعاديني : نسبة إلى قرية البعادين وهي قرية من قرى كان يستخرج من أراضيها الرخام الأصفر .

(٢٧) الغزي : النهر ٢ / ١٦٧ وما بعدها.

(٢٨) الغزي : النهر ٢ / ١٦٧ وما بعدها.

(٢٩) الغزي ، ج١ ، ص ١٧٢ ، ١٩٩٢دار القلم العربي بحلب.

(٣٠) طلس : الآثار الإسلامية ص ٦٧ ، ١٩٥٦

(٣١) الغزي النهر ، الجزء الثاني ، ص ٥٧ طبعة دار القلم بحلب ١٩٩٢.

(٣٢) كان للمدرسة أوقاف كثيرة من جملتها حصتان بقرية سعد الأنصاري التي أصبحت اليوم ضمن حلب وقد سميت بهذا الاسم لأن بها مشهد سعد الأنصاري ويعتقد أنه يضم رفات عبد الله الأنصاري المشهور اليوم باسم سعد الأنصاري

(٣٣) الطباخ : أعلام النبلاء ج ٤ ص ٥٠٩ - ٥١١ ، ط١.

ويذكر الريحاوي في كتابه العمارة الإسلامية في سورية ص ١٠٥ والذي يعتبر متأخراً عن الطباخ بأنه لم يبق من المدرسة إلا بابها وحرمها . هنالك رأي يذكره ابن الأثير مخالف لهذا الرأي حيث يذكر أن المدرسة الزجاجية هي أول مدرسة بنيت بحلب للشافعية ، ويؤيد هذا الرأي ابن الشحنة في كتابه الدار المنتخب،وابن شداد في كتابه الاعلاق الخطيرة وذكرها هزر قليد في كتاب جامع النقوش العربية (١٩٥٥) ص ٣٣٣ - ص ٢٣٦ ورقم النص الكتابي ١١١ عام ١٩٦٩، وكذلك ابن العجمي ٩٣ ، وسوفاجية ١٩٣١ رقم ١٨ انظر (جاويه حلب ، ص ٢٤٧).

(٣٤) الطباخ : أعلام النبلاء ج ٢ ص ٤٠٥ دار القلم العربي بحلب.

(٣٥) الغزي أنهر الذهب ج٢ ص ٣٢ و ٣٣ ، نقل هذا المحراب أبان فترة الانتداب الافرنسي ويذكر البعض أن أحد ضباط

الانتداب الافرنسي نقله إلى منزله بفرنسا عام ١٩٣٤.

(٣٦) ابن شداد : الاعلاق ج١ ق ١ ص ٢٩ - ص ٤٠.

(٣٧) يذكر الغزي في النهر ص ٤٥ الطبعة الثانية.

(٣٨) تعاونت الشرطة ، والأوقاف مع مديرية الآثار على إفراغ البيمارستان من سكانه إلا أن البيمارستان مخرب تخريباً كبيراً ويحتاج إلى نفقات كبيرة لترميمه وهذا ضروري لإحياء أكبر هامة إسلامية.

(٣٩) عملت المهندسة ، هدى الحريري مخططاً جديداً البيمارستان هو نفس مخطط سوفاجيه مع إضافات جديدة يمكن أن يطلع عليه الباحث في كتابنا حلب تاريخها ومعالمها التاريخية مطبوعات جامعة حلب.

(٤٠) انظر مخطط البيمارستان النوري بدمشق في كتاب الدكتور عبد القادر ريحاوي العمارة العربية الإسلامية خصائصها وآثارها في سورية ص ١١١.

(٤١) انظر ابن شداد الدار المنتخب.

(٤٢) الطباخ : أعلام النبلاء ج٢ ص ٦٨ الطبعة الثانية ١٩٨٨ . ويدل ما ذكره الطباخ على نفوذ البعثات الأجنبية لدى سورية في ذلك الوقت أي في أواخر العهد العثماني الذي كانت توصف فيه الدولة العثمانية بالرجل المريض.

(٤٣) الغزي : نهر الذهب ج٢ / ص ٥٣ ط دار القلم بحلب ، ١٩٩٢.

(٤٤) ينطبق هذا الحال على البيمارستان والخانقاهات فعندما ضاعت أوقافها تراجعت ثم توقفت فخرجت وقد أشرنا إلى ذلك في مكان آخر . ويذكر الغزي (٥٤) أن بعض أوقافه دخلت في أوقاف الجامع الكبير بحلب ومن أوقافه قرية معراتا ونصف وادي مزرعة العسل من جبل سمعان وخمسة أفدنة من مزرعة كفرنايا وثلث مزرعة الخالدي وطاحونها من المطبخ وثمن طاحون عربية ظاهر باب الجنان وثمانية أفدنة من مزرعة أبي مدايا من غراز وخمسة أفدنة بمزرعة لحميرة من المطبخ واثني عشر فداناً من مزرعة الغزل من المعرة وثلث قرية بيت راعل من غربيات بعشير بكاكين بسوق الهواء المعروف الآن بسوق الجمارك بحلب واحكار ظاهر باب انطاكية وباب الفرج وباب الجنان (انظر الطباخ الأعلام .. ج٢ ص ٦٨ الطبعة الثانية).

(٤٥) الغزي .. نهر الذهب .. ج٢ ص ٥٤ . ط٢ ، ١٩٩٢م . دار القلم العربي بحلب.

(٤٦) هذا يذكرنا بما تقوم به الصهيونية العالمية في فلسطين والجولان .غيرها من إقامة المستوطنات ولا شك أن مصير هذه المستوطنات الصهيونية سيكون كمصير المستوطنات الإفرنجية الصليبية في بلاد الشام.

الدراسات والبحوث

٢٠٤

خمسة أدباء مؤسسون من حلب الشهباء

د. خليل الموسى(*)

علينا أن نتذكر أولاً أنَّ مدينة حلب من المدن العربية القديمة، وقد عرفت في تاريخها الطويل عصوراً من الازدهار بحكم موقعها الجغرافي، فأنجبت عدداً كبيراً من العلماء والأدباء والشعراء اللامعين، ثمَّ كانت عاصمة لدولة بني حمدان، وكان بلاط سيف الدولة يعجّ بالشعراء الفحول، كالمتنبي شاغل الدنيا ومالئ الناس، وأبي فراس الحمداني، واللغويين كابن خالويه، والفلاسفة، كالفارابي، وسواهم، وحسبنا أن نشير هنا إلى أن المتنبي شاعر العرب عاش في كنف سيف الدولة زمناً، ونظم في بلاطه أجود روائعه، وظلّت هذه المدينة مركزاً للتجارة بين الشرق

(*) د. خليل الموسى: أديب وناقد وأكاديمي سوري.
- العمل الفني: الفنان طاهر البني.

والغرب زمناً ليس قصيراً، وكانت العلاقات التجاريةبين إيطاليا وحلب قائمة، فعرفت ازدهاراً تجارياً واقتصادياً وصناعيًا، إلى أن تمّ فتح قناة السويس في عصر الخديوي إسماعيل، فتأثرت بذلك تأثراً سلبياً، وحُوِّلت عنها الأنظار إلى ذلك المشروع الذي ربط الشرق بالغرب مباشرة.

ومع ذلك فقد بدأت النهضة في حلب قبل سواها من المدن العربية الأخرى، ويُذكر أنّ بطريرك الروم الملكيين أثناسيوس الرابع، وهو من آل دبّاس (١٦٨٥- ١٧٢٤م) سافر إلى بخارست عاصمة رومانيا، وجلب منها أول مطبعة عربية أُنتجت في الشرق كتباً بحروف عربية، وممن اشتُهر في هذا المجال من أبناء حلب الشمّاس عبد الله الزاخر (١٦٨٠- ١٧٤٨م)، وهو من رجال الصناعة في الحفر والنقش والتصوير، فأنشأ مع أخ له مطبعة في حلب. ثم سافر إلى دير ماريوحنا الصابغ، فأنشأ مطبعته الأثرية سنة ١٧٣٣م، وكلّ ما فيها من آلات وحروف ومسابك ومصفّات ومحابر ومكبس ونقوش وزخارف من صنع يده، فعرفت حلب المطبعة قبل أيّ مكان آخر في الوطن العربي، ثم كانت مطبعة الشوير في دير ماريوحنا الصائغ من صنع الشماس الحلبي، ثمّ انتشرت الطباعة بعد ذلك، ولذلك قال عبد الله يوركي حلاق في تقديمه لكتاب «أدباء حلب ذوو الأثر في القرن التاسع عشر: «وإنّه لمن دواعي فخارنا أن نقول: إنّ النهضة الأدبية التي بسمت في لبنان، وانتقلت إلى مصر، فنمت وازدهرت فيها، كان مبعثها من مدينة حلب الوادعة».

أنجبت مدينة حلب عدداً كبيراً من الأدباء والشعراء في القرن التاسع عشر ذكرهم قسطاكي الحمصي في كتابه «أدباء حلب ذوو الأثر»، ومنهم نصر الله طرابلسي، والشيخ حسن الغزّي، وأنطوان الصقال، ورزق الله حسّون، وجبرائيل الدلاّل، وعبد الله المراش، وفرنسيس المراش، ومريانا المراش، ومحمد أبو الهدى الصيّادي وسواهم، ويذكر أصحاب كتاب «أدباء من حلب في النصف الثاني من القرن العشرين» عدداً آخر من أدباء هذه المدينة، وهم من المعاصرين، ولذلك سنتوقف عند خمسة من الأدباء المؤسّسين من حلب الشهباء وهم:

أولاً: رزق الله حسّون الحلبي (١٨٢٥- ١٨٨٠م): رجل من رجالات النهضة العربية، صحافي وأديب، وأصله من الأرمن، ولد في حلب، تعلّم فيها، ثم قصد لبنان، فانتسب إلى دير بزمار في كسروان، فدرس علوم اللاهوت والرياضيات والطبيعيات، وأتقن الفرنسية والإنكليزية والتركية والأرمنية فضلاً عن العربية، سافر إلى باريس ولندن، فزار المتاحف والجامعات والمكتبات، ثم عرّج إلى مصر، فالآستانة، فأصدر فيها



جريدة «مرآة الأحوال» سنة ١٨٥٥، وهي أول جريدة عربية في العالم كلّه، وندّد فيها بأعمال الحكومة العثمانية في الولايات العربية، فلما عزم الباب العالي على إلقاء القبض عليه فرّ إلى روسيا، فأقام فيها عدّة أعوام يهاجم فيها سياسة الدولة العثمانية، وحاول أن يحصل- كما جاء في بعض المصادر- على مساعدة القيصر ألكسندر الثاني في إنشاء دولة عربية مستقلة، فخاب أمله، وارتحل إلى بلاد الإنكليز، فعاش بقية عمره في عاصمتهم لندن، وأسّس هناك أول جريدة عربية سنة ١٨٧٢ بعنوان (آل سام)، كان يرتّب حروفها ويطبعها في بيته في ضاحية (وندسور) القريبة من لندن، وقد حارب على صفحاتها استبداد الدولة العثمانية، ونادى بحرية العرب ونهضتهم، ثم استأنف عام ١٨٧٦ إصدار جريدته «مرآة الأحوال» لمحاربة الاستبداد العثماني، كما أصدر عام ١٨٦٨ نشرة أدبية بعنوان «رجوم وغساق إلى فارس الشدياق» صاحب جريدة الجوائب، بسبب الخصام الشديد الذي وقع فيما بينهما، وظلّ يعمل على نسخ المخطوطات العربية من مكتبات لندن وروسيا وفرنسا وألمانيا وهولندة ومصر إلى أن توفي في لندن، ويقال إنّ أحد جواسيس السلطان العثماني دسّ له السّمّ في الطعام.

ترك رزق الله حسون عدداً من الكتب، وهي «السيرة السيدية» و «المشمّرات» و«حسر اللثام»، كما ترك لنا ديوانين من الشعر، وهما:

١- النفثات: رسالة عرّبها نثراً ونظماً عن كريكوف شاعر الصقالبة، وتقع النفثات في قسمين، تضمن القسم الأول منها إحدى وأربعين قصة من قصص هذا الشاعر التي وضعها على طريقة كليلة ودمنة أو على طريقة لافونتين في حكاياته، والقسم الثاني يتضمّن نخبة من منظوماته في الوصف والمدائح والأغراض الأخرى، وقصيدة يعرّض فيها بأحمد فارس الشدياق، وطبع هذا الديوان في لندن عام ١٨٦٧م.

٢- أشعر الشعر: ديوان نظمه في «وندسور» سنة ١٨٦٩م، وهو يتضمّن ستة أسفار من التوراة أعاد نظمها، وقد طبع هذا الكتاب في المطبعة الأمريكية في بيروت سنة ١٨٧٠م.

والمهمّ في شاعرية رزق الله حسون أنه حاول أن يُعيد نظم الأسفار الدينية، وهذا موضوع جديد في عصره، ولا تكمن أهمية هذا الشاعر في ذلك وحسب، وإنّما هو أوّل شاعر حاول أن يثور على القافية الموحدة علانية، فقد صرّح بذلك في وقت متقدّم جداً ضمن مقدمة كتابه «أشعر الشعر» وقد اضطره، وهو ينظم «سفر أيوب» إلى أن يلجأ إلى الشعر المرسل، فكان سبّاقاً في هذا المجال تنظيراً وتطبيقاً، فثار على سلطة القافية، أو نبّه إلى إمكانية الخروج عليها في الشعر؛ فقال شارحاً منهجه في هذه المقدمة القصيرة: «وقد سنح لي أن أنظم الفصل الثامن عشر من سفر أيوب على أسلوب الشعر القديم بلا قافية (لأنَّ حدّ الشعر عندي نظم موزون وليست القافية تشترط فيه إلاّ لتحسينه، فقد كان الشعر شعراً قبل أن تعرف القافية، كما هو عند سائر الأمم، ولم يسمع للعرب بسبعة أبيات على قافية واحدة قبل امرئ القيس لأنّه أول من أحكم قوافيها»، ولا يعني عرضنا لهذا الأمر أننا نقف إلى جانبه في هذه القضية، لأن تجربة الشعر المرسل استمرت بعد حسون عند الزهاوي وأحمد زكي أبو شادي وسواهما، ولم تنجح، إلا إذا اعتبرناها مرحلة تحوّل إلى النظام المقطعي، فشعر التفعيلة. ثمّ إنّ كثيراً من الشعراء قد اشتكوا في النصف الأول من القرن العشرين من سلطة القافية الموحدة، ومنهم خليل مطران في تقديمه لقصيدته الطويلة «نيرون».

ثانياً: فرنسيس المرّاش: ولد في حلب في ٢٩ حزيران سنة ١٨٣٦، ومنهم من يؤرخ لولادته بعام ١٨٣٥، وتوفي فيها في أواسط سنة ١٨٧٣م، ومنهم من يؤرخ لوفاته بعام ١٨٧٤، ولكن الجميع متفقون على أنّه من أسرة نبغ أفرادها، فوالده فتح الله مراش، وأخوه عبد الله (١٨٣٩- ١٩٠٠)، وأخته الشاعرة مريانا (١٨٤٩- ١٩١٩)، ولكنّ فرنسيس كان أشهرهم، فهو رائد من رواد العلم والطب والفلسفة والأدب في حلب

الشهباء، وهو شاعر مجيد، أصيب بالحصبة في طفولته، فتركت آثارها السيئة في جسمه وبصره، ثم سافر مع والده إلى أوربة سنة ١٨٥٠، وعاد إلى حلب، فأقام فيها حتى سنة ١٨٥٣، ثم أقام سنة في بيروت مع والده، ولما عاد إلى حلب تعرّف إلى أحد الأطباء الإنكليز، ودرس على يديه مهنة الطبّ حتى أتقنها، ثم سافر إلى جامعة باريس سنة ١٨٦٦، ودخل كلية الطبّ لينال شهادتها، ولكنّه فقد بصره على الأرجح هناك، وكان قد فقد والديه، فحزن عليهما حزناً شديداً، وعاد إلى حلب ليعتزل الحياة والناس، وينصرف في أخريات أيامه إلى التأليف، فأصدر خلال مدة قصيرة لا تتجاوز ستة أعوام عشرة كتب فضلاً عن الرسائل والمقالات الكثيرة التي نشرها في المجلات.

مؤلفاته المطبوعة، هي:

١- المرآة الصّفيّة في المبادئ الطبيعية، حلب ١٨٦١م.

٢- تعزية المكروب وراحة المتعوب- حلب ١٨٦٤م.

٣- غابة الحق- حلب ١٨٦٥م. المطبعة المارونية وعلى نفقة إليان نقولا إليان الحلبي.

٤- مراثي إسحق حكيم (شعر)- المطبعة العمومية، بيروت، ١٨٦٦م.

٥- رحلة إلى باريس- بيروت ١٨٦٧م.

٦- مرآة الحسناء- شعر، مطبعة المعارف، بيروت، ١٨٧٢م.

٧- الكنوز الغنية في الرموز الميمونية (شعر)، بيروت ١٨٧٠م (قصيدة في ٥٠٠ بيت)

٨- مراثي شاهين سركيس، شعر، بيروت ١٨٧٠م.

٩- درّ الصَّدَف في غرائب الصُّدَف (رواية)، مطبعة المعارف، بيروت، ١٨٧٣م.

١٠- مشهد الأحوال، المطبعة الكلية، بيروت ١٨٨٣م.

١١- شهادة الطبيعة في وجود الله والشريعة، طبع في المطبعة الأمريكانية في بيروت.

بالرغم من أن حياة فرنسيس المراش كانت قصيرة، فهو لم يصل إلى الأربعين من عمره إلاّ أنه كان من أهمّ رجالات العرب المتنورين في زمنه، وقد اكتسب ثقافة واسعة في العلوم والمعارف والرياضيات والطبيعيات والآداب، وأتقن عدداً من اللغات، وفي مقدمتها الفرنسية والإيطالية، وكان معجباً إلى حدّ بعيد بالحضارة الفرنسية التي لاقت قبولاً وإعجاباً شديدين من معاصره رفاعة رافع الطهطاوي في مصر، ثمّ إنّه سافر إلى أوربة غير مرّة، وتعرّف العالم الجديد عن

كتب، فكان مؤمناً بالعقل إلى حدٍّ بعيد، فالعقل أهمّ أسس المساواة والحرية والديمقراطية، وآلمه ما كانت عليه بلاده من تخلف وجهل واستعباد واستبداد، فدان العبودية في شعره ونثره، ودعا إلى التمدن والحضارة، وبخاصة في كتابه «غابة الحق»، وهو رواية فلسفية تأثر فيها الكاتب بمبادئ الثورة الفرنسية، فثار فيها ضد العبودية والاستبداد، ودعا إلى ثورة العقل والحضارة، والرواية من ثمانية فصول هي: ١- الحلم ٢- الهواجس ٣- مملكة الروح ٤- السياسة والمملكة ٥- التمدن ٦- قواد الشر ٧- المحاكمة ٨- اليقظة، وقد ذهب الدكتور جابر عصفور في تقديمه ودراسته لطبعتها الجديدة إلى أنّها الرواية العربية الأولى، وهي تستهدف إيقاظ قومه العرب من غفلتهم، والمهم في ذلك أن الرواية تنتهي في الفصل الأخير «اليقظة» بالتبشير بعالم جديد نراه في هذه السطور التي تنتهي بها الرواية:

«وبينما كنتُ أردّد أفكاري في هذا المشهد الصامت، وأسرّح نواظري في هذه البيداء المجدبة، وإذا تلٌّ مرتفع يلوح لي فسرتُ إليه وصعدت على قمّته ووجهت وجهي إلى جهة المشرق، حيثما كان القفر يسبح تحت أعيني في تيّار الظلام. وإذ أصغيت بكلّيتي سمعت صوتاً يناديني من بعيد قائلاً (هذه برية الشهباء فلتبشر بقدوم الخير) فقلت في نفسي: من أين سيأتي الخير إلى هذه القفار المجدبة والساقطة من أعين العناية منذ ألف سنة فأكثر؟ إنّ في هذه البشرى ضرباً من المحال. ثمّ التفتُّ إلى جهة الغرب لعدم اهتمامي بماسمعته، وإذ مدٌّ من الاخضرار يتموّج من جانب الأفق وكأنّه يهمّ أن يتدفق على كلّ تلك الأقفار اليابسة، فشملني العجب للحال، وأخذت أشخص في هذا المظهر العجيب ذي الجمال الغريب، وبعد أن تفرست قليلاً سمعت صوتاً يدوي من خلال الغمام ويناديني قائلاً: (أبشري أبشري يا بريّة إرم القديمة، وافرحي وابتهجي يا شهباء سورية، فها هي العناية الملوكانية مقبلة إليك، والمراحم السلطانية هاجمة عليك، فلا عاد يفترسك المحل، أو يفتكُ بكِ الإهمال)..

كان أسلوب مرّاش طلياً سهلاً بعيداً عن التمحّل والتكلف والتقعير السائدة في كتابات عصره، وكان ينزع إلى الحرية في القول والتعبير.. أما شعره فهو كثير، وهو موزّع بين «مرآة الحسناء» ديوانه الشعري وسواه من كتبه، ولا سيما النثرية منها، ففي كتابيه «غابة الحقّ» و «مشهد الأحوال» صفحات من النظم، ومنها في كتاب «فرنسيس المرّاش» لحيدر حاج إسماعيل الصفحات الآتية من «مشهد الأحوال» (١٤٢- ١٤٦) و (١٨٣- ١٨٦)، وفي كتابه «غابة الحق»- عصفور الصفحات الآتية (١٠٥- ١٠٦) و (١٢٤- ١٣٥) و (١٤٣-

١٤٤) و (١٩١- ١٩٢) و (١٩٦- ٢٠٣) و (٢١٤) و (٢٦٤- ٢٦٥).

من جيد شعر المراش في المساواة بين البشر قوله:

صدقوني كلُّ الأنامِ سواءٌ
من ملوكٍ إلى رعاةِ البهائمْ
كلُّ نفسٍ لها سرورٌ وحزنٌ
لا تَني في ولائمٍ أو مآتمْ
كم أميرٍ في دَسْتِهِ بات يشقى
باله والأسيرُ في القيدِ ناعمْ
أصغرُ الخلقِ مثلُ أكبرها جر
مٌ لهذا وذا مزايا تلائمْ
هذهِ النملُ تستطيعُ الذي تَعْـ
جَزُ عن فعلهِ الأسودُ الضياغمْ
والخلايا للنحلِ أعجبُ صنعاً
من قصورِ الملوكِ ذاتِ الدعائمْ

وإذا اتخذنا مقولة «التناص» النقدية دليلاً أو منهجاً لنا، لقلنا إنّ قصيدة «الطين» الشهيرة لإيليا أبي ماضي ذات صلة وثيقة بما قاله المراش في الأبيات السابقة، بل هما قد تعودان إلى نسب واحد.

ومما قاله في العشق هذه الأبيات من قصيدة طويلة جاءت في «غابة الحق»:

ماذا ترى في العشقِ ماذا تزعم
يا أيُّها الصبُّ الكئيبُ المغرمُ
هل فيه غيرُ المؤلماتِ فدونَهُ
مُقَلٌ تسيلُ وأكبُدٌ تتضرّمُ
إنّي أضعتُ العمرَ في سوقِ الهوى
بخساً ولم أربح سوى ما يؤلمُ
أبكي لدى خطراتِ كلِّ تذكّرٍ
والأفقُ يعبس والكواكب تبسم
والليلُ بحرٌ هاجَ في عمقِ السما
فغدا به زُبَدُ المجرّةِ ينجمُ

ولذلك كان فرنسيس المراش في نثره وبعض نظمه من رواد الأدب الرومانسي في القرن التاسع عشر، ففي موضوعاته ثورة على العبودية والظلم، وفي أفكاره دعوات إلى المساواة والعدل، وفي أسلوب كتابته ميل إلى السهولة والبساطة والعفوية والتغيير.

ثالثاً: قسطاكي الحمصي (١٨٥٨-١٩٤١): ناقد وشاعر من أهل حلب مولداً ووفاة، وهو من أصل حمصي هاجر أحد جدوده إلى حلب في النصف الأول من القرن السادس عشر للميلاد، توفي والده يوسف وهو في الخامسة من عمره، فربّته والدته سوسان الدلال شقيقة الأديب الحلبي جبرائيل الدلال، فدرس في مدرسة الروم الكاثوليك مبادئ القراءة والكتابة، ثم انتقل إلى مدرسة الرهبان الفرنسيسكان، فدرس فيها الفرنسية والإيطالية والنحو،

ثمَّ انصرف، وهو شاب يافع، إلى ممارسة الأعمال التجارية والمصرفية، ونجح في تجارته، وسافر إلى فرنسا غير مرّة، كما زار بيروت ومصر والآستانة، وتعرف إلى أبرز أعلام النهضة العربية في بيروت ومصر، واشتُهر بصداقته لإبراهيم اليازجي، فتأثر به، وظلّ مخلصاً لهذا الصديق في حياته وبعد رحيله سنة ١٩٠٦، وبرزت مواهب الحمصي على صفحات مجلتي «الضياء» و «البيان»، وترك التجارة سنة ١٩٠٥ بعد أن جمع منها المال الوفير، وانصرف إلى الكتابة، وزيارة فرنسا وبريطانيا وإيطاليا ومصر، واهتمّ بعلوم العربية اهتماماً واسعاً إلى أن أصبح عضواً من أعضاء المجمع العلمي العربي بدمشق.

خلّف لناقسطاكي الحمصي عدداً من الكتب، وهي:

١- منهل الورّاد في علم الانتقاد (ثلاثة أجزاء)- وهو في النقد.

٢- السحر الحلال في شعر الدلاّل (في سيرة خاله جبرائيل الدلال).

٣- أدباء حلب ذوو الأثر في القرن التاسع عشر.

٤- ديوان شعر.

٥- أناشيد من العهد القديم.

يعد كتاب «منهل الوراد في علم الانتقاد» من الكتب النقدية العربية الهامة التي صدرت في مطلع القرن العشرين فقد صدر الجزآن الأول والثاني في سنة ١٩٠٧ عن مطبعة الأخبار بالفجالة القاهرة، وصدر الجزء الثالث عن مطبعة العصر الجديد في حلب سنة ١٩٣٥.

كتب قسطاكي مقدمة طويلة للجزء الأول من كتابه بيّن فيها فوائد النقد، بل أصبح النقد علم العصر، وشاع بين الفلاسفة والكتّاب والدارسين، حتى أصبح قسطاس العلوم والفنون، وقد أنفق الحمصي زمناً كبيراً في الإعداد لكتابه هذا، فقرأ لمعظم النقاد الفرنسيين، كسانت بوف، وتين، ورينان، وبرونتير، ولوميتر وسواهم، وهو مدين في هذا الكتاب العظيم لثقافته الفرنسية، لأنَّ القواعد التي وضعها مستقاة مما وصل إليه هؤلاء النقاد.

افتتح قسطاكي كتابه بفصل عن النقد عند العرب، بيّن فيه أن النقد العربي القديم محاولات أكثر منه نقداً علمياً دقيقاً. ثم عقد فصولاً عن تاريخ النقد الأدبي عند الأمم الأخرى في القديم والحديث، ثم انتهى إلى تعيين قواعد للنقد الأدبي، كما عقد فصولاً في موازنة الموضوعات الأدبية، فاستغرق ذلك قسماً من الجزء الأول وآخر من الجزء الثاني، ثم أكمل في الجزء الثالث ما فاته في الجزأين السابقين، فبحث في تعريف الأدب عند

العرب، كما بحث في فنّ الرواية والتجديد والتقليد، والإحساس والشعور، والوحي والاستلهام، والقريحة والذوق الحسن، وسوى ذلك، أما الفصل الأخير فقد أفرده للموازنة بين الكوميديا الإلهية لدانته ورسالة الغفران للمعري.

لا تقتصر أهمية هذا الكتاب على الموضوعات التي تناولها، وإنّما تكمن أهميته في القواعد والأحكام الكلية التي اشتمل عليها، وبيان أن النقد علم مستقل، وثمة شروط يشترطها على الناقد، كأن يكون صادقاً ونزيهاً وحيادياً ومختصاً ومنصفاً وبعيداً عن الغلو، وبالجملة كان هذا الكتاب من الكتب الهامة التي أسّست للنقد العربي الحديث في بلاد العرب قاطبة.

أما قسطاكي الحمصي شاعراً فهو من الشعراء المجيدين، بل هو يذهب في شعره إلى التجديد، بل هو ينزع إلى أن الشعر نزعة إلهية في الإنسان، ولذلك هو قريب من شعراء الرومانسية في هذا المجال، فقد قال في مقدمة ديوانه في وصف الشعر:

إخلعْ نعالَكَ يا كليمُ فأنت في
أرضٍ مقدّسةٍ بنفسٍ والهه
وإذا سمعتَ الشعرَ فانزَعْ ستْرَرا
سكِ خاشعاً فالشعرُ نطقُ الآلهه

ومما يدلّ على الفيض الشعري عند قسطاكي أنه نظم «أناشيد من العهد القديم»، في أخريات أيامه وهو شيخ متقدّم في السّن وفي سنة واحدة (١٩٤٠م)، فوضع تحت رسمه شيخاً هذين البيتين:

رسومُنا تَفْنى، وأجسامنا
تبلى، وهذي سنّةُ الكونْ
وليس يبقى غيرُ آثارنا
مَنْ لي بآثارٍ بها صَوْني

ووضع تحت رسم آخر له وهو شابٌّ هذين البيتين:

كلُّ مَنْ فوق هذي الأرض يفنى
وسيبقى الإلهُ ربُّ الجلالِ
ليسَ للمرء بعدَ دنياهُ إلاّ
ما أتاهُ من صالح الأعمال

ومن جيد شعره موضوعاً ولغة وسلاسة وتجربة ما أورده جبران النحاس في تقدمته للأناشيد، ومنها هذان المقطعان: الأول في حنينه إلى أولاده وهو بعيد عنهم:

أجرى ومن فرطِ سرو
ري رحتُ أجري أدمعي
أذكرهم وكم أقو لُ ليتهم كانوا معي
أشتاقُهم وإنَّهُمْ في ناظري ومسمعي
بل إنّ روحي عندهم
فهم معي بأجمعي

والمقطع الثاني في رثاء حفيد له:

كيفَ أمسيتَ يا حبيبي بعدي

أسريراً حللْتَ أم عرشَ مجدِ

يا رشيداً على حداثة سِنٍّ

ضاعَ مني من بعدِ بُعدِكَ رُشْدِي

كان بيتي من نورِ وجهكَ شمساً

منذ ما بِنْتَ أظلم الكونُ عندي

صوتُكَ العذبُ في فؤادي وفي أذ

ني ينادي لا تَبْعدِ اليوم جدّي

ويستحسن أن نخلص إلى القول في هذا الأديب المؤسّس بما قاله فيه الأديب المصري عادل الغضبان في تقديمه لهذه الأناشيد:

«أما صورته العلمية فتماثل صورته الروحية إشراقاً ولألاءً، فهو أديب عالم، وشاعر ناثر أنيق الأسلوب مثل أناقته في هندامه، شديد الغيرة على اللغة لا يتسامح فيها قيد شعرة، محافظ أتمّ المحافظة على تراثنا العلمي والأدبي، يصول صولة الأسد الهصور على كلّ شعوبيّ يتناوله بغمز قناة. وهو إلى هذا يُعدّ في طليعة المجدّدين الذين جاءت آثارهم مرآة للبيئة والعصر، ولكن في حدود سليقتنا العربية ومقوّمات كياننا العربي».

رابعاً: أورخان ميسر (١٩١٤- ١٩٦٥م): شاعر ومفكّر ومترجم، ولد في اسطنبول، وظلّ فيها حتى عام ١٩٢٨، ثمّ انتقل إلى حلب مع أهله، وكان أجداده قد نزحوا إليها من مكة المكرمة منذ ٨٥٠ عاماً، فدرس فيها الابتدائية، ثمّ مضى إلى عاليه يدرس الثانوية في «الجامعة الوطنية»، وقد تتلمذ على الناقد مارون عبود، وتأثّر به، ثم انتقل إلى الجامعة الأميركية ببيروت لدراسة الطبّ، ولكنّه درس فيما بعد الأدب والفيزياء، لينتقل إلى جامعة شيكاغو للدراسة، ليعود إلى حلب بعد وفاة والده ليشرف على أملاكه ويسهم في الحركة الوطنية ضدّ الاستعمار الفرنسي.

كان أورخان ميسر مثقّفاً ثقافة عالية، فقد زار عدداً من البلدان، وارتحل إلى أخرى وطاف فيها، وجال في عدد من اللغات، فكان يطالع بالفرنسية والتركية، ويترجم عن اللغة الإنكليزية ترجمة سحرت عارفيه. أما أسلوبه في العربية فيقترن شكله بمضمونه في سهولة وإيجاز مع الدنوّ من الأسلوب العلمي المليء بالأفكار، فهو أديب مفكر وعى البلاغة التي تعني الإيجاز فحسب، وهو يصوغ أفكاره على أسس علمية دون الاحتفال بالتنميق، ويعتمد أسلوبه على مرتكزين: الموضوعية المطلقة، والاستنتاج الرياضي في حدوده التجريدية المعروفة في الرياضيات، فضلاً عن أنّه كان ذا نشاط جمّ على الساحة الفكرية، فكانت داره ملتقى الأدباء والفنانين والأصدقاء، وقد تجمّع حوله عدد من النقاد والشعراء

والمفكرين، ومنهم تلميذه علي أحمد سعيد (أدونيس فيما بعد)، وصدر له في حياته كتابان بالعربية: «شوقي وعصره» و «سريال» بالاشتراك مع صديقه علي الناصر، وكتاب مترجم بعنوان «الرقص في أمريكا»، وكتاب بالانكليزية بعنوان «الإنسان تحت تأثير غدده» كما صدرت له ترجمة لكتاب بعنوان «التنمية القومية» من تأليف ديفيد كوشمان كوبل عن دار اليقظة العربية في القاهرة، وصدر له بعد وفاته كتاب بعنوان «مع قوافل الفكر»، وهو مجموعة مقالات كان قد نشرها في أماكن مختلفة، ثم صدرت عن اتحاد الكتاب العرب بدمشق بعد وفاته بتسع سنوات (١٩٧٤م).

أما شاعرية أورخان ميسر فهي تتجلى في مجموعته «سريال» التي صدرت في أواخر الأربعينيات بالاشتراك مع علي الناصر، وعلى الأرجح أنها صدرت بطبعة غفل من زمن الطباعة، ولذلك اختلف الدارسون حول تحديد زمن الصدور بين ١٩٤٦ و ١٩٤٧ و ١٩٤٨، ففي حين تذهب سلمى الخضراء الجيوسي إلى عام ١٩٤٦ يؤرّخ فاضل السباعي وأدونيس للمجموعة في عام ١٩٤٧، ويتفق محمد الزايد مع جمال الشحيد على العام ١٩٤٨ زمناً لصدور سريال.

ثمّ صدرت الطبعة الثانية عن اتحاد الكتاب العرب بدمشق (١٩٧٩)، وفيها أمران:

الأول خلّوها من اسم علي الناصر، والثاني إضافة عبارة (وقصائد أخرى) إلى عنوان (سريال)، وهذا يعني فضّ الشراكة الشعرية بعد وفاة الشاعرين.

والمهمّ في هذه المجموعة تأثر أورخان في شاعريته من رافدين كبيرين: الكتابات الجبرانية المفتوحة من جهة، والاطلاع على الثقافة العالمية، وخاصة الشعر السريالي منها، من جهة أخرى، ولذلك كان أورخان من المؤسّسين لقصيدة النثر في سورية والعالم العربي، ثم إنّه من الشعراء العرب القلائل الذين فهموا السريالية على حقيقتها وأخلصوا لها، فأورخان في «سريال وقصائد أخرى» سريالي بحق، وتتبدّى سرياليته في الانفتاح على عالم الداخل، ولذلك كان إهداؤه الديوان موفّقاً:

إلى هذه- الأنا- النهمة التي لا ترى
والتي دأبها إبداع مسوخ تقدّمها
لهيكلها المليء بالمسوخ...
لترقد بعد ذلك لحظة هنيئة
فيها استمتاع وفيها اطمئنان،
ستجمع بينهما قواها
لتخلق مسوخاً جديدة أخرى

يتجلّى الأسلوب الجبراني ممتزجاً

بأساليب السرياليين في مناخ سريالي صاف في قصائد ميسّر مفتوح على عالم اللاّشعور ضمن تكثيف مركز من الصور المتعانقة والمتشظية في آن معاً، ومن ذلك هذا المقطع:

أرقصي أيتها الشعلة،

وليعجّ فضاؤك بالأخيلة المرتعشة

إنّ الزمان، اللحظة في غفوة

ارقصي.. ارقصي

ارقصي قبل أن تهزأ يقظة الزمان

من حلمك الهزيل.

خامساً، خير الدين الأسدي (١٩٠٠-١٩٧٢م):

عالم وأديب وموسوعي ومحقق، ولد ونشأ وتوفي في حلب، وكان متصوفاً وشاعراً مجدّداً ومترجماً، وقد ترك لنا آثاراً هامة في هذه المجالات المختلفة، وأهمّها:

١- البيان والبديع- مطبعة العصر الجديد، حلب ١٩٣٦م.

٢- ليس، تح. خير الدين الأسدي، مكتبة العصر الجديد، حلب، ١٩٣٧م.

٣- السماء، تح. خير الدين الأسدي، المكتبة العصرية، حلب، ١٩٤٠م.

٤- عروج أبي العلاء، تأليف أويديك اسماقيان، تر. خير الدين الأسدي، مطبعة النهضة، حلب، ١٩٤٠م.

٥- أغاني القبة: نفحات صوفية، مطبعة الضاد، حلب، ١٩٥٠م.

٦- حلب: الجانب اللغوي من الكلمة، مطبعة الضاد، حلب، ١٩٥١م.

٧- ياليل، مطبعة الضاد، حلب، ١٩٥٧م.

٨- موسوعة حلب المقارنة (سبعة مجلدات)، أعدّها ووضع فهارسها محمد كمال، جامعة حلب، ١٩٨١م.

٩- أحياء حلب وأسواقها، تح. عبد الفتاح روّاس قلعه جي، وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٨٤م.

عمل خير الدين الأسدي في كتاباته الإبداعية، وبخاصة في كتابيه «أغاني القبّة» و «ياليل» على الأسلوب الجبراني الممتزج بالرؤى الصوفية التراثية، على نقيض أورخان ميسر مواطنه الذي عمل على الأسلوب الجبراني الممتزج بالصور السريالية الغربية، ومهّدا معاً لولادة الشاعر محمد الماغوط وسواه من شعراء قصيدة النثر في سورية، وأدان الأسدي في بيانه في مقدمة «أغاني القبّة» العقل من وجهة نظر المتصوفة، وحمّله تبعة التقصير في الولوج إلى عالم النفس الداخلي، وذهب إلى أن الوزن والقافية أداتان من أدوات العقل، وهما قيدان من قيوده الكثيرة التي تكبّل حرية المبدع، ولذلك طالب بتشويشه والالتجاء إلى العوالم الداخلية لكتابة قصيدة التجلّي والإشراق من خلال رؤية

صوفية ممتزجة بجسدية سافرة، ودعا إلى العودة إلى الثقافية الصوفية بصفتها مصدراً وينبوعاً للإبداع، وبيّن أن شعره إنتاج لوجد علويّ ونشوة روحية يفيض بهما اللاشعور المستعر، ويخنس الوعي، وهو نقيض الشعر الترابي المموّه الطاغي، شعر اليقظة، يجعجع للحطام، ويتردّى للمادة. وقال في «سورة الإشراق» مهاجماً العقل وما ينتجه من شعر:

(العقل، ما العقل؟ ماهذا الكائن الدهي؟

العقل حسير جبان، يتقلّب في مظلم الأحاسيس، ولا يجرؤ أبداً أن يقرع باب السَّر

العقل دلو من غربال، لا يمد عالمنا الإشراقي

ببلادة، وحسبه هواناً جرعة من خمر

الأرض تطوح به.

عوالم العقل كلها لا تلقي شعاعاً واحداً على هيكل الحقيقة العظمى. دعْ ذا وسَلْ قَبْلَهُ: هل

عرف العقل نفسه؟...

يحاول الأسدي في «أغاني القبّة» أن يقارب بين الحسيّ والمطلق، وبين الجسدي والروحي، ويحاول أن يصل إلى المطلق من خلال الحسّيّ، وإلى الروحي من خلال الجسدي، فيقول:

ارفعْني إلى مقام الغناء، الغناء في صمديتك

حتى إذا رآني خَلْقُكَ، قالوا، رأيناك

تحنان الروح، نوافح ريحان القلب،

مداد مصحف الحياة تستقبل فجر عمر جديد، مداه

مدى أبدية الله..

فإليَّ إليَّ، ضُمَّني ثم ضُمَّني،ضُمَّني وضيِّق

عليَّ العناق، حتى أكون أنا إيَّاك، وتكون

أنتَ إيايَ، وأفنى، وأفنى، وأفنى، وأفْ...

يذكّرنا هذا المقطع بكثير مما كتبه النفري والحلاّج والسهر وردي وابن عربي وسواهم من المتصوفة المسلمين...

وبعد فهذه وقفة قصيرة مع خمسة أدباء مؤسّسين من حلب الشهباء، وإذا ذُكرت حلب ذُكر معها الذوق الأصيل والغناء الرفيع والتعلّق بالتراث وهوى العروبة والوطنية والنضال ضدّ الدخلاء والمستعمرين، ولا يمنع ذلك كلّه في أن تكون هذه المدينة أيضاً في طليعة المدن العربية التي أنجبت المبدعين المجدّدين.

المصادر- والمراجع

١- أدباء حلب ذوو الأثر في القرن التاسع عشر، قسطاكي الحمصي، مطبعة الضاد، حلب.

٢- أدباء من حلب في النصف الثاني من القرن العشرين، مجموعة من الأدباء، دار الرضوان للطباعة والنشر، حلب، ٢٠٠٠م.

٣- أشعر الشعر، رزق الله حسون، المطبعة الأميركانية، بيروت. ١٨٧٠م.

٤- أغاني القبّة، خير الدين الأسدي، مطبعة الضاد، حلب، ١٩٥٠م.

٥- أناشيد من العهد القديم، قسطاكي الحمصي، هدية مجلة الكلمة، حلب، ١٩٧٣م.

٦- رواد النهضة الحديثة، مارون عبود، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٥٢م.

٧- سريال وقصائد أخرى، أورخان ميسر، اتحاد الكتّاب العرب، دمشق، ١٩٧٩م.

٨- غابة الحقّ، فرنسيس فتح الله المراش، تقديم ودراسة د. جابر عصفور، دار المدى للثقافة والنشر، دمشق، ٢٠٠١م.

٩- فرنسيس المراش، حيدر حاج إسماعيل، رياض الريس للكتب والنشر، ١٩٨٩م.

١٠- ملف خاص: أورخان ميسر بعد عشر سنوات: ألفة الإدلبي- سعد صائب- د. محمد الزائد، مجلة المعرفة، عدد ١٦٠، حزيران، ١٩٧٥م.

١١- منهل الورّاد في علم الانتقاد. قسطاكي الحمصي (الجزء الأول والجزء الثاني)، مطبعة الأخبار بالفجالة- القاهرة، ١٩٠٧م.

١٢- منهل الورّاد في علم الانتقاد. قسطاكي الحمصي (الجزء الثالث)، مطبعة العصر الجديد، حلب، ١٩٣٥م.

١٣- نظرتان في «سريال وقصائد أخرى». خليل الموسى، صحيفة الثورة، العدد ٥٠٩٠ الجمعة ١٩٧٩/٩/٢٨م.

❖ ❖ ❖

٢١٨

أسواق حلب العتيقة.. سفارة إلى العالمية

د. بغداد عبد المنعم(*)

حين يحاولُ البحثُ أنْ يذهبَ بعيداً في إحدى تكوينات العمارة العربية الإسلامية.. فإنَّ القولَ سيروحُ بعيداً أيضاً.. وسيكونُ الحصادُ الأعمقُ حين نلحظُ العمارةَ وهي تنحني لتغطيَ دوائرَ ومحاريبَ قيمٍ ومبادئ تداولَتْها فكراً وتجريباً الحضارةُ العربيةُ الإسلامية..

وحين نلتفتُ إلى هذه العمارة الرفيعة في مدينة حلب فسوف نشهدُ ذلك التكوينَ المدنيَّ الأساسي.. ذلك التكوينَ -القلب (سلسلة الأسواق المتواصلة) وكيف تكامَلَتْ عناصرُهُ المعمارية في منطقة التقاطع بين دائرة القيَم ودائرة التجارة ودائرة عالم أكثر اتساعاً..

(*) د. بغداد عبد المنعم: باحثة في التراث العربي، معهد التراث العربي حلب.
- العمل الفني: الفنان طاهر البني.

السوق-المدينة.. خصوصية حلبية

ربما كانت مدينةُ حلب المدينةُ الوحيدة في العالم التي أطلقَتْ على أسواقها اسم (المدينة) وكأن هذه الأسواق هي حقيقتُها وهي محورُ تفاعلاتها وعلاقاتها المجتمعية الداخلية والعالمية الخارجية.. وذلك باعتقادي ليس اجتهادًا بل هو حقيقةُ حلب المدنية والتجارية القديمة جدًا..

فالأسواقُ هي الخُلاصةُ التاريخيةُ لهذه المدينة ونبعُ علاقاتها.. هي شبكةٌ طويلةٌ من الأسواق المتواصلة والمتعامدة والمتوازية، والذي يرفِدُ بعضُها بعضًا وقد بقيت ترتبط بأهم تكوينات المدينة فتنفتح على القلعة عند باب سوق الزرب وتلتصق بالجهة القبلية للجامع الأموي الكبير ثم تنفتح عليه عند سوق الحلوية وبعد مسار طويل جدا تنفتحُ عند باب أنطاكية أحد أشهر الأبواب الباقية في المدينة..

الهوية الإسلامية في هذه الأسواق.. نقد العبور الاستشراقي

تتحقق في عمارة هذه الأسواق ما تحقق في مجمل العمارة الإسلامية المدنية فنظرًا لكونها تتمركزُ في التجمعات السكنية فإنها تنفتحُ إلى الداخل، وتلك من أوضح السمات في الهوية المعمارية الإسلامية أي سمة (الانفتاح على الداخل) فالمدينةُ الإسلامية عادةً مدينة متقاربة ومتجاورة بشدة في مجمل تكويناتها المعمارية، فالبيوت متلاصقةٌ جدارًا بجدار ومتعانقةٌ بابًا بباب وبرغمٍ من هذا التكتل الكثيف إلا أنَّ ثمةَ انفتاحات داخلية عبر الفناءات الملتحمة مباشرةً بسماء عالية وواسعة ومتفردة وتلك سمةٌ معمارية إسلامية تُلْمَسُ بقوة في عَمارة الأسواق، ففي الوقت الذي تنفتحُ فيه على بعضها ويُفضي أحدُها إلى الآخر فهي تنغلقُ معماريًا على الخارج الذي يصلُهُ بها تلك الأبواب الضخمة التي تُقفل في نهاية يومٍ من البيع والشراء والحياة فتغدو الأسواقُ بعد إغلاقها كتلةً معزولةً عن باقي فعاليات المدينة فلا تُشكل مجالاً لاختلاطاتٍ مع البيوت السكنية..

وبالرغم من أنَّ بعض المستشرقين الذين مروا بأبحاثهم بهذه العمارات الإسلامية اعتقدوا أنَّ بنية السوق الإسلامية قد أُخذَتْ من المدن الرومانية «فقد كانت الأسواق في المدن الرومانية تُقام حول الميدان Forum والمعابد والكنائس، ثم أُنشئتْ الدكاكين على جانبي الشوارع وشاعَ ذلك في العصر البيزنطي..»[1] غير أنَّ السوق الإسلامية تُعتبر مرحلةً متطورة على ذلك.. مرحلةً تسربَتْ فيها القيم الإسلامية في طريقة الإخراج المعماري كما تداخَلَتْ في عَصَب الوظيفية معطيةً بالنتيجة تخطيطًا مدنيًا إسلاميًا مرتبطًا بحياة المجتمع وحركته الشاملة.



وموضوعيًا ليس هناك عمارةٌ حضارية مستمرة بدأت من الصفر تمامًا، فقد أخذت هذه الأسواق بعض (الأشياء والعناصر) المعمارية والتي سبق وجودها في العمارة البيزنطية والرومانية وأدخلتها في رؤية تخطيطية وتشكيلٍ معماريٍ مختلف.. وذلك ما يؤسسُ لدعوة إلى نقد الرؤى الاستشراقية العابرة سريعًا في عمارتنا لا سيما ما ذكرهُ ستيرن [٢] وسوفاجيه من إحالتهم التكوينات المدنية الإسلامية مثل (الأسواق) إلى أصولها اليونانية!

غير أنَّ كتلةَ الأسواق العتيقة هذه بُنيت وتزايدتْ متلاصقةً ومنفتحةً على المسجد-الجامع الكبير (المسجد الأموي) في غربي حلب حيث تمتد مجموعةٌ من هذه الأسواق بشكل خطين متوازيين مع الجدار الجنوبي للجامع مثل سوق الحبال وسوق العتيقة وهي الكتلة الأقدم من الأسواق والتي يرجع تاريخها إلى القرن الخامس عشر الميلادي، والمجموعة الثانية هي الموازية لخان الجمرك.. وتنفتح دروب الأسواق الضيقة بأبواب مباشرة على الجامع.. وفي البعد المعماري تُلَحظُ التشكيلة الإسلامية في الهوية النهائية لها ففي حين يبتعد السقف باستمراريته الحميمة المسايرة لكل دروب

السوق ليشكل قبوًا حجريًا منفتحًا على الضوء والهواء بنوافذ خاصة صغيرة.. ومن ثمّ تلك الحنية السقفية المستمرة والمتعالية وتلك الواجهات المتشابهة للدكاكين بعقودها نصف القوسية وتلك العقود المتصالبة في لا نهايات السقف لتفصل سوق عن سوق.. تلك الحنيات والانفتاحات المحكمة هي شيءٌ من هوية إسلامية متفردة لهذا السوق تمنحه التمايز بين أسواق المدن الإسلامية ومدن الشرق الأوسط عمومًا..

فثمة شارعٌ رئيسٌ قديم شكَّل المحور الأول لهذه الأسواق ثم ما لبث أن تكاثفت حولها بالتوازي والتعامد مجموعاتٌ سوقية جديدة وتكررت نماذجها في المدن الإسلامية[3] وأمّا إدارة هذه الأسواق فتعتبر بحد ذاتها خصوصية وفرادة إسلامية فالإداري المسؤول هو في منصب أكثر من تجاري: إنه (المحتسب) ولئن كانت بدايات هذه الوظيفة هي ضبط بعض الأمور العامة مثل الأوزان والمكاييل ومحاربة الغش غير أنّها تطورت لاحقًا وارتبطت بالتعاليم الشرعية وحددت لها شروطٌ وواجبات، ونظرًا لتنامي الوظيفة التجارية في المدينة تناغمًا مع تنام حضاري في مختلف جوانب الحياة الإسلامية فإنّ المحتسب أصبح من أكبر موظفي الدولة والأكثر تأثيرًا في حركة المدينة العامة وذلك منذ القرن الحادي عشر الميلادي.

الهوية البيئية في عمارة الأسواق

بسبب من السقوف المقببة المتعالية.. وبسبب من الفتحات الصغيرة المتوالية في مركز هذا السقف.. وبسبب جوهري عائد للسماكات التي نفذت بها الجدران والسقوف، بسبب من كل ذلك تسود داخل السوق أجواءٌ لطيفة من الحرارة المعقولة وشيءٌ من النسائم المتسربة بروية وهدوء عبر النوافذ الذاهبة في نهايات قبو السقف الحجري.. حيث تمَّ وضع حد لتمادي لسعات الشمس الصيفية الحارقة جدًا في حلب.. مثلما لم يسمح لعبثية الأمطار الشتوية بالانسياب وسط البضائع وحركة السوق.. فهناك سوقٌ للهواء! سمي كذلك لأنه استثناءٌ من القاعدة.. وأية قاعدة هي إنها قاعدة السقف المتواصل في كلّ هذه الأسواق والاستثناء أنّ هذا السوق (سوق الهوا) بدون سقف فهو يقع بين باب أنطاكية وسوق البهرمية وهما مستقوفان ويسمى أيضًا سوق الصباغين كان فيه عدة مصابغ.. ويرجح أن تكون تلك المصابغ بروائحها وحركتها سببًا في الاستثناء عن السقف في السوق وذلك يحسب لصالح الحفاظ على البيئة العامة وبيئة الأسواق المترابطة..

تلك العمارة تصالحت وتفاوضت مع البيئة والطبيعة فتحركت الاثنتان معًا لتكون هذه المجموعة الفريدة بل النادرة مع تقاطعات الأسواق النوعية والشاملة بآن..

تكامل وتضافر التخصصات الأسواقية

على امتدادات متنوعة طولاً وتوازيًا، ومن ثم تلاقيًا أو تعامدًا.. على هذه الامتدادات التي بلغت حوالي العشرة كيلومترات انبثقت هذه الأسواق العتيقة والذي يعود شكلها المعماري الحالي إلى القرنين الخامس عشر والسادس عشر.. ولعلها تكاثرت منذ ذلك الزمن وارتدت أسماءها الموحية بحجم الحركة والتفاعل التجاري والتبادل الذي كان يحدث داخلها وفي خاناتها المرتبطة بها والتي شكَّلت في بعض الأحيان مقرات للقنصليات الأجنبية ذات المصالح التجارية..

فإن كانت بداية دخولنا من جهة القلعة فإنا سنكون أمام (باب الزرب) الباب المفضي إلى (سوق الزرب) أول سوق في خط طويل جداً متواصل يفضي في الجهة المقابلة إلى (باب أنطاكية) وأمَّا سوق الزرب[٤] فكانت وظيفته الأكثر أهميةً هي بيع أعواد تحبك بخيوط الشَّعر تكوِّن حاجزًا في بيوت الشعر، وحتى اليوم ما زال هذا السوق مختصًا ببيع حاجيات البدو والفلاحين القديمة-الجديدة.. ويلي هذا السوق (سوق العبي) أي العباءات ولعله تخصصٌ من سوق الزرب أيضًا، ثم يمتد هذا الطريق من الأسواق ليصبح أكثر إمتاعًا وأكثر روائحًا وعتقًا.. هنا (سوق العطارين) وهو غني عن التعريفات التقليدية والتي تناولت أدوراه التاريخية الصيدلانية والطبية الأعشابية.. لكنه ربما يتوق إلى تعريف حقيقي يقدمه في دائرة الضوء العالمية والتي أضحت تحتاج إلى الهويات الخاصة القادمة من عمق الروائح العائدة لآلاف المواد المصنفة والمسماة في دكاكين العطارين.. رائحة الزعتر الحلبي والذي يحضر مباشرةً من مواده الأولية.. من الزعتر البري المجفف ذي الرائحة الحادة المميزة ومن الشمرة واليانسون والكزبرة والكمون والملح والسمسم والسماق فلا شك أنَّ أسطورةً من الروائح ستنشر أخبارها في هذا المكان.. ثمَّ مجموعات الخيطان المعلقة في واجهات الدكاكين الحاملة لأوراق نباتية جافة وقد أكسبها التجفيف والتعتيق مشهداً أسطوريًا ومع ذلك فهو مشهد حقيقيٌّ جداً ينزرع فوق الخطوات الأولى لزمنٍ جديد هو القرن الحادي والعشرين.. هذا السوق (العطري) يحمل كلَّ أدواته الطبيعية غير الملوثة.. يحمل أعشابه الجبلية العالية وغاباته المصغَّرة وحيواناته البحرية بقواقعها وفسفورها القديم.. يحمل هذا السوق تلك العلب الخشبية الأسطوانية بأغطيتها الخشبية أيضًا وقد جثت بداخلها قبائل الأعشاب والبهارات والعطور إنه (سوق العطارين) في قلب الأسواق الحلبية العتيقة.. خلاصة (غير ملوثة) من الشرق إلى الغرب..

تستمر هذه السلسلة الأسواقية في أسمائها المحيِّرة فبعد العطور تكون في (سوق السقطية)[٥] فتختلف طبيعة الوظائف والروائح فيباع اللحم بأنواعه وتنطلق روائح تحضير الطعام المشهور في حلب فلا يكون بهذا الرائحة وبهذا العبق إلا هنا.. القصَّاب.. المخللاتي.. شوَّا اللحم.شوَّا المعاليق.. وقديمًا كان أيضًا طابخ النيفا.. الرَّوّاس.. تحضير المامونية.. لقد شكَّل هذا السوق قديمًا مطعمًا في وسط المدينة القديمة قريبًا من الخانات حيث يقيم المسافرون والأجانب.. إنه «سوقٌ فريد في العالم فكله مطاعم»[٦] ولعلنا ندرك ذلك التكامل الذي كان قائمًا بين (سوق الباطية) و(سوق السقطية) المتجاوران حيث كان يصنع في هذا السوق-المطعم الحلويات الحلبية الشهيرة (الكرابيج) وكان الناطف هو المادة السكرية البيضاء تغمس بها الكرابيج عند تناولها فكانت هذه المادة تحضَّر في (سوق الباطية) والباطية في حلب هي الحلة الكبيرة التي يطبخ بها الناطف.. لكن هذه الوظيفة (الحلوانية) لم تعد قائمة اليوم سواءً في سوق الباطية أوفي سوق السقطية..

تواجدت مع هذه الأسواق مجموعةٌ من التكوينات المعمارية المتممة للوظيفة التجارية مثل الخانات والقيساريات والسبلان والقساطل والمساجد، وتواجدت جميعها داخل حيز الأسواق بحيث أنتجت معًا تفاعلاً شكَّل بدوره مجموعةً من العلاقات التجارية -الاجتماعية منحت مدينة حلب طبيعتها المجتمعية المرتبطة منذ القديم بهذا التكوين القلبي منها..!

فمن هذه التكوينات المائية الرديفة (سبيل البهرمية) و(سبيل سوق الخابية) و(سبيل سوق العبي) و(قسطل خان الجمرك).. وقد فقدت هذه القساطل والسبلان وظيفتها المائية وهي تحتفظ بالقليل الذي تبقى من وجودها المعماري ما زال جاثمًا على الجدران خصوصًا الكتابات المحفورة في الحجر في أعلى السبيل وجوانبه..

أسواقٌ تحمل نكهة الآخر

داخل الطبيعة المتميزة لهذه الأسواق نلحظ نكهة الآخر القريب فثمة سوقان يعرفان باسم (سوق استانبول) وقد سميا بذلك لأنَّ بضائعهما كانت تجلب من هناك. وأمَّا القديم فهو الذي يقع بين سوق العطارين وسوق الجوخ، وأمَّا سوق (استانبول الجديد) فيقع بين الباب الكبير الجنوبي للجامع الكبير وزقاق وراء الجامع.. بالإضافة إلى (سوق خان استانبول) في غربي سويقة علي الذي كانت وظيفته تزويد سوقي استانبول القديم والجديد بالبضائع..

وليست النكهة التركية هي النكهة الأخرى الوحيدة في أسواق حلب، بل نستطيع أن نشهد وأن نستشف نكهات أخرى تقدمها بعفوية مباشرة تلك الأسماء: (خان البنادقة)! هؤلاء التجار القادمون من فينيسيا الإيطالية وجعلوا لهم مكانًا ثابتًا داخل الأسواق كان بمثابة سفارة لإيطاليا في حلب..

نحس بذلك الظل الآخر في أسواق أخرى كأن يحملُ سوقٌ في حلب وأسواقٌ في طهران واستانبول ذات الاسم وتباع فيهم نفس الطبيعة من البضائع، من ذلك (سوق بالستان) فثمة ثلاثة أسواق تحمل اسم (سوق بالستان) في المدن الثلاثة حلب وطهران واستانبول، وقد اجتهد الأسدي في موسوعته في تفسير معنى بالستان[٧] ومن تلك الأسواق أيضًا (سوق أصلان دده) وهو محرفٌ عن أرسلان دَدَه وبالتركية تعني الأسد الجد ولهذا الرجل حامل الاسم قبره ومسجده يقع بين سوق الصابون وسويقة حاتم.. وأمَّا (سوق الشام) فقد خصص لبيع منسوجات الشام المميزة فنكهته ليست بعيدة لكنها مختلفة! وتحول اليوم عن وظيفته التاريخية هذه إلى بيع الأقمشة الرخيصة والبطانات، وهو يقع جنوبي سوق السقطية..

التجاري والصناعي في هذه الأسواق

مع نهوض المدينة أضحت الوظيفتان التجارية والصناعية مرتبطتين ومتفاعلتين ولذلك فقد تجاورت الأسواق التي تردف بعضها صناعةً فتسويقًا وقد ذكرت هذه الملاحظة المصادر التاريخية فقد ذكر الشيزري «.. فقد كان التوجيه أن يجعل لأهل كل صنعةٍ منهم سوقًا تختص بهم وتعرف صناعتهم فيها فإنَّ ذلك لتضادهم أوفق ولصناعتهم أنفق»[٨] وانطلاقًا من واقع المشاهدة الحالية أيضًا فأنَّا نشهد مثلاً (سوق العلبية) ويقع إلى جنوبي سوق العطارين حيث كانت تباع فيه العلب الخشبية لسوق العطارين، وقد ذكر الأسدي أيضًا «وفي صدره خان العلبية يبيعهابالجملة»[٩] وإذن فالوظيفة التجارية تتواجد بكل مستوياتها بدءًا من تصنيعها ثم تخزينها بكمياتها الجملية في الخان ثم بيعها بالمفرق في السوق التالي ومن أمثلة هذه الأسواق التي تجمع الوظائف بدرجاتها (سوق القطن) و(سوق الفرايين) و(سوق الغزل) و(سوق الجوخ) فسوق القطن يقع بين سوق السراجين حتى منفذه في باب جامع العدلية وفيه يباع القطن والصوف إلى اليوم وسوق الفرايين ويقع شمال سوق القطن وكان «يباع فيه أيضًا أنواع الفرو لاسيما المجلوب من الخارج»[١٠].. وسوق الغزل يقع بين بانقوسا وسقرجق وكان سوقًا هامًا لبيع غزل القطن والصوف المصبوغ. وسوق الجوخ كان مخصصًا لبيع الجوخ وهو سوقان الجديد منهما في

جنوب سوق العطارين والقديم جنوبي الجديد..

وهكذا نلحظ كيف تخرج من سوق إلى آخر بكمله.. ومثلما تتكاثف بنية الأسواق كي تلبي الحاجات التجارية تتكاثف أيضًا أسماؤها الموحية بوظائفها القديمة والتي استمرت إلى هذا الوقت في كثير من الأحيان فهناك سوق السراجين وسوق الخيش وسوق القوافين وسوق الصاغة وسوق الباطية وسوق البالستان وسوق الصابون وسوق القصابية وسوق الدراع وسوق الشام وسوق الطرابيشية..

كان (سوق الصابون) من أسواق حلب المشهورة والمميزة عالميًا بتصنيع وتخزين وبيع الصابون تلك البضاعة الحلبية المشهورة ولعلها كذلك لأجل الغار الذي أضافوه إلى الصابون فتداخل فيه العطر الخاص وأضحى لهذا الصابون شهرته العالمية.. يقع هذا السوق جنوبي سوق بالستان فكان مركزًا لبيع الصابون بالمفرق ويتم تخزينه وبيعه بالجملة في خان الصابون.. أمّا اليوم فقد تحول مكان هذا السوق إلى بيع ألبسة وسوى ذلك..

سوقٌ للدهشة.. وسوقٌ للمرأة

وإن كانت قد قلّت الدهشات في هذا الزمن الجديد إلا أنّ لهذه الأسواق العتيقة الباقية أسرارها العذبة ودهشتها المبنية من الحجارة والبضائع.. إنه سوق الدهشة.. سوقٌ عريضٌ يرتفع إلى شمال سوق العبي قريبًا من سوق العطارين.. كانت بضائعه وهي عبارة عن ملابس للرجال والنساء جميلة جدًا بحيث تكون دومًا مثيرةً للدهشة!

لا تكتمل دهشتك المعاصرة إلا إذا دخلت إلى سوق (النسوان) فهذا السوق هو إلى اليوم مزدحمٌ بالبضائع والناس.. وأخذت بضائعه تختلط نوعًا ما مع بضائع حديثة خاصة بالنساء فتزدحم الأثواب البيضاء العرائسية بكثافة رهيبة وكذلك مهرجانات العقود والأقراط والتيجان الألماسية التي تلمع بشدة (فوق الدهشة).. كل حاجيات (النسوان) وهو حقًا (سوق النسوان) الذي يقع بين سوق استنبول الجديد وسوق العقادين.. هنا تشهد شيئًا من سحر قديم -جديد لكنه بقي منطبعًا بالخصوصية الإسلامية، فالحاجيات الخصوصية للمرأة تستحق وحدها سوقًا يستجيب لرغباتها الشرائية الخاصة ولضرورة أن يتم ذلك بشيء من الاستتار والحشمة..

أسواقٌ ومساجد

ثمة أسواقٌ لم تحمل اسم بضائعها أو

صناعتها بل حملت اسم المسجد الذي بقربها، ولعل لهذا الأمر دلالةً ما كامنةً في الأهمية الأعمق لوظيفة المسجد، ولعل معظم هذه الأسواق كانت وقفًا لمساجد حملت أسماءها من أمثلة هذه الأسواق (سوق البهرمية) وهو اسم جامع البهرمية المأخوذ من اسم باني الجامع بهرم باشا الذي يقع في هذا السوق غربي سوق الخضرية وكانت في هذا السوق صناعة وبيع الجزمات الرخيصة.. وسوق الحلوية المسمى باسم المدرسة الحلوية وأيضًا سوق الزكي باسم جامع الزكي..

وسوق الحلوية يقع إلى جانب المدرسة الحلوية أمام الباب الغربي للجامع الأموي مباشرةً وما زال إلى اليوم فيه دكاكين لبيع منتجات النجارة البدائية وإلى جانبه سوق الحدادين وتباع فيه أيضًا منتجات تصنيع الحديد بالشكل البدائي[11] مثل المسامير الكبيرة وصاجات القلي وكوانين وأسياخ الشوي وأشياء أخرى كثيرة تشكّل بحد ذاتها متحفًا عفويًا حيًا..

هل تتحقق سفارتها إلى العالمية؟

لو شئنا لأقرأنا العالم رسالتها فهي بعتقها العتيق ما زالت تضج بالأنفاس وبالحياة.. ما زالت تقوم بوظائف تجارية لكننا نضيف إليها اليوم وظيفتها الوجودية.. وظيفتها في تحقيق الخصوصية الخارجة والمتمردة على النظم المعمارية الحداثوية المسطحة المائلة إلى التضخيم الزائف في الارتفاعات وفي الأبعاد.. ترتكز سفارة هذه الأسواق على كلٍّ الزمن المخزن بصبر وجمال في حجارتها وفي عطارتها وأقمشتها وأدواتها وخوابيها.. بذلك الغربال الخشبي.. إنها تحتاج إلى تعريفات تقدمها للعالم.. تعريفات ترافقها على الأرض.. فهذه الأسواق-المتاحف العفوية الحية والفريدة تحتاج بلا شك إلى لمسة من تلك العنايات الحداثية كأن تحمل ممرات هذه الأسواق لوحات نحاسية كبيرة يكتب عليها تفاصيل الموجودات والمصنوعات وأسماءها المحلية وذلك باللغتين العربية والإنكليزية.. فثمة من سجل لوحة على وردة ليدلنا على اسمها وتصنيفها في تلك المدينة الأوروبية غير العتيقة جدًا!!

تخلّد هذه الأسواق المرتبطة بالقلعة هويةً مدنيةً لحلب فيها من الإسلامي الشيء الكثيف والعميق، وفيها من المحلية والخاصيات الحلبية الشيء اليومي والتفصيلي، وفيها من جماليات العمارة ما يكفي للسفر في تلك التواريخ البعيدة.. تلك هويةٌ مرموقةٌ وفريدة لهذه الكتلة المعمارية-الحياتية فهل نرسلها سريعًا أمام الضوء العالمي الجديد..؟؟

المراجع والحواشي

(١) د.محمد عبد الستار عثمان، المدينة الإسلامية. عالم المعرفة (١٢٨) آب ١٩٨٨ -المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب- الكويت، ص ٢٥٨.

2) S.M.stern. the consitutionof the Islamic city (intle Islamic city, oxford, 1970.

(٣) ذكر عبد الستار عثمان عن هذه الامتدادات على المحور الرئيس في مدينة القاهرة «.. لابد من تكثيف هذه الحوانيت في مناطق تجارية وأسواق موازية للشارع الأعظم، وهو ما نلحظه فيما يسمى (المربعات).. ويتخذ تكوين هذه المربعات أو (التربيعات) هيئة كتلة معمارية تضم مجموعة من الحوانيت ظهورها إلى الداخل، وتطل جميعها على الشوارع المحيطة بها من الجوانب الأربعة مقابلة أيضاً صفوفاً من الحوانيت على الجوانب الأخرى لهذه الشوارع» المدينة الإسلامية المصدر السابق ص٢٦٣.

(٤) الـزَّرب: ذكر الأسدي: أنَّ الزرب من مصطلحات المشتغلين بالحرير، أطلقوها على خيط الحرير الوسط، أما الأرفع فسموه (الخارق) والأخشن سموه (الخشن). موسوعة حلب المقارنة، خير الدين الأسدي. ط١ ١٩٨٨ -جامعة حلب- ج٤.

(٥) سمي بالسقطية: جمع السقطي: بائع سقط الذبيحة من كرشها ورأسها ومقادمها.. موسوعة حلب ج٤ ص ٢٦٢.

(٦) المصدر السابق، ج٤ ص٢٦٣.

(٧) بالستان «سوق بالستان تحريفٌ من بَستان الفارسية -من بَد أي الشيء الردي، بعدها ستان أداة الظرفية المكانية، أي محل بيع البضاعة الرديئة، يريدون الثياب المستعملة ونحوها..» موسوعة حلب، مصدر سابق ج٤ ص٤٢٢-٤٣٢.

(٨) الشيرزي، نهاية الرتبة ص ١٣ ص١١ والمدينة الإسلامية، مرجع سابق ص ٢٨٨.

(٩) خان العلبية الأسدي ص٤٢٥ج.

(١٠) سوق الفراءين موسوعة حلب ج ص٤٢٦.

(١١) تصنيع الحديد بالشكل البدائي ذكر الأسدي من مشاهداته التي سجلها في الموسوعة وهي تعود إلى أكثر من خمسين سنة بأنَّ تصنيع هذه الأدوات الحديدية ونحوها «بشكل ابتدائي بأن يضع قطعة الحديد بالكلور وينفخ على ناره بالكير حتى تحمى، ثم يطرقها على السندان» موسوعة حلب ج٤ ص ٤٢٤.

❖ ❖ ❖

فضاء المدينة في الرواية الحلبية

محمد عزّام(*)

جعل كثير من الروائيين الحلبيين مدينة حلب خلفية لأحداث رواياتهم كما فعل أديب النحوي الذي صوّر في رواياته البيئة الشعبية الحلبية في خمسينيات القرن العشرين وستينياته، ومثلما فعل فاضل السباعي الذي صوّر «الصعود» البورجوازي لأسرة حلبية في روايته (ثم أزهر الحزن)، وهنالك العجيلي، وأبو معتوق، ونهاد سيريس، ومأمون الجابري، وغيرهم.

(*) محمد عزّام: أديب وناقد سوري- رحل عن عالمنا مؤخراً، وهذه الدراسة من نتاجاته الأخيرة، التي خص بها المعرفة قبل رحيله.

(*) العمل الفني: الفنان خالد معاذ

وقد تعددت الاتجاهات الفنية في الرواية الحلبية، متأثرة في ذلك بالمؤثرات الوطنية في الرواية السورية، وبالمؤثرات العربية في الرواية العربية المتأثرة بدورها بالمؤثرات الأجنبية. ويمكن تلمّس هذه الاتجاهات الفنية في:

١ - الاتجاه التقليدي (الكلاسي): ويتجلّى في روايات فاضل السباعي، ومحمد أبو معتوق، ومأمون الجابري، وغيرهم.

ففاضل السباعي يصوّر في روايته (ثم أزهر الحزن) ١٩٦٣ ملامح المجتمع الحلبي في الخمسينيات، حيث تكافح أمٌّ بعد وفاة زوجها الذي ترك لها خمس بنات، وجنيناً في بطنها، فكافحت حتى وصلت بالأسرة إلى شاطئ الأمان، إذ تحولت إلى خيّاطة لكي تعيل أسرتها، بعد أن تخلى عمّ الفتيات عن مساعدتهن، وتضطر (نورا) كبرى الفتيات إلى ترك المدرسة لكي تساعد أمها، وتُخطب من قبل (عمر) الشاب الذي أسعد الأسرة إلى حين، ثم استشهد على الحدود في صدام مع العدو. فتُصاب (نورا) بمرض انتهى بها إلى الوفاة. وقد عمّقت هذه المآسي صبر الأم فلم تضعف. أما (هالة) راوية الرواية فقد ارتبطت بعلاقة حب مع الشاب الأرستقراطي (سمير) الذي وعدها بالزواج، ولكنه تخلّى عنها عندما سافر إلى باريس لإتمام دراسته العليا، فامتلأ قلبها ألماً وغيظاً، وقررت هي أيضاً أن تُكمل دراستها العليا، فيمّمت شطر القاهرة.

وقد انتقلت الأسرة من **(دار الأحزان)** إلى بيت جديد في حي حديث، رمزاً لبدء حياة جديدة وسعيدة، حيث تزوجت الفتيات، وتخرّج أخوهن **(علاء)** مهندساً، وعاد **(سمير)** من باريس ليقترن بهالة التي كانت في انتظاره. ويُسدل الستار على الحزن الذي أزهر ورداً وفلّاً.

وأما روايته **(رياح كانون)** ١٩٦٨ فتصوّر الرغبة في الصعود الطبقي من قبل بطلها **(رامي حسام الدين)** المحامي المولع بإلقاء المحاضرات، وبـ **(لبنى آل الأمير)** الشابة التي تدرس في الجامعة الأميركية، وتتسلّى بالتعليم في مدرسة خاصة، وبالكتابة أيضاً. وعندما طلبت منه تصحيح مسوّدة رواية كتبتها، رغب في الاقتران بها، فرفضته لكونها ابنة أمير وملّاك كبير ينتظر منصباً وزارياً، بينما **(رامي)** ابن قصبجي، ومن طبقة أدنى، وقد حاول التخلّي عن طبقته، وحتى عن اسمه فغيّره من **(محمد رامي قصبجي)** إلى **(رامي حسام الدين)**. ولكن كل محاولاته هذه باءت بالفشل، لأن الطبقة العليا لم تقبله بين صفوفها، وابنتها رفضته.

ويبدو بعض (التماهي) بين البطلة

(**هالة**) و (**الكاتب**): فكلاهما من مدينة واحدة، وكلاهما نشأ على حب الأدب، واغترف من الثقافة الحياتية، وكلاهما يحاول أن يجد لنفسه موطئ قدم في المجتمع. وكلاهما درس الحقوق في القاهرة. وعمل في المحاماة. ويمكن القول إن هذه الرواية تتطلع إلى رواية (**بداية ونهاية**) لنجيب محفوظ كمثل أعلى. فقد حاولت النسج على غرارها. وقد كتب عنها المستشرق (**جرمانوس**) مقالاً طريفاً نشره في مجلة (المعرفة) حزيران ١٩٦٥ رأى فيه أنها تشبه (قصة مدينتين) لديكنز. ووجد فيها كلمات لم يفهمها من مثل (إشارب، وتسريج، وطابور) فردّ عليه الكاتبُ بمقال نشره في المجلة نفسها، في عدد الشهر التالي.



وأما محمد أبو معتوق في روايته (جبل الهتافات الحزين) ١٩٩٢ فهي تصور صبيباً (عجروم) نشأ في أحد أحياء مدينة حلب، في مطلع الخمسينيات، حيث بداية النهوض الوطني، والصراع الذي كان ناشباً بين الأحزاب آنذاك. وفي هذا المحيط الاجتماعي نتعرّف على شخصية الصبي كواحد من البسطاء الذين تفاعلوا مع الحركات السياسية. في «حي التضامن» في مدينة حلب، حيث ينهض جبل النفايات الذي ألفهُ (عجروم)، لاسيما بعد أن أصبح يلتقي عنده الراعية (علياء)، مما جعله يتوحد فيه، ويلوذ به كلما ألمّ به أمر، ذلك أن كليهما :الجبل، وعجروم، وحيد وغريب. وعندما يختلي عجروم بجبله، ويعتلي ظهره، يُطلق (هتافاته) التي التقطها من أفواه الجماهير في مظاهراتها الصاخبة ضد المخططات الاستعمارية، ينفّس فيها عن كرهه للاستعمار، وإحساسه بالقهر في مجتمعه الذي يقمع رغباته، وأسرته التي

تتبرأ منه، في الوقت الذي كان فيه المجتمع يئن تحت سلطة القمع العسكري الانقلابي، وتبشّر فيه الأحزاب بالرفاهية، لتكسب التأييد في الانتخاب البرلمانية.

وعلى إثر (هتافاته) يُستدعى للتحقيق في مكتب «حماية الأنابيب» ويُزج به في السجن. ثم يلتحق بمعسكر للتدريب للتوجه نحو مصر للمشاركة في صدّ العدوان الثلاثي على بور سعيد.

وقد أخذت الرواية طابعاً سيرياً (بيوغرافياً) في تقديمها لشخصية (عجروم) المحورية، ورصدها لأفعاله وسلوكه. وهي تقدمه كشخصية عفوية تنساق خلف مشاعرها دون وعيها. وتهيمن الصيغة التقليدية على السرد الذي ينهض على لسان الراوي الشاهد بوساطة ضمير المتكلم الذي يكتفي بنقل الحكاية. ويحافظ (الكاتب) على عنصر التشويق من خلال مشاهد الوصف حيناً، والاستبطان النفسي أحياناً، كما يضع دعابته الساخرة التي تخفي إحساساً عميقاً بالحزن التراجيدي، وذلك عندما يتلاعب باللغة من خلال مقاصد مواربة في تحوير الأسماء والأفعال، كما في تسمياته: «مكتب حماية الأنابيب». و«وزارة الفحم والأنابيب»، «حزب القلعة»، و «تحت ظلال البراميل»، و«وزارة الميرة»....إلخ. وكما في وصفه لنهر (قويق) الذي كان يمرّ بمدينة حلب، فيسقي أهلها وبساتينها، فقد قال عنه: «ولكن الإمبراطورية التركية التي لا يغرب المرض عنها، قررت أن تقطعه من منابعه. فبقي المجرى وذهب النهر، والمجرى بحكم الضرورة والجناس تحوّل إلى مجارير عديدة» (ص ٤٠). وكما في مثل قوله: «فأخرج المفتاح من القفل، وقفل راجعاً، وقد أحس أن الدنيا أقفلت أبوابها في وجهه» (ص٣٠).

ويبدو (الراوي) وهو هنا (الكاتب) عالماً بكل شيء، متحكماً بشخصيات عالمه، محتكراً الحقيقة وحده. وعلى الرغم من أننا لا نلمس حضوره المباشر في الأحداث، فإنه يتدخل أحياناً في وصف الأمكنة والشخصيات، معلّقاً أو مبرزاً رؤيته الساخرة، كما في مثل قوله: «فلم يكن عجروم يُشاهد قرب تلّة الزبالة العظيمة إلا محني الظهر، وفي يده عود طويل. وهذا العود ضرورة من ضرورات العمل، توازي أهميته عصا الجنرال، أو عصا المايسترو وربما عصا موسى» (ص٢١).

وأما مأمون الجابري فقد وضع روايته (القلعة) التي تتصدر غلافها صورة قلعة حلب، وهي تصعد في الفضاء، وإلى جانبها مئذنة المسجد الأموي الكبير بحلب.

وتبدأ الرواية بصورتين بائستين من

صور الحياة الحلبية في مطلع الربع الأول من القرن العشرين: الأولى صورة الكلاب الضالة الشاردة وقد ملأت ما حول القلعة، مع حلول الظلام، وكأنما شعرت، بغريزتها، بما يُمارس من ضغط وإرهاب، فأخذت تطلق عواء شديداً. ولعلها الصور المشابهة في خاتمة الرواية لأولئك المناضلين الذين بذلوا حياتهم من أجل وطنهم فلم يفوزوا، في العهد الوطني، بعَظْمة.

وأما الصورة الثانية فهي صورة السجناء الوطنيين الذين اعتقلتهم القوات الفرنسية المستعمرة، في (خان اسطنبول)، حيث حشرت، في غرفة لا تتسع لخمسة أشخاص، أكثر من عشرين معتقلاً. وقد رُسمت على جدران الغرفة كتابات وأسماء مَنْ سبقوهم من المعتقلين الوطنيين، حيث كانت تدخل أفواج، وتخرج أفواج إلى الإفراج أو الإعدام.

والشخصيات في هذه الرواية، تنقسم إلى نوعين: شخصيات معادية، تتمثل في **(السرجان موريس)** الذي يقود مفرزة الإعدام، ويمارس الإرهاب على المواطنين. والعسكري السنغالي الأسود **(موكابي)** الذي يشمل المعتقلين بنظراته الحزينة ثم يغطّي هذا التعاطف بقهقهات عالية تطمئن رؤساءه ولكنه لم يستطع الاستمرار في هذه الازدواجية، فأظهر الحزن والألم على الوطنيين الذين كانت تذيقهم فرنسا مرّ العذاب، مما يلفت نظر رؤسائه، فأسرعوا باجتثاثه. وكانت عقوبته الإعدام! حيث نفّذوا فيه حكم الإعدام، في ساحة السجن، أمام المعتقلين«لم يكن منهاراً». بل كان شامخاً، رافعَ الرأس. قهقه وهو يصيح (فيف لا سنيغال). أوقفوه أمام الجدار، فبدأ يرقص رقصتهم التقليدية. ولكنهم قيّدوه، وعصبوا عينيه. اصطف جنودُ مفرزة الإعدام، وعلى رأسهم الكابتن، وبيده المسدس. يتجوّل، ويُلقي عباراته القذرة كيفما اتفق. وحين صرخ موكابي (آبالا فرانس) استشاط الحقير وأمر المفرزة بإطلاق الرصاص. استند إلى الجدار وكأنه لا يريد أن يسقط، والدماء تنفر من ثقوب في جسده. صورة لا أنساها. بقي هكذا ما يقارب نصف دقيقة، ثم هوى على وجهه، حيث عاجله السفاح بطلقة الخلاص» (ص ٥٢، ١٧٤).

وإذا كانت الشخصيات المعادية تمثّل (العامل المعاكس)، فإن الشخصيات الوطنية تمثل (العامل المساعد) وتتمثل في (**مختار بيك**) وأسرته، وأصدقائه. فأسرته تتألف من زوجته (**بهيّة**) آل البكري، ذات الحسب والنسب، وذات الجمال الرائع: ساحرة حين تغضب، فاتنة حين ترضى، تفيض إشراقاً، وتغدق عطاء كريماً. أحبها مَنْ حولها من أقارب وجيران ومعارف. وصدق مَنْ قال إن

الجمال آية تُتلى على الشفاه. ابنة عزّ ودلال، الابنة الصغرى لأحد كبار التجار المتعهدين في نهاية الحكم العثماني لسورية ، من أسرة آل البكري. وهي حفيدة لضابط كبير من التابعية العربية للجيش العثماني برتبة (ميرالاي) مشهود له بمواقفه المناهضة للظلم الصادر عن القيادة » (ص ٤٣). وابناه: (عماد)، و(وليد). ثم ابنته (رغداء). وتعيش هذه الأسرة في بيت مرتب ، جميل.

و(مختار بيك) مناضل وطني، دخل السجن مراراً بسبب مقاومته الاستعمار الفرنسي، وأُفرج عنه مراراً، مع زملائه في النضال: حامد ، وبشير، وغيرهما. في وقت خمدت فيه جذوة النضال المسلّح الذي قاده في محافظة حلب إبراهيم هنانو عندما قُبض عليه، وانتقلت المقاومة الوطنية إلى نضال سياسي.

وأما (عماد) الابن، فهو طالب في المرحلة الثانوية، قاد مظاهرة ضد المغتصب الفرنسي، فاعتُقل وضُرب بالسياط. ولكن صلات أبيه مع كبار القوم أنقذته. فنال (البكالوريا)وتهيأ لدخول الجامعة، ولكن أباه رغب في أن يدرس الطب بفرنسة، على الرغم من تكاليفها الباهظة. ولم تكن حالة أبيه المادية تسمح بذلك، ولأن فرنسة هي العدو اللدود، فقد فنّد مختار لابنه هذه الازدواجية: «يجب أن تفصل بين العلم والسياسة. فرنسة متطورة في هذا المجال» (ص١٨٣). وبالفعل فإن (عماد) يغادر إلى فرنسة، ثم يُعلم والده بأنه وُضع تحت الإشراف، وأنه لم يعد بحاجة إلى المال الذي يُرسله له أبوه، لأنه حصل على منحة من الدولة المضيفة، وقد ساعده في نيلها (المقدم شاكر)، فكانت غصّة في حلق مختار، لأن (المقدم شاكر) هو عدوّه/الصديق، أو صديقُه اللدود، لأنه «وطني» يخدم في جيش الاستعمار، ولأنه التقى بـ (بهية) في المظاهرة النسائية التي خرجت احتجاجاً على مظالم فرنسة. وحين فرّق الجنود المظاهرة، وتدافعت النساء هرباً، كان (شاكر) أحد الذين مدّوا يد المساعدة لـ (بهية) حين وقعت أرضاً، فساعدها على النهوض ، وأُعجب بجمالها الفتّان ، فأرسل أعوانه لمعرفة بيتها، وزوجها.

وأما (وليد) الابن الأصغر فقد رسب في صفه الأول الإعدادي، فأراده والده أن يدرس (الصناعة)، انطلاقاً من أن مستقبل الصناعة زاهر، وأن على الجيل أن يرفد هذا القطاع المهمل سابقاً بأيدٍ فتية ومثقفة. وعلى الرغم من أن (وليد) لم يكن يحب الصناعة، ولا يحب دروسها، فإنه قد كوّن فيها صداقات مع الطلاب والأساتذة، وبخاصة الأستاذ (عبد الفتاح) المهندس

المصري الذي كان يعلّم فيها، وقد أحبه طلابُه، لأنه كان يلوّن دروسه بالمرح على عادة المصريين.

وأما (**رغداء**) فهي في الأول الإعدادي، وهي أيضاً مناضلة وطنية كباقي أفراد أسرتها، فقد كتبت المنشورات ضد الفرنسيين بخط يدها، وطلبت من أخيها إلصاقها ليلاً على أبواب المدارس. ولكن الحارس الليلي قبض عليه متلبساً بالجرم المشهود، وقاده إلى المخفر.

ولعل أبرز الأحداث الوطنية هي إعدام الضابط الفرنسي عشرة وطنيين مكبّلين بالأغلال، رمياً بالرصاص، في ساحة سجن (**خان اسطنبول**) أمام عيون المعتقلين الآخرين. والمظاهرة النسائية التي خرجت ضد الفرنسيين، بعد أن عمّم النداء، وحدّد الزمان والمكان للتجمع، ومن ثم الانطلاق. وكانت (**بهية**) واحدة من المتحمسات اللواتي علت أصواتُهن بالهتاف ضد حكومة الانتداب. وكان الجنود يرافقون التظاهرة، ويراقبونها. وعندما ازداد الهياج، وشاركت في المظاهرة جماهيرُ الرجال، عمل الجنودُ على تفريق المظاهرة.

وعندما احتلت ألمانيا فرنسةَ في الحرب العالمية الثانية شكّل الديغوليون حكومة (فرنسة الحرة) في المنفى (انكلترة) على رأسها الجنرال **ديغول**. وفي عام ١٩٤١ دخلت الجيوش الإنكليزية سورية ومعها فرقة فرنسية ديغولية بقيادة الجنرال (**كاترو**)، فطردت الفيشيين الفرنسيين من سورية، وحلّت محلهم. وعندما أصبح (**كاترو**) مندوباً سامياً على سورية أعلن استقلال سورية، وتعيين الشيخ **تاج الحسيني** رئيساً للجمهورية السورية.

وقد رغب الكاتب في التوثيق وتسجيل الواقعي، مما أدى إلى ضمور المعادل الفني للواقع، فجاء بمعلومات تاريخية تفصيلية غائبة عن كثير من متتبعي الحركة الوطنية في سورية، مثل إصابة (**سعد الله الجابري**) بتشمّع الكبد نتيجة الصدمات السياسية وإصابة المجاهد الكبير (**إبراهيم هنانو**) بمرض السل أثناء اعتقاله من قبل الإنكليز بالقدس، ثم تسليمهم إياه للفرنسيين عام ١٩٢١ حيث قضى باقي حياته عام ١٩٣٥ في صراع مع المرض ومع المستعمر الفرنسي. كما أشار الكاتب إلى سلخ لواء الاسكندرونة عن جسم سورية وإلحاقه بتركيا عام ١٩٣٩ بمساعدة فرنسة. وإلى اغتيال الدكتور **عبد الرحمن الشهبندر** في عام ١٩٤٠، وإلى المحامي(**فتح الله الصقّال**) الذي دافع عن(**إبراهيم هنانو**)، فأنقذه من حبل المشنقة.

وقد كبر «العيال»، فشبّ **عماد ووليد**

ورغداء. واستلموا مواقع قيادية في النضال الاجتماعي التالي، بعد أن نعمت بلادهم بنعمة **الاستقلال** التي وفّرها لهم الجيل السابق. فيبلغ **(وليد)** **الثانيةوالعشرين**، وحاز شهادتين، وانتسب إلى سلك التعليم ، وزوّجته أمه. لكن أباه رفض حضور حفل الزفاف، لأنه بات يرى نفسه على هامش الحياة، فنفر من أولاده وزوجته، واعتزل في القرية.

وفي مرحلة **الاستقلال الوطني** انشقّت (الكتلة الوطنية)، وتشكّل منها (حزب الشعب) الذي ترأسه (**رشدي الكيخيا**). وفي عام ١٩٤٧ توفي (**سعد الله الجابري**) فانهار (الحزب الوطني)، ونمت أحزاب شابة اجتماعية جديدة يسارية. وفي عام ١٩٤٨ تجدّدت رئاسة شكري القوتلي، رئيساً للجمهورية، لمدة رئاسية ثانية. وقامت المظاهرات ضد الأخطاء الإدارية، وضد تقسيم فلسطين، وضد تعديل الدستور لصالح رئيس الجمهورية، ويُعتقل ((**وليد**)) في إحداها، فيُضرب . ويُهان . وعندما يتوسل له أبوه لإنقاذه يجد أمامه غريمه/الصديق (**المقدم شاكر**) الذي كان (رئيساً) في الجيش الفرنسي، فأصبح (مقدماً) في الجيش الوطني ، فأفرج عنه. ولكن الأب لم يرتح لهذه الأريحية التي تخفي شيئاً وراء الأكمة.

و (**خيبة الأمل**) التي عاناها (**مختار**) وجيله هي أنهم قاتلوا المستعمر بأرواحهم ودمائهم وأموالهم، ثم خرجوا من المولد بلا حمّص، فلم يستفيدوا شيئاً من الاستقلال الذي صنعوه، ووثبت على المكاسب حفنة من العسكريين الذين كانوا ذنباً للمستعمر أثناء وجوده، ثم أصبحوا (سادة) البلاد بعد رحيله ويمثلهم (**المقدّم شاكر**).مما جعل (**مختار**)ممثل المناضلين الوطنيين المنسيين، يعتزل في بيته، ثم في القرية وهو يشهد الأخطاء التي يرتكبها جيل الاستقلال من أجل جني الفوائد الشخصية. وزاد في عزلته بوادر ضعفه وشيخوخته وإحساسه بفارق السن بينه وبين زوجته التي تألقت في أوج نضجها، بينما تهاوى هو في العجز والشيخوخة، فانسحب من الحياة، وهجر بيته وأولاده، يجترّ آلامه وذكرياته. ومن المؤسف أن رفاق نضاله بدأوا ينسحبون مثله، ويموتون قهراً أو مرضاً أو نسياناً.

وقد أكّد الكاتب أن «لكل مرحلة ربابنة، سياسيين وقياديين. وأن السياسيين والقياديين القدامى يتحجّرون عند حدود مبادئهم وأفكارهم القديمة التي كانوا عليها، ولا يقبلون النظر في الواقع إلا من خلالها. وهكذا لا يبقى لديهم أي استعداد للتطور والتجديد. وإن وقوفهم بأفكارهم ونظرياتهم ووسائلهم القيادية عد حدود معيّنة لا يحيدون عنها، يكسبهم - بجدارة-

صفة الرجعية، ولهذا يجب أن تحلّ محلهم قيادة جديدة تتمتع بالمرونة ومسايرة المتغيرات» (ص١٤٥).

ومثلما فعل (**مختار**) فعل صديقه في النضال **أبو عبدو** (**العكيد**) الذي لم يقبل الذّل في العهدين، فقد سُجن عدة مرات، مع مختار في (**خان اسطنبول**) في العهد **الاستعماري**، ثم سُجن في العهد الوطني. فطلّق زوجته، واعتزل مع مختار في القرية، يجترّان ذكرياتهما في المقاومة والنضال والشباب.

ثم جاءت القشّة التي قصمت ظهر البعير، وذلك حين أصدرت الحكومة (قانون الإصلاح الزراعي)، وجرّدت المالكين من أراضيهم، ومن جملتهم (**مختار**) الذي لم يحتمل الصدمة، فأسلم الروح.

ويبدو أن الكاتب أراد أن يجعل من (**بهية**) زوجة مختار رمزاً للمدينة، وللوطن بأجمعه، فجعل الثقة بينهما تهتز بسبب فارق السن بينهما: فقد كان «وضعه الصحي يتردّى من سيّئ إلى أسوأ. وبهيّة ما زالت شابة فتية. إنها بحاجة إلى رجل شاب قوي لإشباع حاجاتها الجسدية» (ص٢٠٢)، فصار (**مختار**) يخاف جسدها الثائر، وفقد الثقة بها. ولكن خوفه لم يكن له مبرّر. فالسيدة ذات حسب، ونسبها سيردعها عن الوقوع في الخطيئة، ثم إن شكوكه في (**المقدم شاكر**) لا مبرر لها أيضاً إذ إن هذا لم يرها إلا مرة واحدة في المظاهرة النسائية، حين ساعدها على النهوض من عثرتها.

ولكن (**المقدم شاكر**) الذي أصبح (**عميداً**) في العهد الوطني، وحاكماً لمدينة حلب، هو الذي ينبغي أن يفوز بـ (**بهيّة** التي تمثل (**القلعة، والوطن**)، وكان على مختار أن يموت، ليتسلمها مَنْ هو أقوى منه؛ (**العميد شاكر**) ذو الفتوة والسلطان، الذي احتل «القلعة» **بعد مختار، أي أنه تزوّج (بهيّة**) بعد موت (مختار)، وقطف **ثمار النصر** الذي صنعه المناضلون الذين همّشوا أنفسهم في العهد الوطني، أو همّشهم العهد الجديد. **لقد احتُلّت** «القلعة» من قبل الانتهازيين والناقمين على الجيل الأبوي الذي أصبح يمثّل القمع وكبت الحرية للجيل الجديد. ولهذا فإن (**مختاراً**) وأمثاله لم يعد لهم وجود بين **هؤلاء** «الأوغاد» الذين لا يحملون سوى قيم الوضاعة والانتهازية. لقد احتل «العسكر القلعة»، أي أنه قام بعمل بطولي عظيم، باعتبار القلعة حصناً منيعاً يستحيل احتلاله.

في (**الفضاء الطباعي**) استعمل الكاتب ثلاثة أنواع من الخط: الخط الفاتح وفيه كتب الوصف، والخط الأكثر سواداً وفيه

وضع الحوار، والخط المائل المختلف عن الخطين السابقين وفيه صوّر المونولوج.
وكذلك حدّد (**الفضاء المكاني**) في المدينة : غرفة الاعتقال (في خان اسطنبول) حيث يتم احتجاز الوطنيين، الحديقة العامة الجديدة التي أسسها سعد الله الجابري، ثانوية معاوية للبنات، المنشية (اختصاراً للمنشأة)، دار الكتب الوطنية، مخفر الكتّاب ، الجميلية، سوق الزرب، باب أنطاكية، كلّة معروف، الجلّوم، العقبة ، القلّة... وكلها أسماء أماكن وأحياء في مدينة حلب، ما تزال قائمة ومعروفة حتى اليوم. وإذا كان الكاتب قد مرّ على ذكر بعضها في سياق الحديث، فإنه قد توسّع في وصف (**مدرسة الصنايع**) التي انتسب إليها وليد وهي تقع بجانب سكة القطار التي أصبحت حداً فاصلاً بين الأراضي الزراعية خلفها والبناء العمراني أمامها. ويعمد الكاتب إلى التفصيل في وصفها بقوله: «مبان ذات طابق واحد ممتد على جوانب الباحة الواسعة جداً. أغلب سقوف هذه المباني من صفيح التوتياء. كان هذا الموقع ثكنة عسكرية فرنسية منذ عهد الانتداب على سورية. بنيت بصفة التوقيت. وبعد إخلائها قررت مديرية المعارف الانتقال إليها في العهد الوطني.، استناداً إلى قرار التوسيع في مجال التعليم الفني» (ص١٨٧).

وهكذا فإن الكاتب حاول أن يرصد حركة النضال الوطني ضد المستعمر الفرنسي، من خلال أسرة مناضلة في مدينة حلب. وأن يرصد العهد الوطني في ظل الاستقلال، ولكن من خلال تصوير سريع . ويبدو الفرح مفقوداً في الرواية، فلا الإفراج عن المعتقلين ينعش النفوس، ولا العَلَم الوطني الذي بات يخفق فوق المباني الرسمية يُفرح الأرواح. ولعل صورة البؤس في العهدين ناجمة عن «الرؤية الواقعية» المتشائمة التي يحملها الكاتب الذي جعل من نفسه (راوياً) يعبّر عن إيديولوجيته وأحكامه المسبقة على الأحداث والشخصيات. كما في قوله : «العِرْض كالوطن يُذاد عنه بالمال والدم والروح» (ص٣٢)، وكما في حديث (رغداء) التي ما تزال طالبة في الصف الأول الإعدادي، ولكن أفكارها أكبر من سنّها، حيث أنطق الكاتب الصغار بأفكار كبيرة هي أفكاره، ولكنه عندما وضعها على ألسنتهم أظهرهم أكبر من مستواهم العمري، كما في قوله: «لا يمكن أبداً أن نقول إن جميع الشعب الفرنسي استعماري، كمثل هذه الطغمة الحاكمة في بلادنا » (ص١٥).

٢ - **الاتجاه الإبداعي (الرومانسي)**، ويتجلّى في رواية شكيب الجابري (وداعاً يا أفاميا)، وفي روايتي جورجيت حنوش

(ذهب بعيداً ، وعشيقة حبيبي) اللتين اقتصرتا على تصوير الحب الرومانسي ، دون أن تصلا إلى الميوعة العاطفية...

ففي رواية جورجيت حنوش (وذهب بعيداً) ١٩٦١ تتعرض (ليلى) الموظفة بمشفى في مدينة حلب لمضايقات مديرها. فتترك العمل لتبدأ بإعطاء الدروس الخصوصية باللغة الفرنسية. ثم تتعرف على (كمال) الشاب اليساري الذي يدرس الأدب الفرنسي في باريس، وعندما يتفقان على الزواج يعاجله القَدَر بالوفاة في حادث سيارة. وهي ضربة رومانسية أضيفت إليها ضربة أخرى حين توفي أخوها المريض بالسل.

ومثلها روايتها (**عشيقة حبيبي**) ١٩٦٥ المكرّسة للحب أيضاً . فبطلتها (نوال) تتسكع في المدينة، وتتذكر حبيبها الأول الذي رفضها من أجل فتاة غنية، فرفضت هي الخطّاب، ولكنها وقعت في حب (فريد) الذي يحب بدوره عجوزاً فرنسية تدرّ عليه أموالها.

٣ - الاتجاه الواقعي، ويتجلّى في روايات أديب النحوي الذي عرض فيها أهم الأحداث الوطنية والقومية. وإذا كانت الواقعية قد انطلقت في سورية في الخمسينيات، فإنها اتسمت بفضح عيوب العلاقات الرأسمالية، وتصوير الحياة الاجتماعية على طبيعتها. لكن الواقعيين عجزوا عن اكتشاف القوى التي يجب أن تقود المجتمع نحو حلّ تناقضاته، مما دفعهم إلى التشاؤم واليأس الذي قتل لديهم كل أمل بإمكانية الإصلاح. حتى هلّت (الواقعية الاشتراكية) فناصرت الطبقات المسحوقة، وساندت نضال الشعب ، ومثالها في الرواية السورية : نبيل سليمان ، وهاني الراهب، وحنّا مينة الذي سمّى نفسه (كاتب الفرح والكفاح).

أديب النحوي في الرواية الحلبية كاتب قومي وطبقي ملتزم بمصالح الجماهير الكادحة، تعرّض للسجن والطرد بسبب مواقفه السياسية . ثم أصبح وزيراً في عام ١٩٧٠ . وقد تجلّت أفكاره وقناعاته في رواياته جميعاً ، ويُلاحظ اصطناعه الحوار العامي أو اللغة المأنوسة بين العامية والفصحى أو لهجة مدينة حلب، ولكن النحوي يصطنع اللغة التي تلائم أبطاله، وهي اللغة العامية المحقق أصلها اللغوي ، أو الفصيحة الدارجة حتى في حواره العامي.

في روايته (جومبي) ١٩٦١يصور النحوي نضال الطبقات الشعبية ضد الانفصال، من خلال (بكور صايات) مختار حي (باب المقام) بحلب، ويصف بواقعية المظاهرات التي تندد بالانفصال، وقد

شبّهوا المختار بـ (جومبي) قاتل المناضل الأفريقي لومومبا رئيس الكونغو. ولم يعلموا أنه يُخفي وحدويته بناء على أوامر منظمته الحزبية، وأن أعماله تساند الوحدة أكثر منهم جميعاً.

٤ - الاتجاه الوجودي، الذي أشاعته مجلة (الآداب) البيروتية، عندما نشرت في الستينيات ترجمات عن أدب سارتر، وكامو، وسيمون دي بوفوار، وغيرهم من أعلام الأدب الوجودي، ويبدو أن الاتجاه الوجودي في أدبنا الروائي السوري قد سار في ثلاثة محاور: **الأول يمثله** وليد إخلاصي في رواياته التي كتبها في السبعينيات. والمحور الثاني يمثله جورج سالم في روايته(في المنفى). والمحور الثالث يمثله مطاع صفدي الذي حاول التوفيق بين الأفكار الوجودية والأفكار القومية. وأضفى القلق الوجودي على القلق القومي، وحوّل حرية الاختيار الفردية في الوجودية إلى التزام القومي، وتصرّف بالأفكار الوجودية باختيار اقتطافي، كما نجد في روايتيه: (جبل القدر)، و (ثائر محترف).

وليد إخلاصي في روايته (أحزان الرماد) ١٩٦٩يصوّر البورجوازية الصغيرة في سلبيتها وأزمتها، من خلال الشاب الريفي (أحمد) الذي تعلّم في المدينة، ثم عمل موظفاً في إحدى شركاتها ، لكنه ظل منبتّ الصلات مع الآخرين ، وصورة من صور الاغتراب المرضية. فعزلتُهُ جدار أصمّ ، وهو يصطنع أزمات نفسية وجودية في ثرثراته عن الموت، ويتفرّج على المظاهرات العمالية، بسلبية عاجزة عن المشاركة والفعل. وعلى شاكلته أصدقاؤه: فهم ثرثارون، عاجزون رواد مقام. وعندما يحاول أحدهم (صلاح) أن يكون جريئاً فإنه يُعتقل. ومثله (زينب) التي تكاد تكون صورة طبق الأصل عنه، فهي مطلّقة من زوجها الضابط البحري الذي تدينه برغبته في تحرير الوطن.

والرواية أقرب إلى **(الرواية النسبية)** التي جاء بها (لورنس داريل) في رباعيته (الإسكندرية) حيث تتشكل الرواية من خلال رؤية أبطالها المتناقضة إلى الأحداث الواحدة، فكلٌّ له رؤيته الخاصة المنبثقة من موقعه. ولقد استفاد فيها الكاتب من تجربته (تعدد الأصوات) في الرواية الواحدة.

وكما عكست هذه الرواية إشراف بطلها على الانهيار، فإن بطل روايته (أحضان السيدة الجميلة)١٩٦٩ ينتهي إلى الانتحار، بسبب العقد النفسية التي تنهشه، فهو أستاذ الفلسفة، أربعيني، عزب، كان في شبابه يسارياً. شارك في مقاومة الفرنسيين، ولكنه باع رفاقة بعد ذلك لينجو

من تعذيب الحكم الوطني. فبات يكرّر مفردات القلق، والضياع، والحيرة، والغربة، واليأس، وغير ذلك من المفردات التي كانت متداولة في الأدب الوجودي. أما (السيدة الجميلة) فهي مدينة حلب التي عاش الكاتب في أحضانها بعد هجرته إليها من الاسكندرونة.

٥ - الاتجاه الرمزي، ويتجلى في التعبير غير المباشر عن طريق الرموز والدلالات في المفردات والتراكيب والإطار العام. نجد ذلك في رواية **(السرطان) ١٩٨٦ لنهاد سيريس**، فرؤية بطلها (عبد الله) أحادية ذاتية، تختلط أحياناً بشخصية (الكاتب) الذي يطلّ من خلال بطله، ليقول على لسانه: «أنا بالمناسبة أكره اللون الأبيض: إنه لون الأسنان السليمة، والوجوه المصابة بفقر الدم الناتج عن سوء التغذية. إنه لون المستشفيات وصداري الأطباء. إنه لون البيت الأبيض». وتطابق وعي الكاتب مع وعي شخصيته يجعل من هذه الشخصية قناعاً يتستّر به الكاتب أمام قارئه ليخفي حقيقة ذاته وموقفه.

وتعتمد الروايةُ الرمزَ عندما ترى اللون **الأبيض** هو لون البيت الأبيض الأمريكي الذي يمثل الرأسمالية، وأنه يغزو اللون الأحمر الذي يمثل حركات التحرر الوطنية في العالم، مثلما تغزو الكرياتُ البيض الكرياتِ الحمر في الدم، فتسبّب فقر الدم و (السرطان) الذي اتخذه الكاتب عنواناً لروايته.

والشخصية المحورية في الرواية هي (عبد الله المشحور) الذي عاد إلى وطنه بعد غياب خمسة وأربعين عاماً، ففوجئ بصورة الوطن/ الحلم تتلاشى، إذ تبدل فيه كلُّ شيء: فالبضائع الأميركية، والشركات المتعددة الجنسيات، ملأت الوطن، واتخذت من كبار التجار عملاء لها، يتعاونون معها على نهب البلد وتدمير اقتصاده. **وإذا باللون الأبيضُ ينتشر ويلتهم اللونَ الأحمرَ**. فيصرخ عبد الله: «حسبت أني عائد إلى الرحم كي أتطهر، وإذا بي أرى الرحم يحتاج إلى تطهير».

والواقع أن البطل (عبد الله) شخصية مضطربة، ومرتبكة: فهو مهندس، ومع ذلك فهو يستهجن التغييرات العمرانية التي طرأت على مدينته خلال خمسين عاماً. وهو تقدمي، ولكنه يمجّد المفاهيم الإقطاعية والرجعية. ثم يتحوّل في نهاية الرواية شخصية متفائلة بمجرد دخوله (المشفى العمالي) الذي أكّد له الأطباء في أنه سليم من المرض. فبدأ يرقص، ويُرغم الآخرين من المرضى على الرقص معه حتى الصباح، وكأنما الرقص حلّ سحري لأزمته وأزمة مجتمعه.

وقد لجأ (الكاتب) إلى أسلوب الترجمة الذاتية، فأنطق (الراوي) بضمير المتكلم، رغبة في الإيهام بواقعية الشخصيات والأحداث، ثم تنقّل من ضمير المتكلم إلى ضمير الغائب، فالمخاطب، فالمونولوج الداخلي . وعلى الرغم من هذه الهفوات وعلى رأسها الضغط الإيدلوجي على الشخصيات ، فإن ما يسوّغها هو أنها التجربة الأولى الرمزية للكاتب.

٦ - الاتجاه الأسطوري، وهو اتجاه حداثي يستلهم الأسطورة، أو **يضعها**، وعلى **الرغم من أن استلهام** الأساطير قد تمّ توظيفه في الأجناس الأدبية الأخرى كالشعر والمسرح، فإنه ما يزال في الجنس الروائي في بداياته. ومع ذلك فإننا نجد في الرواية الحلبية نصيّن **لوليد إخلاصي**، حاول فيهما خلق أسطورة، أو أسطرة الواقع، وذلك في روايتيه (**باب الجمر**) ١٩٨٥، **ودار المتعة**.

في (**باب الجمر**) شخصية (الرأس) التي عمرها ثلاثة قرون، وما تزال حيّة تمثل البطش والقوة. تلحق بها شخصيات طفيلية من مثل (ديبو الشختورة). وفي مواجهتها شخصيات مثل (الصالحاني) و(النسّاج) كمحور يمثّل الخير والحق والحرية... إلخ. وهنالك محور ثالث هو (محبّة الجمر) وهو شخصية نموذجية: تكلّم في المهد، وحفظ جزء عمّ في السنة الثانية من عمره، وخطب في الناس وهو ابن خمس سنين، وخاطب الحيوانات والنباتات والطيور. إنه المثل الأعلى/الفكرة لا النموذج.

والرواية رحلة بحث عن (باب الجمر)، وهي تسمية وهمية لأحد أبواب حلب، قيل إنه مدفون تحت أطباق الثرى. ويمزج الكاتب بين الحقيقي والخيالي/والواقعي والأسطوري، في مبالغات وتناقضات لا تنتهي، وصراعات بين الشخصيات المحورية، ينزع الكاتب فيها إلى حل التناقضات التي لا تنتهي والصراعات بين الشخصيات المحورية، إلى ابتداع شخصيات أسطورية ذات قوة خارقة فيجعلها تقف في مواجهة (الرأس) الأسطوري.

وكذلك تخلق رواية (**دار المتعة**) أسطورة جديدة، تستمد عناصرها من التاريخ ومن الواقع الاجتماعي، حيث يكتسب الواقع أبعاداً أسطورية، ويتداخل الوعي واللاوعي، والحلم والذاكرة ، في خلق الشخصيات والأحداث، وتقوم حبكتها على بحث (جواد) عن أبيه المفقود (عبد الكريم)، فيلتقي (أسمهان) صاحبة(دار المتعة)، و(الصارم) رئيس جمعية الهداية إلى السبيل القويم، و(الجوهري). أليست هي فكرة رواية نجيب

محفوظ (الطريق)، حيث يبحث فيها (صابر) عن أبيه. وفي (طريق) البحث يلتقي بـ (كريمة) التي تقدّم له الحب والجريمة طريقاً للخلاص، و(إلهام) التي تقدّم له العمل والحب طريقاً آخر للخلاص؟

أما السرد فيتابع بصيغة (الراوي) الغائب (هو)، العارف بكل شيء، وأحياناً بصيغة الراوي المتكلم، عبر نسق زمني متقطع في سيره الهابط من الحاضر إلى الماضي، والصاعد من الحاضر إلى المستقبل، ثم يتوسّع السرد وتتناسل القصة بإقحام قصص قصيرة داخل القصة الأساسية، كقصة سليمان الحلبي وكليبر، وقصة يوسف بن أيوب، وقصة المذنّب هالي، وقصة المعمّرين الثلاثة... إلخ!! وهو استلهام حكائي من (ألف ليلة وليلة) في تقنيتها الدائرية المتداخلة.

وفي هذا المناخ الأسطوري تلتبس الرؤى والأحداث والشخصيات، مما يسمح بتعدد احتمالات التأويل القرائي، فهل كان هدف الكاتب في الإغراق بالرمز الأسطوري هو تجنّب المساءلة، وهو القائل على لسان إحدى شخصياته: «يهدف إلى التمويه كي لا يُدان» ؟ وهذا التداخل بين الواقعي والمتخيل أتاح له ذلك، فقد أخذ الكاتب من تاريخنا الحديث شخصية (سليمان الحلبي) الذي قتل الجنرال الفرنسي (كليبر) في مصر، فنسج حوله حكاية (فانتازية)، وأجرى السرد على نسقين متوازيين أولهما واقعي تقريري يقوم على سرد الحادثة التاريخية المعروفة، والثاني (فانتازي) حيث يزور (كليبر) (سليمان) الذي كان سبباً في شهرته.

وهذا التداخل بين الواقعي والمتخيّل/ والوهم والحقيقة. نجده في معظم القصص القصيرة التي كان يرويها (جواد) لـ (أسمهان) صاحبة (دار المتعة) التي هي وكر للدعارة، تستقطب ذوي المناصب والثروات، لاسيما وأنها شُيّدت فوق (تل المذابح) الذي يعرّي السلطات المتعاقبة، ويفضح جرائمها. و(أسمهان) التي تدير الدار تدير أيضاً عقول الرجال، وتهيمن على المدينة بسلطتها على حكّامها. إنها الشيطان الذي يزيّن للناس حبّ الشهوات، وقد اختفى الأب (عبد الكريم) في أحد دهاليز دارها. وكاد يختفي ابنه (جواد) أيضاً، لولا أنّه نداء العقل على نداء الجسد، ووظّف قدرته على نسج الحكايات لها، فتبادلا المواقع: لقد كانت (شهرزاد) هي التي تروي لشهريار حكاياتها. فإذا سكتت قُتلت. أما هنا فشهريار هو الذي يروي لشهرزاد، فإذا سكت مات.

الإبداع

شعر

مكاشفات الأنوار — عصام ترشحاني

نثر

في حي القسطل — د. عبد الكريم الأشتر

حلب (٦٤٩١) — وليد إخلاصي

الإبــــداع

٢٤٤

مكاشـفات الأنوار

عصام ترشحاني(*)

قالَ الواقفُ

في سَفَرِ الباطن:

لا تقربْ..

من سَفَرِ الظاهرِ

تَزْدَدْ قرباً منها

(*) عصام ترشحاني: شاعر سوري من حلب.

قلتُ .. أنا الواقفُ
بين مَهَبِّ الأنوارِ
وحلمي ..
إنّ أساطير الأرض الأولى
ما زالتْ
ترشق بالسحر الأحمرِ
مريم يَوْمي
لن أُسرف في عَيْن الأسفار
فأنت هواء حروف الأقمار،
وأزقة الرائي
في إيحاء غيابي
أنت الأزل المسكرُ
في المحظورِ
وليلكة الدّر العليا
هل أذكر كيف
دخلتُ مجاليكِ
وكيف قرأتُ بمائي
ألواح الشرر الأخضر...
هل أذكر،
كيف الوجناتُ
انهمرت بالفلِّ

فغطّاني ما بعد العطرِ
وكيف الشمس توارت
ثمّ أشارت
للأرض ... بأن تصعد...
كنّا في تلك اللهفةِ
من لُطف المذهلِ
في حَشْر الإشراقِ
فهل أبصرتِ الياقوت الغافي
كيف أصابتهُ الصيْحة..
حين الماء النازفُ،
من جسدينا ..
صار زبرجد
هل أذكرُ..
كيف سلكنّا
في شأن النرجس
ما يشهدهُ القلب .. ويسجدّ ..
كانتْ حُجُبٌ من نارٍ
تتدافع بينكِ
وحجابٌ من ظلمة حلمكِ .. يلمعُ
كنّا قبل حجاب الغيم
نُدير كؤوس الوَصْلِ

وفينا النشوة تشردُ
من أعلى اليحموم
إلى يَهَموتِ المشهدِ ..
ما أُبصرهُ ..
في أرواح الأفلاك الآنَ.
يُزيح غطاء الوهمِ
عن الشعشعة العليا في حالينا ..
لن أوغل بين فراغات نشوري
فأنا .. أفنى
فيما يبقى فيكِ
وأبقى .. فيما يفنى ..
لن أوغل..
تلك تأويلي
فأنا ألقيتُ
على اللجّةِ ثوبي
وعلى الكلمات رمادي
❖❖❖
منذ اغتسل البُعد بأوجاعي
كلّمتُ العتمة فيكِ
ولم تهدأ ..
زمزمةُ الوجدِ،
ولا أرحام فؤادي
ياسيدتي..
ما خاطبني الشكُّ
وخاصم ظلّي
إلا .. ليُخضِّب بالجمر .. سهادي
أينَكِ منّي..
فأنا لا أسمع في الخلوةِ
غير فراشِكِ
وهو يُبسملُ بالرحمن ..
وغير حرير جراحِكِ
من أدنى الغربة .. يرمقني
لن أنزعَ رائحة الشجر الهيمانِ
عن الجسم الناحلِ
فطيورك كانت
بالإسراء الباطنِ تُشعلني
قبلَ بأنكِ
أطفأتِ من القُبلاتِ
أعاصير الزهرِ
وأحرقتِ من الحبِّ
رهام اليخضور
وتسبيح الرعشة في الأغصان..

قبلَ بانكِ

آنستِ النسيان ..

ليبحث ذاك المستوحشُ

في أصلابكِ ..

عن أغْرية السلوى

كيف أُصدّقُ..

وأنا أعرف تيماء الضوءِ،

وعنقاء الميزان..

مَنْ كانت تحشد

بين الغم.. وأغنية الدم

خيول لذا ذات الحمّى

وشواظ المرجان ..

مَنْ كانت

بالزرقةِ

تضرب موسيقى عطشي

وتمسّدُ حزني .. بالرّيحان..

يامعراج النهرِ..

إلى رغبات الشعر وأسمائي

إني .. منذ

عماء الموجوداتِ

تجليتُ أنا .. في أنتِ

فكانت مخلوقات الحيرةِ والرؤيا

كانت بالعصمة تسعى..

بالفاقةِ والحرقةِ

بين العين وبين الغين..

فانتشري

فيما شاء الحدسُ

سلاماً..

لامرأة وجّتني

بالإعجازِ

وغابتْ

في ظلموت الأيْن؟

✣ ✣ ✣

الإبـــداع

٢٤٨

في حيّ «القسطل»

الدكتور: عبد الكريم الأشتر (*)

-1-

«القسطل» حي من أحياء حلب الشعبية، قائم، إلى اليوم، في بعض أطرافها الشمالية. وقسطل الماء فيه متصل بسور الجامع الغربي، قريباً من بابه العريض الذي يحمل اسم بانيه (بُرد بك)، من قادة المماليك في القرن الخامس عشر. استُجر ماء القسطل من منطقة (حَيْلان)، خارج حلب، ليصب في حوض أقاموه داخل الجامع، يتوضأ منه المصلّون.

(*) الدكتور عبد الكريم الأشتر: أديب وكاتب وأستاذ أكاديمي سوري.

- العمل الفني: الفنان: سعد يكن

وقد نسبوا الحي كله إلى قسطل هذا الجامع، فسموه: (قسطل الحَرَم أو قسطل الحَرَمين)، إذ كان يقوم جامع آخر صغير قريب منه. ثم دار الاسم على ألسنة الناس، فحرّفوه إلى (قسطل الحرامي). وبهذا الاسم يُعرف اليوم عندهم.

ويمتد من شارع الحي الكبير الذي يشغله السوق زقاق طويل، تتفرع منه أزقة أخرى صغيرة، تقوم «البيوت على أطرافها، فسموها جميعاً (الزقاق الطويل). والبيوت فيها واسعة، تمتد على حيطانها أحواض الفلّ الذي يولع به الحلبيون، وزروع الورد الجوري. وتتسع مطابخها، إضافة إلى البئر التي يُستخرج منها الماء، (للحاصل) الذي يجمعون الماء فيه لحاجاتهم اليومية، و(الأُثفيَة) التي تزوّد بالفحم والحطب، وتوقد فيها النار، ويقوم الدّست فوقها.

-2-

انطلق الصبي من دكان أبيه في سوق الحيّ فقطع الزقاق الطويل، وانعطف إلى بيته، في أحد الأزقة الصغيرة الضيقة، وهو يمنّي نفسه بلقاء سلمى «وقد خرجت من بيتها، في الزقاق الضيق نفسه، وأخذت ترسم على أرضه، بالحوّار، مستطيلاً طويلاً، تقطعه خطوط بالطول والعرض، تقسمه إلى مربعات متساوية، تريد أن تقفز فيها وتدفع بإحدى رجليها، كعباً، تحاول أن تتخطى به خطوط المربعات.

كان بيتها يقع أمام بيت الصبي، فإذا فتحوا بابهم صار البيتان بيتاً واحداً. وكان الصبي حين يدخل زقاق البيت يرى سلمى منهمكة في لعبها، تحاول أن تتوازن، وهي تدفع الكعب بإحدى قدميها، وترفع الأخرى عن الأرض. فإذا رأته اضطربت حركتها، فأسرع الصبي إليها يتلقاها قبل أن تقع، فيستشعر خفقة صدرها، على حين تنوس جديلتاها الشقراوان فتغطيان وجهه.

كانت في حدود العاشرة، وكان الصبي يكبرها بسنة أو سنتين. فلم يكن يعرف مايتنابه حين يراها بين يديه. ولكنه يذكر أن فرحته بها كانت أكبر من كل الفرحات التي أحسّها من قبل ويذكر، مع ذلك، أن خوفاً غريباً كان يخالط فرحته، ويملأ نفسه بالحَيرة. فإذا حطّ سلمى على الأرض، واستوت في وقفتها، ودّ لو فقدت توازنها مرة أخرى!

-3-

و(القسطل) حي مختلط، يعيش فيه المسلمون إلى جانب جيرانهم من المسيحيين. كانوا يتزاورون فيه، ويعود بعضهم بعضاً، ويعدّون أعيادهم أعياداً عامة. وكانت سوق الحي تمتد من رأس



المخفر القديم المبني من أيام العثمانيين، إلى نهايتها عند (حمّام البساتنة)، وكانت قريبة من الحارة التي يتجمع فيها أصحاب البساتين والعاملون معهم. وكانت تَحْمِية الحمام تتم في قبو ملاصق للحمام، كان الصبي ينزل إليه أحيانًا، وهو في الطريق إلى سوق الحي، فيرى (الوقّاد) منطويًا أمام فتحة واسعة تشتعل فيها النار، وتندلع منها حرارة كان الصبي يعجب لثبات موقدها الجالس أمامها، كيف يطيق احتمالها وهو يقذف فيها بأقراص (الجلّة) المجففة التي كانوا يتخذونها من رَوْث الماعز ودواب أصحاب البساتين.

كان الصبي يجمع أمثال هذه المشاهد المثيرة، ويجعلها مادة للحديث مع سلمى. فكانت أحيانًا تفغر لها فاها من الدهشة، وتسأله أن يحكي لها كل ما يراه في السوق. وكانت هذه بُغْيته: أن تجد سلمى في أحاديثه ما يثيرها، لتستزيده منها، فيلقاها، ويأخذ، وهو يحدثها، مقعده إلى جانبها. ومن ثم يأخذ يمدّ الحديث ويلوّن مشاهده وينوّع صوره ويجمع شخصياته من زوايا السوق.

-4-

على أن سوق الحي لم تكن كبيرة، فكان الصبي يتخيّل، أحيانًا، أحداثًا لم تقع، ويحاول أن يجعلها تبدو على نسق الأحداث التي نقل إليها أخبارها من قبل. وكان يجد في دكان (أبي الياس) الذي كان يبيع الخمرة في أحد منعطفات السوق، في الطريق إلى (الشابورة)، وقائع وأحداثًا من حول بعض رجال السوق الذين زاروا (أبا

الياس) ليلاً وخرجوا إلى بيوتهم فارتكبوا بعض الحماقات فيها.

وكان في رجال السوق أمثال (أبو فتاق) و(بقبوق) و(عقّو) و(البطحيش) و(أبو راسين) صاحب الرأس الضخم، و(حفتونة) و(اللولو) الذي جمع إلى شرب الخمرة، تعاطيه بعض أنواع المخدرات. وروى لها ما سمع عن جرأة (البطحيش). وقد مال به السُكّر إلى بيت جارته الأرملة (جوزفين)، فأخذت تصرخ حتى جمعت من حولها الجيران، فأخرجوه ورموه في المخفر.

كانت سلمى، في العادة، تستمع إلى أحاديث السوق وهي تبتسم للصبي، أو تضحك له، وتنظر في عينيه، ولكنها قطبت جبينها هذه المرة، وهي تسمع حديث (البطحيش). ثم ما لبثت أن سألت الصبي:

- وما فعلوا به في المخفر؟

فقال: يا سلمى! في مخفر الحي غرفة عارية من كل شيء، يسمونها (النّظارة)، لها شباك يطل على الشارع وعليه قضبان من الحديد. والموقوفون فيها يقفون من وراء القضبان يتأملون المارّين ويتبادلون معهم الحديث أحياناً. فهكذا وصل الخبر سريعاً إلى (أبو راسين) الذي يعمل في أوقات من النهار خادماً في المخفر، يؤمن لرجاله بعض حاجاتهم. وقد بات (البطحيش) ليلته في المخفر، ثم طلع الصباح فافتقده رجال المخفر فلم يجدوه في (النظارة)!

فتساءلت سلمى:

- وكيف هرب؟ هل كسر قضبان الحديد؟

فأجاب الصبي: وهو يغمز لها بإحدى عينيه، وقد سرّه اهتمامها بالحديث:

- القضبان سليمة لم تكسر، وقد حلف (أبو راسين) برأس أبيه، لرجال المخفر: أنه، حين غادر المخفر، كان (البطحيش) في (النّظارة)!

فتساءلت سلمى وقد اصطبغ وجهها بحمرة الانفعال:

- وما فعلت جارته (جوزفين) من بعد؟

أجاب الصبي: زارتها أم (البطحيش) وطيبت خاطرها، فرضيت وسحبت شكواها. وعاد ابنها يحمل قربته ويقف في أطراف السوق يسقي المارين شراب (البزورات) الذي كان يستحلبه في بيته، من بزر البطيخ!

-5-

وحكى لها يوماً حكاية (عقّو) بائع حليب الماعز، وصاحب العينين الصغيرتين واللحية السوداء، والسروال الأسود العريض، يشدّه على وسطه فيبدو فيه

كالجرة الضخمة، وهو يتجول في السوق ويقف على محالّها يضاحك أصحابها، بعد أن يفرغ من بيع الحليب، ويسوق قطيعه من الماعز إلى حارة البساتنة، فيودعه بيوتها الواسعة التي تشبه البراري.

ثم وجد من الفراغ ما جعله يقبل أن يعمل في مقهى الحي الذي كان عم الصبي يملكه، ويقع إلى جوار برّاكات خشبية بناها الأرمن في السوق. وكانوا يسكنون أطرافاً من أحياء حلب، في بيوت خشبية يسميها أهل الحي: (برّاكات). وقد دخلها الصبي مرات قليلة، أوفده فيها أبوه، في بعض حاجات أهلها.

وزار عمه يوماً، في المقهى، في طريق عودته من البراكات، وكانت تعمل فيه فرقة سمع الصبي أن أحد أفرادها يعمل في السحر، فرآه يطوي منديلاً على خاتم لأحد الحاضرين من رجال السوق، ثم ينفضه بشدة، ويقول للحاضرين من حوله:

– انظروا! هو في جيب هذا الداخل الآن من باب المقهى!

اتسعت عينا سلمى وازدهرت الخضرة فيهما، وسألت:

– وهل وجدوه في جيبه؟

أجاب الفتى، وقد ازدهاه نجاحه في إثارتها:

– نعم!

فتساءلت في عجب:

– وكيف؟

وسمعت سلمى هنا صوت أمها يناديها من داخل البيت، فأسرعت إليها. فلما طالت غيبتها، ويئس الصبي من عودتها، دخل بيته، ولكنه أبقى في نفسه حديثاً نوى أن يحدّث به سلمى، في لقاء آخر.

-6-

وحلّ شهر الصوم، فوجد الصبي من مظاهره في السوق، وحركة الناس فيها، وفي الجامع، في صلوات التراويح التي تذيع مكبرات الصوت أصوات المصلّين فيه، أحاديث تقرّبه من سلمى وقتاً طويلاً. ولكنه كان يجدها أحياناً قريبة منه قبيل غروب الشمس والناس جلوس من حول موائدهم المتواضعة، ينتظرون أن يعلو صوت المؤذن بالأذان. فقد كان يجدها في السطح، عند الحائط القصير الذي يفصل بين البيتين، فيأخذان يتابعان غياب الشمس في الأفق القريب، وسطوع الضوء في رأس مئذنة الجامع، ويصرخان معاً:

– شعلت! لأ، شعلت!

ثم كان أحياناً يسمع طَرْقتها على باب البيت، عند السحور، وقد أرسلتها أمها تسأل أم الصبي: هل حان وقت الإمساك؟

فيقف لها عند فتحة الباب يتأملها في

الضوء المتسرب منها: عيناها الخضراوان يبدو اخضرارهما، في عتمة الضوء، أشد اخضرارًا، على حين ترفّ في وسط الجديلتين عقدتان بلون الزهر، تضطرب أجنحتهما في عينيه، فيمد يده إليها فيسويها، وسلمى تضحك له وتسأله:

- انتهى وقت السحور؟

وتسمعها أم الصبي، فيتعالى صوتها، من داخل البيت، وهي تنهض عن السفرة الخشبية:

- لا يا سلمى، ما يزال هناك أكثر من عشر دقائق!

ثم ينصفق الباب، ويعود الصبي بعدها إلى فراشه، ووجه سلمى لا يُفارق خياله! وربما تمنى لو كان مدّ يده من فتحة الباب فمسح على وجهها، وأخذ جديلتيها فضمَّهما.

-7-

وأقبل العيد، فرأى الصبي في مساء يومه الثاني، أناسًا كثيرين يخرجون من بيت أحد جيرانهم من الزقاق، وكان قريبًا منهم، يتحدثون عن (تلبيسة) تقام فيه، احتفالاً بزواج ولد من أولادهم. وكانت ليلة مشهودة لم ينسها إلى زمن طويل. فقد صحبته أمه، بعد أن استكملت حجابها، فأطلت معه من السطح، على البيت الذي تقام فيه (التلبيسة)، وكانت دعت أم سلمى إلى صحبتها، فأقبلت ومعها سلمى. وبلغت سعادة الصبي، وسلمى إلى جانبه، مدىً أحسّ معه بأنه يوشك أن يطير!

وابتدأ أحد المغنين، بعد أن اكتمل الحضور، فتغنى بموّال كان الصبي سمع مثله من أبيه. وقد وجد نفسه، بعد سنين، يحفظ عن أبيه عددًا من هذه المواويل (الشرقاويّة).

كان الناس من حول المغني سكوتًا، يسمعون الكلام، ويهزون رؤوسهم له، وتبدر منهم أحيانًا أصوات تصور تأثرهم بمعانيه:

كم نُوبْ أخش الدار ولْقى خُلّتي ماهنْ
ورجعت باكي ودمعي غرّق الماهنْ
جيت انشد لك يا طير يا لتورد على ماهن
بلّغ سلامي لحباب القلب والروح
جاوبْ لي الطير وقال لي: يا محنّى روح
يكفي فؤادك ضنى، حاجه تجي وتروح
أحباب قلبك غدوا ماهنْ على ماهنْ!

ثم انقسم بعض الشباب فريقين أخذا يتنافسان في تفضيل البيضاء أو السمراء. ووقف على رأس كل فريق منشد، أخذ يتقدم نحو الفريق الآخر، على قرع الطبل، قرعًا لطيفًا، بخطوات موزونة تتوافق مع إيقاع النشيد.

وبدأ السجال بلازمة تقول:

اسـمـعـوا قـول المعنّـى

علسُـمْـر والبيض غنّـى

ثم بدأ كل فريق، يدلي بشهادته، على إيقاعِ خطواته الراقصة، في نحو قول صاحب السمراء، على الرويّ نفسه:

الأبيض بارد مهجورْ

ولو كَنـو مثل البلّور

والأسمر خبز التنّور

سخن مقمّر، كُلْ وتهنْ

وردّ عليه صاحب البيضاء:

حاجة تغلي وحاجة تفورْ

وتجيب لي شهادة زورْ

الأبيض سمسم مقشور

مَـنّ وسـلـوى مـن الجـنّـة

ثم أخذ الناس يتدافعون نحو الباب، فتكوّنتْ منهم، أمامه، حلقة طويلة، أخذت تتقدم نحو البيت الذي كانت العروس تُجلى فيه، بعد أن صاح مقدّم الحلقة، في نطق خاص أمال فيه النطق باسم الجلالة:

- بسم اللهّ يا شباب..

في اليوم التالي وجد الصبي سلمى مفتونة بما رأت وسمعت، وكانت تتمنى لو أطلّت على بيت الجلوة، لترى، مرة أخرى، ما كانت تراه في الأعراس القليلة التي كانت أمها تصحبها إليها!

-8-

وأقبل الربيع بعدها، وفاحت ريحه، فوجد الصبي نفسه يدفع يومًا باب تربة كان يزورها من قبل، إذ كان أحد أقاربه يؤم فيها بعض المصلّين في الحي، وكانوا يسمونها (المعضمً). ثم عرف، فيما بعد، أنها تضم ضريح شيخ صالح اسمه (شرف الدين المعظّم). وعرف أيضًا أنها كانت تدعى (زاوية الشيخ جاكير)، ويلزم أن يكون هذا أحد شيوخ المتصوفة، اتخذ منها، في يوم من الأيام، زاوية يجتمع فيها مريدوه لصلواتهم والتغني بمواجدهم.

كان الحشيش الأخضر يغطي ساحة التربة أمام قاعة الضريح، طويلاً نضرًا يهتز على أعواده. لم يدر الصبي ما أصابه من أثر إحساسه روعة الحياة في الربيع، فأغلق باب التربة، إذ كانت على الطريق، وألقى بنفسه في أحضان الخضرة، وأخذ يتأمل السماء، فطالعته، من إحدى زواياها، مئذنة الجامع، جليلة رائعة، تشق أجنحة السحاب وطالعه، من الجانب الآخر، بناء مطحنة الحي، عالٍ توشك أن تنحدر إليه سقوفه العالية. ونظر في أحجار الضريح المعتمة، وذكر أنه سمع في الحي لغطًا عن نساء يقصدنه يتبركن بصاحبه للاستشفاء من المرض أو لتحقيق الأمنية في الحمل. فخيّل إليه أن الضريح يتحرك نحوه. وهب

نسيم الربيع، وحامت في السماء سحابات بيض، فاختلطت في عينيه الألوان والأضواء، وغابت عنه كل أمانيه إلا أمنية واحدة.

أن يرى سلمى مستلقية في أحضان الخضرة إلى جانبه!

-9-

واليوم، وقد مضت على ذكريات الصبي في الحي سنوات كثيرة، وغابت عنها سلمى، ذهب بها مرض عضال لم يمهلها طويلاً. وتلقى الصبي نعيّها وهو في ديار الغربة. مرَّ بالقسطل، فرأى حجارته خرساء تغيرت ألوانها، ورأى الجامع أضناه الهرم، وتعرّت مئذنته من الزينات، وسمع منبره التاريخي العتيق يندب ليالي وحدته الطويلة، ويشكو هوان الزمان بعد أن فقدَ أخاه الوحيد في حريق الأقصى. ودخل الكُتَّاب فرآه صامتاً، بعد أن غيّب الموت صاحبه (الشيخ صالح)، وكسر قصبته الطويلة التي طالما رآه الصبي يمس بها - من مجلسه في صدر الكُتَّاب- رؤوس الصبيان إذا تلهوا عن القراءة والدرس. وزار الخان الذي مرّمن أمامه كبار رجال الانتداب، في طريقهم إلى زيارة كنيسة القديس جاورجيوس (الخضر: مارجرجس) في حي «الشَّرعَسوس» القريب من «القسطل». ومشى إلى الشابورة فمر بدكان (أبي الياس) وقد تحوّلت دكاناً لبيع الألعاب. ودخل القيسارية الواسعة التي كان أبوه يحدّثه عن أيامه الزاهرة فيها أيام كان صبيّاً يغزل فيها الخيوط. وعاد فوقف أمام المخفر وأطلّ على النَّظارة، فوجدهما مقفرين، وذكر (البطحيش) و(أبو فتاق) و(بتبوق) و(أبو راسين) والفتية الآخرين، وقد حالت صورهم، وخلت منهم السوق كما خلت من رجالها، وحلّت في محالّها وجوه أخرى لا يعرفها.

ثم قطع الزقاق الطويل، وانعطف في الأزقة المتفرعة الضيقة، ووقف وجهاً لوجه أمام باب البيت، وتطلع في الباب الآخر الذي يواجهه،فأحسّ بدوار خفيف، وخاف أن تخذله رجلاه، فبسط ذراعيه فطوى بينهما المسافة بين البابين، وشبك أصابعهما في مسامير البابين، ثم ضمّهما إليه كأن صوتاً دعاه إليه.

❖ ❖ ❖

حلــب١٩٤٦

وليد إخلاصي(*)

في ذلك العام، قدم الربيع النزق إلى مدينتنا حاملاً معه الرياح الدافئة بعد شتاء متقلب بين البرد والخوف. وانتشرت في الطرقات أوراق (الخس) وقشور (الشوكي) وبقايا (المكسرات). وكان الربيع يعلن بنشوة عن ولادة الاستقلال في سورية، فكان استثنائياً يحمل في محفظته ذكريات ربع قرن مضى من الاحتلال الفرنسي للبلاد، فجعل يهمس في الأسماع أن فجر الحرية يولد بنور مستقبل جديد.

(*) وليد إخلاصي: أديب وروائي وباحث سوري.

- العمل الفني : الفنان-جورج عشي.

كانت الشوارع تغلي، وتجمعات متفرقة ترفع الأعلام وهي تلوح بها في الهواء وكأنها تحاول نزقة أن تطرد أشباح الأيام الماضية وقد ساعدها على ذلك قرع الطبول الكبيرة وهي تنتظم حلقات الدبكة والراقصين وهم يدقون الأرض بأقدامهم فيخفق لها قلب المدينة فرحاً ونشوة. وفي الأمسيات أضاءت المشاعل ظلمة المدينة فيما أصحابها من الطلاب وفرق الكشافة يدورون بها وهم يعلنون بأناشيدهم المتوقدة عن إذكاء فرح الشعب باستقلاله.

وفي ذلك العام أعلن عن موعد الاحتفال الكبير بعيد الجلاء الأول في حلب، وعيّن له اليوم الموعود بداية لعصر المستقبل وانطلاقاً لتاريخ سوري جديد. وكانت الاحتفالات الشعبية العفوية موازية للترتيبات الحكومية، وهكذا زرعت الحارات والشوارع والساحات بالرايات الخضر والأعلام الوطنية، كما أخرج الناس من الصناديق شالاتهم العجمية و(الصايات) اللامعة وكأنهم ذاهبون إلى صلاة العيد.. وتوجهت منذ الصباح فرق الطلاب والكشافة إلى (الملعب البلدي) الذي أنشئ في غرب المدينة وبالقرب من سفح جبل (الشيخ محسّن) وعلى حدود البساتين التي تزرع بالخضار والأشجار المثمرة فكان نهر (قويق) الذي يسقيها يتهادى في ذلك اليوم طرباً يعبر عن ربيع حقيقي جاء متأخراً.

وابتدأ منتصف النهار في ذلك اليوم يشهد تزاحم الناس المتزايد وهي تسعى من كل صوب للوصول إلى الملعب البلدي كي تحتل أماكنها في المدرجات. آلاف من الرجال والنساء والأطفال يزحفون نحو الموقع، كما أن التلاميذ والطلاب يغادرون المدارس أفواجاً لأداء الدور المرسوم لهم في الاحتفال. وشوهدت (الترامواي) تسرع في سيرها على سكتها فيفرد لها الطريق زحام البشر عندما يقرع جرسها منذراً لأنها في ذلك اليوم تحمل القاصدين الملعب إلى (محطة الشام)، والتي سيتابعون منها مسيرتهم عبر ممرات ترابية تخترق حقول القمح والشعير، وستعود (الترامواي) إلى محطة القلعة لنقل ركاب آخرين. وكان اليوم كموسم الحج تماماً جميع أهل المدينة على تشوق إلى مشاهدة ما سيحدث في احتفال النصر.

كنت مع صبيان آخرين جمعتني إليهم الفرصة الضائعة في الالتحاق بفريق المدرسة المشارك بالاستعراض، فقد منعني من متابعة التمارين التواء كاحلي بينما كنت



أسرق الوقت للمشاركة في مباراة لكرة القدم. وإذا ما ارتبطت بأولئك الصبيان جعلنا نلاحق مجموعة من الرجال وهي تحمل الدفوف والرايات الخضر وتردد الأناشيد الدينية في طريقها إلى الملعب البلدي،وكأنها ذاهبة إليه لمباركة الاحتفال. ولا أنكر أنني جعلت أردد في سري ومن ثم في علني جميع الأناشيد مما جعل الصبيان ينظرون إلي بتقدير أكبر فاق موقفهم مني في بداية التعارف وهم يعاينون ضآلة الجسد الذي أختبئ فيه.

وظهر لنا سور الملعب، وكانت حجارته المرصوفة كحب الرمان ترسم لوحة نسرع في الوصول إليها. هناك فاجأنا الزحام على البوابة يسد علينا الدخول، مئات من البشر يتدافعون بفوضى، كما أن عشرات من الشبان يحاولون تسلق الجدار، منهم من يمتلك خفّة القطط ومنهم من يعجز فتلاحقهم الشرطة بالعصي تمنعهم من اقتحام الملعب. وتوقفنا نبحث عن فرصة لنا في دخول الملعب ونقلب احتمالات النجاح في ذلك، ومنعتنا الفوضى المنتشرة في المكان من الاتفاق على طريقة فقد كانت أجسادنا الضعيفة تمنعنا من العثور على مخرج لأزمتنا. قلبنا احتمالات النجاح ولكن صوت أحدنا حسم الأمر، وكان فتى هو أطولنا صاح فجأة «وجدتها.اتبعوني» ففعلنا دون تفكير ونحن نمضي وراءه وقد

انقلب على عقبيه ليتجه إلى الجبل المطل على الملعب لنلحق به نشكل رتلاً مطيعاً، وكنا نبتعد عن الملعب بخطوات منتظمة.

وجعلت ضجة الملعب تخف من خلفنا وأقدامنا تمضي في صعود السفح الذي انتشرت عليه الحشائش البرية تطل علينا من بين الصخور الصغيرة. وكنت أتوقف أحياناً أتأمل تلك النباتات المتنوعة وقد تفتحت أزهارها كأزرار مضيئة. ولا أنكر أني كنت أحاول أن أجد سبباً لإراحة قدمي.

ثم وجدنا أنفسنا على قمة الجبل التي كانت أشبه بمصطبة هائلة تطل بزهو على المدينة، والتي كان الملعب منها دائرة صغيرة. كانت المصطبة تدعو من يقف عليها إلى الفخر بأنه ينتسب إلى عالم كهذا تفوح منه رائحة التاريخ كبستان من أزاهير حجرية يضج سكونها بالحياة.

افترشنا التراب الذي جففته أشعة الشمس، وقدم اثنان من المجموعة مايحملانه من بذور البطيخ الصغيرة فجعلنا نفصصها وعيوننا باتت متعلقة بساحة الملعب التي امتلأت مدرجاتها المحيطة بها بالرجال والنساء والأطفال وهي تحيط بالساحة التي تجمع على طرف منها أفراد فرقة موسيقية بملابسهم الرسمية. وبالرغم من بعد المسافة عن الملعب كان ضجيج المتفرجين فيه يصل إلينا كغمامة تتطاير لتخوم في السماء متجهة نحو الجبل تثير حماستنا المتشوقة إلى لحظة بدء الاحتفال الكبير الذي كان حلماً لأهل المدينة.

وانفجرت الطبول بإيقاع دفعنا إلى أن نهبَّ واقفين على أقدامنا احتراماً لمطلع النشيد الوطني الذي وصلت تفاصيله أسماعنا بعد ذلك عندما ابتدأت الأبواق النحاسية باقتحام الفضاء بينما ضرب الطبول يضبط تواترها، فخيل إلي وأنا أردد همساً «حماة الديار» وكأني أسمع النشيد للمرة الأولى في حياتي، فكانت رعشة الجسد تستعيد أيام الجنود الفرنسيين وهم يلاحقون المظاهرات ويهاجمون الأحياء ويقتحمون البيوت، ونحن نسدل الستار على الماضي فلا يبقى أمام البصر سوى ذلك الفرح والابتهاج بعيد الاستقلال يملأ أرواحنا ومدرجات الملعب التي حجبت عن الأنظار بآلاف الناس من أهل المدينة وهم يتهيأون لاستقبال الاستعراض بالعواطف المعدة سلفاً للانفجار.

وفجأة دوّى صوت في الفضاء سُمع كأنه دفقات متواترة من الرعد، وبالرغم من نقاء السماء من الغيوم فقد بحثت عيوننا عن مصدر الصوت الذي لم نسمع له مثيلاً من قبل فوقعت على كتلة فضائية تزحف بهدوء، فإذا هي طائرة قادمة من طرف الشرق تتهادى، وما لبثت أن أصبحت فوق الملعب تحلق في مسار دائري وتغطي جوّه بقصاصات تتساقط منها فتتحول سماؤه إلى عرس من أوراق ملونة. وبعد ذلك قامت الطائرة بالاتجاه نحو الجبل لتمرق منسابة من فوقنا فما عدنا نستطيع ملاحقة مشهد الأوراق وتحليق الطائرة في آن، وهكذا أضعنا متعة مراقبة حدثين جديدين في حياة حلب، وكنا من قبل نعرف عن أوراق المناشير الأرضية فقط وهي توزع على الناس في أيام الإضراب والاحتجاج فلم يكن لأحد أن يتصور نزولها من السماء، كما أن معرفتنا بالطائرات اقتصرت على ظهورها في الأفلام السينمائية، لذا بات ليوم الاحتفال بالاستقلال نكهة تبشر بأن ماسيحدث في الملعب بعد قليل سيكون له وقع في النفوس لن ينساه أحد.

وعاد الدوي من جديد يقترب منا، كأن الطائرة قررت العودة لاستكمال مشاركتها فرح المدينة. ولحظة مرقت من فوق رؤوسنا ارتفعت الأذرع تلوح لها كتحية لطائر ينثر البهجة على أهل حلب، وأحسست آنذاك أن التحليق في الفضاء يمنح الشعور بحرية لا حدود لها وكأنه التجلي الأوحد للتعبير عن السرور بخروج قوات الاحتلال من بلادنا. وارتبط احتفال السماء بالعرض الذي نتوقعه ملتهبًا في ساحة الملعب.

تساءلنا ونحن نتابع حركة الطائرة التي ترقص:

«لا بد أنها عسكرية!».

إلا أن الخوف استبدَّ بي في لحظة خاطفة من مراقبة الطائرة وأنا ألمح دخانًا أسود يلاحقها خارجًا منها، فصرخت بالرفاق منبهًا وكانت عيونهم أيضًا تتابع المشهد وقد أصيبوا بالذهول للمشهد السماوي. وتزايد الخوف في نفوسنا ونحن نتابع انحدار الطائرة باتجاه الأرض التي أخذت تشدها إليها فخرج الذعر فجأة من جميعنا وقد مال مقدم الطائرة ليصطدم بالسور من خارجه محدثًا فرقعة كرعد غطى على الصراخ الذي أرسلناه.

الذهول أحال الصِبْيَة إلى تماثيل.

التماثيل انغرست في تراب الجبل وقد نحتها الذعر.

هتفت بعد صمت حل بنا كالفجيعة:

«كانت كارثة يوم النصر».

فتحركت أجساد الصبيان لتنحدر مهرولة على السفح، فوجدت نفسي ألحق بهم. كنا نتزلق على السفح باتجاه الملعب، وكنت أغالب الألم من خلفهم فلا أستطيع أن أجاريهم في سرعتهم. وفي منتصف الطريق توقفت أعاين مشهد الكارثة من جديد محاولاً تقصي ماأحدثته من خراب، وكذلك تمهل الآخرون وكأنهم يريدون التأكد من الواقعة. وكنا جميعًا نحدق في المشهد بعد أن بات أكثر وضوحًا. الطائرة تستقر منكسة الرأس خارج الملعب الذي أطل عليه الجناحان باستسلام، واكتظت الساحة بأعداد هائلة من البشر فبانت كيوم الحشر والناس منتشرون يتحركون بجنون في كل اتجاه وكأنهم فقدوا القدرة على البحث عن منافذ الخروج. وكانت أصوات الذعر تصل إلينا وكأن الخطر يلاحقهم كشياطين الشر ويبدو أنه كنا الوحيدين الذين عرفوا الحقيقة، فالطائرة لم تسقط داخل الملعب. إلا أن ما كان يحدث في الملعب يشير إلى اعتقاد الجميع أن الطائرة قد وقعت في الملعب نفسه، لذا كان الهلع السائد يخرج من ذلك الاعتقاد ويتمدد كبقعة الزيت.

وتابعنا المسيرة إلى الملعب البلدي الذي بات بلديًا بحق. وإذا ما اقتربنا من موقع الطائرة شاهدت الطيار عن بعد يحاول أن يدفع عنه غطاء القُمّرة وقد غطى الدم وجهه فهتفت عاليًا مرحبًا بحياته التي تدل عليها حركة ذراعيه فأيدني الصبية بفرح تهليلهم. وما إن تقدمنا لنقترب من الطيار الناجي حتى همَّ عدد من أفراد الشرطة يحيطون بالطائرة وكأنهم خرجوا من المجهول، وضربوا نطاقًا حول موقع الحادثة يمنعون أي أحد من الاقتراب.

وكان علينا آنذاك أن نستطلع واقع الملعب، فاستطعت أن أشق لنفسي طريقًا في البوابة التي بدت كعنق زجاجة تلفظ أحشاءها. وأصبح المنظر واضحًا في الساحة، الناس يتدافعون فيما يطلبون النجاة، فمن نسوة تبحث عن أطفالها ورجال تهلل وتكبّر. الأحذية منتشرة على الأرض إلى جانب أجساد تئن في استلقائها على الأرض وكأنها تبكي. ذعر لم يكن له مثيل أيام الفرنسيين وبخاصة عندما يستخدم فيها الجنود رصاص

(الدمدم) في ملاحقة الثوار وقمع المظاهرات، وفوضى لم يشهد مثلها سوق (الجمعة) الذي كان يستقطب أهل المدينة والريف في الساحة الترابية الهائلة وهم يتبادلون السلع والحاجيات القديمة. وكنت أحاول أن أساعد من تعثر في هروبه لأنه فقد شيئًا يخصه، ولكنني لا أنكر رغبتي في البحث عن رفاق فريق المدرسة الذي يشارك في الحفل والذي لم يظهر لي أي منهم، إلا أنني عثرت على عدد من (المسكات الهندية) التي كان من المقرر أن يقدموا بها عرضًا على إيقاع الموسيقا والتي ستسحر الناس برشاقتهم وهم يحركونها في الهواء ببراعة. وقد كانت الطبول والأبواق قد انتشرت أيضًا في الساحة، فكأن البشر لم يطلبوا في تلك الواقعة سوى السلامة.

وكانت حكايات جدتي عن حرب (السفر برلك) أيام العثمانيين تتوارد إلى ذهني وأنا أجول بقدمي الملتوية في أرجاء الملعب متأهبًا لتقديم أية خدمة في ذلك اليوم الذي لم أشهد له مثيلاً من قبل ومن بعد. وقد ظلت أحداث ذلك اليوم الحلبي تطاردني في منامي ويقظتي وأتساءل أبدًا عن خطورة الذعر إذا ما كان جماعيًا. وبالرغم من أن فضولي ظل قائمًا وهو يبحث عن النتائج التي أسفر عنها ذلك الحدث الذي كاد أن يدخل التاريخ مع أحداث أخرى شهدتها المدينة منذ غزوات المغول والتتر، لكن حقيقة ماحدث لم تذكر حول تشبع فضولي في معرفة الخسائر التي أصابت أهل حلب في إحيائهم لذكرى الاستقلال.

حلب - أيار ٢٠٠٥

❖ ❖ ❖

آفاق المعرفة

جماليات اللـــون في شعـر أبي العـلاء المعـري

عصام شرتح(*)

رُبمَا يبدو غريباً أن نعرض لعالم الألوان ونصله بالعالم الشعري للمعري، خاصة وأن المعري كفيف، لكن إذا أدركنا امتلاء هذا العالم بالتنوّع والتغيّر، والدلالات والرموز زالت الغرابة، وأخذت استعمالات اللون في الشعر عامة وعند المعري بخاصة، أهميتها التي تستحقها، بوصفها عنصراً من عناصر المعجم الشعري الذي يميّز كل شاعر.

وأوّل من نشر بحثاً عن عالم الألوان هو «هاجو ماجنوس» في كتابه الذي يحمل عنوان «التطوّر التاريخي لمعنى اللون عام ١٨٨٧، ومنذ ذلك الوقت والخلاف

(*) عصام شرتح: باحث وناقد سوري..

- العمل الفني: طاهر البني.

مستمر بين الدارسين والنقاد حول مصداقيّة توظيف الدوال اللونية في الأدب[1].

ومن الباحثين والنقّاد المفكرين لوظائف اللون في الأدب، سارتر، الذي فرّق تفريقاً قاطعاً بين الأدب والفنون على أساس: «أنّ العمل في الألوان.. غير التعبير بالكلمات، نظراً إلى أنّ هذه الألوان ليست علامات، لأنها لا تردّنا إلى شيء خارج عنها، صحيح أنّه ما من إحساس إلاّ وتدخله دلالة. ولكن المعنى الصغير الغامض، الذي يسكن اللون لا يُعَدُّ أمراً ذا بال»[2].

غير أنّ بعض الباحثين أكّدو دور اللون، وأثره ليس فقط في الأدب، وإنما في كافة أنواع الفنون، وعلى رأسهم عالم النفس الانجليزيّ «إدوارد بلو» E. Bullough الذي يقول «تلك المسألة العقيمة» مسألة ما إذا كان ثمّة ألوان سارّة بذاتها، وعلى نحو شامل»[3].

وقدّم تصنيفاً لأنماط من استجابة المتلقي لجماليات اللون، أطلق عليها: «الترابطي، والفسيولوجي، والموضوعيّ، ونمط الشخصية»[4]. وخلص من ذلك كلّه إلى النتيجة التالية: «لا يمكن وضع قاعدة قارّة بشأن القيمة الجمالية للون بوجه عام»[5]. لأنّ اللون نفسه ينضوي على عدة ألوان، وهو بذلك يجعل لكل لون رمزاً خاصاً به.

واللافت أنّ المعري قد تعامل مع الألوان بكل طاقتها التعبيريّة، وذلك باستعمال دوال متعدّدة المراجع الدلاليّة، نتيجة للرموز والإشارات الصادرة منها، ومن ثمّ شكّلت خطاً رئيسياً من خطوط المعنى في قصائده الشعريّة.

إنّ أوّل ما يستدعي الانتباه في قراءة قصائد هذا الشاعر، على المستوى الشكلي، تردد مفردة اللون بشكل يفوق مفردات أخرى سواء الألوان الصريحة منها: الأحمر، والأصفر والأخضر والأبيض والأسود أم المؤولة «ظلال الألوان» مثل: الشمس والصبح والذهب..إلخ، بحيث يمكن عدّها الوجه الدالّ للموضوع، ناهيك عن الصيغ التي تنتمي إليها، والتي تمثل - بتعبير ريتشاردز: «الأستار المتضاعفة التي يختبئ تحتها ذلك التطابق الخفي للون»[6].

وهو الموضوع الرئيسي الذي يقود إلى اكتشاف البنية الموضوعيّة للنصّ الشعري عند البدوي، وعلى المستوى البلاغيّ يوظّف المعريّ دواله اللّونية في الصور الفنية كالتشبيه، والاستعارة والكناية والتجسيد والتجريد والتشخيص، عبر استهدافه توسيع خارطة حساسيته الشعريّة.

وتسهيلاً لمفهوم ما سيرد علينا من الصور الوضعيّة في هذه الصبغة اللونية، نفضل تسجيل كلماتها وما تتضمنه من معانٍ ومفاهيم مستقلة أو متصلة ببعضها.



- الزعفران: نبات أصفر الزهر.

- الورد: الزعفران، الأسد الذي يضرب لونه إلى الحمرة.

- الورد من الخيل: ما كان أحمر اللون إلى صفرة.

- الأحمر: الذهب والزعفران واللحم والخمر، يقولون (نحن من أهل الأسودين لا من أهل الأحمرين) أي من أهل التمر والماء لا من أهل اللحم والخمر.

- الأصفران: الذهب والزعفران.

- زَبْرَقَ الثوبَ: صبغه بحمرة أو صفرة.

- الشقرة: هي لون يأخذ من الأحمر والأصفر، والشقارى: نبات أحمر، شقائق النعمان.

- الأرجوان: شجر له ورد: صبغ أحمر، ثيابٌ حُمر.

- الدهناء: عشبة حمراء يدبغ بورقها.

- الدهان: الجلد الأحمر.

- القرمز: صبغ أحمر.

- الكميت من الخيل: ما كان لونه بين الأسود والأحمر.

- والكميت أيضاً من أسماء الخمر لما فيها من سواد وحمرة.

- الأصهب: الذي يخالط بياضه حمرة.

- الصهباء: الخمر.

- العصفر: صبغ أصفر اللون.

- الصبيب: العصفر.

- الورس: نبات كالسمسم يصبغ به ويتخذ منه الحمرة.

- الغمرة: الزعفران: طلاء يُتّخذ من الورس.

- الوارس من الثياب: الأحمر. وارس الحمرة: شديدها.

والجدير بالذكر أن للمكفوفين مفاهيمَ عقلية ورموزاً تعبيريّة عن المعطيات البصريّة يُكيِّفونها قدر استطاعتهم مع المعاني والمفاهيم عند المبصرين لتكون متفقة ومنسجمة معهم في التعبير عما يختلج في نفوسهم على نحو منظم يتفق وتفكير الكفيف في الأمور البصريّة وتوضحه، وتجعله مشاركاً اجتماعياً ومندمجاً مع بيئته من المبصرين.

وهنا تستلزم الإشارة إلى أنّ الكفيف كثيراً ما يستفيد من تلك الارتباطات الاقترانية اللفظيّة عند المبصرين، فيُشكِّل منها صوراً خاصة لمفاهيمه الضوئية، كقولنا: الشمس المشرقة ونور الصباح، وضوء الضحى، وإشراقة الفجر، والليل الداجي، وسواد الليل، وخضرة الربيع، الدم الأحمر الثلج الأبيض وما إلى ذلك، فمنها ما يقرنها في خياله بإحساسات لمسيّة أو سمعية بسبب أو بارتباط ما، ومنها ما تبقى في خياله معاني مجرّدة، وبعضها تقف على لسانه ألفاظاً لا يحمل أي معنى وارتباط الإحساسات اللمسيَّة أو السمعية بالألوان ليست من اختصاص المكفوفين فحسب، فهناك من المبصرين من يشعر بمثل هذا الإحساس فيتجاوب عنده لون خاص مع صوت ما، ولون آخر مع ملمس ما. وذلك أنّه أحياناً «تأتي في صورنا العقلية بحيل غريبة. فمن خصائصها العجيبة أن يرى بعض الأشخاص ألواناً في أشياء لا يرى فيها أغلبنا ألواناً ما، كصوت بعض الآلات المختلفة مثلاً، أو حروف الهجاء أو أيّام الأسبوع أو أشهر السنة»(٧).

ومن ذلك قول أحد الرمزيين يصف لون السماء وهي مغطاةٌ بسحب بيضاء «وكأنَّ لون السماء في نعومة اللؤلؤ» فهو وإن لم يُحدِّد اللون بلفظ من الألفاظ التي تعبِّر عنه غير أنّه مع ذلك ولَّد في نفوسنا إحساساً بهذا اللون، ونقل إلينا وقعه على نفسه بعبارة نعومة اللؤلؤ التي استمدها من عالم اللمس.

على أنّ المبصر قد يعطي وصفاً ليس فيه ذكر اللون ولكنه يعطينا إحساساً باللون، وكأنّه قد حدَّده لنا تحديداً، أمّا الكفيف فقد يذكر اللون ويجدِّده ولكنّه لا يكون دقيقاً ومعبِّراً أو متحسساً جمال موضعه بل كثيراً ما يكون مجافياً لروح المعنى الذي يذهب إليه أو يكون غير مناسب ولا منسجم مع الوصف الذي يأتي به. وذلك لأنَّه نقل تلك الأوصاف الضوئية

عن ما سمعه وقرآه في أدب المبصرين دون تحسس واستيحاء ذاتي له.

فليس بالغريب، إذاً، على الكفيف أن يستفيد من الاقترانات اللفظية هذه التي نستعملها لمفهوم اللون ويضيف إليها ما يُحَصِّله هو أو يستفيده من تجاربه وخبراته الشخصية من الارتباطات الحسيَّة السمعية واللمسية باللون مما يُكَوِّن بذلك مفاهيم عن الألوان تمكنه من التجاوب الفكري أو اللفظي على الأقل مع مفاهيم المبصرين عن الألوان، تساعده على التكيف الاجتماعي المنطلق مع البيئة التي يعيش فيها.

ومن خلال تصنيفي للأبيات وجدت أنَّ أبا العلاء يذكر بعض الألوان دون أن يقصدها بصفاتها اللونية وإنما يذكرها باعتبارها أسماء، فهي صفات غلبت على موصوفها حتى صارت اسماً له.

من قوله:

وأطلَسَ مُخْلِقِ السِّربالِ يَبْغِي
نَوَافِلَنَا صِلاحاً أو فَسَادا[8]

أطلس: الأغبر اللون - وهو هنا يعني ذئباً، فيقول:

وذئب بائس سقط شعره وهزل جسمه وفسد شكله، فكأنَّه يتسربل بسربال خلق لكونه في فلاة مجدبة لا شيء فيها، فهو يتعرَّض لخير المسافرين وشرِّهم، ويطلب عطايانا لسدِّ جوعه.

ومنه قوله:

يَرَى وُقُوعَ الزُّرْقِ في درْعِه
مِثْلَ وقوعِ الزُّرْقِ في جِلْدِه[9]

الزرق هنا تعني الأسنَّة، غلبت عليها صفة الزرق حتى صارت اسماً لها، لما تحويه الزرقة من معنى الصفاء، وخير الأسنة ما هي صقيلة صافية، ومن مضمون هذا البيت نستدل على أنَّه بكلمة الزرق يريد معنًى بعيداً عن المعنى اللوني وهو الأسنة. فكلمة الزرق هنا إذن قد بعدت عن المعنى اللوني، واقتصرت في الدلالة على الأسنة، وكذلك في مثل قوله في وصف درع:

«تَزاحَمَ الزُّرْقُ على وِردِها
تَزاحُمَ الوِرْدِ على زَمْزَمِ»[10]

فالأسنة والنصال تُكَنَّى بالزرق لما في لونها من الزرقة والصفاء. فالزرقة صفة غلبت على أسنَّة الرماح وأغنت عن الاسم. واستعمال المعري لها هنا كاسم لا كصفة:

وفي قوله:

«وفيهم البيضُ أَدْمَتْهَا أساوِرُهَا
رَمْيَ الأساورِ إجلاً حارَ مَبْغُوتا»[11]

يريد أن فيهم النساء الحسان الممتلئات أجسامهن امتلاء تضيق به الأساور فتدمي أيديهن كدمي قطيع البقر الوحشي الذي يُبَاغت بالرماة فيحار أنى يذهب.

ولا حاجة للإطالة في هذا الشأن. ولنا أن نبحث في الأبيات التي تخصّ الضوء والظلام ولو دققنا في أبيات المعري وبالتحديد في لزومياته لوجدنا أنَّ هناك تلازماً بيناً عند المعري بين الضوء والظلام واللونين الأبيض والأسود، فهو لا يكاد يذكر ضوء الصباح إلاَّ ويقرنه بالبياض ولا يذكر ظلام الليل إلا ويقرنه بالسواد، وليس أبو العلاء من ابتدع هذه المشاكلة ولا هو وحده من قرن بين هذا وذاك، وإنما هو نسج على منوال من سبقه من الأدباء والأمثلة كثيرة جداً أوضحها قول أحدهم:

فالوجهُ مثل الصبح مبيضٌ
والشعر مثل الليل مسود
ضدان لما استجمعا حسنا
والضدُ يظهر حسنَهُ الضدُ[12]

فلاغرو أن يكون كف البصر عند أبي العلاء عاملاً مساعداً لأن يضفي صفة الضوء أو الإشراق على كل ما هو أبيض اللون، وصفة الظلام والعتمة على كل ما هو أسود اللون وبالعكس ويقرن كل منهما بالآخر قرناً وصفعاً يعلم أنّه مقبول ومعقول عند المبصرين.. وهو بذلك يحقق صوراً وصفية وتشبيهيةً فيها جودة وجمال ورونق محبب.

واللونان الأسود والأبيض قد تناولهما المعري كثيراً في شعره، وتداولهما في سهولة ويسر، وأخرج منهما مخارج من الصور مختلفة، وتفنَّن في إبراز ما عنَّ له من الخطوط الوصفية والتشبيهية فيهما، إذ كانا لا يمثلان عنده الصفة اللونية فحسب، بل قد أكثر من اتخاذهما رمزاً للتناقض.. للحسن والقبح.. للخير والشر، للسلب والإيجاب، كما يمثلان لديه الضوء والظلام.. وعليه يصعب فصلهما لذلك سنتناولهما في شعره معاً، ونرى أوجه استعماله لهذين اللونين وما دلالتهما عنده ونبدأ أوّلاً بكل ما يخصّ الضوء والظلام وبما يعلق بهما من هذين اللونين.

ونبدأ بكلّ ما يخصّ الضوء والظلام وبما يعلق بهما من هذين اللونين وغيرهما، ويشاء أبو العلاء أن يكون أول ذكر للضوء عنده قوله في مطلع ديوانه سقط الزند:

«أعن وخدِ القلاص كشفتِ حالاً
ومنْ عند الظلام طلبتِ مَالا
ودُرّاً خلتِ نجمَهُ عليه
فهَلّا خلهنّ به ذُبَالا
وقلتِ: الشمسُ بالبيداء تبرٌ
ومثلُكِ مَنْ تَخَيَّلَ ثم خَالا
وفي ذوبِ اللُّجَيْنِ طَمِعْتِ لَمّا
رأيتِ سَرَابَهَا يَغْشَ الرُّمَالا»

فهو في هذه الأبيات قد شبَّه أنجم الظلام بالدر تارة، وبالذبال تارة أخرى، كما

شبَّهَ نور الشمس بالذهب صفرة، وضوء السراب بالفضة بياضاً، وجمع بين هذه الصفات الضوئيَّة واللونيَّة بمعنى بليغ رقيق... فمن أين عرف أبو العلاء المعري كل هذه العلامات البصريَّة، وكيف أدرك تلك الصلات الضوئية... هل هي من استنتاج إدراكه واستحياء مخيلته الذهنية، أم أنَّه قد نقل هذه المعاني البصريَّة نقلاً مباشراً عن الأدب العربي، لن نذهب بعيداً وهذا أبو الطيب المتنبي يشير في بيت شعري إلى العلاقة اللونية والضوئية بين الكواكب والدر والشمس والذهب في قوله:

تُجنَى الكَوَاكِبُ في قلائِدِ جِيْدِ

وتنالُ عينُ الشمسِ منْ خلخالهِ

وقال جرير يشبه النجوم بالذبال:

سَرَى نَحْوَهَم لَيْلٌ كأنَّ نُجُومَهُ

قَنَاديلُ فيهنَّ الذُّبالُ المُفَتَّلُ

ولأبي العلاء تشبيهات أخرى في هذا الشأن منها قوله في وصف مورد الماء:

تظلّ به ذوب اللجين فإن بدت

له الشمس أجرت فوقه ذوب عسجد

تبيت النجوم الزُّهر في حجراته

شوارع مثل اللؤلؤ المتبدِّد

فأطمعن في أشباحهنَّ سواقطاً

على الماءِ حتَّى كدن يلقطن باليد[١٣]

فهنا قد شبَّه الماء بذوب الفضة، فإذا ما ظهرت له الشمس أحالته إلى لون الذهب ونتساءل بأيِّ عامل ضوئي كان هذا المورد من البياض بلون الفضة أيكون كذلك في ظلمة الليل المدلهم، أم تكفي أشعة النجوم لأن تجعل منه ذوب فضة... أم أنّه يعني ضوء القمر الذي لم يذكره وعلينا أن نستوحيه بذكر الشمس، وقد بدت فغيَّرت مورد الماء من أشعة القمر الفضية إلى أشعتها الذهبية.

وفي البيت الثاني والثالث يصف انعكاس النجوم في أنحاء مورد الماء هذا بلؤلؤ منتشر في داخله حتى يكاد الرائي أن يلقطهنَّ بيده ظناً منه أنهنَّ لؤلؤ حقيقي.

ولئن اعتمد أبو العلاء في تشبيه النجوم باللؤلؤ على أقوال بعض الشعراء من قبله كما بينا وغيرهم، فمن أين له تلك الصورة الفنية الدقيقة لانعكاس النجوم على صفحة الماء... أتراه قد أخذها من قول العجاج:

باتَت تظنُّ الكواكب السيارا

لؤلؤة في الماء أو مسمارا[١٤]

أم من قول البحتري في وصف بركة:

إذا النجوم تَرَاءَتْ في جَوَانِبِهَا

لَيْلاً حَسِبْتَ سَمَاءً رُكِّبَتْ فيها

لا شكَّ في أن المعري في قوله هذا:

فمدَّتْ إلى مثل السماء رقابها
وعبَّتْ قليلاً بين نسرٍ وفرقد »[١٥]

قد أفاد من قول البحتري (حسبتَ سماء رُكِّبت فيها)

وقد أكثر أبو العلاء المعري من مقارنة سواد الشعر وبياضه وبالليل والنهار والضوء والظلام ومن ذلك قوله:

لونـان من ليـلٍ وصبحٍ لوّنـا
شعري وأضعفني الزمان الأيِّد »[١٦]

ومن محاسن أبي العلاء في ذكر الشيب وضوء بياضه، قوله:

هي قالت لَّما رأتْ شيب رأسي
وأرادت تنكُّـراً وازورارا
أنا بدر وقد بدا الصبح في رأ
سـك، والصبح يطـرد الأقمـارا
لست بدراً، وإنما أنت شمسٌ
لا ترى في الدجى، وتبدو نهاراً »[١٧]

ومن بديع تشبيهات قوله:

«كأنَّ ضياءَ الفجر سيفٌ يُسلُّهُ
عليهم صباحٌ، بالمنايا مُدرَّبُ »[١٨]

ولَّما كان كلٌّ من الشيب والسيف يشبّه بالصبح بياضاً فلا غرابة أن يستخرج أبو العلاء المعري من بياض الشيب والسيف صورة تشبيهيَّة أخرى، فيقول:

والشَّيبُ في لون الحسام، فلا تَدَعْ
جَسَدَ النَّجيع على الحسام القاضِب »[١٩]

ولقد أولع أبو العلاء بذكر الغراب وسواده كما هو مولع بذكر بياض الشيب وسواد الزنوج، وقد جمع كلَّ ذلك في صورة وصفية طريفة بقوله في وصف غربان:

كَعُصْبَةِ زنجٍ رَاعَهَا الشيبُ فازْدَهَتْ
مَنَاقِيشَ في دَاجي الشبيبةِ أَفْزَعِ
بَغَتْ شَعَرَاتٍ كالثَّغام فَصَادَفَتْ
حوالكَ سُوْداً ما حَلَلْنَ لِمرْتَعِ »[٢٠]

شبَّه الغربان وهي تنتف ريشها بجماعة من الزنج أفزعتها بضعة شعرات بيضاء فاتخذت مناقيش تنتفه بها، وشبّه بذلك منقار الغراب وهو ملتف إلى ريشه ينتف فيه، بالنقاش، ولما كان الغراب أسود اللون لا يخالطه بياض، فإن أبا العلاء يكمل الصورة الوصفية بقوله إن هذه الغربان وهي تعبث بمناقيرها في الريش تبغي شعرات بيضاء كزهر الثغام ولا تجد غير الحوالك السود وإنها لحرام أن تكون مرعى للمناقيش.

وقد برع أبو العلاء في التصرف بالمعاني اللونية شأنه في كل الأغراض التي تطرق إليها، وهي بضعة أبيات نلمس فيها كيف استفاد من الصفات اللونية السابقة في معانٍ أخرى، فقد شبّه خمرة العنب الأسود بالزنج لوناً في قوله:

وهي روميّـةٌ لزنجيـةِ الأعـ

ـناب، فيها طعمٌ من الزنجبيل[٢١]

وكذلك شبَّه الشيب بزهر النبات:

قد شابَ رأسي، ومن نَبْتِ الثرى جَسَدي

فالنبتُ آخرُ ما يَعْتُو به الزَّهرُ[٢٢]

يريد أنَّ جَسَدَ المرء يَنْمُو بواسطة نَبَاتِ الأرض، وكما يزهر النباتُ بَعْدَ تمامِ نموه كَذَلِكَ يَزْهرُ الإنسانُ شَيْباً.

ومن بدائع وصفه للشيب قوله:

«الشيب أبهى من الشباب

فلا تَهْجُنْهُ بالخضاب

هذا غرابٌ وذاكَ بــازٌ

والبازُ أبهى من الغراب»[٢٣]

أم اللون الأصفر فله دلالة سلبية عند المعري يشبهه بصفرة الموت ويذكره به:

فأنّى أرَى الكافورَ والطيبَ كلَّـهُ

يزولُ بموتٍ جاءَ في يَدِهِ وَرس[٢٤]

يُشَبِّه صفرة الموت بصفرة هذه الصبغة، وصفرة الورس تشبه بها صفرة الشمس أيضاً.

ويقول أيضاً:

خَضَبْتَ بَيَاضاً بالصبيبِ، صَبَابَةً

ببيضاءَ عَدَتْكَ البنانَ المُخَضَّبَا»[٢٥]

والصبيب هو العصفر، والعصفر هو أصفر اللون، ويقال إن الصبيب هو ماء ورق السمسم أي الورس، وقيل هو شجر يشبه السذاب يختضب به، وقيل هو السناء الذي تخضب به اللحى كالحناء، وقيل هو عصارة العندم.

ونعود إلى صفرة الموت في قول أبي العلاء:

سَلَبَتْهُ بُرْدَ الوَرْدِ، راحةٌ ميتة

غَصَبَتهُ، حَيْنَ كَسَتْهُ بُرْدَ بنفسج

غشَاه، مُصْفرَّ الأناملِ، خَافياً

فكأنّـه، لبيانِـه، لم يَنْسُج»[٢٦]

يريد أنَّ الموت سلب منه لونه الوردي وكساه صفرة وزرقة، وليست صفرة الموت أو زرقته بعيدة عن أسماع العامة، فما جاء أبو العلاء هنا بالإبداع الفني الدقيق للصورة اللونية بالشكل الذي يجعلنا نتساءل من أين له بهذا الإدراك والمفهوم اللوني وكيف تمكن منه.. وإن استعمل الزرقة هنا بصفتها اللونية، فإنه في بقية أبياته الشعريَّة التي وردت فيها صفة الزرقة إنما أراد بها معنى الصفاء كقوله في وصف إبل بالضمور:

«إذا شَرِبَتْ رأيتَ الماءَ فيها

أُزَيْرقَ لَيسَ يَستُرُهُ الجرانُ»[٢٧]

يريد أنَّ هذه الإبل من شدّة هزالها قد رقَّت جلودها حتى أنَّك ترى الماء صافياً

وهو ينزل في أعناقها إذا ما شربت فلا يستره من باطن العنق شيء لدقته ورقته.

وصفة الماء بالزرقة يعني بها الصفاء، وكذلك في قولهم نصلٌ أزرق وأسنةٌ زرقاء فإنَّهم يريدون أنها شديدة الصفاء صقيلة ذات بريق ورونق، ويجمع أبو العلاء بين زرقة الماء وزرق أسنة الرماح في قوله:

«تَذَكَّرْنَ من ماءِ العَوَاصِمِ شُرْبَةً

وَزُرْقُ العَوَالي دونَ زُرْقِ جِمامِهِ»[28]

يقول: إنَّ هذه الإبل وقد أعرضت من شرب الماء راغبة في شربه من ماء العواصم، ولا تدري إنَّ في ذلك الموضع شدَّة وفتنة تحول دون بلوغنا إيّاه وإنَّ بيننا وبين مجمع العواصم رماحاً صقيلة لأسنتها رونق وبريق.

ومن ذلك قوله:

إنْ شَرِبُوا الرَّاحَ، فَمَا شُرْبُنَا

في الراحِ إلاَّ الأزرقُ البارِدُ[29]

أي: إن شربوا الخمرة فنحن لا نشربها بل نشرب الماء والبارد الصافي.

أمَّا اللون الأخضر في شعر المعري فقد نال حظّاً أوفر بعض الشيء إذ طرقه طرقاً خفيفاً، ولمسه في خفَّةٍ وإناةٍ وحذر.

وإنَّ أوَّل إشارة له في شعره أطلقها إطلاقاً عاماً في وصف الربيع الذي حلَّ في إمرة ممدوحه، يقول المعري:

قد أتاكَ الربيعُ، يفْعَلُ ما تأ

مُرُهُ فِعْلَ عَبْدِكَ المأمُورِ

وكَسَا الأرضَ، خِدْمَةً لكَ يا مَوْ

لاهُ دونَ الملوكِ خُضْرَ الحريرِ

فهي تختالُ في زَبَرْجَدَةِ خضـ

ـراءَ تُغْذَى بلؤْلُؤٍ مَنْثُورِ

وغَدَتْ كُلُّ ربوةٍ تَشْتَهي الرَّقْـ...

...ـصَ بثوبٍ من النباتِ، قصيرِ[30]

وهكذا وصف الربيع، ووضع له مفاهيم عامَّة، وتناول اللون الأخضر فيه بخفَّةٍ وأناةٍ وحذر، فالصلة بينه والنبات وبينهما والربيع واضحةٌ على كل لسان، ومع ذلك نشعر أنَّه لمس الخضرة في هذه الأبيات لمساً، رغم أن كلَّ اعتماده في وصف الربيع كان على هذا اللون وكأنَّما لم يتجرأ على طرق بقيَّة الألوان التي يزهو بها الربيع، بزهوره المختلفة فتوكأ على ذكر بعض الأحجار الكريمة، وما أكثر ذكرها في أشعار العرب، وما أسهل أن توحي للمعري بأن يقول في ثقة:

فهي تختالُ في زبرجدةِ خضـ

..ـراء، تُغْذَى بلؤلؤٍ منثورِ

فكما أطلق صفة الخضرة للرياض فقد أطلقها اسماً للبحر فهل هذه الخضرة اللونية من تلك في مفهوم أبي العلاء المعري؟ أم أنَّها من أقوال الشعراء في صفة

البحر ولجهه بالخضرة كما يقول المعري حين جمع بين خضرة السيف وخضرة نبات الآسى في قوله:

وشُربُ الفَنَاءِ بخُضرِ الفِرِنْدِ

كَأنَّ على أسْهنَّ الفَنَا(٣٠)

شبَّه دماء المنايا على خضرة السيوف بِحَبِّ شجر ٱلْفَنَا الأحمر على رياحين الآسى الخضراء، فهل السيفُ أخضر اللون حقيقة؟!

وكذلك في قوله:

«بأخضرَ مثلَ البَحْرِ ليسَ إخْضرارُهُ

من الماءِ لكن من حَديدٍ مُسرَّدِ»(٣١)

ومعنى البيت: يجيش مثل البحر عظمة ولوناً غير أنَّ خضرة هذا الجيش ليست خضرة ماء وإنما هي خضرة حديد منظوم هو حمولة الجيش من السلاح ونحن نعرف إنَّ الحديد يميل إلى السواد، ومع ذلك فهو يقول في وصف درع:

«بيضاء خضراء مثل الماء طحلبه

مرُّ الزمان وما في اللون من صدأ»(٣٢)

يريد أنَّ هذه الدرع البيضاء اللون تعلوها الخضرة فهي في بياض الماء وخضرة ما عليه من الطحلب في مورد ما:

فمن الأبيات السابقة رأينا المعري، يصف بالخضرة البحر والسيف والدرع والجيش بما يحمل من عامَّة السلاح.. فالبحر ماء، والماء يوصف بالبياض، والسيف والدرع طالما كنى بهم المعري بأبيض وبيضاء، وشبهها بالماء والسراب بياضاً وصفاءً.. فما بال أبي العلاء يصف السلاح بالبياض والسواد والخضرة معاً، وكذلك يصف الماء بالبياض والخضرة والسواد معاً.. أهو إغراب واضطراب في وضع الصفات اللونية.. أم أنَّه لا يقدر عن إدراك حقيقي ما للأضواء وتغييرها من تأثير على الألوان.. لا هذا ولا ذاك، وإنما وإن كانت لأبي العلاء مفاهيمه الخاصَّة عن الألوان، غير أنَّه على ثقة بأنَّ العرب لسبب ما، تعطي هذه الصفات اللونية على اختلافها وكثرتها والصور التي يجدها للمدركات البصريَّة في الأدب العربي، ويلم بها في شعر السابقين والمعاصرين.... وعليه فإنَّ أبا العلاء يعرف أن العرب لسبب ما تسمي بعض السواد خضرة، كسواد الحديد وسواد الليل، ومن ذلك قول ذي الرمَّة:

قد أعْسِفُ النازحَ المجهولَ مَعْسِفةً

في ظلِّ أخضرَ يدْعُو هامَهُ البومُ

أي في عبترليل أسود.

وفي كلام امرئ القيس نراه يشبه الليل بالبحر جلالاً وسواداً على نحو قوله:

ولَيْلٍ كَمَوجِ البَحْرِ أرخى سُدولَهُ

عليَّ بأنواعِ الهمومِ ليَبْتَلي»(٣٣)

ومما سبق يتبين لنا أن المعري قد أفاد من الشعراء الآخرين في توظيف دواله اللونية من ذلك توظيف دال «البحر» في إضفاء صفات جديدة عليه كوصفه بالسواد والخضرة والبياض والزرقة، وعلى هذا النحو استغل أبو العلاء المعريّ هذه المعاني الوصفيّة اللونيّة في تحقيق مختلف الإطارات الصوريّة لها، وها هو قد أبدع في جمع بضعة ألوان للسيف في قوله:

تَلَوَّنَ للأقْرانِ في هبواتها

تلوُّنَ غوْلِ القفرِ للعاجزِ المجْعِ

تقولُ بَدَا في سُنْدُسٍ أو مُوَرَّدٍ

من اللُبْسِ أو عصبٍ يروقكَ أو نصْعِ»(٣٤)

يريد أنَّ هذا السيف يتلون ألواناً مختلفة، كأنَّه الغول، والغول توصف بكثرة التلون، على نحو ما نجده في قول كعب بن زهير:

«فَمَا تَدومُ على وَصْلٍ يكونُ بِهَا

كما تَلَوَّنُ في أثْوابِهَا الغُولُ»

وآخر ما نورده لأبي العلاء من ذكر خضرة اللون بضعة أبيات منها:

مِنْ كُلِّ مَنْ لَولا تَسَعُّرُ بأسِـهِ

لأخْضَرَّ في يُمْنَى يَدَيهِ الأسمرُ»(٣٥)

الجواد الكريم يسيل الخير من بين يديه، والخير كلمة تكاد مرادفة عند العرب لخضرة الزرع ووفرة محاصيله، ولذلك فقد جعلوا اخضرار ما بين اليد كناية عن الجود والكرم، وأبو العلاء يجمع لممدوحيه في هذا البيت صفة الجود والكرم مع الشجاعة والبأس، فهو يقول، لولا شدّة حماسهم في المعركة وتلُّهب بأسهم لغدت الرماح السمر في يمنى أيديهم خضراء مما يُعْهَد فيهم من جود وكرم.

ونراه يقول في موضع آخر:

وكَنْزُكَ في الغَبْرَاءِ لا بُدَّ ضَائِعٌ

ولكنْ لَدَى الخضراءِ يُحْمَى ويُدَّخَرُ»(٣٦)

والخضراء هنا السماء، وبنفس المعنى يطلق المعري هذه الصفة اللونية في قوله:

كادَ العذابُ من الخضراءِ يُمطرُنَا

وكادتْ الأرضُ تَرغُو تحتَنَا ضَجَرا»(٣٧)

وهكذا نرى أنَّ الخضرة في شعر أبي العلاء أكثر ما ذكرت كصفة غلبت على موصوفها، وصارت كالاسم للسماء والبحر والحديد والجيش، أو استوحت عن صفة ملازمة للوصف في قولنا: خضرة الربيع، وخضرة الرياض وخضرة النبت.

وعلى هذا فإنَّ أبا العلاء لم يجهد نفسه، ولم يُكلِّف مخيلته في تحقيق وتصوير هذه الصفة اللونية، بل أغرب في الوصف، إذ قرن خضرة الحديد بخضرة النبات كصورة تشبيهيَّة، كما كان في قوله:

«وشرب الفناء بخضر الفرند

كأنَّ على آسهنَّ الفنا

وشتَّان ما بين المفهوم الوصفي اللوني لخضرة الحديد وخضرة نبات الآس، ها هو يجعل من خضرة السماء خضرة روض ناضر، ولكي لا يغرب في هذا التشبيه اللوني جعل صورته الوصفية قريبة الفهم، بعيدة الدلالة على نحو قوله:

«إنْ كانت الخضراءُ رَوْضاً ناضراً

فلَعَلَّ زُهْرَ نجومها أزهارُ»(٣٨)

وللأزهار في شعر أبي العلاء شيء من الذكر، على أنَّه لا يكاد يذكرها لذاتها وإنما يأتي بها كصورة تشبيهيَّة مثال قوله في ذكر النجوم:

كأنَّ الأنجمَ السبعةَ في لعبةِ بُقَّارا

خزامى، وأقاحي وصفراء وشقَّار»(٣٩)

فالخزامى نبت أحمر الزهر طيِّبُه، والأقحوان نبات أوراق زهره مفلجة صغيرة وله نورٌ أبيض، والصفراء: نبات رملي أصفر اللون، والشقاري نبت له نور فيه حمرة وهو شقائق النعمان.

ويذكر الأقاحي والشقر (أي شقائقُ النعمان) عادة في صورة وصفية لبياض الشيب وحمرة الخمرة كما مرَّ بنا وكقوله:

«تخالُ نورَ الأقاحي، في عوارضه

يُدْنى إليه بكأسٍ ذائبِ الشُقْرِ»(٤٠)

ويقول في موضع التفاؤل والتشاؤم:

ما أحمَدُ الخيريُّ، فالاً به

ولا أذُمُّ الورد والسوسنا»(٤١)

والخيري: المنثور للأصفر. والسوسن: من الزهور الطيبة الرائحة، ومفهوم هذا البيت يتضح في البيت التالي:

خَيْرِيَّة في لفظها خيْرَةٌ

جاءتكَ بالسوءِ من السَّوسَنَة(٤٢)

من هذين البيتين نرى أنَّه لا يكاد يذكر الزهور لذاتها ولا حتى لألوانها إلا نادراً، كما جاء في مشاكلته لألوان الزهور مع النجوم ولقد توضح لنا من كل ما أوردناه من أبياته الشعريَّة أنَّه كان يفتقد المفهوم الذاتي الخاصّ لأيّ لون من الألوان حتى اللون الأحمر ملك الألوان عنده والذي كان يخيَّل إليه أنَّه يعرفه ويحفظ صورة له في ذهنه. فلم نعثر في أبياته الشعريَّة الوصفيّة في هذا اللون على أي دلالة لمفهوم خاص أو خبرة خاصّة وكذلك ذكره لبقية الألوان، فهو بعيد عن مفهومها اللوني الحقيقي، ولهذا فمن النادر أن تجد ذكرها لتعميق مقصود ما في معنى خالص أو وضع معين في الصورة الوصفية، وإنما هي تأتي في صور وصفية سطحية تفتقد نقطة الارتكاز الحيوي كاللوحات الفنية، فمنها ما تعتمد على خطوط وأضواء عديدة ثم هي لا

تصوّر إلا معنى متداولاً ومنظراً مألوفاً عادياً، ومنها ما تكتفي ببضعة خطوط أو ضوء لوني واحد، ولكنها تشعرك بمعنى عميق فيه حيويّة وحياة.

وفي مثل هذا نجد الصورة اللونية في الأدب، ولعلّ أبا العلاء لو كان مبصراً لرأينا منه إبداعاً فنياً فريداً في عمق المعاني اللّونية في الصورة الوصفية الأدبيّة كما رأينا منه الإبداع في المعاني القويّة العميقة، الفريدة المغزى في بنائه اللفظة ومدلولها المعنوي، ولكان قد توسّع في نطاق دائرة ذكر اللون ولما اعتمد على التكرار والإعادة في الصفة اللونية وأغراضها مثلما رآها في مجال الأدب قبله، ولذلك فهي عنده محدّدة غير مطلقة، مقيدة بأطر خاصة.

ولقد وجدنا أن أبا العلاء في ذكر الأبيض والأسود كان لا يكاد يذكر البياض إلا ويلازمه ذكر الضوء ولا يذكر السواد إلاّ ومعه الظلام، وإذا ما ذكرهما معاً فأكثر ما يكون لوضعهما في صورة وصفية للتناقض، وخاصة في مجال الخير والشر.

فمن الملاحظ أنه كان يجعل لكل لون لازمة يكثر من قرنهما معاً لذكره الأبيض مع الضوء، والأسود مع الظلام، والأحمر مع الدم والأزرق بمعنى الصفاء مع الماء. والأخضر الوحيد الذي كان موزّعاً عنده بين خضرة النبات والحديد والبحر والسماء، ولازمة اللون عند أبي العلاء أشبه ما تكون بالعكاز الذي يستند عليه كثيراً في ذكر اللون دون خشية للعثرة والخطأ.

ولشدّة حذره من تناول الألوان تراه لا يخرج عن نطاق ما هو معروف (متداول) على الألسن إلا في حالة الاعتماد على سند قوي في التراث الشعري العربي.

وخلاصة القول في كل ما مرَّ بنا من أبيات أبي العلاء الشعريَّة في ذكر الألوان أنّه لم يأت منها إلا بما هو كثير التداول على الألسنة وبين السطور، وإن اعتماده في وضع الصور الوصفية اللونية كان على ما سبق إليه في الأدب العربي. أمّا دور إدراكه البصري، ومخيلته الذهنية في هذا كلّه، فإنما ينحصر في حفظ المعاني والمواضع اللونية، واتخاذه الموازنة الدقيقة في صحة استعمالاتها لديه، واتفاق خطوطه الوصفية مع المفاهيم اللونية للمدركات المرئية عند المبصرين، وأي سبيل له في هذا إلا سعة ثقافته وبعد اطلاعه، فلاغرو إذاً أن يخرج إلينا وهو (البحر الذي لا ساحل له) في الأدب بمختلف الصور اللونية في الوصف والتشبيه والفصاحة والبيان.

الحواشي

(١) دياب، محمد حافظ - جماليات اللون في القصيدة العربية، مجلة فصول، مج٥/ع٢/ يناير، فبراير، مارس ص٤٠.

(٢) المرجع نفسه، ص٤٠.

(٣) ستولينتز، جيروم، ١٩٨١ - النقد الفني، دراسة جماليّة وفلسفية، تر: فؤاد زكريا، الهيئة المصريّة العامة للكتاب، ط٢، القاهرة، ص٧٣ - ٧٤.

(٤) المصدر نفسه، ص ٧٣ - ٧٤.

(٥) المصدر نفسه، ص ١١٥.

(٦) دياب، محمد حافظ - جماليات اللون في القصيدة العربيّة، ص٤٧.

(٧) برت، سرلي، كيف يعمل العقل، تر: رياض عسكر، القاهرة، مطبعة دار المعارف، ص٢٦و٢٧.

(٨) المعري - شروح سقط الزند ص ٥٩٦، البيت المرقم /٥٥/ من القصيدة السابعة عشرة.

(٩) المعري - شروح سقط الزند، ص ١٠٢٣، البيت المرقم/ ٤٠/ من القصيدة الرابعة والأربعين.

(١٠) المصدر نفسه، ص١٧٦٤، البيت المرقم /٣٠/ من القصيدة الثالثة والسبعين.

(١١) المصدر نفسه، ص ١٥٧١، البيت المرقم /١٦/ من القصيدة السابعة والستون.

(١٢) المنبجي دوقلة قصيدة اليتيمة.

(١٣) شروح سقط الزند ص٣٧، الأبيات المرقمة ٢٨، ٣٠ من القصيدة الثامنة. ص٣٧٠.

(١٤) ديوان العجاج ص ٢٣.

(١٥) شروح سقط الزند، ص ٣٧٢: البيت المرقم ٣١ من القصيدة الثامنة.

(١٦) اللزوميات ج١/ص٣٣٩.

(١٧) المصدر نفسه ج٢/ ص ٢٣١.

(١٨) المصدر نفسه ج١/ ص ٨٨.

(١٩) المصدر نفسه ج١/ ص ١٦٧، الجسد: صبغة حمراء - النجيع الدم.

(٢٠) المصدر نفسه ص ١٤٩١، المرقمان ٥و٦ من القصيدة السادسة والستين.

(٢١) المصدر نفسه ص ٣٦٢ /ج٢.

(٢٢) المصدر نفسه،ج١/ ص٤٣٥

(٢٣) شروح سقط الزند، ص١٢٨٤.

(٢٤) اللزوميات ج٢/ص٨. الورس: نبات كالسمسم أصفر يصبغ به.

(٢٥) المصدر نفسه ج١/ ص١١٦، الصبيب: العصفر، البيضاء: أراد بها المرأة، السذاب: نبات كريه الرائحة.

(٢٦) المصدر نفسه ج٢/ ص ٢٧٤.

(٢٧) شروح سقط الزند ص ١٨٢ البيت ١٥ من القصيدة الثالثة، الجران: باطن العنق.

(١٨) المصدر نفسه ص ٤٩٥، البيت ٣٨ من القصيدة الخامسة عشرة. العواصم: موضع بناحية حلب في الشام، الجمام: ما اجتمع من الماء.

(٢٩) اللزوميات ج١/ص ٢٤٥ الراح الأولى: الخمر، والراح الثانية، واحدتها راحة: الكف، الأزرق البارد أراد به الماء.

(٣٠) المصدر نفسه ج٢/ ص ٨١.

(٣١) شروح سقط الزند، ص٣٦٤ البيت المرقم /٢٠/ من القصيدة الثامنة.

(٣٢) المصدر نفسه ص ٢٠١٤، شروح سقط الزند البيت٢. القصيدة الخامسة بعد المئة.

(٣٣) معلقة امرئ القيس، الزوزني، شرح المعلقات السبع، ص١٧.

(٣٤) شروح سقط الزند البيتان، ٤٥، ٤٦ من القصيدة الثانية والستين، ص ١٣٦٠، المجع: الضعيف أو الأحمق، النصع: الثوب الأبيض، والسندس: ثياب خضر، والعصب: ضرب من وشي اليمن وهو ما نقش من الثياب واختلفت ألوانه.

(٣٥) شروح سقط الزند، ص١١١٤، البيت /٥/ من القصيدة الثالثة والخمسين.

(٣٦) اللزوميات ج١/ ص٤٢٠.

(٣٧) اللزوميات ج١/ ص٤٩٩.

(٣٨) المصدر نفسه ج١/ ص ٤٦٥.

(٣٩) المصدر نفسه ج١/ ص ٧٥. بُقَّارا: لعبة يلعب بها الصبيان.

(٤٠) المصدر نفسه ج١/ ص ٥٢٢. الشقر: شقائق النعمان، استعارة للخمر.

(٤١) المصدر نفسه ج٢/ ص ٥٣١. الخيريّ: المنثور الأصفر، والسوسن: من الزهور طيّبة الرائحة.

(٤٢) المصدر نفسه ج٢/ ص ٥٣٢.

❖ ❖ ❖

العمارة في عصر سيف الدولة الحمداني

محمد قجة(*)

تمهيد:

تحتل مدينة حلب مكانة فائقة الأهمية في التاريخ الإسلامي، ومنذ سنوات الفتح الأولى شرع المسلمون في تحصين المدينة وقلعتها، كما شرعوا ببناء المساجد والمرافق اللازمة. فبنوا مسجد الأتراس الذي يحمل اليوم اسم الشعيبية. وخططوا الجامع الكبير الذي أخذ شكله النهائي أيام سليمان بن عبد الملك أواخر القرن الهجري الأول.

(*) محمد قجة: باحث وأديب ورئيس جمعية العاديات السورية.
- العمل الفني: الفنان سعد يكن.

وقد بنى بعض الخلفاء والولاة الأمويين صورًا في حلب، كقصر الناعورة الذي بناه مسلمة بن عبد الملك عام ٩٠. وقصر الحاضر السليماني الذي بناه سليمان. وقصر بناه عمر بن عبد العزيز في «خناصرة»[١]. وقد خربها العباسيون.

ورغم إهمال العباسيين بلاد الشام فإن صالح بن علي وأولاده بنوا قصورًا في «بطياس» ١٢٧ شرق حلب. وقصر الدارين في خارج باب انطاكية قرب نهر قويق. وأتمه «سيما الطويل» والي حلب أيام المعتمد العباسي[٢].

وخلال القرن الثالث للهجرة، ومع بداية ضعف الدولة العباسية ونشوء دويلات الأقاليم، خضعت حلب لحكم أحمد ابن طولون وأسرته في مصر، ومن بعدهم للأسرة الأخشيدية، واستمر الأمر بين المد والجزر والصراع بين العناصر المحلية والإقليمية حتى تمكن سيف الدولة من دخول حلب عام ٣٣٣ وتأسيس الدولة الحمدانية فيها[٣].

حلب وسيف الدولة:[٤]

سيف الدولة عربي صميم من بني تغلب، واسمه أبو الحسن علي بن عبد الله بن حمدان. وقد استطاع خلال حكمه الذي دام أقل من ربع قرن أن يجعل من حلب عاصمة لدولة مرهوبة الجانب حدودها من برية العراق شرقًا، وبلاد سيس والروم شمالاً، والبحر المتوسط غربًا، وامتدت حدودها جنوبًا إلى الرملة في فلسطين وضمت دمشق مرتين، ولكنها استقرت على خط بعلبك-عانة بعد ذلك[٥]

ومن المعروف أن دولة حلب الحمدانية أيام سيف الدولة حققت مجدًا مزدوجًا لا يزال دويه يملأ الأسماع والقلوب بعد أحد عشر قرنًا. وتمثل هذا المجد في الدور الجهادي النبيل الذي نهض به سيف الدولة، وفي الدور الحضاري والعلمي والثقافي الرفيع الذي قامت به حلب، والذي بذت من خلاله قصور الخلفاء وكبار السلاطين. وفي ذلك يقول الثعالبي:[٦]

«إنه لم يجتمع بباب أحد من الملوك ما اجتمع بباب سيف الدولة من شيوخ الشعر ونجوم الدهر وإنما السلطان سوق يجلب إليها ما ينفق لديها. ومن هؤلاء الشيوخ الخوارزمي والفارابي وابن خالويه والمتنبي وأبو فراس وكشاجم والنامي والخالديان والشمشاطي وعيسى الرقي وابن نباته وعشرات سواهم، وعلماء مثل المجتبي الانطاكي وديونيزوس اليعقوبي.

وقد أحصى الشمشاطي والفياض أكثر من عشرة آلاف بيت من الشعر في مديح سيف الدولة، وهو أمر لم يحصل في



التاريخ العربي لدى أي ممدوح(٧)

وإلى جانب مدينة حلب العاصمة الحمدانية تبرز لدينا أسماء مدن أخرى في هذه الدولة مثل: انطاكية- ميافارقين- ديار بكر-مرعش- أدنه-طرسوس -خرشنه- حمص-حماه- الرها-تصيبين- آمد-ملطية- عنتاب-حران - منبج-شيزر- الرقة-سروج- اللاذقية-طرطوس.(٨)

إلى جانب عدد كبير من القلا والحصون والمدن الصغيرة.

العمارة في عصر سيف الدولة:

إن العرض الذي سأقدمه حول أشكال العمارة في عصر سيف الدولة ليس دراسة فنية لملامح تلك العمارة، فقد اندثرت جميعًا. ولكنه عرض تاريخي لما بناه سيف الدولة، سواءً أكان ذلك البناء في عاصمته حلب، أم في مدن وقلاع وحصون في أرجاء دولته.

وإلى جانب المراجع التاريخية الكلاسيكية مثل كتابات ابن شداد وابن العديم وابن الشحنة وسبط بن العجمي وياقوت وبعض المراجع الحديثة، فإنني اعتمدت على مرجع قد يبدو غريبًا في هذا المجال، وهو ديوان المتنبي. وتزول الغرابة حينما نعلم بأن أفضل شرح لديوان المتنبي هو الذي وضعه أبو العلاء المعري باسم «معجز أحمد».(٩)

والمفيد في هذا الشرح أن لأكثر القصائد مقدمات وضعها المتنبي بنفسه، يؤرخ فيها للقصيدة بدقة، ويذكر مناسبتها. ومن هذه المناسبات معارك سيف الدولة وما بناه خلالها من قلاع وحصون وثغور، وما فعله في سبيل اكمال هذا البناء.

وهكذا يأتي ديوان المتنبي سجلاً تاريخيًا فريدًا في متابعته الدقيقة اليومية لحركات سيف الدولة في السلم والحرب، بحيث يقدم لنا معلومة موثقة موضوعية.

فمنذ أول لقاء بين سيف الدولة وشاعره المتنبي في مدينة أنطاكية في جمادى الآخرة عام ٣٣٧ يذكر المتنبي في مقدمة قصيدته أن سيف الدولة كان منصرفًا من حصن برزويه[١٠]. ويقع هذا الحصن كما يقول ياقوت الحموي في معجم البلدان على سن جبل شاهق في السواحل الشامية يضرب به المثل لحصانته.

وفي قصائد أخرى يشير إلى مدينة الرقة كموقع حصين لسيف الدولة كما يشير إلى حصن قريب منها يدعى «الثديين»[١١].

كما يرد ذكر «آمد» كمدينة حصينة اهتم سيف الدولة بعمارة حصونها[١٢]. وفي بعض المقدمات يذكر المتنبي عدة مواقع وحصون وقلاع قام سيف الدولة بهدمها لأنها معادية أو بنائها وتحصينها ضد العدو. فهو مثلاً يذكر في مقدمة واحدة أماكن مثل: سمندو- آلس- صارخة- خرشنة- بطن اللقان- براد- عقبة السير- متبارا-[١٣]

يمكننا تتبع أشكال العمارة في عصر سيف الدولة على النحو التالي:

أولاً: العمارة ذات الطابع العسكري أو شبه العسكري:

وهي المباني الدفاعية في المدن، كالأسوار والأبراج والأبواب، والقلاع بحجومها المتباينة، والمتناثرة على أطراف الدولة تتقلص وتمتد بحسب نتيجة المعارك مع العدو البيزنطي.

ومن أبرز أمثلة هذه المباني العسكرية:

أ- قلعة حلب: وهي بناء يقوم على تل نصف طبيعي، ونصف اصطناعي، ويعود عمرها الأثري إلى أكثر من سبعة آلاف سنة. وكانت معبد المدينة في العصور القديمة.

وقد استخدمها السلوقيون كحصن عسكري وتبعهم الرومان والبيزنطيون، كما حصنها الفرس الساسانيون خلال احتلالهم حلب.[١٤]

وحينما فتح المسلمون حلب رمم أبو عبيدة القلعة. واستمرت بوظيفتها الدفاعية أيام الأمويين والعباسيين.

وفي عهد سيف الدولة اعتنى بتحصينها وجدد أسوارها، بحيث لم يستطع نقفور فوكاس دخول القلعة حينما احتل حلب عام ٣٥١-٩٦٢م ودمر المدينة

وقتل سكانها بصورة وحشية، وبقيت القلعة مستعصية. وقد احتمى بها كثير من الناس فحمتهم.[١٥]

وقد حاول ابن أخت نقفور اقتحام القلعة فألقى الحرس عليه حجرًا فقتلوه، وانتقم نقفور بقتل أسرى المسلمين وعددهم اثنا عشر ألفًا.[١٦]

وقد أعاد سيف الدولة تحصينها وبنى فيها مواضع، ولما ولي ابنه سعد الدولة بنى شيئًا آخر وسكنها وذلك لما أتم ما بناه والده سيف الدولة من الأسوار.[١٧]

ومنذ ذلك التاريخ استمرت القلعة مكانًا لإقامة الأمير أو الوالي، ففعل ذلك بنو مرداس وبنو عقيل والزنكيون والأيوبيون والمماليك.

ب- أبواب حلب وأسوارها:

جدد سيف الدولة أسوار المدينة وأبراجها، وأعاد بناءها بعد انسحاب نقفور فوكاس، وتم ذلك سنة ٣٥٣-٩٦٤م. وكانت بعض الأبواب والأبراج تحمل اسم سيف الدولة. كما هو الحال في باب قنسرين الذي جدده سيف الدولة.[١٨]

ومن المعلوم أن باب قنسرين سمي بذلك لأنه يخرج منه إلى مدينة قنسرين، وهي مدينة كانت كبيرة عامرة، وقد خربها نقفور البيزنطي عام ٣٥٥-٩٦٦م ومن يومها اندثرت، وتقوم إلى جانبها اليوم قرية العيس.[١٩]

ج- قلاع الثغور وحصونها:

كانت مدن الثغور تمتد على طول الحدود مع الدولة البيزنطية وتقوم فيها القلاع الحصينة المشحونة بالجنود والسلاح. وتحدثنا المصادر التاريخية عن أهم هذه القلاع، كما يرد ذكرها في شعر المتنبي الذي رافق سيف الدولة في غزواته. ومن أبرز هذه القلاع:

مرعش: وقد بناها سيف الدولة ٣٤١ وهزم البيزنطيين الذين حاولوا هدمها. وهي من أعمال حلب[٢٠] ويقول ابن العديم: «وخرب الروم مرعش فبناها سيف الدولة أبو الحسن علي بن عبد الله بن حمدان، وجاء الدمستق ليمنعه من بنائها فقصده سيف الدولة فولى هاربًا وتمم سيف الدولة عمارة مرعش. وفي ذلك يقول المتنبي:[٢١]

أتى مرعشًا يستقبل البعد مقبلاً

وأدبر إذ أقبلت يستبعد القربا

فأضحت كأن السور من فوق، بدؤه

إلى الأرض قد شق الكواكب والتربا

د- قلعة الحدث: وهي مدينة حصينة أحكم سيف الدولة بناء قلعتها لرد غارات

الروم. وكان سكانها قد استسلموا إلى الدمستق الرومي. فنزلها سيف الدولة يوم الأربعاء ١٨ جمادى الآخرة ٣٤٣ وخط الأساس بيده. فجاء ابن الفقاس (قائد رومي) في خمسين ألفًا من الروم والأرمن والروس والبلغار والصقلب والخزر. فهزمهم سيف الدولة. وأقام على الحدث إلى أن استكمل بناءها يوم ١٤ رجب من السنة نفسها. فأنشده المتنبي:(٢٣)

هل الحدث الحمراء تعرف لونها

وتعلم أي الساقيين الغمائم

بناها فأعلى والقنا يقرع القنا

وموج المنايا حولها متلاطم

وكيف ترجى الروم والروس هدمها

وذا الطعن أساس لها ودعائم

ولسنا الآن في مجال استقصاء سائر القلاع والحصون التي كان سيف الدولة يتعامل معها بناءً وهدمًا. فهذا يحتاج دراسة مطولة مستقلة، ويكفي أن نشير إلى بعض أسماء هذه الحصون والقلاع، وأكثرها على غرار قلعة الحدث وقلعة مرعش. ومن أمثلة ذلك:

حصن الران- حصن شاكر- حصن الجوزات- الهارونية- اسكندرونة- حصن بوقا- قلعة الشغر- قلعة بكاس -طرسوس -عرقة- هنزيط- نهيا- بهنسا- سميساط- حران- البستان -دلوك-إلخ

ثانياً: العمارة المدنية:

ومن أبرز أمثلة هذه العمارة في عصر سيف الدولة قصره خارج أسوار حلب، والمعروف باسم «قصر الحلبة»

وأرض الحلبة ميدان فسيح في سفح جبل الجوشن غربي نهر قويق. وقد بنى سيف الدولة هناك ما يمكن تسميته مدينة صغيرة فيها القصر والمستودعات وخزائن السلاح والاصطبلات وميدان سباق الخيل.

ويقول المستشرق الفرنسي «دايفيتس» في ذلك:

(وابتنى الأمير بوساطة الأسرى العديدين على ضفاف نهر قويق قصراً عظيمًا دعاه قصر الحلبة، فجاء بأحذق المهندسين وأمهر المصورين وأبرع البنائين والنجارين يعتنون ببناء وفرش هذا القصر على أفخم طراز. وعندما افتتحت أبواب القصر للمرة الأولى كان ذلك مثار الدهشة والإعجاب، لأن الأبواب كانت من البرونز النحاسي نقشت عليها ألوف التصاوير المستغربة الجميلة وهي تدور على قواعد من الزجاج. وإذ تدخل الباب تواجهك قاعات متتابعة ملأى بالأعمدة المرمرية المزركشة والموشاة بالذهب والفضة. وجعل

المصورون أواسط القبب العالية، حيث حفروا بين جهة وأخرى، آيات من كتاب الله الكريم بأحرف كوفية جميلة وأبيات مختارة لأعظم الشعراء بأحرف فتانة.

وكان للقاعة الكبرى خمس قبب بلون اللازورد يحملها مئة واثنان وأربعون عمودًا من المرمر المزركش بالذهب والفضة، تنيرها ألوف من النوافذ الزجاجية الملونة. وفي وسط كل عمود خرجت زهريات ملأى بالزهور والنباتات النادرة، وفي الوسط افريز عظيم من خشب الأبنوس الموشى بالذهب جعل خصيصًا لجلوس الأمير ورجاله الأخصاء وحفر عليه رسم الأمير منتصرًا على الصحراء.[٢٣]

ويذكر «دايفيتس» أنه رجع في وصفه إلى مؤرخين روم شاهدوا القصر عيانًا.

أما المؤرخ الفرنسي «شلمبرجه» فيقول:

(وكان الأمير إذا عاد من غزواته، أمر بإقامة المآدب مساءً في قصره، فجالت نساؤه وراء الستار معطرات متبخترات، وكأن سيف الدولة كان مخلوقًا ليسكن في قصور ألف ليلة وليلة).[٢٤]

ويضيف مؤرخون آخرون

لقد فتح سيف الدولة قصره لكل فنان وأديب موهوب، فوفدوا عليه من جميع الأطراف، من العراق وفارس والشام وبيزنطة والبندقية وجنوة..

وكان يستمع إلى الشعراء ويتحبب إلى الكتاب والمصورين، ويمنح المؤرخين شيئًا كثيرًا من عطاياه ومنحه فيعود هؤلاء إلى بلادهم حاملين إلى شعوبهم صورة رائعة من خلق الرجل العالي وشخصيته العجيبة[٢٥].

ومن بالغ الأسف أن هذا القصر العجيب عاش أقل من عشرين عامًا فقد اقتحم نقفور فوكاس حلب ودمرها، وخرب قصر الحلبة وملحقاته. ومما أخذه ثلاثمائة بدرة من الدراهم، وألف وأربعمائة بغل من اصطبلات القصر، ومن خزائن السلاح ما لا يحصى فقبض جميعها وأحرق الدار فلم تعمر بعد وآثارها إلى اليوم ظاهرة (الحديث لابن العديم في زمنه)[٢٦]

ثالثًا، العمارة الدينية:

١- **المسجد الجامع**: يذكر المؤرخون أن نقفور فوكاس حين دمر مدينة حلب عام ٣٥١ أحرق المسجد الجامع وأكثر الأسواق والدار التي لسيف الدولة وأكثر دور المدينة.

ويروي ابن العديم: وقيل إن جامع حلب كان يضاهي جامع دمشق في الزخرفة

والرخام والفسيفساء وهي الفص المذهب، إلى أن أحرقه الدمستق -لعنه الله- وإن سليمان بن عبد الملك اعتنى به كما اعتنى أخوه الوليد بجامع دمشق.(٢٧)

وقد دخل نقفور فوكاس بعد ذلك مدينة طرسوس، وصعد منبر الجامع الكبير فيها، وقال لمن حوله: أين أنا؟، فقالوا: على منبر طرسوس. فقال: لا. ولكنني على منبر بيت المقدس، وهذه كانت تمنعكم من ذلك.(٢٨)

وبعد رحيل الروم عن حلب، عاد إليها سيف الدولة ودخلها في ذي الحجة سنة ٣٥١ وعمر ما خرب منها، وجدد عمارة المسجد الجامع، وبعد وفاته أكمل العمل ابنه سعد الدولة ومولاه قرعويه، وقرعويه هو الذي بنى الفوارة في صحن الجامع وقد تحدث عنها المؤرخون. وكان يحف بجرن الفوارة شريط كتابي نصه«هذا ما أمر بعمله قرعويه غلام سيف الدولة بن حمدان سنة ٣٥٤».(٢٩)

ويروي الغزي أن هذه الكتابة كانت موجودة حتى ١٣٠٢. وقد أزيلت مع تجديد الحوض أيام جميل باشا والي حلب العثماني. وكانت القبة الفوارة التي بناها قرعويه وكل عمود منها طوله سبعة أشبار وفيها جرن رخام أبيض في غاية الكبر والحسن.(٣٠)

ب- مشهد الحسين، أو مشهد النقطة:

ويروى أن نقطة دم سالت من رأس الحسين بن علي بعد استشهاده في كربلاء حين كان الرأس محمولاً إلى دمشق، وتوقف الركب في حلب للاستراحة. وقد بنى سيف الدولة في المكان مشهداً فيه الحجرة التي عليها نقطة الدم. ثم تجدد البناء في العصور التالية.(٣١)

وقد انفجر المشهد بسبب استخدامه مستودعاً للذخيرة خلال الحرب العالمية الأولى. وقد تم إعادة بنائه. ويقصده الزائرون من كل مكان.

ج- مشهد الدكة:

يروي المؤرخ ابن أبي طيء في تاريخه:

«وفي هذه السنة، يعني سنة ٣٥١ ظهر مشهد الدكة، وكان سبب ظهوره أن سيف الدولة علي ابن حمدان كان في إحدى مناظره بداره التي بظاهر المدينة، فرأى نوراً ينزل على المكان الذي فيه المشهد عدة مرات، فلما أصبح ركب بنفسه إلى ذلك المكان فوجد حجراً عليه كتابة:

«هذا قبر المحسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب».

فقال سيف الدولة: «إن هذا موضع قد أذن الله لي في عمارته على اسم أهل البيت»[٣٢].

ويذكر ابن أبي طيء: ولحقت هذا المشهد وهو باب صغير من حجر أسود عليه قنطرة مكتوب عليها بخط أهل الكوفة كتابة عريضة:

عمر هذا المشهد المبارك ابتغاء وجه الله وقربه إليه على اسم مولانا المحسن ابن الحسين بن علي بن أبي طالب، الأمير الأجل سيف الدولة أبو الحسن علي بن عبد الله بن حمدان سنة ٣٥١[٣٣].

وقد أعيد بناء المشهد في الفترة الزنكية، كما تشير كتابة على الجدار الشرقي، وصنع له صندوق خشبي ثمين أيام الظاهر غازي الأيوبي لا يزال موجوداً حتى اليوم».

رابعاً: العمارة ذات الطابع الخاص:

وتمثل هذه العمارة المقبرة الملكية الحمدانية في مدينة ميافارقين قرب ديار بكر. وقد كانت هذه المدينة جزءاً من الدولة الحمدانية. وفيها ولد سيف الدولة عام ٣٠٣. ودفن في مقبرتها أفراد الأسرة الحمدانية. وقد حمل جثمان سيف الدولة من حلب إلى ميافارقين ليدفن هناك بجانب أفراد أسرته عام ٣٥٦.

ويبلغ من اهتمام سيف الدولة بهذه المقبرة أنه قصد ضريح والدته «نعم» التي توفيت ٣٣٧ ودفنت هناك، بعد عام في ذكرى وفاتها عام ٣٣٨ وصحبه موكب من خمسة آلاف فارس وألفين من الغلمان، وكان بصحبته شاعره العظيم المتنبي. وقال له قصيدته المشهورة:

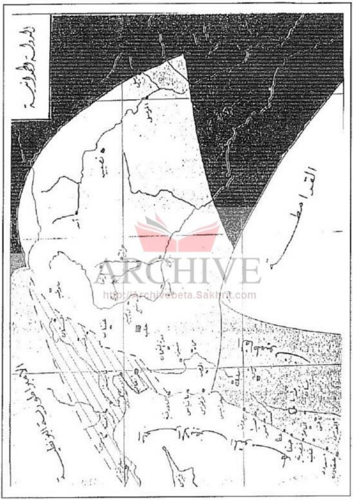
إذا كان مدح فالنسيب المقدم

أكل فصيح قال شعراً متيم

ولما عرضت الجيش كان بهاؤه

على الفارس المرخى الذؤابة منهم

ومن المعلوم أن مدينة ميافارقين كانت أثيرة لدى سيف الدولة ولدى الأسرة الحمدانية. فبالإضافة إلى المقبرة الملكية بنى سيف الدولة عدداً من المباني. وأعاد تحصين الأبواب والأسوار، ومنها «باب القصر العتيق» وقد أعاد بناءه وسماه «باب الميدان» وكان يخرج منه عبر الفصيل إلى باب آخر اسمه «باب الفرح والغم» وقد سمي بذلك لأنه يحمل صورتين تمثلان الفرح والغم. وكان يقال «إن من يبيت في ميافارقين لا يمكن أن يعرف الغم، ولابد أن يبقى فرحاً باستمرار.[٣٥]



هوامــش

١- ابن الشحنة أبو الفضل ت٨٩٠هـ الدر المنتخب ص ٥٩ دار الكتاب العربي/دمشق ١٩٨٤.

٢- ابن الشحنة أبو الفضل ت٨٩٠هـ الدر المنتخب ص ٦٠.

٣- ابن العديم ت ٦٥٨هـ زبدة الحلب ص ١/١١ دار الكتاب العربي /دمشق ١٩٩٧.

٤- الثعالبي ت ٤٢٩هـ يتيمة الدهر ص١/١٥ دار الفكر /بيروت ١٩٧٣.

٥- القلقشندي صبح الأعشى ص١١٨/٤ سلسلة تراثنا/القاهرة.

٦- الثعالبي ص١٦/١.

٧- الثعالبي ص١٦/١.

٨- ابن الشحنة ص٩.

٩- المعري ت ٤٤٩هـ معجز أحمد ج٣ دار المعارف /القاهرة ١٩٨٦.

١٠- المعري ١٣/٣.

١١- المعري ١٣٧/٣.

١٢- المعري ١٣٩/٣.

١٣- المعري ١٧٥/٣-١٧٦.

١٤- ابن الشحنة ٤٩.

١٥- ابن الشحنة ٤٩.

١٦- ابن الشحنة ٤٩.

١٧- ابن الشحنة ٥٠.

١٨- محمد أسعد طلس الآثار الإسلامية في حلب ٢٩ دمشق ١٩٥٦.

١٩- محمد أسعد طلس ٣١.

٢٠- ابن العديم /بغية الطلب ٢٣٥/١.

٢١- المعري /معجز أحمد ٢٣٥/٣.

٢٢- المعري معجز أحمد ٤٢٣/٢.

٢٣- سامي الكيالي سيف الدولة وبلاط الحمدانيين ٧١-٧٢ دار المعارف/ مصر١٩٥٩.

٢٤- زكي المحاسني شعر الحروب في أدب العرب ٢٤٨ دار المعارف/مصر ١٩٦١.

٢٥- سامي الكيالي سيف الدولة وبلاط الحمدانيين ٧٨.

٢٦- ابن العديم زبدة الحلب ١٣٣/١.

٢٧- ابن العديم زبدة الحلب ١٣٤/١.

٢٨- ابن العديم زبدة الحلب ١٣٧/١.

٢٩- ابن العديم زبدة الحلب ١٣٨/١.

٣٠- كامل الغزي نهر الذهب في تاريخ حلب ١٨١/٢ دار القلم العربي/ حلب ١٩٩٩.

٣١- إبراهيم نصر الله حلب والتشيع ٢٨ مؤسسة الوفاء /بيروت ١٩٨٢.

٣٢- ابن الشحنة ٨٥.

٣٣- الغزي ٢١٠/٢.

٣٤- المعري معجز أحمد ١٤٩/٣.

٣٥- ياقوت معجم البلدان ميافارقين.

❖ ❖ ❖

الصورة الفنية في شعر أبي ريشة

د. عبد الكريم الأشتر (*)

- ١ -

في الأساطير اليونانية: أن بيجماليون Pigmalion ملك قبرص وقع في هوى التمثال الذي صنعه من الرخام لامرأة رائعة الحسن سماها جالاتيا Galatia، فابتهل إلى افروديت AF-rodite (إلهة الجمال والحب) أن تنبه امرأة مثليا. فاستجابت له أفروديت ونفخت في التمثال الروح فدبت فيه الحياة.

ذكر الناقد أنور المعداوي هذه الأسطورة، وهو يقرأ شعر شاعرنا عمر أبي ريشة، منذ زمن طويل، فشبه شعره بهذا التمثال: رخام صامت لم تستجب فيه الألية، على مابدا له،

(*) د. عبد الكريم الأشتر: أديب وباحث من سورية.

- العمل الفني: الفنان قحطان الطلاع.

لابتهالات أبي ريشة، فلم تنفخ فيه الروح. شعره ، كما يقول: «يزخر بالجمال والخيال، ولكنه يفتقر إلى الروح والعاطفة»[١].

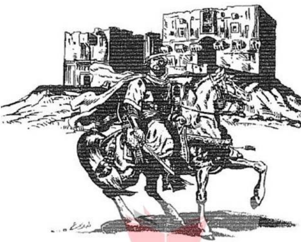
لعل نقاداً آخرين يرون هذا الرأي. وأحسب أن كثيراً ممن أبدوا آراءهم فيه فتنتهم الصورة، وأخذتهم روعتها وكثافتها في نصوصه، وشغلهم تملّي خطوطها وألوانها، وأضوائها وظلالها عن تحري الإحساس بحرارة الروح فيها كما فعل المعداوي، فناب تملّي الصورة عن تتبع أثرها في الوجدان [٢].

وإذا كان لكل إنسان من اسمه نصيب، كما يقال، فنصيب عمر منه وهو (أبو ريشة) كبير جداً . والشاعر، في أصله البعيد ، ينتسب إلى أسرة (أبي الريش) من عرب طيء، في البقاع[٣]. وبيته، كما نعرف جميعاً ، بيت شعر، يتوارث أبناؤه الحساسية الشعرية: فأبوه شاعر وأمه وأخته وأخواه ومن يمت إليهم، هم كلهم شعراء يقولون الشعر . ثم إن الأسرة تنحو منحى الطريقة الشاذلية اليشرطية في التصوف [٤]. فالأسرة إذن، في موروثها، وفيما اكتسبت من وسطها، مهيأة للإحساس الحار بالمعاني وبالأشياء من حولها. ثم إنه، من ناحية أخرى ، أُرسل إلى انجلترة لدراسة ما يتصل بصنعة النسيج في مدينة مانشستر (الكيمياء العضوية)، وتلوين المنسوج وتحبيره[٥]. وأذكر أني، وأنا في دور الصبا، دخلت مجلساً في أحد نوادي حلب الثقافية، (كان قائماً فيها يومذاك: نادي العروبة) فسمعت الشاعر يتحدث فيه حديثاً يتصل بكيمياء الأصباغ، وقد عاد من أوروبة مزوّداً بزاد فني ولغوي مكّنه من الاطلاع على أبرز شعرائها، وفي رأسهم ادجارألن پو Poe (1809-1849)، وشارل بودلير(1821-1867) Baudelaire من أعلام شعراء الرمزية الذين ملكوا عليه نفسه حتى جعلوه يُزري، وهو يقرأ شعرهم، بأكبر شعراء العربية (أبو نواس «صاحب السخافات»، وأبو تمام «مداح المعتصم»، و البحتري «مداح المتوكل»، وقد مارسا -في رأيه- مهنة «الشحاذة» [٦]، ويأخذ عليهم عجزهم عن الوصول إلى ما سماه «الفكرية الشعرية»، ويعني بها :خلق الصورة الفنية تحت رقابة الفكر.

– ٢ –

من هنا إذن أصبحنا نرى الصور تزدحم في شعره أحياناً إلى حدٍّ فاق الاكتفاء. تُلاحق خيال المتلقي، تستثيره بالخطوط والألوان والأضواء والظلال، فيرى نفسه تعجز، في كثير من الأحيان ، عن استيعاب هياكلها استيعاباً واعياً يُعجل المخيّلةَ– وسيل الصور المنهمر لا ينقطع أبداً – عن أن تسع خطوطها ، وتصل بينها ، حتى لينتابه حينها إحساس عميق بأن هذا الحشد من الصور لم تستدعه، في أكثر الأحيان، الحاجة الفنية، في أداء معانيه والتعبير عن استجابته للإحساس بها قدر ما استدعاه السلوك الفني، أو العادة الفنية في الأداء، إذا صحّ هذا التعبير.

ثم إنه كان ما يفتأ يعيد النظر في صوره، يعدّل في بعض خطوطها، ويمدّ أو يحدّ من ظلالها ، ويعيد نشرها، في



صورتها الجديدة، في الجزء التالي من ديوانه الذي نشره في ثلاث حلقات: «شعر» سنة ١٩٣٦، و«من عمر أبو ريشة-شعر» سنة ١٩٤٧و «مختارات» سنة ١٩٥٩)[٧].

واصطبغت لغته، في حديثه إذا تحدث أيضاً ، بلغة المصوّرين أو الخطّاطين، يستحضرهم ويتمثلهم سمعاً وبصراً. سمعته يوماً في دار الكتب الوطنية بحلب، وكان يومها مديراً لها، في الأربعينيات من القرن الماضي، يقول، وقد استثاره تقديم أمين الدار إياه إلى الحاضرين في صالتها، وإغراقه في مديحه: «ولقد خطلت اسمي في التاريخ حرفاً حرفاً ، فإن شاء التاريخ ذكر وإن شاء كفر».

وقد يكفي أن نستذكر هنا، في التمثيل لما نقول، المشهد الأول من مسرحية سميراميس الشعرية التي بدأ يكتبها سنة ١٩٤٢ في ألف وأربع مئة بيت كما قال، وظل يعيد النظر فيها سبع عشرة سنة (حتى سنة ١٩٥٨) «صبّ فيها كل جوانحه، كما قال لسامي الكيالي: نظمها ست مرات، ومزّقها خمس مرات، حتى استقرت على السادسة»! هي، في رأيه «شيء جديد في دنيا الخلْق»[٨].

وسميراميس، في الأساطير الآشورية، من نسل الآلهة. هزمت بلاد فارس وليبيا وإثيوبيا، وأسست بابل ونينوى، وشيدت كثيراً من الآثار، وقد تحولت، بعد موتها، إلى حمامة يعبدها الناس. ولعل (شمو-رامات) التي حكمت آشور في القرن التاسع

من قبل الميلاد هي الشخصية التاريخية الأصل لشخصية سميراميس [٩].

جعلها أبو ريشة، في مسرحيته التي لم ينشر منها إلا الفصل الأول، مثلاً في الجمال الأسمى، إذ هي من نسل الآلهة. غضب الشعب عليها واتجه إلى قصرها.. فلما كادوا أن يصلوا إليها تجردت من ثيابها وبدت أمامهم عارية! فذهلوا لجمالها وخفضوا رؤوسهم لها. حينذاك أدركت أنها أدت رسالتها إذ وصلت بشعبها إلى الإيمان بقدسية الجمال. فحينذاك انسحبت وارتفعت إلى السماء[١٠]!

تبدأ المسرحية بحوار يدور في قصرها، بينها وبين هيرام (إحدى نساء القصر) صاغه أبو ريشة على النحو التالي:

سميراميس:

عبيرك ياليل وهج الحياة
فلا تتنفس على مضجعي
بعثت بآخر ما تمتمت
شفاه الربيع على مسمعي
أحسّ به رعشةً في دمي
وحلماً جريحاً على مدمعي
إلا أين بدعة حلمي، إذا
ترنّحتُ بالقدح المترع
وأين الصدى لنداء الحنين
إذا عربد القلب في أضلعي
أريد... ودوني انهيار الفتون
على كل ذي هَيَف ممتع
حنانكِ هيرام!
هيرام،
يا روعة الـ
ألوهة في جسد ريّق!
فداك الظما، لا تبثي السراب
ولا ترتجي منه أن نستقي
فأنتِ نثرت الأماني الحرار
على مغرب الشمس والمشرق
أصيخي، فكم زفرةٍ في الدجا
تموت على خدرك المغلق
خُلقتِ إلى الأرض فامشي على
أزاهرها مِشية المشفق
سميراميس: إلى الأرض؟
مُدّي بساط الرضا
على كبوات الهوى المطلق
وردّي خيالي كسيح الجناح
يصفّق في أفق ضيّق
وهزّي إزاري فكم نجمةٍ
ترامت عليه ولم تعلق!
كفى! لا تثيري رؤى الشاطئ الـ
ـلعوب على جبهة المفرق
دعيني إلى وحدتي أنطوي
على نبعةٍ فيّ لم تَدفُق
(تفكر قليلاً)

بل امضي إلى تدوتي وارجعي
بعودي وكأسيَ والزنبق
(تخرج هيرام وتتابع سميراميس):
ويا ليل طف بالعبير القويّ
ومرّغ عليه هواي الشقي
فلن يمسح الفجر أجفانه
وأنفاس خدّي على مرفقي
(تعود هيرام)

سميراميس: أراكِ رجعتِ؟

هيرام:
فراخ الندى
عِطاش إلى وردك الخيِّر
فضضتُ نداءك في سمعها
كأني فضضت لها عبقر!(؟)
فماجت على اسمك في غمرة
من الشوق والعبق المسكر
تسائلني واختلاج الشفاه
يردّ السؤال إلى مُضمر
فما حسبتُ أن تعيدي المُنى
دوافق في عودها الأخضر
(وهنا يدخل الندمان)[11]...

ففي هذا النص البالغ الرقة تتضح خصائص ما كنّا نقول: حشد من الصور يذهل له السامع والقارئ معاً، إذ يسمعان كلاماً جميلاً، فيه من الرمز: فتنة الغموض، وروعة النغم، وقدرة الخيال على خلق الصور المتتابعة إلى حد الترف، ثم لايقفان، من وراء هذه الغنائية العذبة كلها، على حدود واضحة للموقف الدرامي تجعلهما يتهيآن لاستقبال الأحداث المقبلة في المسرحية. بل هما، على التأكيد، يتمليان عالماً غنياً من صور الجمال، تصوغه المخيّلة صورة بعد صورة، تتزاحم في فضاء النص وتتفرق فيه. فمن أين إذن يفرغان أيضاً للسؤال عن وجدانية يرمي الشاعر إلى نقلها إليهما، وصاحبها نفسه كان مشغولاً عنها، على نحو ما، بنسج الصور وترصيعها!

أليس يبدو، في النص، أن الشاعر يَعدّ جوهر رسالته الفنية: أن يجري وراء الصورة، ويُعمل فكره في تقليبها والتخطيط لها. ويطلق خياله المشبوب في مد خطوطها واختيار ألوانها وظلالها؟ ألم يجعل غاية الشعر (وهو هنا في أزهى مراحل خياله الشعرية، على الأغلب) أن يحسن صيد ما سماه «الفكرة الشعرية». وهي عنده: خلق الصور التي انكب كالمثّالين على نحتها، وأطال النظر في «تحكيكها» كما كنا نقول في القديم؟

أوليس هذا هو الذي كان يدفعه إلى الركض وراء تملي صنعة الفن في التماثيل والآثار وقصورها ومعابدها وأطلالها: على مثال: معبد كاجوراو، وتاج محل، وصورة سميراميس والطلل، وصور شعره المماثلة في جملتها، وهي كلها، في النهاية، تقوم عنده على تجسيد فكرة السعي إلى الإمساك بمغزى العمل على كسب الخلود (وهو هاجس قوي من هواجس أبي ريشة)

الشاخص في بقائها وتحدّيها الزمن كما يقول، وتغلبها على الموت، وانتصارها عليه، ودفعها إياه إلى الانتحار!

أوليس هذا هو معنى قوله: «إن الفن هو الذي يصنع الحياة، وإن الحياة دونه لا تعدو أن تكون جيفة» [١٢].

ثم أليس يمكن أن نستخلص، من وراء هذا الانكباب على خلق الصور، إيمانه بقدرتها على البقاء ومجالدة العصور، بصفتها ألواحاً جمالية متقنة، تشبه ألواح الرسامين الكبار الباقية على اختلاف الأزمان وتغير الأذواق؟

أوليس ما كان يقوله في كبار شعرائنا القدامى، ورميه إياهم بالسخف واللفظية والعجز، ورمي خيالهم بالكُساح، يعني أنهم، لعجزهم عن خلق «الفكرة الشعرية» بالمعنى الذي أراده، عرّضوا شعرهم للفناء!

-٣-

على أن كدّه في حبك خطوط الصورة وتوشيتها واختيار الدّوالّ الدقيقة الموحية المناسبة لها، في مجموع شعره، في مرحلة نضجه الفني خاصة، منذ الأربعينيات، كان يتعبه ويستغرق منه الجهد الطويل في خلقها، وفي معاودة النظر فيها على طول الأعوام الطوال، يستبدل بالكلمة الكلمة، في تقويم خط أو إضاءة لون أو تخفيفه، أو الإمعان في تدوير انحناء إحدى الزوايا، لتقوية دلالاتها القريبة أو البعيدة، حتى لنفهم، في ضوء ما نقوله، معنى كلمته التي نقلها إلينا سامي الكيالي، في مسرحية سميراميس، وعرضنا لها من قبل: «نظمها ست مرات في سبع عشرة سنة، ومزّقها خمس مرات»!.

والذي نريد أن ننتهي إليه هنا، هو التفسير الذي نراه لقلة محصوله الشعري، على امتداد حياته الطويلة(اثنان وثمانون عاماً) وتفسير ما كان يعاني، جراء كدّ النظر، والانحناء على قدرات الفكر والروح، من كثرة الملل والانصراف إلى الراحة من عمل الشعر المرهق. كان يبدأ العمل فيقطع فيه شوطاً أو يكتب فيه فصلاً ثم يتوقف (لم يكمل ما كان بدأ به من كتابة المسرحيات والملاحم التي سمّاها وحدّد عدد أبياتها في اثني عشر ألف بيت «الملحمة التاريخية» أو في ألف وأربع مئة بيت «سميراميس»، ولم نر منها إلا نماذج منشورة في نسختي الديوان وفي المختارات) [١٣].

ولعل هذا كله (أعني الانشغال بخلق الصور وحشدها ونحت التماثيل اللغوية التي تمثل لرموزها وهو الذي امتدح به شاعريه الغربيين المفضلين: بو، وبودلير، ورأى في رموز صورهما ما ينقل المتلقي «من أفق إلى أفق، فلا يشعر بملل ولا يحس بتعب» [١٤] هو الذي صرّفه عن تتبع مسالك الحركة الشعرية المعاصرة وفهم مذاهبها، ولفته عن تطوير أداته الشعرية، استجابة لوقع حركة الحياة في العصر، وإغناء لغته وتوسيع حدودها [١٥]، فبقي يجول منها في بقعة محددة، ربما لجأ فيها إلى تكرار مفردات بعينها (دلالة ذلك على حالات انحصار نفسية) حتى صارت أختاماً يعرفها متتبعو شعره(مثل: الرعشة والعربدة

والظمأ والكبر والعنفوان والهوان والشهب والشلو والخضيب والذبيح) واختيار الألفاظ ذات الرنين العالي: (اقشعرّي، ونَشَّت الآفاق). وربما انتهى به الأمر إلى تكرار بعض الصور أو بعض القوالب اللغوية (اللحن الشقي، والائتزار بالشهب والأنجم، وبسمة الهزء أو ابتسامة الاستهزاء، وأعراس الصبا، وعفة المئزر أو الجلباب، والعربدة عند من لم يذق قدس الخمر)[١٦].

وربما أعان إحساسُه بقدرته على ابتكار الصور وحشدها وما لمس من إعجاب الناس، حين كان يلقيها في نوادي حلب ومجالسها، بأسلوبه الساحر المفطور في الإلقاء[١٧]، على تضخيم إحساسه بالتفوق والامتياز، بل التفرد، في مساحة الشعر العربي كله، من مبدئه إلى يومه هو، حتى لقد كان، في كثير من مجالسه، يتناول أعظم شعرائنا، كما قلنا، بالنقد الساخر. ويعدّ قبوله كرسي المدير العام لدار الكتب الوطنية في حلب تنازلاً مثّل له بهبوط النسر من قمة الجبل إلى السفح، في قصيدته المعروفة (النسر)[١٨] التي بدأها بقوله:

أصبح السفح ملعباً للنسور

فاغضبي يا ذرا الجبال وثوري

وأنهاها بهذا البيت الذي كشف عن معنى الرمز:

أيها النسر! هل أعود كما عدت

أم السفح قد أمات شعوري؟

وقد يفسّر هذا أيضاً، إلى جانب عوامل أخرى، ضعف التوجه في شعره، بصورة عامة، إلى القضايا الاجتماعية: الفقر، وفساد الإدارة، وفشوّ الطبقية والأمية، والنهوض بالمرأة والحض على تعليمها.

ويفسّر فيه أيضاً انبهام نزوعه الصوفي الموروث الذي شحن قلبه بالمواجد ونمّى قواه الداخلية، إذا استثنينا تقاطع خطوطه مع النزوع إلى الرمز (وليد الاتجاه الرومانسي): السباحة في العوالم المطلقة، وتقوية الجانب الموسيقي في اختيار وحداته اللغوية وصياغتها، واللجوء إلى الصور الموحية في استنفاد المخزون النفسي وأطيافه الجمالية، والاستعانة الدائمة فيه بتقارض قوى الحواس لكسر حدود العلاقات التقليدية بين قوى الإدراك والتجريد والمزج الذاتي بينها.

ولعلّ انبهام النزوع الصوفي لابد أن نلاحظ أن نصه في تصوير معبد كاجوراو، في الهند (وهو يمثل الذروة التي وصل إليها في الشعر) لا تنتهي بالمتلقي إلى الوقوف على الغاية الكبرى من زيارة المعبد، المتمثلة في تقريبه من معانقة الجمال المطلق المتجلي في التماثيل القائمة، والإحساس بتغلغل الطاقة الإلهية في مسام الحجر فيها. لقد شغله، في أغلب الأحيان، نحت الصورة المفردة وتقوية قدرة الإيحاء على الوصول بين الخَلق الثابت (المكاني- في التمثال) والخلق المتحرك (الزماني- في الشعر)[١٩]، عن استشفاف الحركة المتطلعة إلى تجاوز حدود الحواس، والتوق إلى

نشوة الغياب في طيات اللانهاية، من خلال اكتمال اللقاء بين الثنائيات، حيث يكتمل الإحساس بجمالية الصورة، من خلال الإحساس بشموليتها وانفساح مساحة الحرية فيها للروح.

– ٤ –

ما سعت هذه الكلمة إلى بيانه في الفقَر الثلاث الماضية من هذا البحث: هو أن حشد أبي ريشة الصور في شعره، على ما يتوافر فيها من صفات الجمال الفني الساطع الذي شغل الناس وجعل منه شاعر الصورة الفنية الأول في الشعر العربي الحديث، لم يمكّنه، على نحو مقنع، من الالتفات إلى قوى النفس الأخرى العاطفية والروحية، فبقي الخيال الخلاّق، في كثير من الأحيان، يشغل وحده ساحة الفاعلي L'activitée في العمل على خلق ما سماه أبو ريشة «الفكرة الشعرية» دون أن يعني هذا إقرار ما اتُّهم به من العجز عن بث الروح في هياكله اللغوية الجميلة التي بدت نابضة في مواقف الغزل والاستنهاض القومي، في المرحلة الحساسة التي شغل فيها، مع الشعراء العرب الكبار الآخرين، ساحة الإبداع الشعري.

وقد اقتضاه هذا الانصراف العميق إلى تفعيل قوى المخيّلة، من ناحية أخرى، وهو حامل ريشة الشاعر المصوّر، بحكم تكوينه ووراثته وتأثره بما حوله، أن يغفل عن الوفاء بمقتضيات الموقف الدرامي في المشاهد المسرحية التي كتب فيها الشعر، (على مثال الفصل الذي نشره من مسرحية سميراميس) فضلاً على صعوبة الالتقاء بالحقائق الوجدانية فيها وفي غيرها، أحيانًا كثيرة.

كان أبو ريشة، مدفوعاً بالرغبة المشبوبة إلى خلق «الفكرة الشعرية» (وتمثلها عنده الصورة المبتكرة في مواقفه الشعرية) يسعى إلى جعلها تقوى على الصمود في مواجهة الزمان بصفتها ألواحاً جمالية متقنة تشبه ألواح الرسامين الكبار الباقية على اختلاف الزمان واختلاف الأذواق، على غير قاعدة شعراء العربية الكبار قبله، الذين أغرقوا شعرهم، كما يقول، في السخف ونسج اللفظيات ومعطيات الخيال الكسيح.

ثم إن ما بذله من الكد وراء خلق الصور المبتكرة وحشدها في أكثر شعره، والرجوع عليها بالنظر والتدقيق، يقف، في رأينا، وراء قلة محصوله الشعري، بالقياس إلى عمره الطويل (١٩٠٨–١٩٩٠)، ووراء تقطع نتاجه، بالرغم من إعلانه عن قرب إتمام نماذجه منه، ووراء القعود عن تتبع مسالك الحركة الشعرية المعاصرة، وتطوير أداته الشعرية، وإغناء لغته وتوسعة حدودها، ووراء انبهام نزوعه الصوفي في نتاجه بصورة عامة. على أن هذا كله لا يذهب بالحقيقة الشامخة التي تجعل منه شاعر الصورة الفنية الأول في الشعر العربي الحديث، وهذا موضوع آخر انصرف إلى درسه كثير من النقاد. ويقوم الدرس على تحليل الصورة والوقوف على جمالياتها المرسومة.

الهوامش

(١) مجلة الرسالة /. العدد ٩١٥. السنة ١٩ ص ٨٧. نقلاً عن الأدب العربي المعاصر في سورية لسامي الكيالي- ص ٣٧٠-١. نقلاً عن مجلة (الحديث) المجلد ١٠- ج ١ - ص ١٥٦.

(٢) انظر جميل صليبا: مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق: المجلد ٢٣. ج٢. ص ٢٨٨. نقلاً عن المرجع السابق. ص ٣٧١.

(٣) معلومة شفوية استقيتها من بعض أدباء لبنان، وصدقها رجال آخرون. وانظر سامي الدهان: الشعراء الأعلام في سورية. بيروت (دار الأنوار) ١٩٦٨.

(٤) سامي الدهان. الشعراء الأعلام في سورية- مرجع سابق- ص ٢٠٧. والشاذلية نسبة إلى أبي الحسن الشاذلي بتونس تفرعت عنها خمس عشرة طريقة (مثل الجزولية والوفائية) ومنها اليشرطية. نسبة إلى صاحبها من أسرة أم الشاعر.

(٥) المرجع السابق - ص ٢١٣. وربما تأثر بهذا في نسج الشعر. وتلوين رؤاه. وتلاحم الأبيات في النص سعياً وراء إحلال البيت الأخير محل القفلة في الموال الشرقاوي (السبعاوي) الشائع في حلب، ولأبي ريشة. فيما يشاع. مشاركة فيه. انظر كتابنا (ألوان) ص ١٣٦- دار الرضا بدمشق ٢٠٠٢.

(٦) من حديث أدلى به إلى المذيعين في دمشق، ونشر في مجلة الإذاعة والتلفزيون فيها. انظر جريدة تشرين الدمشقية (١٢/٢٦/ ١٩٧٧ و ١٩٧٨/١/٣٠) وفيهما تعليقان للكاتب على الحديث.

(٧) المرجع السابق- ص ٢٣٤ (حاشية).

(٨) انظر كتاب سامي الكيالي (مرجع سابق) ص ٣٧٣.

(٩) الموسوعة العربية الميسرة (سميراميس).

(١٠) كتاب سامي الكيالي. ص ٣٧٢. والنص هنا منقول عنه . ص ٣٧٢-٤.

(١١) يريد : (الندامى).

(١٢) كتاب سامي الكيالي (مرجع سابق) ص ٣٧٢.

(١٣) انظر كتاب الدهان (مرجع سابق) ص ٢٣٠ (الحاشية) وص ٢٣٤ (المتن والحاشية).

(١٤) المرجع السابق. ص ٣٢٢.

(١٥) انظر كلاماً في هذا الموضوع: كتاب (الأدب) لصبري الأشتر ونعيم الحمصي . ص ١٤٤ (كتاب مدرسي).

(١٦) لعفيف التلمساني:

إن كنت [illegible] يشربها فلقد

عربد قوم بها وما شربوا

(١٧) لعل هذا الامتياز والتألق في الإلقاء، يكون أحد الأسباب في عزوفه عن تجربة النظم على النظام الشعري الجديد (شعر التفعيلة) إذ هو ، في النهاية، شعر يُقرأ ولا يُلقى.

(١٨) معلومة شائعة في حلب استُقيت من بعض أصدقاء الشاعر ومجالسيه.

(١٩) ارجع في هذا إلى دراسة ممتازة ما تزال مخطوطة (رسالة ماجستير) للسيد محمد حمامي ، من جامعة حلب (١٩٨٤) بعنوان: (الصورة الفنية في شعر عمر أبي ريشة).

٣٠٠

جان سوفاجيه
المستشرق الفرنسي الذي عاش حلم حلب (١٩٠١ - ١٩٥٠)

د. كارين صادر(*)

أحب بلدين وانتمى إلى حضارتين، وحلق بجانحين. ومع أن حياته لم تمهله أو تنتظره حتى يكمل كل ما يجول في رأسه ويتحرك على أوراقه من أفكار وإرهاصات أبحاث، إلا أنه خلّف الكثير الذي يمنحه فرصة العيش بيننا رغم أنه في دنيا الحق منذ زمن، وهكذا كان له أن يعيش أيضاً مرتين؛ مرة زمنية بجسده وعقله وأخرى فكرية فيما خلفه من أعمال تكتب له الخلود.. إنه المستشرق جان سوفاجيه.

(*) د. كارين صادر: باحثة في التراث العربي، من لبنان الشقيق.
- العمل الفني: الفنان طاهر البني.

نبذة من حياته:

هومستشرق فرنسي بحاثة. ولد عام ١٩٠١ في مدينة "NIORT" من أعمال دوسيفر، وفيها تلقى تعليمه الأول، ثم انتقل إلى باريس وأتقن العربية والفارسية في مدرسة اللغات الشرقية فيها. سافر إلى دمشق سنة ١٩٢٤ لينضم إلى فريق المعهد الفرنسي فيها، وفي عام ١٩٢٩، أصبح سكرتيره العام.

أحب سورية فسكنها وسكنته مدة طويلة دون أن يحس بغربة تدفعه إلى مغادرتها. إلا أنه في عام ١٩٣٧ عاد إلى باريس ليكون أستاذًا في مدرسة الدراسات العالية، ثم مديرًا لدراسات تاريخ الشرق الإسلامي فيها، وهو المركز الذي استحدث خصيصًا له. كما أنه كان يحاضر في مدرسة اللغات الشرقية، ويعطي دروسًا في الفن الإسلامي بمدرسة «اللوفر» (١٩٤١ - ١٩٤٤)، وأيضًا في قسم اللغة العربية بجامعة باريس.(١)

وقد سعى جادًا أثناء إقامته الطويلة في سورية الى جمع ما يتيسر له من الوثائق والمصادر، وقد تمكن من حيازة كمية ضخمة منها تكفي بذاتها لتغذية حياة طويلة من العمل في ميدان التأليف. وقد وضع كل ما أفاد من دراسته وتجاربه السابقة في خدمة الكرسي الذي أحدث له.

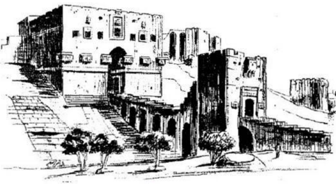
قام برحلات عدة إلى كل من تركيا (١٩٣٢) وفلسطين (١٩٣٣) والعراق وإيران (١٩٣٤)، وكان مع إجادته العربية يحسن التركية والفارسية. وجمع من هذه الرحلات ملاحظات ونصوصًا أثرية مصورة نقلاً عن مخطوطات. وكانت هذه زاده ورافده في إنجازه العديد من الأبحاث والدراسات.

وكانت سورية نقطة انطلاق نشاطه العلمي؛ فهي القطر الذي عرفه بشكل خاص، وكرّس له القسم الأكبر من نتاجه فتابع تطور مدنه، وأحصى آثار مدينتي حلب ودمشق فيه. وكتب عن الأبنية الأيوبية وعن الخانات وطرق البريد والحج، وعن بريد الجياد في الإمبراطورية المملوكية، وعن الفساسفة ومدينة سيرجيوس (الرصافة) وغيرها.(٢)

وشارك في عام ١٩٣٧ في إحصاء المصنَّفات التي تنشرها مجلة الدراسات الإسلامية. وقد تفرد في أساليب بحثه. فجمع إلى الآثار فن الآداب فأحياهما. توفي في كاربو عام ١٩٥٠، وكرّمه المعهد الفرنسي في دمشق بعد وفاته بإصدار كتاب يحمل عنوان «ذكرى جان سوفاجيه»، وذلك في عام ١٩٥٤.

- آثاره العلمية:

بدأ نشاطه العلمي في عام ١٩٢٨، عندما نشر مقالاً في مجلة سورية عن «مشهدي الحسين والشيخ محسن في



حلب» وانتهى بعد إعداد اقتراح إصلاح الطباعة العربية في عام ١٩٤٩. وبين هذين التاريخين نشر أكثر من ثمانين بحثاً، وصل بعضها إلى خمسين صفحة[٣].

وإن آثار جان سوفاجيه متعددة وافرة ونفيسة، وهي بين مقال وتحقيق وترجمة وتصنيف، وكان لمدينة حلب فيهم حصة الأسد، **ومن أهم ما كتبه عن حلب** نورد:

– مزاران شيعيان في حلب: سيريا، ٩، ١٩٢٨.

– السور الأول لمدينة حلب: منوعات المعهد الفرنسي بدمشق، ١، ١٩٢٩.

– مسرد الآثار الإسلامية في مدينة حلب: مجلة الدراسات الإسلامية، ١٩٣١.

وقد نقله إلى العربية الدكتور أسعد طلس في عام ١٩٥٦.

– كتاب الدرر المختارة لابن الشحنة: وقد قام بترجمة بعض أجزائه ترجمة دقيقة، وعلق عليه تعليقاً صحيحاً، وذيّله بترجمة مصطلحات العمران. طبع الجزء الأول منه في المطبعة الكاثوليكية في بيروت عام ١٩٢٢، والآخر هو من منشورات المعهد الفرنسي في دمشق عام ١٩٣٤.

– مختارات من كتاب «بغية الطلب» لابن العديم: متناً وترجمة عن مخطوط مكتبة استانبول، وقد نشره في مجلة الدراسات الإسلامية عام ١٩٣٢.

– تخطيط تاريخي لمدينة حلب: نشر في الدراسات الإسلامية عام ١٩٣٤.

- حلب أيام سيف الدولة: وقد كتب هذا البحث في العيد الألفي للمتنبي في بيروت عام ١٩٣٦.

- تل حلب: وصدر ضمن المنوعات السورية المهداة إلى ديسو باريس في عام ١٩٣٩.

- حلب: وهي دراسة عن توسع مدينة سورية من المدن الكبرى منذ نشأتها إلى أواسط القرن التاسع عشر. رسالة دكتوراه في الآداب، باريس، عام ١٩٤١.

- كنوز الذهب في تاريخ حلب لسبط بن العجمي: وقد عمل على ترجمة الجزء الثاني منه ترجمة دقيقة، وأضاف التعليقات والشروحات الصحيحة، وذيّله بترجمة مصطلحات العمران. وقد صدر عن المعهد الفرنسي في دمشق عام ١٩٥٠.

ومن تآليفه وبحوثه الأخرى نذكر:

- الآثار التاريخية في دمشق.
- خيول بريد المماليك.
- أبنية مدينة دمشق.
- دمشق وسورية الجنوبية.
- أخبار الصين والهند.
- المستكشفون العرب بين المستكشفين المشهورين.
- قلعة دمشق.
- قبر صلاح الدين التذكاري.
- محطة بريد مملوكية.
- الخانات السورية على طريق الحج.
- مخطط مدينة دمشق في العهود القديمة. وغيرها.

أما آخر أعماله المنشورة فكان بحثًا في «ضبط أسماء المماليك وألقابهم وتفسير معانيها».

ومما كان قد جهزه للطبع أو أعدّه أو يعمل فيه:

- المسجد الأموي في المدينة.
- لغة البناء في دمشق.
- المدخل إلى دراسة الخزف الإسلامي.
- قصور الأمويين في سورية.
- المنحوتات الشعبية الإسلامية في العصر الوسيط.

وإن رجلاً بهذه الغزارة في الإنتاج على قصر ما أتاح له العمر من فسحة للعطاء لدليل على توقدٌ ذهني نادر مشحوذ بأدوات عملية وثقافية عالية، ورغبة ملتهبة لا تفتر، وكأنه كان يعلم بضيق الوقت المتاح لإنجاز كثرة من الأعمال التي تشغله.

-عمله في خدمة مدينة حلب:

عمل سوفاجيه من أجل حلب مدة ست سنوات تبدأ في عام ١٩٣١، وهي السنة التي قدم فيها إلى حلب مكلفًا بإحصاء

آثارها. وتنتهي في عام ١٩٣٧ حين غادر إلى فرنسا لإنجاز أطروحة الدكتوراه التي جعل حلب موضوعها، وكان عنوانها «حلب: دراسة تطور مدينة سورية كبيرة (من نشأتها حتى منتصف القرن التاسع عشر)». وبين هذه السنوات كان سوفاجيه يعيش حلم حلب القديمة، ويحاول أن يبحث عنها بحث العاشق عن معشوقته المفقودة بهمّة لا تفتر وجهد لا يكلّ.

وبعد حصوله على الأطروحة انتهت لدى سوفاجيه مرحلة عشق عابر، لتبدأ مرحلة هيام لا نهاية له مع هذه المدينة التي ارتبط بكل معالمها وعاش كل تاريخها وأراد استنطاقه وحثه على الظهور مجدداً والتحرك أمامه.

وكان سوفاجيه قد نشر في بداية حياته العلمية مقالاً حول «مشهدي الحسين والشيخ محسن في حلب» عام ١٩٢٨. ثم أتبع ذلك بمقال تضمن «إحصاء الآثار الإسلامية في مدينة حلب» وقد نشر في مجلة الدراسات الإسلامية بباريس سنة ١٩٣١، ثم طبع في كتاب مستقل يقع في نيف وخمسين صفحة.

وتتالت بعدها الأبحاث والدراسات التي نوهنا بها فيما سبق حتى سنة ١٩٤١، التي طبع فيها أطروحته عن حلب.

وسنقوم فيما يأتي باستعراض اثنين من أهم مؤلفاته عن حلب للوقوف على روح سوفاجيه المستشرق والباحث

١- كتاب: حلب. دراسة تطور مدينة سورية كبيرة من نشأتها حتى منتصف القرن التاسع عشر.

هو أحد أهم آثار سوفاجيه، ليس لأنه أضخمها حجماً، أو لأنه أطروحة نال عليها درجة الدكتوراه فحسب، بل لأنه كتاب هام بمضمونه وبالنظرات التي عرضها.

يتألف الكتاب من مجلد (نص)، ومجموعة صور تحوي سبعين لوحة تضم خمساً وسبعين صورة فوتوغرافية، وثمانية وعشرين صفحة، يضاف إليها مقدمة في عشر صفحات، ولائحة بالمصادر في ست وعشرين صفحة وملاحق في ست وأربعين صفحة.

ويتألف الكتاب من مقدمة ضمنها خطته في مؤلفه، وعدة فصول كانت محاورها الأساسية هي:

- الإطار التاريخي.
- الإطار التاريخي والتطور المديني.
- المعطيات الأثرية.
- صفات التجمع المديني وتطوره.

ويتناول هذا الكتاب تاريخ حلب منذ القرن العشرين قبل الميلاد وحتى منتصف القرن التاسع عشر الميلادي، وهو يسجل تطورها المديني حقبة حقبة، منذ كانت تجمعاً سكانياً متواضعاً، حتى توسعها شرقاً في العهدين السلوقي والروماني، ثم

شرقًا وجنوبًا، وشمالاً وغربًا في العهود الأيوبية والمملوكية والعثمانية. والكتاب يعطينا فكرة واضحة عن آثارها القائمة حاليًا: بنائها وتاريخ إنشائها وقيمتها الفنية.

ومن المواضيع الهامة التي تناولها سوفاجيه في كتابه:

– طرحه جوابًا عن سؤال طرحه المؤلف في المقدمة وفي الفصلين الأول والثاني، وهو: الأسباب التي ساعدت على التحول من تجمع سكاني ريفي إلى مدينة ضخمة مزدهرة. وهو يراها اثنين: الأول موقعها الكائن على عقدة الطرق التجارية العالمية التي تصل الغرب بالشرق والشمال بالجنوب. والثاني: ذكاء سكانها من جهة وجدّهم من جهة أخرى.

– اعتقاده أن كل المنشآت والمرافق الرئيسية وهي: السور والقلعة والساحة العامة والأسواق وشبكة المياه كلها تعود إلى العهد الهيلينستية. أما العهد العربي الإسلامي فلم يضف أي جديد، وكل ما فعله هو إضفاء حلة جديدة: فالأسواق والقيساريات والخانات وسوق الخضار ليست إلاّ انحطاطًا سلاليًا للشارع ذي العمدة وللبازيليكا والساحة العامة، وليست الحمامات إلاّ تمثيلاً مبسطًا لحمامات المياه المعدنية. ويضاف إلى ذلك أن أعمال توزيع المياه تتبع طراز العصور القديمة وبشكل مشابه.

وأما المنزل العربي فمشتق من دار السكن الهلينستية. وهو طرح قد تراجع عنه فيما تلاه من دراسات.

أما مزايا سوفاجيه في كتابه فهي:

– إفادته من مصادر مختلفة كالكتب التاريخية، والمذكرات، وكتب الآثار والجغرافية، ووثائق وزارات الخارجية.

– اعتماده طريق علمية جديدة هي استقراء الآثار ومقارنتها بما تقدم المصادر التاريخية.

– معرفته العميقة والممتازة بمدينة حلب، فهو يعرف تاريخها وحاضرها، ومراحل تطورها المديني، وشوارعها، وأزقتها.

– إن مؤلف هذا الكتاب علامة بالآثار والتاريخ وعلم هندسة المدن، وهو يتقن إلى جانب لغته الفرنسية الأم، اللغتين اللاتينية والتركية، ويفهم الألمانية والإنكليزية، ويتقن العربية.

– خطّ سوفاجيه الكتاب بأسلوب رشيق تغلب عليه مسحة أدبية تجعل من قراءته متعة للنفس فضلاً عما تحمله من غذاء للفكر[٤].

– سعيه إلى تدعيم أفكاره بكم من الصور والمخططات والأشكال التي أسهمت في إغناء عمله.

٢- كتاب: الآثار الإسلامية والتاريخية في حلب:

و هو كتاب أقدم على تصنيفه سوفاجيه باللغة الفرنسية، ثم قام بترجمته الدكتور أسعد طلس في عام ١٩٥٦، أي بعد وفاة سوفاجيه بستة أعوام. **ومما قاله المترجم في وصف الكتاب:** «رأيت أن الكتاب المتقن الذي ألفه المستشرق العلامة الفرنسي البروفسور جان سوفاجيه أستاذي وصديقي المؤرخ المحقق الذي أغرم بالشهباء غرامًا شديدًا حتى ألف عنها كتابه الضخم الذي نال به شهادة الدكتوراه، وهو كتاب مفيد، دقيق، رصين على صغره، فعمدت إلى تعريبه تعريبًا أمينًا وعلّقت عليه تعاليق مفيدة، ثم أضفت إليه معلومات نسيها أو أهملها، وأصلحت أخطاء وقع فيها أو توهمها، فجاء هذا الكتاب وافيًا في وصف آثار هذه المدينة الخالدة التي اعتز بالنسبة إليها وأحرص على إشادة مناقبها وحفظ تراثها»[٥].

وقال سوفاجيه في مقدمة هذا الكتاب عن حلب، معللاً سبب تعلقه بها وكثرة دراسته لها:

- «قل أن تجد في الشرق الأدنى مدينة تضارع حلب فيما تحتوي عليه من الآثار الإسلامية التي تعين على دراسة تاريخ العمارة الإسلامية، ويمكننا أن نضعها بعد مدينة القاهرة مباشرة، على الرغم من أن كثيراً من الأمكنة الأخرى تحتوي على عدد من الآثار الجميلة الإسلامية، التي تقدم لمؤرخ الحضارة الإسلامية نماذج متنوعة: فالقدس الشريف مثلاً لا يحتوي إلا على آثار دينية، واستانبول وقونية اللتين ازدهرتا ثم سقطتا مع الخلافة الإسلامية العثمانية تحتويان على آثار تمثل لنا قرنين وثلاثة ودمشق نفسها لم تحافظ على ميزتها العمرانية الخاصة لأنها كانت دومًا معرضة للتأثر الأجنبي.

أما حلب، فهي على العكس تقدم لنا سلسلة متواصلة الحلقات من الآثار المدنية والدينية والعسكرية، منذ نهاية القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي إلى أيامنا هذه. ويلاحظ أن تلك السلسلة الأثرية ذات أنماط مختلفة وطابع خاص وأنها تاريخ للمدينة على توالي حقبها واختلاف عماراتها»[٦].

وقال مختصرًا أهم المراحل التاريخية لحلب:

«إن حلب في العصور الإسلامية الأولى، وفيما قبل الإسلام، كانت بليدة ثانوية محصورة بين مدينتين عظيمتين هما: «أنطاكية» عاصمة سورية الشمالية، «قنسرين» عاصمة الديار الحلبية، وفي أيام الحمدانيين لمع نجمها فترة ثم خبا.

ومنذ عهد الصليبيين لمع حظ هذه المدينة، ففي عهد السلاجقة غدت حلب،

بسبب وقوعها على تخوم بلاد الرافدين مركز سياستهم في الشرق، كما غدت مركز الدعاية ضد الدولة الفاطمية المبتدعة، وفيها أسست أول مدرسة سورية. وفي نهاية القرن السادس للهجرة / الثاني عشر للميلاد، بدأت نهضة المدينة، على الرغم من الغزو التتري الكاسح في سنة ٦٥٨هـ / ١٢٦٠م، وذلك الغزو الذي خلّفها خرابًا مدة ربع قرن، فإنها استمرت في نهضتها قدمًا.

ومنذ هذا العهد صارت حلب مركز القيادة الحربية لحماية حدود الإمبراطورية الشامية - المصرية ضد الصليبيين حكام أنطاكية، ثم ضد الغزاة القادمين من المشرق ومن قليقية، فقد صارت عاصمة المملكة فترة ما، ثم استقلت وغدت إمارة مهمة، وقد كان ملوكها وأمراؤها لا يفتأون يشيدون فيها العمائر الدينية.

لقد غدت حلب، وخاصة بعد أن احتل الصليبيون أنطاكية وبعد أن دمّرها - أي أنطاكية - الظاهر بيبرس المركز التجاري الإسلامي لتجارات إيران، والهند، كما غدت الثغر الإسلامي الثاني بعد القسطنطينية وأزمير، واشتهرت أسواقها وخاناتها بعظمها وتعددها، وهكذا صارت حلب تحتوي على عدد عظيم من الأبنية الدينية، والعمائر المدنية التي تتكون منها مجموعة لا تقدر لدراسة تاريخ الحياة الاجتماعية في الشرق الإسلامي»[٧].

- عمل سوفاجيه في إحصاء آثار حلب:

يطلعنا المستشرق العلاّمة جان سوفاجيه في مقدمة كتابه عن الآلية التي اعتمدها في إحصاء آثار حلب فيقول:

«إن الإحصاء الوحيد الذي أعرفه عن آثار حلب هو احصاء الشيخ كامل الغزي، ولكنه إحصاء يجمع على صعيد واحد أبنية مختلفة الحسن والموضوع، ولا يعتمد على مخطط يسمح لإحصاء تلك الآثار.

وقد عمدت في إحصاء الآثار على الخطة التالية:

قسمت المدينة إلى أقسام، ثم طفت كل قسم شارعًا فشارعًا، وحارة فحارة على قدمي معتمدا على خارطة المدينة (حجمها ١ / ١٠٠٠٠)، وحددت عليها مواقع الآثار القديمة بالتقريب، ثم حققت تلك المواضيع على مخطط مصلحة السجل العقاري، وقد أحصيت مواضيع ما ينوب على ٣٠٠ أثر. مع العلم أنه لا يصح الجزم بأن هذا الإحصاء تام، بل ينبغي أن ننتظر ظهور آثار أخرى في بعض الأحياء المكتظة بالدور والمشوهة بالأبنية الجديدة، ولا يمكن معرفة الآثار القديمة إلاّ بهدم تلك الأبنية المستجدة.

وقد حدث معي في حلب أن اكتشفت أثرين صدفة، وبمجرد أن وجدت بابًا

مفتوحًا بعض الفتح. وهما الأثران اللذان يأخذان رقم ١٩، ورقم ٣٨. مطبخ العجمي، والمراحيض العامة في سوق المناديل. وهذا دليل على ما قلت آنفًا، ولا بدّ من أن تظهر في المستقبل آثار يجب أن تضاف إلى الإحصاء المعروف. وبعد فأنا واثق من أن الإحصاء الذي أقدمه هو إحصاء غير تام، ولا يصحّ أن يتخذ أساسًا لمخطط أثري كامل»[٨].

- نصوص مختارة من كتاب الآثار الإسلامية والتاريخية في حلب:

قدم لنا سوفاجيه في كتابه هذا تعريفًا علميًا دقيقًا وموجزًا عن كل معالم حلب الأثرية التي عاينها بنفسه، فوصف الجوامع والمساجد والكنائس، وكنائس اليهود ودور الحديث والعلم والمشاهد والتكايا والزوايا والخوانق والحمامات والقساطل والسبلان والخانات والدور والقصور والبيوت الأثرية والمشافي وغيرها... وقد اخترنا منها في هذا البحث ما هو هام جدًا في مدينة حلب، وأيضًا ما هو غير مضاء عليه بشكل كاف في الكتب التي تناولت آثار حلب. وأخيرًا ما يعود فضل اكتشافه إلى سوفاجيه نفسه.

١- ما هو معروف جدًا وتكاد شهرته توازي شهرة حلب:

آ- سورية مدينة حلب:

يقول: «لهذا السور أهمية عظيمة لأنه الوحيد من نوعه في الشرق الإسلامي. على أن في مدينتي ديار بكر والقدس الشريف سورين أكمل من سور مدينة حلب، إلاّ أن سور القدس مبني في القرن الخامس عشر الميلادي / العاشر الهجري، أيام الدولة العثمانية، وليست له القيمة الأثرية والتاريخية التي لسور حلب من حيث فن العمارة العربية العسكرية. إن سورية ولبنان ليس فيهما بلدة لها سور أفضل بناء من سور مدينة حلب، على أن سور مدينة مصياف أبسط من بنائه ولكنه أحدث عهدًا من سور مدينة حلب»[٩].

ب- أبواب سور حلب:

- باب النصر: بني في السنوات الأولى من القرن الثالث عشر، وقد هدم الجزء الرئيسي منه ففتح طريق عام، ولكن برجيه الدفاعيين ما يزالان محظوظين تمامًا. يجب صيانة ما تبقى من هذا الأثر الفخم بإزاحة الحوانيت التي تكاد تغطيه.

- باب أنطاكية: بني في عام ٦٤٣ هـ / ١٢٤٥م، وقد جدد في مناسبات متعددة وإن نجفته متكسرة يجب إصلاحها كما يجب هدم الحوانيت التي تشوهه. وقد أقيم أمامه مركز كهربائي منذ عهد قريب.

- باب قنسرين: يرجع عهده إلى ما قبل القرن الثالث عشر الميلادي، على الرغم من الكتابة الموجودة على الباب الخارجي. وإن نجفة الباب الخارجي مفككة.

- **باب الفرج:** لم يبق منه إلا برج جدد بناؤه أيام قايتباي في النصف الثاني من القرن الخامس عشر للميلاد.

- **باب المقام:** جدد بناؤه برسباي في القرن الخامس عشر. وهو الباب الوحيد في حلب الذي يحوي دهليزًا إلى يمينه يجب صيانته تمامًا.

- **باب الحديد:** وكان يسمى قديمًا باب القناة. بناه قانصوه الغوري سنة ٩١٥ هـ / ١٥٠٠م، وحالته العمرانية جيدة جدًا[١٠].

٢- ما تم اكتشافه من آثار على يد سوفاجيه:

أ- المطبخ العجمي:

يقول: «وكان لي حظ اكتشافه، وهو بقايا قصر قديم يرجع إلى القرن الثاني عشر للميلاد، وقد رمم في القرن الخامس عشر والسادس عشر. وكان دون شك ملكًا لأحد أمراء نور الدين، وهو القصر الوحيد من نوعه في الشرق الإسلامي.

له قبة تقوم على متدليات من الجص، وعقد يقوم على متدليات أيضًا وإيوان له غلق مقطّع وإيوان آخر له غلق منقوش، وفيه بقايا خشبيات قديمة ترجع إلى القرن الخامس عشر والسادس عشر.[١١]

ب- المراحيض العامة:

هي بناء واسع تعلوه قبة عالية من القرن الثاني عشر الميلادي، وتحيط به غرف المراحيض. وقد جدده الأمير طاز سنة ٧٥٨ هـ / ١٢٥٧م. وهو أحد بناءين اثنين من نوعه في سورية، ولا تستدعي حالته القيام بإصلاح ترميمي سريع الآن سوى إزالة الحاجز الخشبي الذي يغطي المدخل والمتدليات كما يجب تجصيصه وتنقية جوه».[١٢]

٣- ما هو غير مضاء عليه بكثرة من آثار حلب:

١- الدور والقصور:

يقول: «في الشهباء اليوم عدد كبير من القصور والدور الجميلة المتقنة في عمرانها وهي مكونة في الغالب من **واجهة مرتفعة ضخمة فيها الباب المؤدي إلى الصحن، وهو** في الأغلب مكشوف تتوسطه بركة وتحيط به الأشجار التي غالبًا ما تكون برتقالاً أو ليمونًا أو نارنجًا. ومقابل المدخل إيوان ضخم عالٍ في جانبيه غرفتان أو قبّتان، ويحيط بالصحن غرف أرضية وعلوية.. وأجمل ما في هذه الدور والقصور غرفها المزدانة بالخشبيات السقفية والحائطية والزخارف الرخامية والمروية وكتاباتها المذهبة التي تشتمل على بعض آيات من القرآن الكريم أو الحديث الشريف أو الشعر الجميل. ومنها:

- **بيت صادر** [محلة: الجديدة - دخلة الحصرم]

هو بيت جميل جدًا يرجع إلى نهاية

القرن السابع عشر أو أوائل القرن الثامن عشر، وقد اتخذ اليوم مدرسة لأبناء طائفة السريان الكاثوليك. وهو مكون من صحن واسع كان فيه حوض جميل وحديقة لطيفة، ولكن تحويل البيت إلى مدرسة قد أزال معالم الحوض والحديقة.

وأجمل ما في هذا البيت هو القاعة العلوية التي يعلوها سقف لعله أجمل سقف حلب الخشبية، فهو غني جدًا بزخرفته وتلوينه وتذهيبه وأفاريزه ونقوشه البارزة وكتاباته. وقد نقل هذا السقف في الآونة إلى المتحف الوطني بحلب لحفظه فيه»[١٣].

وأما ختام هذه مقتطفات كتاب «الآثار الإسلامية والتاريخية في حلب» فستكون لحلب كما يراها عاشق حلب سوفاجيه.

- حلب في عيني سوفاجيه:

يروي لنا العالم سوفاجيه في ثنايا كتبه التي حبّرها بجهده وعرقه عن حلب أسباب هذا التعلق الكبير بهذه المدينة فيقول: «... تكشف المعرفة الأعمق سمة أخرى لحلب: إنها الحيوية المدهشة للمركز المديني. فالمدينة هي نفسها موضوع للدهشة. إن تناسب أسواقها الواسع، وتلك الأسواق التي ترتص فيها الحوانيت على امتداد أكثر من ثمانية كلم، وعدد خاناتها وسعتها وروعتها والازدحام الصاخب الذي يستمر طوال النهار... كل ذلك يدهش الزائر ولو كان معتادًا على أجواء الشرق.

وليس هذا إلا مظهرًا من مظاهر الحياة الاقتصادية لحلب؛ فأسواقها الكبيرة لا تضم إلا بائعي الأقمشة والسماسرة، بينما تجتمع نقابات المهن الأخرى في ضواحي المدينة، حيث تشغل شوارع كاملة كثيرًا ما تتسع أبعادها، وتلتقي حتى في الأرياض البعيدة حيث تشاهد أسواقًا خاصة وجدت لزبن خصوصيين، تلك الأسواق لم تكن أقل تجهيزًا بالبضائع ولا أقل رواجًا من حيث الزبائن. بالإضافة إلى أن الطرق الكبيرة التي تتركز على طولها هذه التجارة تقدم الأزقة التي تؤمن المواصلات لمنازل السكن.

ففي كل مكان يحمل الأطفال على أكتافهم ربطات الخيوط الحريرية أو يقودون حميرًا محملة، وفوق الأرصفة نرى خيوطًا ملونة معلقة تجفف، وقطعًا من الأقمشة القطنية الخارجة من قدور النيلة تتدلى على الأسطحة. وفي كل مكان تسمع الضربات الحارة لحرف النسيج، أو الصدى الواضح لمطارق الصقالين...

إن هذه الصفات الخاصة تطرح بسرعة على الفكر هذ التساؤل: ما هو سبب مثل هذا الغنى ومثل هذا النشاط؟ ولماذا غدت حلب أكثر سعة وسكانًا وجمالاً وحيوية وغنى من أية مدينة في سورية؟ وكيف توصلت مدينة في هذا القطر حيث نمت التكتلات المدينية العديدة بصورة استثنائية إلى هذا التفوق الواضح جدًا؟

.. وأخيرًا أريد من الحلبيين الذين سيقرؤون هذه الصفحات الملأى بالتعاطف الذي احتفظ به لهم، وبالود العميق الذي أكنه لمدينتهم، أن يغترفوا منها أسبابًا جديدة للثقة بأنفسهم وبمصير بلدهم: متعلمين منها كيف كبرت حلب في الماضي بفضل الجهد الدائب لأبنائها، ذلك الجهد الذي يعطيهم قوة الروح الضرورية لضمان مستقبلهم».(١٤)

سوفاجيه في عيون مستشرقين آخرين.

كان لسوفاجيه حضوره في الشرق وفي الغرب معًا، كما كان له صداقاته مع علماء وباحثين ومستشرقين عديدين في بلدان عديدة. وقد اخترنا ثلاثة شهادات لثلاثة من أكثر أصدقائه قربًا إلى نفسه ومن مهنته. وقد عاشوا معه ووقفوا عن كثب على أحلامه وطموحاته العلمية التي كانت تضج بصدره وتمنعه من الانتباه إلى

صحته.

١- سوفاجيه بعيني المستشرق لويس روبير:

يقول لويس روبير واصفًا شخص سوفاجيه: «كان جان سوفاجيه يتمتع بنشاط متنوع؛ فهو مستعرب وناشر نصوص ومترجم وقارئ خطوط وآثاري. ومع أن إنتاجه كان متنوعًا إلاّ أنه كانت تجمعه وحدة عميقة.

وكان روبير قد طالع باهتمام كتابات سوفاجيه، وقال مقيمًا بعضها «كانت مقدمة سوفاجيه البيبليوغرافية للتاريخ الإسلامي مثالاً رائعًا متميزًا. إنها عمل معلم لأنها مصادر مشروحة، تضع كل أمر في مكانه الخاص به، وتميز بين الجيد والرديء، والضروري والثانوي، والأصيل والملفق، والجديد والقديم، وتؤلف سلسلة متصلة الحلقات تطرح المعضلات.

وهو في كتابه عن مؤرخي العرب الذي نشره في عام ١٩٤٦، يكتب صفحات مختارة ومترجمة وموضوعة في أطرها التاريخية والأدبية.

وقد بين في كتابه عن حلب إسهام سورية في حياة البحر الأبيض المتوسط وكيف أن تطور مدنه الكبيرة كان متأثرًا كل التأثير بأحداث خارجية، بعيدة عن المنطقة. وهو يقول في خاتمة درس افتتاح College De France «إن تاريخ سورية منذ الفتح العربي لا يغدو مفهومًا، ولا يمكن أن يكون واضحًا إلاّ شرحت صلاتها بمصر والعراق وفارس وتركيا. فحول تاريخ سورية يتحلق تاريخ الشرق الأدنى كله، التاريخ الذي علينا أن نصنفه. فأنا عندما أكرس قسمًا كبيرًا من عملي لسورية فلأنني أعي

أعمق الوعي المهمة التي كرست لها جهدي، فأنا لا أعمل وفق ما تتيحه لي الظروف والصدف بشكل أعمى، بل إن كل شيء مرتب ومنظم».[١٥]

٢- سوفاجيه بعين المستشرق بلاشير:

كتب بلاشير في ذكرى رحيل صديقه وزميل دربه بلاشير يقول: «منذ عدة أشهر، ونحن نشعر بأن صحته تسوء، وحاولنا دون جدوى أن نزرع في داخله الخوف على صحته، وفي الخريف الفائت فرض الألم نفسه عليه، ووضع سوفاجيه أمام مواجهة مع هذه الشجاعة المغلفة بالسخرية التي كانت إحدى الصفات التي تعجبنا فيه.

وأخيراً في إحدى مساءات كانون الأول، ترك باريس إلى كامبو مخلفاً في ذواتنا الأمل في التراسل، لكنه غادرنا في الربيع الذي طالما انتظره، ففي الخامس من آذار جاءنا نبأ مفاده أن جان سوفاجيه لن يظهر بيننا بعد الآن.

وكان جان سوفاجيه المستشرق قد سافر إلى سورية في عام ١٩٢٤، وبعد مرور أقل من أربعة أشهر على وصوله إلى دمشق استطاع أن يجمع معلومات كافية عن البلد.. وهكذا فإن مرحلة جديدة بدأت لديه. لقد ولد فيه الباحث.

رفض سوفاجيه لقب المستعرب، وهو محق في هذا ومخطئ في آن، محق لأن علمه لم يكن محدوداً بالبلاد العربية بل امتد إلى بلاد فارس وتركيا، وكوّن معرفة جيدة تلفت النظر إليها في علم الإسلاميات.

وهو أيضاً مخطئ برفضه هذا اللقب، لأنه وبمناسبة إقامته في سورية حصل على دبلوم في اللغة العربية

المحكية إضافة إلى إتقانه اللغة الفصحى.

وأخيراً فإن كل علومه وكل لغاته الإسلامية التي يتقنها كانت مجرد أدوات لخدمة علم أوسع وأعم: هو تاريخ العالم العربي».[١٦]

٣- سوفاجيه بعيني الباحث الدكتور سامي الدهان:

كتب الدكتور الدهان تحت عنوان «سيرة عالم» في مجلة الرسالة عن سوفاجيه وكان من المقربين إليه والمتتبعين عن شغف لتفاصيل حياته العلمية والعملية. وقد خلف لنا في هذا المقال صورة ولا أصدق عن هذا العالم الذي نسي العالم الحاضر، وأمضى العقود في التنقيب والبحث عن العالم الماضي الذي شغل حلب قبل قرون.

يقول: «كان عامة الجمهور في حلب يجدونه عند كل حجر عتيق من أحجار

المدينة. يتسلق الصخر، ويعلو الجدران القديمة والأسوار المتهدمة، وبيده ورقة وقلم يخط سطورًا ويمحو سطورًا، لا يبالي بالهامس حين يمر أو الساخر حين يتحدث، فالناس عندنا لم يألفوا من يصاحب الصخر يومه، ويتحدث إليه ساعات من النهار، يستنطقه عن الماضي القديم، ويستخبره عن الأجيال السالفة. وكان منظر الرجل يثير كذلك دعابة حينًا ودهشة حينًا آخر، فقد أرسل لحيته، ولبس البسيط من الثياب، وجلس جلسة ابن البلد إلى الحجر والتراب، يقتلع العشب عن الحجر، ويمسح عنه الغبار كأنه شحيح يفتش في ثناياه عن كنز مدفون، وثروة مخبأة.

على أن الناس يمرون بهذا الصخر والحجر عشرات المرات لا يبالون ولا يأبهون فقد ألفوا أن يروا في سبيلهم كتابات عريضة لم يحاولوا أن يقرأوها وتواريخ مسطورة لم يجربوا أن يفهموها.

وظلّ على ذلك سنين انتهى بعدها إلى كتاب صغير نشره بالفرنسية، صوّر فيه الأبنية الأثرية، ورسم مصورًا لهذه الأبنية وخلص إلى نظرية جديدة هزّت المستشرقين طربًا، فقد وقفوا على صورة حلب كما كانت قبل ألف عام أو تزيد، وحدد أماكن الجدران والأسوار من هذا المصور، وبيّن مواقع المساجد والجوامع والتكايا. وكأنه قد بنى المدينة على ورق من جديد.

فتنبّه المؤرخون إلى ما تحويه حلب في حاضرها من بناء قديم يرى سوفاجيه أنه أقدم ما بقي في سورية من آثار حتى إنه اكتشف على أحد جدران المباني كتابة هيروغليفية يعود تاريخها إلى ألفي سنة سلفت. ولم يقف عند هذا حتى كتب رسالة دكتوراه درس فيها تطور البناء في حلب على مدى الأجيال: فعرض للمدينة في عهد اليونان والرومان والعرب، وتوجّت الرسالة بكثير من الثناء، وهتف المستشرقون للدارس والباحث، وقد قضى شطرًا من عمره في بلاد الشام يتقرب إلى تاريخه ويتفهم ماضيه العمراني.

ولما سكن سوفاجيه دمشق كتب كذلك عن أبنيتها وحاول أن يصنع لها ما يصنع لشقيقتها حلب، ونشر بحوثًا عن الأبنية في دمشق على عهد الأيوبيين.

وتابع دراساته وواصل نشر كتبه حتى بلغت العشرين، فنقل من الربوع التي أحبها وعاش بين جدرانها إلى باريس، وعين أستاذًا في «الكوليج دو فرانس» ومديرًا للدراسات كذلك..

وكأني بالعالم المؤرخ، وهو يبلغ الخمسين من عمره، قد أنهكه الدرس وحطّمه الجهد، وأخذت منه المؤلفات ما

اخذت من عباقرة الباحثين، فنال منه المرض ولم يثنه نصح الأطباء ورفق الأصدقاء حتى اختطفه الموت وهو يترجم ويصحح كتبه عن الشام والمسلمين، فقضى، وملازم المطبعة بين يديه، وترجمة التاريخ الإسلامي تحت وسادته، واغمض عينيه على مصور الشام الذي يزين غرفته...

فبكاه أصدقاؤه الذين عرفوا فيه التسامح والإخلاص، وبكاه طلابه الذين رأوا فيه دماثة الخلق وتواضع العلم وتفاني الأستاذ.

ولا شك في أن حلب الشهباء ستجزيه أجر ما عمل وتفيد من درسه، وتقتبس من بحثه فتكمل ما لم يكمل من نص وتنشر ما لم يتم من مخطوط.

ولا شكَّ في أن المؤرخين والباحثين عندنا سيجدون في سيرته سيرة تحتذى وأسلوبًا يقتفى وطريقة تتبع.(١٧)

الحواشي

١- العقيقي، نجيب، المستشرقون، القاهرة، دار المعارف، ط٤، لا تاريخ، ١/٣١٣، الزركلي، خير الدين، الأعلام، بيروت، دار العلم للملايين، ط٩، ١٩٩٠، ٢/١٠٨.

٢- جحا، محمد فريد، تحية إلى المستعرب العالم جان سوفاجيه، حلب، ١٩٩٣ لا مكان، ص٣.

٣- المرجع نفسه، ص٤.

٤- جحا، تحية إلى سوفاجيه، ص -٧-١٢ بتصرف.

٥- سوفاجيه، جان، الآثار الإسلامية والتاريخية في حلب، ترجمة أسعد طلس، دمشق، مديرية الآثار العامة في سوريا، ١٩٥٦، ص٣.

٦- سوفاجيه، الآثار الإسلامية، ص٦.

٧- المصدر نفسه، ص٧.

٨- نفسه، ص١١، ١٢.

٩- نفسه، ص٢٢.

١٠- نفسه ص٢٣.

١١- نفسه، ص٦٨.

١٢ - نفسه، ص ٩٩.

١٣- نفسه، ص٢٩٠.

١٤- نفسه، ص ١٧.

١٥- تحية إلى ذكرى جان سوفاجيه، دمشق، المعهد الفرنسي للدراسات الشرقية، ص١١٣.

١٦- Journal Asiatque, Fascicule No. 1 Annee 1951. Tome Cexxxix. R. Bla Chere. Pl.

١٧- مجلة الرسالة، العدد ٨٧٩، لأيار من العام ١٩٥٠، ص ٥١٨.

٣١٥

ضمن برنامجها لدعم المدن التاريخيّة
مؤسسة الآغاخان للثقافة
والإحياء الطويل الأمد لقلعة حلب

د. محمود شاهين(*)

تُشكّل مؤسسة الآغاخان للثقافة، جزءاً من شبكة الآغاخان للتنمية التي هي مجموعة وكالات ومؤسسات تنموية، تعمل على تحسين نوعية الحياة وفرصها، في مجالات الصحة والتعليم والاقتصاد والثقافة والتنمية الريفيّة، وكذلك المساعدة الإنسانيّة في بعض الدول في إفريقيا وآسيا والشرق الأوسط، ومن أهم أنشطة هذه المؤسسة وأبرزها: جائزة الآغاخان للعمارة الإسلاميّة، وبرنامج دعم المدن التاريخيّة.

(*) د. محمود شاهين: ناقد وأكاديمي سوري.

تقوم المؤسسة من خلال برنامج دعم المدن التاريخيّة، بجهود مباشرة تهدف إلى إحياء النسيج العمراني والثقافي والاجتماعي للمواقع التاريخيّة في العالم الإسلامي، من خلال حماية الأبنية التاريخيّة وترميمها وإعادة استخدامها، وقد قام البرنامج حتى الآن، بتنفيذ نحو عشرين مشروعاً في ستة بلدان هي: الباكستان، وزنجبار، وسمرقند، والبوسنة، ومصر، وسوريّة.

مشروعات سوريّة

تُعد مشروعات مؤسسة الآغاخان للثقافة في سوريّة من أحدث أنشطة برنامج المدن التاريخية فقد تم إجراء دراسة تحليليّة لتقويم مختلف القلاع والمواقع التاريخية في سورية، وقد تضمن التقويم معايير مختلفة منها: الأبنية المتبقية في الموقع، وأهمية الموقع، وإمكانية الوصول إليه، وضرورة الترميم للحفاظ على البناء. وقد أدت هذه الدراسة إلى اختيار ثلاثة مواقع في سورية هي: قلعة مصياف، وقلعة صلاح الدين، وقلعة حلب.

في خريف عام ١٩٩٩ تم توقيع اتفاقية بين مؤسسة الآغاخان للثقافة والمديرية العامة للآثار والمتاحف السورية، لترميم القلاع الثلاث وإحيائها، وإعادة الاستخدام لها، بالإضافة إلى تطوير البيئة التاريخيّة، ودعم التطوير السياحي والاقتصادي، وتشجيع مفهوم التخطيط المتكامل، ومشاركة السكان في خلق بيئة مناسبة للتنمية، وقد قامت المؤسسة بتنفيذ بنود الاتفاقيّة، ومن المتوقع الاحتفال بإنهاء أعمال الترميم في قلعة مصياف، وصلاح الدين، وحلب، وبشكل نهائي، العام الحالي ٢٠٠٦.

لقد قامت مؤسسة الآغاخان للثقافة، بأعمال ترميم وإعادة تأهيل وإحياء، لجوانب معماريّة عديدة في القلاع الثلاث، وفيما يلي استعراض مكثف، لما لحق بقلعة حلب من هذه الأعمال الهامة والمتقنة تاريخياً وتقانياً.

لمحة تاريخية

إن تاريخ قلعة حلب، وثيق الصلة بتاريخ المدينة نفسها، فالهضبة التي تقوم عليها القلعة، يمكن أن تكون استخدمت كموقع دفاعي منذ نشأة مدينة حلب قبل عدة آلاف من السنين. ومع ذلك، فإن أعمال الإنشاء الرئيسة المكتشفة في القلعة، هي موقع لمعبد فيه لوحات حجرية ضخمة منقوشة من الألفين الثاني والأول قبل الميلاد.

ويمكن أن تكون الأجزاء الأولى من الأسوار قد بنيت خلال الحقبة اليونانيّة أو الرومانية، ثم قام البيزنطيون بترميم التحصينات، وإضافة صهريج الماء، وتجهيزات أخرى، فغدت القلعة بذلك

مركزاً دفاعياً قوياً، احتاج العرب المسلمون لعدة شهور من الحصار، ليجبروا البيزنطيين داخل أسوارها على الاستسلام أضاف الحكام العرب المتعاقبون الكثير من المنشآت للقلعة. ولكن (الظاهر غازي) ابن (صلاح الدين الأيوبي) كان المساهم الأكبر، فقد أضاف خزانات للماء والحبوب، وغطى السفوح الخارجيّة بالحجر، كما رفع بوابة المدخل إلى منسوبها الحالي، مع ربطها بوساطة جسر إلى جسم القلعة، وأضاف بوابات على طول الممر المؤدي إلى داخل القلعة، كما بنى بداخلها أيضاً مسجداً، وقصراً، وحماماً خاصاً به، ومنازل أخرى للعامة.

في عام ١٢٥٩ نُهبت القلعة ودمرت من قبل التتار، وقد أعاد المماليك ترميمها في عام ١٢٩٠ لتصبح مقراً لحاكم المدينة، إلى أن دُمرت ثانية من قبل (تيمورلنك) المغولي عام ١٤٠٠، وهو الفاتح الوحيد في التاريخ الذي احتلها بالقوة، وقد تم ترميمها من قبل المماليك عدة مرات، حيث قام ملكهم الأخير (قانصوه الغوري) بتجديد أسوارها وقاعة العرش والبرجين المتقدمين. كما قام بإصلاح وإكمال بناء أكتاف السفوح بالأحجار الضخمة.

فقدت القلعة أهميتها الدفاعية في الحقبة العثمانية، ومع ذلك فقد استخدموها كثكنات لجنودهم، واستمرت أعمال الصيانة والإصلاح الأساسيّة في تلك الفترة، بدون إضافات جديدة.

بين عامي ١٨٣٠ و ١٨٤٠، وخلال حكمه القصير لسورية، أضاف المصري (محمد علي الكبير) لقلعة حلب، ثكنة رئيسة، واستمرت القلعة في إيواء الحامية العسكرية أثناء الحقبة الفرنسية، ولكنها هُجرت فيما بعد.

بدأت سورية منذ استقلالها، جهوداً لترميم القلعة، من قبل المديريّة العامة للآثار والمتاحف، كما ساهمت العديد من البعثات الأجنبيّة- السوريّة المشتركة، في الحفريات الأثرية أيضاً.

تُعدُّ قلعة حلب من أشهر معالم السياحة الثقافيّة في الشرقين الأوسط والأدنى، والقلعة اليوم هي رمز لمدينة حلب، وهي تطل من الأعلى على كامل المدينة القديمة، وتشرف على الصورة الساحرة للقباب والمآذن، ويتم توظيف قلعة حلب، مع غيرها من المعالم الحضاريّة الكثيرة في سورية، لتعكس صورة سوريّة ماضياً وحاضراً.

أعمال مؤسسة الآغاخان

تقوم مؤسسة الآغاخان للثقافة بالتعاون مع المديريّة العامة للآثار والمتاحف منذ العام ٢٠٠٠ بأعمال ترميم قياسيّة، وفق الطرق الدوليّة المعتمدة في ذلك، وبأعمال تهيئة ضمن خطة واضحة لإعادة تأهيل

القلعة كموقع أثري، وجاذب سياحي في غاية الأهمية.

بدأت الأعمال بترميم في برج الأسوار الواقع على الجهة اليسرى من برج المدخل، حيث كان متصدعاً، وتم تغيير شكل مدخله الأصلي في فترة الانتداب الفرنسي. كان الترميم المنفذ نموذجاً مميزاً بكل المقاييس، وشمل حتى نهاية العام ٢٠٠٣ مايلي:

١- التدعيم والتثبيت الإنشائي لأجزاء من الأسوار، وعدد من الأبراج (من الداخل والخارج) في الجهتين الشمالية والغربية، وجزء من الجهة الجنوبيّة، والتي تضررت بتأثيرات بشرية وعوامل طبيعيّة، بما أضعف متانتها بشكل ملحوظ.

٢- ترميم قطاع الأسوار الغربيّة من الداخل، والذي يمتد من برج الأسوار وحتى جدار الجامع الكبير.

٣- المجمع الأيوبي الذي يتألف من:

آ- القصر الأيوبي حيث تمت في إحدى أرضيتي فسحتيه السماويتين أعمال صيانة التباليط الرخامية، وكذلك لجدران هاتين الفسحتين.

ب- الواجهة الرئيسيّة للقصر الأيوبي، والمقرنصات الحجريّة التي تعلو المدخل، وهذه الأخيرة تم إنجازها لاحقاً.

ج- الحمام الملكي حيث خضع لأعمال ترميم وصيانة وإنارة مناسبة.

د- تأهيل دار السلاح (الزردخانة) لتكون متحفاً حربياً، وذلك بإجراء أعمال الترميم والصيانة فيها.

٤- المنحدر الحواري الذي ترتكز عليه القلعة، حيث تم الاهتمام بمعالجة بعض الأخاديد العميقة التي حفرتها التدفقات الغزيرة لمياه الأمطار من سطح القلعة، كما تم معالجة الإكساء الحجري المتساقط على جزء من منحدر القلعة، في الجهة الغربية من برج المدخل.

٥- تأهيل ثكنة ابراهيم باشا لتكون مركزاً للزوار، يضم (كافيتريا) ومكاناً لبيع الأشياء التذكاريّة، كما يضم المبنى، في قسم منه، عرضاً متحفيًا، وقاعة لتقديم عروضاً مرئية تاريخية (أفلام وشرائح).

٦- البرج المتقدم الشمالي: حيث تم ترميمه وإعادة بناء بعض الأجزاء المتهدمة منه لغاية تثبيت وضعه الإنشائي، مع قطاع من الأسوار الشمالية المطلة على البرج.

٧- مسارات السياح، وذلك بتنظيم الجهة الشمالية الغربية من سطح القلعة، ما يجعل جولة السياح فيها أسهل وأكثر تنظيماً وفائدة، مروراً بكل المباني والمواقع الهامة في القلعة، كما تم تأمين عدد من اللوحات الإرشادية الثابتة.

٨- إزاحة أتربة الردميات المتراكمة، والكشف عن أطلال عمائر ودور سكن، في معظم السطح الغربي للقلعة، وقد تم إظهارها وصيانتها وإدخالها ضمن مسارات السياح.

٩- البرج الأيوبي ٤٢ الذي خضع لأعمال ترميم وتثبيت من الداخل، مع استكمال أعمال تبليط الممرات المحيطة بـ (الزردخانة).

١٠- قطاع من الأسوار الجنوبيّة: حيث تم ترميم وتثبيت جدران وأسوار وفراغات وأرضيات.

أعمال لاحقة

خلال العامين ٢٠٠٤ و ٢٠٠٥، تابعت مؤسسة الآغاخان للثقافة، أعمال الترميم التي شملت:

١- المجمع الأيوبي وعناصره المعماريّة، كمقرنصات المدخل الرئيسي، والغرفة العثمانية، وتأهيل البرج الأيوبي.

٢- الساحة أمام مدخل القصر الأيوبي.

٣- قصر الطواشي.

٤- استمرار الأعمال في تدعيم وتثبيت الأبراج والأسوار من الخارج.

٥- استمرار الأعمال في تثبيت الأطلال والمستويات وضبط التصريف في سطح القلعة الغربي.

٦- سوق القلعة.

٧- استمرار الأعمال في تنفيذ ممرات السياح.

٨- تأهيل ثكنة ابراهيم باشا لتكون مركزاً للزوار ومواقع في الهواء الطلق.

٩- تأهيل دار السلاح لتكون متحفاً.

١٠- المهوى والبئر والخزان الأيوبي.

١١- تنسيق شبكة أرضيّة للتمديدات الكهربائية من جانب آخر، ستقوم المؤسسة في نهاية مشروعها الترميمي، بتقديم دليل سياحي شامل عن تاريخ قلعة حلب، يتناسب مع أهميتها، ولمحة عن مدينة حلب القديمة التي تحيط بها، وتفاصيل عن مسارات السياح وما يشاهدونه من عناصر معماريّة ومبانٍ، وكذلك خطة منهجية للصيانة والترميم المستقبلي.

كما قامت مؤسسة الآغاخان للثقافة، بإعداد دراسات تخطيطية لمحيط قلعة حلب، بما يتناسب مع أهمية القلعة كجاذب سياحي في مدينة حلب وعلى مستوى سورية أيضاً، وتشمل تلك الدراسة وضع بدائل لحركة المرور في محيط القلعة، وإعادة تأهيل عدد من المباني الواقعة فيه، وتوظيف البعض الآخر بما يتلاءم مع الخطة العامة للإحياء، وصوراً لتقديم فرص استثمارية، من خلال وضع برنامج لاستخدام الأراضي، وتنظيم أعمال البناء، والتحكم بالضغط المروري الناتج عن تزايد حركة السياحة الواردة إلى القلعة، من خلال زيادة مناطق سير المشاة، وتخفيض حركة الآليات، وزيادة مواقف السيارات ووسائل النقل العام.

إضافة إلى أعمال الترميم والصيانة ووضع الدراسات والمخططات للقلعة ومحيطها، قامت مؤسسة الآغاخان

بعمليات تنقيب داخل القلعة، توجت باكتشافات أثرية هامة، ستكرس أهمية القلعة الأثريّة والسياحيّة، ويتم الآن وضع هذه المكتشفات، ضمن مسار السياح، وفق برنامج مدروس، بعد أن تنتهي عملية تأهيل هذه المكتشفات وإضاءتها وتأمين المسارات إليها، ووضع دليل سياحي شامل لها، يُلقي الضوء على تاريخها وأهميتها، ذلك لأن هذه المؤسسة، ومن خلال برنامج دعم المدن التاريخيّة بجهود مباشرة، تهدف إلى الإحياء العمراني والثقافي والاجتماعي والاقتصادي، للمواقع التاريخيّة في العالم الإسلامي، وفق برنامج علمي دقيق، ومعايير أساسية، يمكن تلخيصها بالنقاط التالية:

- ترميم وإحياء وإعادة الاستخدام الملائم للموقع الأثري.

- تطوير البيئة التاريخيّة، ودعم التطوير السياحي والاقتصادي، وتشجيع مفهوم التخطيط المتكامل، ومشاركة السكان في خلق بيئة مناسبة للتنمية.

ولتحقيق ذلك، تقوم المؤسسة بجملة من الخطوات، يمكن تلخيصها بالنقاط التالية:

١- التوثيق والرفع الهندسي للأبنية المقترح ترميمها.

٢- أعمال حفريات وتنقيب أثري في مواقع الترميم.

٣- ترميم وإعادة بناء الأجزاء العمرانية التي تتطلب مداخلة طارئة لوقف التدهور في البناء.

٤- تطبيق تقنيات الترميم الحديثة المعترف بها دولياً.

٥- تدريب الكوادر المحليّة على أعمال الترميم.

٦- استخدام مواد مماثلة لتلك المستخدمة في البناء الأصلي.

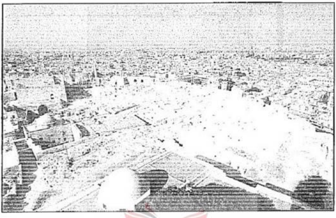
هذا بالنسبة للحفاظ وترميم البنية الإنشائية، أما بالنسبة لتطوير الفعاليات السياحية، فتتم وفق مايلي:

١- إعادة الاستخدام الملائم لبعض الأبنية، ضمن الموقع المرمم، كصالات المعارض، ومراكز الزوار.

٢- تزويد الموقع بمرافق سياحيّة.

٣- تحسين الممرات ضمنه، وتزويدها بإشارات ولوحات دلالة وتعريف.

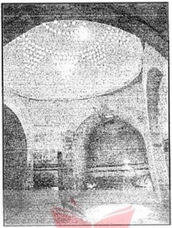
٤- إصدار كتب إرشاد سياحي، وفي نفس الوقت، تقوم المؤسسة، بوضع برنامج علمي لتطوير وحماية البيئة التاريخية للموقع، ودعم التطوير السياحي والاقتصادي في محيطه، وهذا ما طبقته مؤسسة الآغاخان للثقافة، على المواقع الأثرية الثلاثة التي اختارتها في سوريّة، وتعمل فيها منذ خمس سنوات وهي: قلعة مصياف ومدينتها، وقلعة صلاح الدين في منطقة الحفة، وقلعة حلب.



منظر عام داخل قلعة حلب



أعمال الترميم في الداخل



الحمام



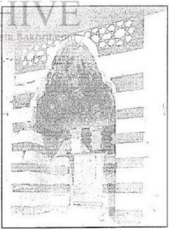
قبل الترميم....

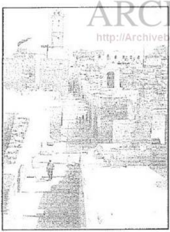


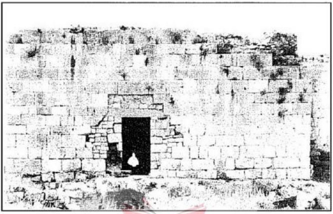
وبعده


جهود دؤوبة


عمليات الترميم


معالم إسلامية

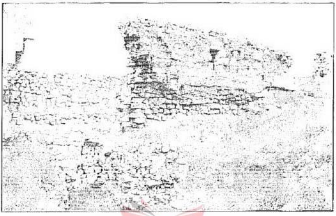

اكتمال التأهيل



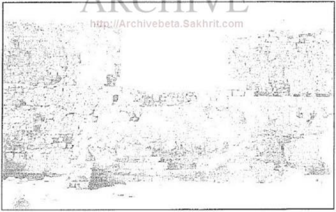
قبل الترميم...



وبعده



قبل الترميم...



وبعده

٣٢٦

فيلسوفان في حلب

الدكتور: عزت السيد أحمد(*)

فيلسوفان في حلب. لا نعني أنهما الوحيدان اللذان زارا حلب أو مرا بها **فالتوحيدي** زار **سيف الدولة الحمداني** ولا نتحدث عنه هنا. ويصبح الأمر أكثر صعوبة إذا كنا على بعض المرونة في إطلاق لقب فيلسوف لأننا سنجد كثيراً من الفلاسفة هم الذين مروا بحلب أو تلقوا العلم فيها لزمن طويل أو قصير.

(*) الدكتور عزت السيد أحمد: باحث وأستاذ جامعي سوري.

- العمل الفني: الفنان: جورج عشي

سنقف عند فيلسوفين تربطهما بعض الوشائج والصلات والتشابهات ليس بقصد هذه التشابهات ولكن لأنهما علمان كبيران في تاريخ الفكر البشري بغض النظر عما إذا وافقنا أحدهما أو كليهما أو خلفناهما معاً أو فرادى فيما ذهبا إليه من مواقف وأفكار وآراء.

يفصل بَيْنَ الأول والثاني سحابة القرن. الأول أستاذ للثاني بالتأثير الفكري، وكثير من آراء الثاني هي صدى لفلسفة الأول. كلاهما دخل حلب واستقر فيها. وكلاهما قضى الشطر الأخير من حياته في حلب. وكلاهما مات قتلاً، ولكن اختلف القاتل وسبب القتل. واختلفت طباع كلٍّ منهما عن الآخر اختلافاً يكاد يكون جذرياً، إلا في علو الهمَّة وشدة النبوغ والعلم.

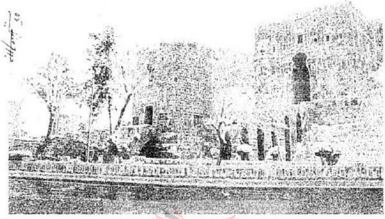
الفيلسوف الأول

الفارابي هو **أبو نصر محمد بن محمد ابن ترخان بن أزلغ**، اشتُهر **بالفارابي** نسبةً إلى فارب المدينة الَّتي تنتسب إليها بلدته وسيج الَّتي ولد فيها سنة ٢٥٧هـ/ ٨٧٠م. وهذه المدينة هي في وقتنا الراهن مدينة أترار الواقعة في إقليم خراسان التركي. إلا أنَّ ثَمَّةَ اختلافاً في نسبة هذه المدينة؛ أهي تركية أم فارسية، ونجم عن ذلك اختلاف في أصل الفارابي أهو تركي أم فارسيٌّ. ولكن يميل كثيرون إلى ترجيح كونه تركيّاً لأنَّ أباه كان قائداً في الجيش التركي، وإن كان **ابن أصيبعة** (في طبقات الأطباء) قد ذهب إلى أنه فارسي الأصل ولأنَّ أباه تزوج امرأة تركيَّة فقد صار قائداً في الجيش التركي. أي إن **للفارابي** عرق تركي على أيِّ حال، وليس له من العروبة إلا الانتماء الثقافي والحضاري، وربَّما النفسي والاجتماعي.

ليس غريباً أن لا نعرف كثيراً عن نشأته وطفولته وشبابه، فشأنه في ذلك شأن معظم أعلام العصور السابقة. سافر يافعاً مع أبيه إلى بغداد حيث تعلم العربية ونهل من معين علمائها فأخذ المنطق عن **أبي بشر متى بن يونس**، ثُمَّ ذهب إلى حرَّان وفيها تابع تحصيله الفلسفة والمنطق على يد **يوحنا بن حيلان**. ثُمَّ عاد إلى بغداد أستاذاً ومتفلسفاً وأخذت التلاميذ تتوافد عليه ونبغ منهم كثير.

كثرت الفتن والقلاقل في بغداد فخرج منها إلى دمشق سنة ٣٣٠/٩٤١م وعمل ناطوراً لأحد البساتين، ولم يطل مقامه بها فسافر إلى مصر، ومن مصر توجه إلى بلاط **سيف الدولة** في حلب فلزمه لما وجد عنده من الإكرام، وصحبه في حملته على دمشق، وظلَّ في رعاية أمير حلب إلى أن مات.

السَّنوات التسع الأخيرة من عمر



الفارابي كانت في حلب، في بلاط **سيف الدولة الحمداني**، وقد قرر **الفارابي** البقاء في رحاب حلب لما لقيه من التقدير والإكرام من **سيف الدولة**، وبحكم المؤكد أنَّ تقدير مكانته وقيمته العلميَّة من قبل **سيف الدولة** هو العامل شبه الوحيد الذي دفعه لتقرير بقائه في بلاطه، وليس المال ولا الترف ولا الجاه فمن الثابت عنه أنَّه لم يكن به طمع أبدًا في رغد العيش والحياة، ولا كان متكبرًا ولا متجبرًا، وإنَّما كان زاهدًا في ترف الدنيا وزخرفها، وتروي لنا كتب التَّاريخ أنَّه على جليل مقامه عند **سيف الدولة الحمداني** لم يكن يقبل أن يأخذ سوى أربعة دراهم فضَّة في اليوم ينفقها فيما يحتاجه من ضروريات العيش والحياة، ولم يكن معتنيًا **بهيئته ولا منزله إلا بما لايجوز تجاوزه. هذا في حين أنَّ المتنبي** مثلاً كان ينال ألف دينار على كلِّ قصيدة يلقيها على أمير حلب.

يقرر معظم المؤرخين والدارسين أنَّ أمير حلب كان نبيلاً شهمًا، مهتمًّا بالعلماء والأدباء وخاصة الصفوة منهم، على الأقل من وجهة نظره. وكان **الفارابي** عالمًا جليلاً أدرك مكانته بَيْنَ علماء عصره، وربَّما شعر بالضيق لأنَّهُ لم يقدَّر في بغداد حق قدره، فعلى الرَّغم من تفوقه على أساتذته في الفلسفة وعلومها فإننا لا نجد في بطون الكتب ما يدل على أنَّه لقي من التقدير المكانة في بغداد ما يقارن تفوقه وتألقه. ولذلك من السَّهل القول: ليست

الفن والقلاقل التي اجتاحت بغداد هي التي دفعته للخروج إلى حلب، إلى **سيف الدولة** الذي طار صيته في الآفاق.

دخل **الفارابي** حلب بقصَّة يرى بعضهم أنَّها من الأساطير، على الرَّغم من ورودها في أكثر من مصدر. تنطوي القصة على شقين، ربَّما يكون بعض المبالغة فيهما، ولكنَّها قصَّة ليست بالعجيبة على أيِّ حال.

عندما دخل الفارابي إلى مجلس سيف الدَّولة قال الأمير للضيف:

- اجلس.

فردَّ **الفارابي**:

- حيث أنا أم حيث أنت؟

فأجاب **سيف الدولة**:

- حيث أنا.

فقال الفارابي:

- أحسنت أيها الأمير.

أدرك **سيف الدولة** قيمة **الفارابي** وعلو مكانته، وأدرك الضيف فطنة الأمير وحسن بداهته، وتوسَّم في ذلك الخير، والتَّقدير الذي لم يلقه في بغداد. فاحترم مكانة الأمير وجلس بَيْنَ ضيوف المجلس. وتروي كتب التاريخ أنَّهُ أخرج عيدانًا وشدها إلى بعضها فإذا هي آلة موسيقيَّة عجيبة، هي القانون الذي يجمع المؤرخون على أن **الفارابي** هو الذي اخترعه. ثُمَّ عزف على هذه الآلة فأضحك الجميع. ثُمَّ فك العيدان وأعاد تركيبها وشدها بطريقة جديدة وعزف عليها فأبكى جميع من في المجلس. ثُمَّ فكَّها وأعاد تركيبها وشدها بطريقة جديدة وعزف عليها فأنام جميع من في المجلس وتركهم نيامًا وذهب.

هذا اللقاء رسَّخ القيمة السَّامية **للفارابي عند سيف الدَّولة**. فإذا افترضنا المبالغة في هذا الخبر فإنَّنا لانشكُّ في أنَّ له في الواقع جذرًا. فنباهة **سيف الدولة** غير مبالغ فيها، وبراعة **الفارابي** في الموسيقى **مشهود له فيها، وما** قام به من إضحاك وإبكاء **وإنامة تجربة** قام بمثلها موسيقي **معاصر هو الدكتور** سعد الله آغا القلعة.

وعلى أيِّ حال فإنَّ الاعتراض على صحة هذه القصَّة لا ينفي **أنَّها تدلُّ** مدى عبقريته ونبوغه فإنَّ الناس لا تبالغ مثل هذه المبالغة إلا لأنَّ أسبابًا واقعيَّة تسوِّغ ذلك، ناهيك عن أنَّ نبوغه وعبقريته ليست في الموسيقى وحدها وحسب بل كانت في مختلف ميادين الفلسفة، فهو إن سمي بالمعلم الثَّاني **بعد أرسطو** المعلم فإنَّما ذلك لسموِّ مكانته وأهميته، وأثره البالغ فيمن تلاه من الفلاسفة العرب خاصَّة وفي الثقافة العربيَّة الإسلاميَّة عامَّة. فقد كان العماد الثاني بعد **الكندي** في تأسيس دعائم الفلسفة العربية الإسلامية وتحديد

هويتها وخصائصها واصطلاحاتها الخاصة ومشكلاتها الخاصَّة الَّتي تمايزت بها عن الفلسفة اليونانية وعن الفكرين؛ الهندي والفارسي اللذين أمدا الحضارة العربية أيضًا حينها.

خرج **الفارابي** مع **سيف الدولة** إلى دمشق، ولكنَّهُ كان كثير التردد إليها، ويطيل البقاء بدمشق أحيانًا حيث الينابيع الدافقة والرياض الزاهرة والبساتين العاطرة، فكان مدة إقامته بدمشق، كما يقول **ابن خلكان**، لا يكون إلاَّ عند مجتمع ماء أو مشتبك رياض، ويؤلف هنالك كتبه، ويتناوبه المستغلون عليه.

ظلَّ **الفارابي** على هذه الحال ما بَيْنَ حلب ودمشق إلى أن خرج من دمشق في جماعة إلى عسقلان في فلسطين، فهاجمته جماعة من اللصوص، ووقع قتالٌ بَيْنَ الجماعتين قتل فيها **الفارابي** وكان ذلك في شهر رجب سنة ٣٣٩هـ/ كانون الثاني ٩٥٠م، وربَّما كانون الأول ٩٥١م. فنقل جثمانه إلى دمشق، وصلّى عليه **سيف الدولة**، ودفن بظاهر دمشق، خارج الباب الصغير.

يعدُّ **الفارابي** علامةً مميزة في تاريخ الفكر البشري عامَّة فهو في عُرْف الفلاسفة المعلم الثاني بعد **أرسطو** المعلم الأول، وقد كان نابغةً في مختلف ميادين الفلسفة إلى جانب بعض العلوم. وعنه أخذ الفلاسفة والمفكرون اللاحقون عليه الكثير من الأفكار والنظريات، وأفادوا من تأليفاته وشروحه وتعليقاته حَتَّى يمكن القول إنَّهُ لعب دورًا مهمًا في صياغة ملامح الفكر والوعي والثقافة في الحضارة العربيَّة الإسلاميَّة في مرحلته والمراحل التالية عليه. وليس هذا وحسب بل إنَّهُ بشروحه على كتب **أرسطو** خاصَّة وكذلك **أفلاطون** لعب دورًا مهمًا أيضًا في النهضة الأوربيَّة لأنَّ هذه الترجمات والشروح إلى جانب جهود **ابن سينا** و**ابن رشد** شكلت المهاد النَّظري للنَّهضة الأوربيَّة وتعريف الأوربيين بالفلسفة اليونانيَّة.

سعى **الفارابي** للتوفيق بَيْنَ الفلسفة والدِّين إيمانًا منه بوحدة الفلسفة والدِّين، والسَّبب الَّذي دعاه إلى ذلك هو رواج القول بَيْنَ المفكرين بأنَّ ثَمَّةَ خلافًا بَيْنَ **أرسطو** ومعلمه **أفلاطون**، وكان ذلك في كتابه (الجمع بَيْنَ رأيي الحكيمين؛ أفلاطون الإلهي وأرسطو)، فأصاب نوعًا من التوفيق في التوفيق بَيْنَ الفلسفة والدِّين، ولكنَّهُ لم يستطع الجمع أو التَّوفيق بَيْنَ رأيي الحكيمين لأنَّهُ اعتمد على كتاب (الربوبيَّة) الَّذي نسب خطأ إلى **أرسطو**، فيما هو في حقيقته **لأفلوطين**.

أما فلسفة ما بعد الطبيعة فتنقسم عنده إلى ثلاثة أقسام هي:

- الله وخواصه. وهذا ما يسمى العلم الإلهي.

- الموجود من حيث هو موجود. وندرس هنا الموجودات وما يعرض لها من حيث هي موجودات.

- مبادئ العلم وأولياته. وندرس هنا مبادئ البراهين في العلوم النظرية الجزئية.

ويرى **الفارابي** أن هذه المعرفة وسواها إنّما تتحصل للإنسان بوساطة الحواس. وإلى جانب هذه الحواس هناك جملة من القوى المساعدة في عملية المعرفة، هذه القوى:

- القوة المصورة، ومهمتها تثبيت صور الأشياء الّتي تدركها الحواس في الذهن.

- القوة الوهمية، ومهمتها إدراك مالا تدرك الحواس، ولذلك يجوز تسميتها بالقوة الحدسية.

- القوة الحافظة، ومهمتها اختزان ماتدركه القوة الوهمية، وهي في ذلك مقابلة للقوة المصورة الّتي تختزن ما تدركه الحواس.

- القوة المفكرة، وهي الّتي تتحكم بما هو مختزن في مدركات الحواس وما تختزنه القوتان الحافظة والمصورة وتدير ما فيها.

ترك **الفارابي** العديد من الآثار ما بَيْنَ التأليف والشرح والتعليق وفيما يلي أبرز هذه الآثار:

أولاً-المؤلفات:

١ - إحصاء العلوم.

٢ - آراء أهل المدينة الفاضلة.

٣ - التنبيه على سبيل السعادة.

٤ - الجمع بَيْنَ رأيي الحكيمين؛ أفلاطون الإلهي وأرسطو.

٥ - السياسة المدنية، أو مبادئ الموجودات.

٦ - المسائل الفلسفية والأجوبة عنها.

٧ - تحصيل السعادة.

٨ - عيون المسائل.

٩ - فصوص الحكم.

١٠ - كتاب الموسيقى الكبير.

١١ - مقالة في معاني العقل.

ثانياً-الشروحات:

١ - الآثار العلوية لأسطو.

٢ - الأخلاق لأرسطو.

٣- الألفاظ الأفلاطونية وتقويم السياسة الملوكيّة والأخلاق.

٤- البرهان لأرسطو.

٥- الجدل لأرسطو.

٦- الخطابة لأرسطو.

٧- السماء والعالم لأرسطو.

٨- السماع الطبيعي لأرسطو.

٩- العبارة لأرسطو.

١٠- القياس لأرسطو.

١١- المغالطة لأرسطو.

١٢- المقولات لأرسطو.

١٣- جوامع كتاب النواميس لأفلاطون.

١٤ - شرح رسالة زينون الكبير اليوناني.

١٥ - كتاب المجسطي لبطليموس.

١٦ - مقالة في أغراض أرسطو وكل مقالة من كتابه الموسوم بالحروف.

١٧ - مقالة في العقل للاسكندر الأفروديسي.

الفيلسوف الثاني

أبداً تحنُّ إليكم الأرواحُ
ووصالكم ريحانُها والرّاحُ
وقلوب أهل ودادكم تشتاقكم
وإلى لذيذ لقائكم ترتاحُ
وارحمتا للعاشقين تكلفوا
ستر المحبة والهوى فضّاحُ
بالسر إن باحوا تباح دماؤهم
وكذا دماء العاشقين تباحُ

قليل من المثقفين من لم يسمع بهذه الأبيات(١)، وكثيرٌ منهم من يكثر ترديدها، وقليلاً ما يحضر اسم صاحبها في الذهن على الرَّغم من شديد شهرته.. ومن لم يسمع **بالسهروردي**؟

السهروردي اسم شهير جدًا في عالم التصوف خاصَّة والفلسفة، وعَلَمٌ مثيرٌ للجدل شأنه شأن معظم المتصوفة في العالم الإسلامي، **وللسهروردي** خصوصيَّة في هذا الجدل المثار لأنَّهُ مثل قليلٍ من أمثاله ما زال موضع جدلٍ كبيرٍ إلى يومنا هذا في كثيرٍ من جوانبه.

هو **أبو الفتوح يحيى بن حبش ابن أميرك السهروردي**، خلع عليه معاصروه كثيرًا من الألقاب مثل **شهاب الدين السهروردي**، و**المقتول**.. وغير ذلك. أما **شهاب الدين** فلتصوفه، وأما **السهروردي** فنسبة إلى مكان ولادته، وأما **المقتول** فلأنَّهُ قتل وربَّما لأنَّهُ قتل شابًا.

اختلف المؤرخون في تاريخ ولادته ولكن الاختلاف في المحصلة غير بعيد فهو محصورٌ ما بَيْنَ ٥٤٥هـ/١١٤٩م و ٥٥٠هـ/١١٥٤م. أما مكان ولادته فقيل من غير خلاف إنَّهُ بلدة سهرورد من أعمال زنجان من عراق العجم.

ما يستحق أن يذكر من **السهروردي** هو كلُّ ما له صلة **بالسهروردي**، وكل ما له صلة **بالسهروردي** مثيرٌ للنِّقاش والخلاف والجدل، فنحن أمام مداخل بلا مخارج، أو أنَّنا أمام مداخل كلُّها مخارج!!

يبدو أنَّ القتيل الشَّاب كان يعي

مشروعه منذ يفاعة سنّه، ويبدو أنَّهُ كان يريد لحياته أن تكون ملفوفة بالغموض والألغاز، فقد قضى حياته القصيرة بكثرة التنقل والترحال، ربَّما شغفاً بطلب العلم كما يرى كثيرون، ولكنَّهُ ذاته يختم كتابه المطارحات بقوله: «وهو ذا قد بَلَغَ سنّي إلى قريب من ثلاثين سنة وأكثر عمري في الأسفار والاستخبار والتفحص عن مشارك مطلع على العلوم، ولم أجد من عنده خبر عن العلوم الشريفة ولا من يؤمن بها». ولذلك لا نجد في كتب التاريخ كشفاً بأسماء أساتذته كما جرت العادة، كلُّ ماهنالك أنَّ ابن خلكان قال إنَّهُ: «قرأ الحكمة وأصول الفقه على الشيخ مجد الدين الجيلي[٢] بمدينة مراغة من أعمال أذربيجان، إلى أن برع فيهما». بل حَتَّى تلقيه العلم على الجيلي أمر مثار التساؤلات لأنَّهُ ملفوف بالغموض، ولا عجب لذلك أن نجد ابن العماد يبدي مثل هذا التحفظ في شذرات الذهب إذ يقول: «لا نعرف شيئاً عن ظروف تلقيه العلم في مراغة وكل الذي نعلمه عن مجد الدين الجيلي أستاذه أنَّهُ كان من المتكلمين الذين تأثروا بالمشائية».

وكما أنَّ الغموض والألغاز لفت سيرته الأولى كذلك فإنَّ الغموض والألغاز وحَتَّى الغرائب والتناقضات تلف خصائصه وصفاته وشخصيته، فمثله لا بُدَّ أن يكون حاذقاً فطناً شديد الذكاء، مع احتمال سعة العلم، ولكنَّهُ المؤكّد إنه كان ذا طموح عريض أفصح عن بعض جوانبه في فلسفته، ولكن الطموح ذاته موضع تساؤل، وخاصَّة أنَّهُ بَرَزَ أكثر ما بَرَزَ في العبارة التي كانت أحد أسباب مأساته، والتي يقول فيها: «لا بُدَّ أن أملك الأرض».

هذا الوصف ذكره ابن أبي أصيبعة في عيون الأنباء إلى حدٍّ بعيد، وعنه نقل الناقلون كلهم تقريباً، فهو يقول فيه: «كان أوحد عصره في العلوم الحكمية، جامعاً للفنون الفلسفيَّة، بارعاً في الأصول الفلكيَّة، فرط الذكاء، جيِّد الفطرة، فصيح العبارة. لم يناظر أحداً إلا بزَّه، ولم يباحث محصِّلاً إلا أربى عليه. وكان علمه أكثر من عقله». ويصفه ابن العماد الذي يبدو أنَّهُ كان يحبه بقوله: «كان أحد أذكياء بني آدم، وكان رأساً في معرفة علوم الأوائل بارعاً في الكلام...». ويحكي هو ذاته أنَّهُ رأى نفسه في المنام وقد شرب ماء البحر، ويعلق عليه بعض المؤرخين أنَّهُ «كان فخوراً بنفسه يهذي بها إعجاباً».

إن كان هذا غير مستغرب وليس هو بالغريب أصلاً فإنَّ ما يدعو إلى الدهشة

هي اتصافه بالاهمال المبالغ فيه لمظهره وثيابه ونظافته إلى درجة تكاد لا تصدق، بل تتناقض تناقضاً صريحاً مع زهده وورعه وتقواه كما يزعم، إذا كان وصف المؤرخين له صادقاً، ومنهم المؤرِّخ الإسلامي الشهير **ابن تغري** الذي يصفه بقوله: «كان رديء الهيئة، زري الخلقة، دنس الثياب، وسخ البدن لا يغسل له ثوباً ولا جسماً ولا يقص ظفراً ولا شعراً وكل من رآه يهرب منه لسوء منظره وقبح زيّه».

وفي الخبر أنّه نزل أحد الفقهاء بأرض الروم، وكان السّهروردي موجوداً في رباط تلك البلدة. فسمع في الفجر صوت قراءة القرآن يتلى بصوت رخيم فسأل خادم الرِّباط:

– من هذا القارئ؟

أجابه **شهاب الدين السّهروردي**.

فرغب في أن يلتقي به ويتحدث إليه. فحذَّره الخادم بأنّه لا يدخل عليه أحد بسبب غرابة أطواره ورائحته الكريهة. وأنبأه بأنَّه إذا علت الشمس فبوسعه أن يراه وهو يخرج من صومعته ويصعد السطح ويقعد في الشمس عارياً لا يرتدي إلا قطعة قماش سوداء قذرة بَهتَ لونها.

يقول الفقيه إنّه ما إن اقترب منه حتّى طوى مصلاه وجلسا يتحدثان فسأله الفقيه:

– أيُّها الشيخ لو لبست شيئاً غير هذا!

فأجابه **السهروردي** باستغراب: أخشى أن يتوسخ!

فرد الفقيه: تغسله.

فقال: يتوسخ.

فكرر عليه الفقيه: تغسله.

فقال: ما جيئت لغسل الثياب.. لي شغل أهم من ذلك.

قد تكون هذه القصة صحيحة وقد لاتكون كذلك، ولكنّه إن كانت مختلقة فهي مختلقة من أساس كان عليه السهروردي، وبعض السذج والبسطاء يستملحون مثل هذه القصص عن الزهاد والمتصوِّفة ويبالغون فيها أحياناً للدلالة على مدى الزُّهد والتَّقشف والانشغال بالعبادة عن المظاهر.. وهذا محض وهم.

إذا كان **الفارابي** قد أمضى تسع سنوات في حلب حتّى وافته المنية قتلاً على أيدي اللصوص في الطريق إلى عسقلان فإن **السهروردي** لم يطل مكثه بها أكثر من بضع جلسات جدال ومناقشة مع فقهاء حلب. وقد اختلفت الروايات هنا أيضاً في سنة قتله وطبيعته وعلاقة **صلاح الدين الأيوبي** بذلك وندمه..!

يكتفي **ابن العماد الحنبلي** فيما يخص مقتل **السهروردي** بالقول في شذرات

الذهب إنَّـهُ «قتل في حلب سنة سبع وثمانين وخمس مئة»، بينما يذهب **ابن أبي أصيبعة** في عيون الأنباء إلى أنّ القتل كان سنة ٥٨٦هـ/١١٩٠م، ويسرد لنا طرفاً مما حدث، فيقول:«لما أتى **السهروردي** إلى حلب وناظر بها الفقهاء كثر تشنيعهم عليه. وعملوا محاضر في كفره وسيروها إلى الملك **الناصر صلاح الدين** في دمشق. فبعث **صلاح الدين** إلى ولده الملك **الظاهر** بحلب كتاباً في حقه بخطّ القاضي الفاضل يقول فيه: إن هذا الشّاب **السهروردي** لا بدَّ من قتله، ولا سبيل أن يطلق، ولا يبقى بوجه من الوجوه».

إلى هنا الخبر منطقي من ناحية المحاكمة العقلية، ولكن التتمَّة التي يتفق عليها كثيرون في المبدأ غير منطقية بما يكفي لقبولها، فتتمة الخبر عند **ابن أبي أصيبعة** أنَّـهُ «لمَّا بلغ **شهاب الدين السهروردي** ذلك، وأيقن أنَّـهُ يقتل، وليس من جهة إلى الإفراج عنه اختار أن يترك في مكانٍ مفرد ويمنع من الطّعام والشّراب إلى أن يلقى الله تعالى ففعل به ذلك. وكان ذلك في أواخر سنة ست وثمانين وخمس مئة بقلعة حلب».

رُبَّما نعثر على بعض الروايات التي تقول بغير ذلك كأنْ تقول إنَّـهُ قتل بالسيف، أو الصلب أو الحرق أو غير ذلك. ولكن الرواية الأكثر انتشاراً وتأييداً هي أنَّـهُ خُيِّرَ في طريقة موته فاختار أن يموت جوعاً.

إن كان ذلك فهي (ديمقراطية) ما بعدها (ديمقراطية) بكلِّ تأكيد!!

وما بعد أن يخير المرء في طريقة موته؟ من باب الطرافة يروى أن أحد الخلفاء أمر بقتل واحد، وطلب منه أن يختار الطريقة التي يشاء، فقال بأعصاب باردة:

- اختار أن أموت ميتة ربي.

ماذا لو اختار **السهروردي** ذلك؟

في زمن كثر فيه الملاحدة والزنادقة ولم يعدم واحد منهم لذلك يعدم **السهروردي** لزندقته؟ يعني أن له شأناً خطيراً دفع أو سوَّغ **لصلاح الدين الأيوبي** المعروف برحمته الشديدة جداً مع الأعداء والكفار أن يقرَّ ويقرر إعدامه. ومع ذلك يطلب منه أن يختار الطريقة التي يموت بها ويوافق على خياره!!

ثـمَّـةَ أسئلة كثيرة تفرض ذاتها هنا أيضاً.

مراجع للاستزادة

١- أنور فؤاد أبو خزام: **معجم المصطلحات الصوفية** -مكتبة لبنان- بيروت- ١٩٩٣م.

٢- ابن خلّكان: **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزّمان** - تحقيق: د. إحسان عبّاس -دار صادر- بيروت -١٣٩٧هـ /١٩٧٧م.

٣- الزركلي، خير الدّين: **الأعلام** -دار العلم للملايين- بيروت- ط٥، ١٩٨٠م.

٤- سعيد زايد: **الفارابي**-دار المعارف- القاهرة.

٥ - الصّفدي، خليل بن أيبك الصّلاح: **الوافي بالوفيات** -باعتناء: هلموت ريتر -نشر فرانز ستايتر بفيسبادن -ألمانيا- ١٣٨١هـ/ ١٩٦٢م.

٦- عادل العوّا: **المذاهب الأخلاقيّة** -منشورات جامعة دمشق-دمشق- ١٩٥٨م.

٧- عبد الرحمن بدوي: **موسوعة الفلسفة** - المؤسسة العربية للدراسات والنشر -بيروت- ١٩٨٦م.

٨- غسان فنيانس: **تاريخ الفلسفة العربية** -جامعة دمشق- دمشق- ١٩٨١م.

٩- القفطي، جمال الدّين: **أخبار العلماء بأخبار الحكماء** -دار الآثار للطّباعة والنّشر والتّوزيع-القاهرة- د.ت.

١٠- محمد إبراهيم الفيومي: **تاريخ الفلسفة الإسلامية** -دار الثقافة والنشر والتوزيع - القاهرة-١٩٩١م.

١١- محمد عبد المنعم الخفاجي: **الأدب في التراث الصوفي** -دار غريب للطباعة- القاهرة ١٩٢٨م.

١٢- مصطفى عبد الرازق: **فيلسوف العرب والمعلم الثاني** -دار إحياء الكتب العربية- القاهرة - ١٩٤٥م.

١٣- ياقوت الحموي: **معجم الأدباء** -دار إحياء التّراث العربي -بيروت- د.ت.

حواشــي

(١) - هذه الأبيات فيما يرى أهل التصوف يصف فيها الشاعر المتصوف ما تعتريه من حالات الوجد والغيبوبة عن كل ما له صلة بالعالم الذي يعيش حين يأخذه الوجد والشوق للاتصال بالذات الإلهية.

(٢) - مجد الدين الجيلي هذا هو أحد أبرز أساتذة الفيلسوف العالم فخر الدين الرازي بل يقول بعضهم إنّـهُ شيخه الذي عليه تخرج وبصحبته انتفع.

❖ ❖ ❖

علي الدرويش... موسيقي مبدع وباحث متعمق

أحمد بوبس(*)

يدين التراث الموسيقي العربي في استمراره حتى اليوم إلى موسيقيين، بذلوا حياتهم في سبيل ذلك، ويقف في مقدمتهم الموسيقي السوري علي الدرويش الذي يعود له الفضل في الحفاظ على كثير من التراث، وإلى جانب ذلك، كان موسيقياً مبدعاً، له إسهامات قيمة، لا سيما في تلحين الموشحات وتأليف المقطوعات الموسيقية في القوالب التراثية، والعزف على الناي.

(*) أحمد بوبس: مؤرخ وباحث موسيقي.

- العمل الفني: الفنان طاهر البني.

إضافة إلى قيامه بتجميع العلوم الموسيقية العربية الواسعة في كتاب واحد، بعد أن كانت محفوظة في الصدور، وبالتالي مهددة بالضياع.

النشأة الموسيقية:

ولد الشيخ علي الدرويش عام ١٨٨٤ في حلب وترعرع فيها، وهو مصري الأصل، تعود جذوره إلى مدينة المنوفية، فجدُّه علي جاء إلى سورية ضمن حملة إبراهيم باشا عام ١٨٣١، وبعد انسحاب إبراهيم باشا وجيشه، بقي الجد في حلب التي اختارها لإقامته، بعد أن تزوج منها، وأنجب الجد ولده إبراهيم الذي أنجب بدوره الشيخ علي الدرويش، وكان إبراهيم منتسباً إلى دراويش الطريقة المولوية، ومن هنا جاء لقب الأسرة بالدرويش.

نشأ علي الدرويش منذ صغره نشأة دينية، وتعرف على الإنشاد الديني في حلقات الذكر في التكية المولوية بحلب، حيث كان يرافق والده لحضور الأذكار كل يوم جمعة، فكان يستمع إلى الإنشاد الجماعي والإفرادي، بمرافقة بعض الآلات الموسيقية ومنها الناي الذي شد انتباهه، وآنس فيه شيخ التكية (عامل جلبي أفندي) جمال الصوت، فعهد إليه بأداء الأذان يوم الجمعة، ثم أداء الأذان في رمضان، وعلمه والده الألحان والأناشيد التي تؤدى في التكية، وكان في حلب آنذاك (عثمان بك) مؤذن السلطان عبد العزيز، والذي نفاه السلطان عبد الحميد إلى حلب بعد توليه الحكم، ولمس عثمان بك عند علي تعلقه بالناي، فعلّمه العزف عليه، كما لقّنه مبادئ الموسيقا وقواعدها الأولية والمقامات الموسيقية والأبعاد الصوتية، بعد ذلك تابع دراسته على يد الموسيقي اليوناني مهران السلانيكي، فأخذ عنه النوتة والصولفيج، وفي تلك الأثناء، زار حلب موسيقي تركي مشهور هو (شرف الدين بك) الذي لاحظ شغف الفتى بالناي، فعلمه أصول العزف عليه حتى أجاده، كما تلقى علي فن الغناء والإيقاع على يد كبار موسيقيي حلب أمثال أحمد الشعار وصالح الجذبة وأحمد جنيد وغيرهم.

في نفس الوقت دخل علي درويش مدرسة الأشرفية الابتدائية، والمدرسة المتوسطة الإعدادية، ومنها انتقل إلى المدرسة العثمانية المتوسطة لعلوم الفقه الإسلامي، وتخرج منها بعد أربعة سنوات، ولقب بالشيخ لدراسته الدينية.

النبوغ الموسيقي الذي أظهره علي الدرويش بعد أن اكتملت معارفه الموسيقية، دفع شيخ التكية (عامل جلبي أفندي) لأن يعينه رئيساً لجماعة الموسيقيين في المطْرَبْ (هو المكان الذي يجلس فيه العازفون أثناء حلقات الذكر).



رحلة البحث والتقصي:

لم يكتف علي الدرويش بما توصل إليه في مجال الموسيقا، وإنما بدأ رحلة البحث عن أصول الموسيقا العربية، فدرس الموسيقا الشرقية بصورة عامة والعربية والتركية بصورة خاصة، وبحث عن الموشحات القديمة والأغاني الضائعة من عهد الأمويين والعباسيين والأندلسيين، واستقصى بدقة عن جميع أوزان الموسيقا الشرقية. كما بحث في الأغاني الشعبية والقدود الحلبية وفاصل (اسق العطاش)، ودرس رقص السماح وموشحات الموسيقي السوري الكبير أبي خليل القباني.

وأتيحت له فرصة كبيرة للقيام بالمزيد من البحث والتقصي في الموسيقا الشرقية، حينما دعاه الأمير خزعل أمير المحمّرة (عربستان).

واصطحب معه فرقة كبيرة للموسيقا والإنشاد، وكانت هذه أول رحلة له خارج حلب. وفي إمارة المحمّرة كان الأمير خزعل يستضيف فرقاً موسيقية كثيرة من أنحاء الشرق، وصادف أن كانت في المحمّرة فرقة موسيقية من مدينة شيراز الفارسية برئاسة الموسيقي (بليخان) أشهر موسيقيي بلاد فارس، فاتصل به علي الدرويش، وأخذ عنه الموسيقا الفارسية وألحانها، وبقي في ضيافة الأمير خزعل نحو سنة ونصف، تولى خلالها رئاسة الفرقة الموسيقية للأمير، وكانت فرقة

نحاسية ، وكان الشيخ علي الدرويش يضع الألحان لأشعار الأمير لتقدمها الفرقة الموسيقية.

واستغل وجوده في المحمّرة فزار طهران وبومباي في الهند، واطلع بشكل أوسع على الموسيقا الفارسية والهندية، ليعود بعد ذلك إلى حلب، وفي طريق عودته زار بغداد والبصرة، واطلع على الموسيقا والغناء العراقيين.

أوائل عام ١٩١٤ سافر علي الدرويش إلى الأستانة بصحبة عامل أفندي جلبي، وعين عامل جلبي رئيساً للمولوية في بلدة قسطموني، أما علي الدرويش فدخل مسابقة أجرتها وزارة المعارف التركية لاختيار مدرسين للموسيقا، ونجح فتم تعيينه مدرساً للموسيقا في المكاتب السلطانية بمدينة قسطموني، وتعادل المدارس الثانوية، واستغل وجوده في تركيا ، فانتسب إلى معهد دار الألحان حيث تابع دراسته الموسيقية، وفي المعهد درس علم الرياضيات الموسيقية على يد (رؤوف بكتابك)، وأكمل دراسته في أصول العزف على الناي على يد (عزيز ددّه)، ونال الشهادة العليا للمعهد.

استمرت إقامة علي الدرويش في قسطموني تسع سنوات ، تزوج فيها وأنجب أولاده نديم وإبراهيم ومصطفى، والثلاثة ساروا على خطا والدهم الموسيقية، وأبرزهم نديم ، وخلال إقامته في قسطموني عكف على تأليف كتابه (النظريات الحقيقية في علم القراءة الموسيقية). كما أتقن اللغة التركية التي أفادته في الاطلاع على الكتب والكنوز الموسيقية التركية ، وحمل بعضاً منها معه عند عودته إلى حلب.

وبعد السنوات التسع التي قضاها في قسطموني، تم تعيينه في مكتب السلطان غازي عثمان باشا، وبقي فيه لمدة سنتين عاد بعدها إلى حلب.

في حلب .. ساهم علي الدرويش بعد عودته بتأسيس عدد من الأندية الموسيقية منها (نادي الصنائع النفيسة)، وقام بتشكيل فرقة للموسيقا والغناء تولى قيادتها، وتألفت من كبار العازفين في حلب وهم نوري ملاح (عود)،أنطون حجار وسامي صندوق (قانون)، عزيز حجار وانطون حكيم (كمان)، محمد طيفور وعبده عبود (إيقاع).

إضافة إلى عدد من المرددين، وعملت الفرقة على مسارح حلب، كما قدمت حفلاتها في دمشق واللاذقية، وسافرت إلى استنبول حيث أقامت عدداً من الحفلات ، شارك في بعضها الموسيقي التركي (جميل بك) على عوده.

وخلال إقامته في حلب قام علي الدرويش بتدوين الألحان التي كانت ترددها

جماعات المولوية في سورية والعراق وإيران وتركيا، وخلال الفترة مابين عامي (١٩٢٥-١٩٢٧) ، وهي الفترة التي قامت خلالها الثورة السورية الكبرى ضد الاستعمار الفرنسي، وضع ألحان عدد من الأناشيد الوطنية الموجهة ضد الاستعمار، ومنها نشيد (الزعيم) عن إبراهيم هنانو.

بين مصر وتونس:

في عام ١٩٢٧ تلقى الشيخ علي الدرويش دعوة لزيارة القاهرة من مصطفى بك رضا مدير (النادي الموسيقي الشرقي)، ليقوم فيه بتدريس العلوم الموسيقية وأصول العزف على الناي، وهذا النادي أصبح يُعرف فيما بعد بمعهد فؤاد الأول للموسيقا ، وتخرج على يديه في المعهد كبار الموسيقيين المصريين أمثال محمد عبد الوهاب ومحمد القصبجي ورياض السنباطي.

أمّا أم كلثوم فلم تدرس في المعهد دراسة منتظمة ، وإنما تلقت بعض الدروس على يد علي الدرويش خارج المعهد، واشترت إدارة النادي كتابه (النظريات الحقيقية في علم القراءة الموسيقية) من أجل طبعه ، ولكن لأسباب غير معروفة، لم يتم طباعة الكتاب حتى الآن، وخلال وجوده في القاهرة، قام بتدوين الكثير من الموشحات والأدوار المصرية القديمة.

استمر علي الدرويش بالتدريس في النادي الموسيقي الشرقي الذي أصبح فيما بعد معهد فؤاد الأول حتى عام ١٩٣١، عندما التقى المستشرق الانكليزي البارون رودولف دير لينجه الذي شُغف بالموسيقا العربية ، فعمل على دراستها وجمع تراثها، واتخذ مقراً له مدينة بو سعيد التونسية، وفي سبيل ذلك اتصل بالكثير من الموسيقيين العرب، وفي القاهرة استحوذ علي الدرويش على إعجاب البارون دير لينجة لإحاطته الواسعة بالموسيقا العربية وعلومها، فدعاه للعمل معه في تونس، واستصدر له إذناً خاصاً من الملك فؤاد الأول يسمح له بترك عمله في المعهد والسفر معه.

في ذلك العام (١٩٣١) بدأت مرحلة جديدة للشيخ علي الدرويش مع البارون دير لينجه استمرت لمدة سبع سنوات، انتهت بوفاة البارون رودولف دير لينجه عام ١٩٣٨، وفي قصر الزهراء - مقر إقامة المستشرق الإنكليزي - أمضى علي الدرويش جُلّ وقته مع المكتبة الضخمة التي جمعها دير لينجه، والتي حفلت بالمخطوطات الموسيقية العربية والشرقية التي جمعها المستشرق من مختلف أنحاء العالم، وقام علي الدرويش بالاطّلاع عليها جميعها ، كما أجرى أبحاثاً موسيقية هامة، ومن الكتب الهامة التي لفتت انتباهه كتاب (الموسيقا الكبير) للفارابي، فقام بنسخه بخط يده كاملاً رغم كبر حجمه، وحمله معه إلى حلب.

وفي تونس .. دُعي علي الدرويش لتدريس النظريات الموسيقية وآلة الناي في المعهد الرشيدي ، ومن طلابه في المعهد الموسيقي التونسي صالح المهدي، وتعاون مع كبار الموسيقيين التونسيين مثل محمد التريكي وخميس الترنان، كما أقام العديد من الحفلات لآلة الناي، منها حفلته المشهورة التي رافقه فيها عازف الكمان السوري الكبير سامي الشوا في قصر الزهراء بمدينة بو سعيد عام ١٩٣٢ ، وخلال وجوده في تونس ، اطلع على المالوف التونسي ، وقام بزيارات إلى الجزائر والمغرب، حيث جمع ودون بقايا ألحان الأندلس التي وصلت إلى شمال أفريقيا بعد سقوط الأندلس، ومنها النوبات الأندلسية، فجمع ودون أربع عشرة نوبة أندلسية بالنوطة والكلمة من أصل أربع وعشرين نوبة هو عددها الكامل في الأندلس، وأحضر هذه النوبات معه إلى حلب، وهي موجودة الآن في المكتبة الوطنية بحلب، وعندما توفي البارون دير لينجة عام ١٩٣٨، شارك علي الدرويش في تشييعه، وألقى كلمة مؤثرة أمام ضريحه ، تحدث فيها عن جهوده في خدمة الموسيقا العربية، وعاد في نفس العام إلى حلب حاملاً معه كنوزاً موسيقية هامة، وقبيل عودته أقيم له حفل تكريم كبير، ومنحه باي تونس وساماً رفيعاً تقديراً للخدمات الجليلة التي قدّمها للموسيقا العربية.

مؤتمر الموسيقا العربية:

في عام ١٩٣٢ شهدت القاهرة انعقاد أول مؤتمر للموسيقا العربية ، وقام بالإعداد له وإدارته البارون رودولف دير لينجه برعاية الملك فؤاد الأول، وشكلت الحكومة السورية آنذاك الوفد السوري إلى المؤتمر برئاسة علي الدرويش، وضم في عضويته أحمد الأوبري وشفيق شبيب، أما سامي الشوا فحضر المؤتمر بصفته الشخصية لأنه كان مقيماً في القاهرة آنذاك. كما شاركت من سورية فرقة للموسيقا والغناء ضمت بين أفرادها عازف الكمان توفيق الصباغ والمطرب صالح المحبك، لكن السلطات الفرنسية رفضت مشاركة علي الدرويش ضمن الوفد السوري ، بسبب مواقفه المناهضة لها، وقيامه بتلحين مجموعة من الأناشيد الوطنية المناهضة للمستعمر الفرنسي- كما ذكرت سابقاً- وكلفت بدلاً عنه الأب (كولا نجيت) من جامعة سان جوزيف ببيروت ، وشهد المؤتمر مشاركة عالمية واسعة حيث شاركت كل من الدول إسبانيا، ألمانيا، المجر ، النمسا، إيطاليا، بريطانيا، تركيا، تشيكوسلوفاكيا، فرنسا، إضافة إلى الدول العربية سورية، لبنان ومصر.

وعندما حان موعد افتتاح المؤتمر، رفض المشاركون افتتاحه وبدء أعماله، مالم يشارك فيه علي الدرويش، الأمر الذي

اضطر الديوان الملكي المصري إلى إرسال دعوة شخصية له لحضور المؤتمر، وعندما حضر قوبل بحفاوة بالغة من المشاركين، وتم انتخابه عضواً في لجنة المقامات والإيقاعات الموسيقية، وخلال المؤتمر قدم علي الدرويش عدداً من الملاحظات الفنية، اعتبرها المؤتمر جزءاً من قراراته لأهميتها، وبعد انتهاء المؤتمر عاد علي الدرويش إلى تونس برفقة البارون دير لينجه، ليتابع الأعمال التي سافر من أجلها قبل المؤتمر.

أعماله في سورية:

في حلب.. بدأ علي الدرويش المرحلة الأخيرة من مسيرته الفنية، بعد عودته من تونس عام ١٩٣٩، وقبل عودته إلى حلب قام بجولة زار فيها فرنسا وإيطاليا وألمانيا، اطلع خلالها على الموسيقا الأوروبية الكلاسيكية.

في حلب .. أمضى الشيخ الدرويش عدة سنوات ، قام خلالها بالعديد من النشاطات الموسيقية، وساهم مع عدد من الموسيقيين في حلب بتأسيس (نادي حلب الموسيقي)مع ممدوح الجابري ومجدي العقيلي وعمر أبي ريشة وجميل جوخدار وأحمد الأويري، وكتب مجموعة مقالات عن قضايا موسيقية في جريدة (الدستور) الحلبية التي كانت تصدر في ذاك الوقت.

في عام ١٩٤٢ عين علي الدرويش عميداً ومدرساً في القسم الشرقي للمعهد الموسيقي بدمشق، واستمر في عمله هذا عاماً كاملاً، حيث أغلق المعهد أبوابه لأسباب مالية، وفي عام ١٩٤٤ توجه إلى القدس بدعوة من إذاعتها، حيث سجل لها مجموعة من الموشحات القديمة، ورافقه في زيارته المطرب أحمد الفقش.

وفي عام ١٩٤٥ تلقى دعوة من العراق للتدريس في معهد الفنون الجميلة ببغداد، وأمضى في عمله بالمعهد حتى عام ١٩٥١، وتتلمذ على يديه في المعهد عدد من الفنانين العراقيين منهم جميل ومنير بشير والمطرب ناظم الغزالي، وشكل في المعهد فرقة للموشحات، كان من أعضائها الفنان الغزالي، وبعد عودته إلى حلب، عمل مع الدكتور فؤاد رجائي في معهد حلب للموسيقا ، لكن عمله لم يستمر طويلاً ، فقد داهمه المرض ، ورحل إلى رحمة ربه في داره بحي أقيول يوم الخميس السادس والعشرين من تشرين الثاني عام ١٩٥٢ عن ثمانية وستين عاماً أمضاها في كفاح متواصل لخدمة الموسيقا العربية.

أبحاثه ومؤلفاته:

وضع الشيخ علي الدرويش الكثير من الدراسات والأبحاث الموسيقية، جمعها في كتاب عنوانه (النظريات الحقيقية في علم القراءة الموسيقية) ، ومازال مخطوطاً لم يطبع، للأسباب التي تحدثنا عنها قبل ذلك.

ويتألف الكتاب من سبعة أقسام، القسم الأول والثاني خصصهما لنظريات علم النوتة الغربية، والقسم الثالث يبحث في تطبيق علوم الموسيقا الغربية على الموسيقا الشرقية، وفيه شرح للمقامات الموسيقية المستخدمة في الشرق، وتركيبها وطريقة سيرها وسلمها وكتابتها الموسيقية، أما القسم الرابع فتناول الأوزان الموسيقية المستخدمة في الموسيقا الشرقية، مكتوبة ومقيدة بعلامات ومسافات النوتة الغربية، وفي القسم الخامس دراسة عن الآلات الموسيقية المستخدمة في الشرق وأساليب العزف عليها وآداب استعمالها، وتناول القسم السادس الموشحات القديمة وأقسامها وأنواعها، وأورد نماذج بالكلمات والنوتة، والقسم السابع والأخير، تفرع إلى جزأين، في الجزء الأول تمرينات على القسمين الأول والثاني، وفي الجزء الثاني تمرينات على القسم الثالث من الكتاب.

وفي التأليف الموسيقي وضع علي الدرويش مجموعة من البشارف والسماعيات وصل عددها إلى الستين، كما لحن الكثير من الموشحات باللغتين العربية والتركية من مقامات موسيقية متعددة، تم طبع بعضها في الأستانة وبعضها الآخر في حلب، وقسم آخر لم يطبع، وضم القسم الأول من كتاب (من كنوزنا) تأليف الدكتور فؤاد رجائي، وحمل هذا القسم عنوان (الموشحات)، ضم مجموعة من السماعيات والموشحات لعلي الدرويش، كما سجلت له شركة بيضا فون عدداً من البشارف والسماعيات على أسطوانات، وخلال وجوده في القدس سجل بعضاً منها لإذاعتها، ومن أعماله التوثيقية الهامة، أنه قام بإعداد وتسجيل عدداً من النوبات الأندلسية التي جلبها معه من تونس لإذاعة حلب، وتحتفظ إذاعتي دمشق وحلب بنسخ من هذه التسجيلات.

المراجع

١- من كنوزنا (الموشحات)- د.فؤاد رجائي - حلب ١٩٥٥.

٢- الموسيقا في سورية- عدنان بن ذريل- وزارة الثقافة - دمشق ١٩٨٧.

٣- أعلام الأدب والفن - أدهم آل الجندي- دمشق ١٩٥٤.

٤- مؤتمر الموسيقا العربية - وزارة المعارف العمومية- مصر- القاهرة ١٩٣٢.

٥- السماع عند العرب (الجزء الثالث) مجدي العقيلي.

٦- مجلة الناقد المصرية- مقابلة مع علي الدرويش- القاهرة - الاثنين ٢٣ يناير ١٩٢٨.

شخصية العدد

حوار

صباح فخري هرم شامخ في الثقافة الغنائية

إعداد : عادل أبو شنب

٣٤٦

صبـاح فخـري
هرم شامخ في الثقافة الغنائية

حاوره: عادل أبوشنب(*)

تربع صباح فخري على عرش الغناء. لا في حلب أو في سورية أو العالم العربي فحسب، بل في أرجاء المعمورة قاطبة كواحد من ذوي الأصوات القوية والنادرة والمثقفة، والقديمة. إذ مضى على انهماكه في ميدان الطرب حتى اليوم حوالي ستين سنة، وما زال يزداد تألقاً وجمهوراً لمن يعجبهم الغناء الأصيل (الموشحات والقدود والأدوار والقصائد والمواويل..) وأخلاقاً، فالفنان يجب ان يكون خلوقاً قبل اي شيء، ثم تأتي الموهبة والثقافة الفنية.

(*) عادل أبو شنب: أديب وقاص من سورية.

حلب: مدينة ثقافية:

منذ أعلنت الأمم المتحدة أن حلب ستكون مدينة الثقافة لعام ٢٠٠٦م، ورئاسة تحرير مجلة المعرفة، تريد أن تتوج احتفالها بهذه المناسبة بإجراء لقاء مع المطرب الحلبي الكبير صباح فخري، وكالعادة كُلفتُ بالقيام بهذا اللقاء. صباح فخري موجود في حلب، وكثيرًا ما يأتي إلى دمشق، لا ليحيي حفلاته فحسب، فهذه مستمرة، بل ليمثل مدينة حلب في مجلس الشعب، الذي أصبح عضوًا فيه، وكثيرًا ما يسافر إلى مدن العالم ليلبي رغبات جمهوره. كان علي الاتصال وتحديد موعد اللقاء. اتصلت بصهري «هشام قلعي» الذي يعرفه، وهو من عشاق صوته، فاتصل بابنه «طريف» الذي وعد.. وبالوعد يا كمون. كادت تنقضي المدة، وتأتي سنة ٢٠٠٦م، ولم ينجز لنا منكم وعد!

ولأنني من عشاق صوت صباح فخري، اختزنت على مدى ستين سنة أو أكثر جميع المعلومات عن مطربي المفضل، ولادته، ثقافته، صعوده المستمر، طموحاته..إلخ.



سيرة حياة:

-أعرف أنك من أسرة «أبي قوس» الحلبية العريقة؟

❖ أجل. اسمي الكامل: «صباح الدين أبو قوس» ولقب فخري غلب علي، فعرفت به.

-كم عمرك، والرجال لا يخبئون أعمارهم؟

❖ أنا من مواليد عام ١٩٣٣م.

- لماذا لقبت بفخري؟

❖ قصة طويلة!

- هل تمانع في سردها علي؟

❖ عندما كنت في العاشرة من عمري، أخذت أغني في حفلات خاصة، التقيت بعازف الكمان الشهير «سامي الشوا» فرافقته إلى حمص وحماة، ومن هاتين المدينتين السوريتين، انتقلت لأغني في مصيف بلودان الدمشقي. كان ذلك عندما كنت في الرابعة عشرة من عمري. يومئذ تعرفت على رجل سياسي شهير في سورية كلها هو المرحوم فخري البارودي الذي أخذ بصوتي فتبناني..

- وهل كان فخري البارودي موسيقياً؟

❖ كان سياسيًا وموسيقيًا في الوقت نفسه. ألا تعرف أنه كان يشرف على المعهد الموسيقي الشرقي؟

- أعرف. وبعد ذلك؟

❖ انقطعت عن الغناء!

- كم سنة؟

❖ حوالي خمسة أعوام. أنت تعرف فترة المراهقة التي تحدث فيها تبدلات وتحولات في خامة الصوت بخاصة. ثم أنني تابعت دراستي.

- بعد هذا الانقطاع عدت للغناء؟

❖ عدت، والعود أحمد.

- وضحك المطرب الكبير صباح فخري، فضحكت بالعدوى.

- أعرف أنك انتسبت منذ عام ١٩٥٥، أي قبل أكثر من خمسين سنة، إلى فرقة الموسيقى الشرقية؟

❖ قدمت حفلات كثيرة في مدينتي حلب والمدن السورية الأخرى.

- ماذا كنت تغني، أي بأي نوع تخصصت؟

❖ الطرب الشرقي الأصيل.

- أي إنك اتخذت الطرب كاراً؟

❖ أجل، وعينت في إذاعة حلب في العام ١٩٥٦ كمطرب وفي الكورس.

- كم كنت تتقاضى في الإذاعة؟

❖ كان لي راتب يومي..

- كم؟

❖ حوالي ٨ ليرات سورية.

بقي صباح فخري فترة في الإذاعة إلى أن قامت الجمهورية العربية المتحدة باتحاد قطري سورية ومصر، وأعلن أن تلفزيونًا سينشأ في دمشق الشام، أسوة بالتلفزيون

الذي سينشأ في القاهرة، فانتعشت آمال الفنانين بأن يكون لهم دور أحسن، معنويًا وماديًا، واستدعي المطرب الذي صار كبيرًا وتعملق، ليقدم حفلات..

- حفلات تقدم فيها فنك وجديدك؟

❖ بل لأقدم أغنيات دينية بمناسبة حلول شهر رمضان المبارك.

- بدأت في التلفزيون بغناء ديني إذًا؟

❖ أجل، لكنني كنت أغني في حفلات خاصة أغنيات من الطرب الأصيل.

- هل كنت متزوجًا؟

❖ كنت..

-وبعد ذلك ؟

❖عدت إلى إذاعة حلب، لكن التلفزيون طلبني لأغني .

- وقتئذٍ انتشرت وأصبت الشهرة؟

❖ لا. غنيت وقتئذٍ أغنيات وطنية.. كنت ما أزال موظفًا في إذاعة حلب.

- ما هو سبب انتشارك وشهرتك؟

❖ السبب الأول، إنني دعيت لإقامة حفلات في أمريكا الجنوبية، بالإضافة إلى أسباب موضوعية أخرى، كحسن الأداء، ونوعية الغناء.

- وجمال الصوت؟

❖ هكذا يقال..

نسيان الزمان والمكان

ذاعت شهرة صباح فخري، منذ ذلك الوقت، وتراكم عشاق صوته وما زالوا يزدادون، ومعظم هؤلاء من طلاب الأغاني الطربية الذين ينحازون إلى هذا النوع من الطرب، كلما زاد عدد مطربي الأغنيات (الهايفة) التي تعتمد فقط على الأداء، بلا جمال صوت، وبلا ثقافة فنية، وبلا معرفة حقيقية بالموشحات والقدود الحلبية والأدوار والقصائد.. والمواويل، ومن منا ينسى أداء المطرب الكبير لدور: «أنا هويت وانتهيت» أو «عملت غيري لعبتك» أو «القراصيا» أو «يا مال الشام باللايا مالي» التي يلعلع فيها صوته، وكلما حلق استعاده الجمهور، حتى إنه ما زال يعيد مرة ويعيد حتى مطلع الصباح. والجمهور ينتشي طربًا وينسى الزمان والمكان؟!

نسي المطرب الكبير بداياته، فقد أغرقته الشهرة في النسيان. إن أكثر من

خمسين سنة مرت على هذه البدايات، لكن عشاق صوته ومتتبعيه لم ينسوا خطواته الأولى في طريق الفن والطرب. إنهم لا ينسون أغنيته الأولى في إذاعة دمشق، فهل يذكرها هو؟

- هل تذكر أغنيتك الأولى في إذاعة دمشق؟

❖ ربما كانت «حول يا غنام حول» أو أغنية «يا جارحة قلبي»

-والمطربة التي أعجبت بها أبداً ؟

❖ المرحومة أم كلثوم.

- أيهما تفضل الإذاعة أم التلفزيون؟

❖ أفضل المسرح.

وصرح أكثر من مرة أن عمر حلبي والمرحوم مسلم برازي وشاكر بريخان هم من أفضل مؤلفي الأغاني لا في سورية فحسب، بل في الوطن العربي. أما الموسيقيون الذين كانوا وراء ثقافته فهم كثر، ومعظمهم حلبي كعمر البطش ومجدي العقيلي وعزيز غنام وإبراهيم وسعيد الدرويش، وزكي محمد ومصطفى هدال وصبري المدلل وغالب طيفور وإبراهيم جودت، كما ذكر هو نفسه في لقاء تم قبل ثلاث وأربعين سنة، غير أن اللافت أن صباح فخري قد تجاوز أساتذته هؤلاء، وأصاب شهرة مدوية خلال مسيرته منذ الأربعينيات، عندما غنى وهو في العاشرة، إلى اليوم، في الألفية الثالثة، عندما كبر وتعملق وصار واحداً من أساطين الطرب في العالم العربي، تقام له الحفلات فيغني وحده لمدة أربع أو خمس ساعات، فيطرب الناس ويطرب هو نفسه من نفسه حتى إنه يختتم بعض حفلاته بأذان الفجر يؤديه، إيماناً منه بالدين كقيمة عظيمة في أخلاق الشعوب، متذكراً غناءه الديني في أول عهده بالغناء.

مدرسة مستقلة

- هل تعتبر نفسك صاحب مدرسة مستقلة في الغناء؟

❖ ندرة النوع الذي أغنيه، ومن هذه الزاوية يمكن أن نكون أنا ومطربو نوع المواويل والقدود والموشحات والأدوار أصحاب هذه المدرسة.

- من ترشح من المطربين والمطربات للسير في هذا النوع؟

❖ كثيرون ينتمون إليه. المرحومة ماري

جبران كانت سيدة عظيمة في هذا اللون، وصبري مدلل وغيرهما.

- هل ابنك يسير على نهجك؟

❖ أرجو ذلك.

- هل لديه خامة صوتية جيدة؟

❖الخامة الصوتية وحدها لا تكفي. تحتاج هذه إلى ثقافة فنية وإلى أداء حسن.

- هل هذا متوفر في ابنك؟

❖ أجل، وأرجو له النجاح والانتشار.

مناصب

رشح المطرب الكبير صباح الدين أبو قوس، المعروف بصباح فخري نفسه إلى عضوية الشعب في عملية للكشف عن شعبيته في مدينة حلب، كما يبدو، ولأن موضة دخول الفنانين السوريين مجالس الشعب المتعاقبةمنذ السبعينيات، وخاض المعركة بثقة واقتدار ونجح بأصوات جيدة، وصار عضوًا في مجلس الشعب، وليس هذا منصبه الوحيد في التشكيلة الوطنية السورية، فقد صار نقيبًا للفنانين وأدار النقابة بكفاءة..

- هل زرت مدنًا معينة؟

❖ زرت مدنًا كثيرة في العالم.

- أهي زيارات عمل؟

❖ زيارات حفلات. غنيت في أمريكا وفي كندا وفي بعض البلدان العربية، كالقاهرة.

- وهل ظهرت كثيرًا في التلفزيون؟

❖ بالإضافة إلى تسجيلات أغاني، أجريت مقابلات عديدة في تلفزيونات المنطقة.

-مع أنك صرحت في أوائل الستينيات أنك تفضل المسرح؟

❖ لم يكن التلفزيون قد أصاب هذا النجاح في المنطقة.

- هل ذكرت في هذه المقابلات الأساتذة الذين كانوا وراءك في بداياتك؟

❖ طبعًا. إنني لن أنسى أساتذتي، ولن أنسى قط الذي أعطاني اسمه، فقد كان هؤلاء وراء صعودي. وخاصة المرحوم فخري البارودي. إنني لا أنس فضلهم جميعًا ما حييت..

- مد الله في عمرك.

عندما كنت في القاهرة، قبل عدة سنوات، أعلن معهد الموسيقى العربية عن حفلة لصباح فخري، ضمن فعاليات شهر الموسيقى والغناء العربيين الذي يقام في دار الأوبرا. ذهبت لأحجز مقعدين لي ولزوجتي، فوجدت أن المقاعد في الأوبرا محجوزة عن آخرها، بعد يوم واحد من ذلك الإعلان. كان صباح فخري يغني وحده في تلك الأمسية في دار الأوبرا، فذكرني بأبي خليل القباني الذي مثل هو وجوقه في دار الأوبرا قبل ذلك بأكثر من مئة عام، ولا تعليق لي سوى أن الفن الأصيل يطرد الفن المزيف في كل زمان ومكان، وها هو المطرب الحلبي الكبير يغني في دار الأوبرا، فتحجز مقاعد الدار في أول يوم عن بكرة أبيها، وهذا فخر لمدينة حلب التي هي مدينة ثقافية لعام ٢٠٠٦م، كما كان الفخر لمدينة دمشق عندما مثل أبو خليل القباني فيها قبل أجيال.. وأجيال.

❖ ❖ ❖

عند هذا الحد.. نفضت عني إرهاق النوم، وأفقت لأجد أنني لم أقابل المطرب الكبير إلا في المنام. معلوماتي عنه نسجت خيوط المقابلة التي لم تتم.. لكنها تمت الآن معلوماتها موجودة في رأسي... وفي مسيرة حياة المطرب الكبير صباح فخري الذي نحتفل به هذا العام احتفالنا بجعل حلب الشهباء مدينة الثقافة العربية لعام ٢٠٠٦م، وهي مسقط رأس فناننا الكبير، والمدينة التي أحبها أكثر من أية مدينة في العالم. فحق لها أن تفخر به، وحق له أن يفخر بها.

❖ ❖ ❖

متابعات

صفحات من النشاط الثقافي

اعداد: احمد الحسين

كتاب الشهر

الفن التشكيلي في حلب

عرض وتقديم:
محمد سليمان حسن

متابعـــات

٣٥٤

صفحات من النشاط الثقافي

إعداد: أحمد الحسين(*)

❖ حلب عبر العصور:

يعد الفرنسي جورج بلوا دو روترو واحداً من بين العشرات إن لم نقل المئات من الرحالة والمستشرقين والقناصلة والتجار ورجال الفن والأدباء الأوروبيين الذين مروا بحلب أو عاشوا بها فترة من الزمان، فتركت في نفوسهم انطباعات عميقة لما تتسم به من فرادة وجاذبية مميزة بين مدن المشرق العربي خاصة، والعالم الإسلامي عامة.

(*) أحمد الحسين: صحفي ومحرر.

وقد سجل هؤلاء انطباعاتهم عن حلب المدينة التي اشتهرت بتاريخها العريق، و ازدهارها الاقتصادي والتجاري ، ورقيها الحضاري والاجتماعي، وما تميزت به من معالم عمرانية كالأسواق والخانات والحمامات والمساجد والمدارس، في مؤلفاتهم ومذكراتهم المدونة في أكثر من لغة أوروبية، والتي تشكل مصدراً لا غنى عنه لمن يود الإحاطة بتاريخ حلب، ويلم بمراحل تطورها عبر العصور المختلفة.

ودو روترو عاش في حلب ما بين سنتي ١٩٢٤-١٩٢٦، ثم عاد إليها ثانية ليصبح مديراً لمتحفها خلال سنوات ١٩٢٩- ١٩٤١، وخلال هذه الفترة قام ببحوث وتنقيبات أثرية في قلعة حلب، وكذلك في العديد من المواقع الأثرية في شمال سورية، وعلى ضفاف الفرات، وهو في كتابه حلب عبر العصور الذي نقلته إلى العربية مؤخراً الدكتورة زبيدة القاضي يؤرخ لنشوء حلب منذ أقدم العهود، حيث تختلط في ذلك الحقيقة بالأسطورة إلى حد كبير.

وفي هذا الجانب يتتبع دو روترو تاريخ حلب منذ القرن الثاني والعشرين قبل الميلاد مروراً بالحقب التي تلت ذلك وانتهاء بخروج العثمانيين من بلاد العرب ومن سورية نهاية الحرب العالمية الأولى، فيقف عند ما يسمى بمملكة هالباس التي ازدهرت في الألف الثانية ق.م، ويستعرض أطوار تاريخ حلب وأهم الأحداث، والنكبات والوقائع التي مرت بها في العهود الحثية والمصرية القديمة والآشورية والآرامية، كما في عصور الفرس والإغريق والرومان، وما تلاها في العهود العربية . الإسلامية حيث اكتسبت حلب أهمية خاصة بحكم موقعها الجغرافي المحاذي للدولة الرومانية، وتجلت هذه الأهمية بشكل أكبر في عهد أميرها وفارسها سيف الدولة الحمداني الذي اشتهر بحروبه وبطولاته وبمجالسه الأدبية والفكرية التي استقطبت أعلام الأدب والفكر والشعر واللغة.

ثم يسرد المؤلف تاريخ حلب في العهود التي أعقبت ذلك من مملوكية وعثمانية وأتابكية، وماتعرضت له من دمار على يد المغول والتتار، وحروبها مع الفرنجة، لينتهي بعد استعراض تلك الحقب بمرحلة الانتداب الفرنسي على سورية واحتلال مدينة حلب.

ويتوقف المؤلف عند قلعة حلب فيبرز أهميتها وفرادتها، ويصف أبراجها ويسمى أقسامها ومحتوياتها العمرانية والأثرية، وقاعاتها وقصورها، كما يتحدث عن متحفها الذي تم تأسيسه سنة ١٩٢٧، وأهم قاعاته ومحتوياته الأثرية، وخاصة آثار تل حلف الواقعة عند منابع الخابور في مدينة رأس العين، ويشير إلى سور حلب ومسالكها وأنفاقها السرية وأسواقها ومعالمها العمرانية وأبوابها المشهورة ومن بينها: باب العراق، باب دار العدل، باب الساحر، باب الأربعين، باب المقام، باب النيرب، باب القناة، باب النصر، باب القرج، باب الجنان، باب أنطاكية، ويصف لنا بإسهاب واضح معالم حلب وحاراتها

ومبانيها وأسواقها، ومما ذكره حول ذلك نقتبس ما جاء في وصفه لباب انطاكية وطريقة الوصول إليه إذ يقول: " للذهاب إلى باب أنطاكية، سيتبع الزائر السور الغربي، فيلاحظ أسدين منحوتين على جدران السور قبل الوصول إلى الباب بقليل، ومازال موضع الباب المخرب ظاهراً بوضوح، كان الباب سابقاً محصناً ببرجين كبيرين بقيت منهما آثار هامة، ثمة محول كهربائي مزعج يشوه هذا الباب الجميل، أحد أهم الأبواب حسنة الصيانة في المدينة، ومتاجر حديثة أتت لتستند إلى الآثار القديمة، يفتح الباب يميناً على طرف حصن في السور، ثم ينعطف الممر بزاوية قائمة للدخول إلى المدينة، من الجدير بالملاحظة عقدة القبة الغريبة التي تشكل قمرية.

ويضيف: بعد ولوج الممر ينعطف الزائر مباشرة إلى اليسار، ويتسلق ارتفاعاً بسيطاً ويصل إلى قمة الأسوار فيجد نفسه أمام جامع القيقان (الغربان)، إذ يلاحظ على جدرانه كتابة حثية، تكفي رؤيتها فقط للشفاء من بعض الأمراض، ومن أعلى السور، يمكن للزائر أن يتفحص الحصن خماسي الزوايا في مدخل باب أنطاكية، وهو مجهز برواق أمامي في كل من الجانبين الخارجيين للمدينة.

ويتابع فيقول: ننزل من جديد نحو الباب، ونلج المدينة، فيلفت نظر الزائر مسجد فاطمي صغير وافر الزخرفة، إنه أحد أقدم مساجد حلب، وفي الداخل حوض ماء، عند المرور إلى يمين المسجد، يمكنه أن يسلك الشارع الثالث يميناً، فيزور المدرسة المقدمية، ١١٦٨- ١١٦٩ هـ، ثم يعود الزائر أدراجه قبل أن يسلك الشارع الأول إلى اليمين، فيزور جامع البهرمية (القرن السادس عشر)، بمئذنته الجميلة، وعندما نسلك الشارع الواقع يميناً، ثم نمر أمام المسجد ونصل إلى بيمارستان نور الدين (القرن الثاني عشر)، حيث الباب وحده من تلك الحقبة، ثم ننعطف شمالاً، فنصل أمام ثانوية الأرض المقدسة للآباء الفرنسيسكان (الشيباني)، وعندئذ ننعطف يميناً، ثم إلى اليمين مرة أخرى ونقوم بزيارة بيمارستان الأمير أرغون (١٣٥٤ هـ) على بعد بضعة أمتار، ونتابع بخط مستقيم، فنجد قريباً إلى اليسار شارعاً يمكن أن نسلكه فنجد جامع حلب الكبير (١٣٣٥هـ)، إنه أحد أكثر مساجد حلب شعرية، باحته مرصوفة بحجارة بيضاء تتخللها حجارة سوداء، مشكلة عنصر الزخرفة الملون الوحيد، وفيه حوض كبير، وكانت الباحة سابقاً محاطة في ثلاث من واجهاتها بأعمدة تيجانها من القرن الثالث عشر، وقد انهار أحد أضلاع هذه الأعمدة، ويعد محراب هذا المسجد من أجمل ما وجد في حلب.

ويضيف : في ضواحي الفردوس، أضرحة هامة تعود إلى حقبة تمتد من القرن السادس عشر إلى القرن السابع عشر، و يقع مسجد الصالحين القديم (١١٠٥-١١٠٦هـ) بين هذه الأضرحة،

ومحرابه البسيط من الحجر الأبيض جميل، ونجد فيه حجرة تحمل أثر قدم إبراهيم، تكشف المقابر العديدة بضع قبور قديمة من القرنين الثالث عشر والرابع عشر، وإن رؤية غروب الشمس عن المدينة والقلعة من هذا المكان رائعة..(١)

❖ **الخط العربي صامد في وجه متغيرات العصر:**

أكد الخطاط فريد العلي مؤلف كتاب محمديات: أن فن الخط العربي بالنسبة له هو الفن الصامد في وجه متغيرات العصر، وهو العمود الفقري للفنون الإسلامية، والمعبر عن الهوية العربية الإسلامية الباقية، وهو كما يقول: الجمال الذي يلمسه في كل حرف من حروف لغتنا العربية بكل تجلياتها وحيويتها.

ويضيف الخطاط العلي: كنت أتساءل ماذا أقدم بعد لفظ الجلالة. فجاء الجواب سريعاً، وذلك حينما نقول (أشهد أن لا إله إلا الله) نكمل بقول (محمد رسول الله)، فجاءت اللحظة المبدعة، وجاءت من اسم محمد، خاتم الأنبياء والمرسلين، وهو الاسم الذي يردده ملايين البشر في كل أنحاء العالم.

وكان نجاح معرض وكتاب تشكيلات في لفظ الجلالة في بداية عام ١٩٩٧، الذي أنجز فيه العلي ٩٩ تشكيلاً للفظ الجلالة (الله)، ومزج في تصميمها بين الفن التشكيلي والخط العربي والهندسة المعمارية دافعاً لمواصلة رحلة التجريب والاكتشاف، وهذا ما دفعه إلى إعداد كتاب محمديات، حيث استطاع فريد العلي بعد بحث في الكتب التي تحتوي على أسماء وصفات الرسول صلى الله عليه وسلم أن يجد كتاباً يحتوي على ٤٢٤ صفة واسماً، وبدأ في التصميم والإعداد لهذه التجربة.

وجاءت مرحلة التصميم برسم نماذج وأفكار عديدة ثم يبدأ الحوار مع هذه التصاميم، وبعدها تبدأ عملية التنفيذ باستخدام الطرق التقليدية الهندسية اليدوية باستخدام الأدوات الهندسية، وبعد الانتهاء من رسمها بالرصاص تأتي مرحلة تحبير هذا الشكل ثم ملئه باللون الأسود.

ويقول العلي: بعد إنجاز المرحلة اليدوية يأتي دور الكمبيوتر في نسخ ما رسمته حتى تظهر اللوحة مطابقة لما صممته يدوياً فيكون الشكل أكثر واقعية للحس الطبيعي، وواصلت عملي دون الرجوع إلى ما تم تنفيذه كي لا تكون حاضرة في ذهني، وذلك من أجل التنوع وعدم التكرار، وبعد الانتهاء من تصميم الشكل أحاول نسيانه والبدء في استحداث تصاميم بأشكال أخرى حتى تجمع لدي ما يقارب ٥٦٠ تصاميم مختلفة، بينها أشكال دائرية، وأخرى مثمنة ومربعة ومثلثة، كما أن هناك خطوطاً حادة وأخرى لينة، ففكرت في تجميع هذه الأشكال في مجاميع يسهل على المتلقي والمهتم فهمها، ومنها اخترت ٥٠٠ تصميم وتراجعت عن أكثر من ٦٠ تصميماً، وحينها فكرت في عمل (براويز) صممتها بحيث تتناسب مع

الأشكال المكتوبة، فمثلاً عندما يكون الشكل دائرياً يكون الإطار من نفس الروح، كما حرصت على كتابة (محمد رسول الله) داخل ذلك الإطار لتأكيد أن هذا الاسم للرسول صلى الله عليه وسلم، ثم جاءت مرحلة اختيار طريقة لألوان للمجاميع والأرضيات و(البراويز) فكنت حريصاً على إبراز كلمة محمد رسول الله في كل لوحة، لأن الهدف هو إبراز الكلمة بطريقة واضحة.

ويهدف المؤلف العلي من هذه الدراسة الخطية التشكيلية الهندسية لكلمة محمد صلى الله عليه وسلم استنهاض منابع فنون الخط العربي، وإبرازه وإظهاره إلى الناس، إضافة إلى إبراز إمكانات الخط العربي من خلال سهولة التشكيل به، لما فيه من مرونة وليونة، وأنه بالإمكان التشكيل في الخط العربي إلى ما لا نهاية، وإدخال هذه التشكيلات الـ ٥٠٠ موسوعة جينيس العالمية، ونشر هذا النوع من الفنون وتجوله في العالم الإسلامي والغربي لإبراز مكانة الأمة ثقافياً، وتحريك ملكة الإبداع عند الناس كافة، فضلاً عن إمكانية استخدام هذه التشكيلات الخطية في الحروف اليدوية والصناعات والعمارة والسيراميك والذهب والنحاس والخشب والرخام والنسيج والسجاد والبناء والمساجد والبيوت، ويشير المؤلف إلى تقسيم التصاميم السابقة إلى ١١ مجموعة لها شكل ولون يختلفان عن المجموعة الأخرى، فكانت كالآتي: المجموعة الحادة، مجموعة الكوفي المربع، المجموعة اللينة، مجموعة المزج، المجموعة الدائرية، مجموع الأربعة مثلثات، مجموعة الربع دائري، مجموعة المثلث، المجموعة المربعة، المجموعة السداسية، المجموعة المثمنة.[٢]

❖ ترميم معابد واكتشاف عملات أثرية:

بدأت وزارة الثقافة المصرية ممثلة بالمجلس الأعلى للآثار مشروعاً قومياً ضخماً لإنقاذ معبد أسنا التاريخي الأثري في صعيد مصر من مخاطر التآكل والانهيار نتيجة ارتفاع منسوب المياه الجوفية أسفله.

وقال الدكتور زاهي حواس الأمين العام للمجلس الأعلى للآثار: إن المجلس بدأ بالفعل المشروع، ويتضمن فك المعبد، وإعادة تركيبه بعد رفع مستوى سطح أرضيته المنخفض عن مستوى سطح المدينة بتسعة أمتار كاملة، وذلك على غرار المشروع الذي جرى لعدد من الأعمدة بهو الملك أمنحتب الثالث داخل معبد الأقصر الأثري عام ١٩٩٧، ومعبد أبو سمبل ومعابد النوبة الصخرية.

وأضاف أن المشروع يتضمن أيضاً دعم الأساسات أو تغييرها في حالة عدم صلاحيتها للبناء، وإقامة تلك الأساسات على ترب زلطية جديدة بدلاً من التربة الطينية الحالية، بجانب خفض منسوب المياه الجوفية أسفل أرضية المعبد قبل إعادة تركيب أعمدته وأساساته.

من جانبه أكد رئيس قطاع الآثار

المصرية: أن المشروع يتم تحت إشراف المنظمات الدولية المعنية بحماية التراث العالمي والمؤسسات القومية المحلية لوضع الدراسات اللازمة لإنقاذ المعبد الذي شيد في عصر الأسرة الـ ١٨، والذي استكمله البطالمة فيما بعد، وأشار إلى أنه تم حفر خندق كبير حول المعبد لامتصاص المياه وتصريفها إلى جانب وضع كمية كبيرة من الحصى في الخندق لتساعد في عملية تبخر المياه بشكل سريع، موضحاً أن من الأسباب التي ستساهم في تقليص حجم تأثير المياه الجوفية على جدران المعبد هو قيام المحافظة ببناء شبكة حديثة للصرف الصحي.

وقد ذكر رئيس قطاع الآثار المصرية: أن عملية تنكيك وتركيب معبد أسنا الأثري تعد أقل صعوبة من مثيلتها التي تمت مع نقل معبد أبو سمبل الكبير، فضلاً عن صغر مساحة معبد أسنا البالغ طوله ٢٠ متراً بعرض ١٠ أمتار، ويضم نقوشاً جميلة ونادرة فرعونية وبطليمية، وبينها نصوص عن خلق الكون وأصل الحياة، مضيفاً أنه في إطار خطة المجلس الأعلى للآثار لتطوير ساحة معبد أسنا ستتم دراسة مدى إمكانية جعلها بانوراما عرض للمعبد أمام السائحين من خلال الفنادق السياحية العائمة المارة عبر النيل، وذلك بنزع ملكية المنشآت السكنية الموجودة أمام المعبد، ودفع التعويضات اللازمة للأهالي، بالإضافة إلى نزع ملكية المنشآت الواقعة حول المعبد وتتسبب في زيادة منسوب المياه الجوفية داخله.

ومن ناحية أخرى أكد رئيس الإدارة المركزية لآثار مصر: أنه سيتم ومن خلال استشاريين متخصصين في (ميكانيكا) التربة دراسة المشروع المقدم من معهد البحوث للمياه الجوفية، والخاص بطرح حلول مقترحة لمشكلة ارتفاع منسوب المياه، وذلك بإنشاء مصرفين على مسافات متباعدة حول المعبد لتجميع المياه الجوفية داخلهما، والتخلص منها بوساطة ماكينات شفط وضخ إلى أعلى مع حقن التربة بمواد كيماوية للحفاظ على أساسات المعبد بجانب أعمال الترميم للرسوم والنقوش وتدعيم الأعمدة والأسقف والجدران.

من جهة ثانية أعلنت وزارة الثقافة المصرية اكتشاف عملات ذهبية بمدينة الفيوم جنوب غربي القاهرة ترجع إلى عصر الدولة الفاطمية، عثر عليها أثناء أعمال حفائر البعثة البولندية العاملة بدير الملاك غبريال بجبل النقلون بمدينة الفيوم الواقعة جنوب غربي القاهرة بنحو مئة كيلومتر. وتتكون العملات المكتشفة من ١٣ ديناراً ذهبياً تعد من أجود أنواع العملات الذهبية عياراً ونقاوة ووزناً، حيث يتراوح قطر كل واحدة منها ما بين ٢١ و٢٣ ملليمتراً مزخرفة بأشرطة من الكتابات الكوفية مؤلفة من ثلاث دوائر مكتوب عليها بعض العبارات الإسلامية العربية مثل: لا إله إلا الله محمد رسول الله، كما تعكس هذه العملات ما اعتبره الباحثون مرحلة الرخاء والازدهار الذي شهدته مصر في الميادين السياسية والاقتصادية

والاجتماعية والعمرانية منذ أوائل الحكم الفاطمي في مصر (٩٧٢- ١١٧١ ميلادية) خاصة في عهد الخليفة المعز لدين الله أول خلفاء الفاطميين.

ويعد دير الملاك غبريال الدير الوحيد الذي يحمل اسم الملاك غبريال، وقد أنشئ في القرن الرابع الميلادي، وتم تجديده تجديداً شاملاً في القرن الثامن عشر الميلادي.. [٣]

❖ **مثقفون جزائريون يدعون لحماية اللسان والهوية:**

ناشدت مجموعة من المثقفين الجزائريين الرئيس عبد العزيز بوتفليقه التدخل من أجل حماية اللسان الجزائري، والدفاع عنه، وخاصة بعد حملات التشويه والمسخ التي طالته من طرف العديد من التيارات السياسية التي تسعى إلى تغريب الشخصية الجزائرية، وذكر البيان الذي وقعه مجموعة كبيرة من المثقفين والإعلاميين في مقدمتهم الأديب الطاهر وطار والإعلامي سعد بوعقبه، وعدد من الكتاب والمبدعين الرئيس بوتفليقه بالتصريحات التي أدلى بها من قبل، وبالذات تلك التي أكد فيها أن لسان الجزائري اليوم أصبح مختلطاً كثيراً، لايعرف له لغة أو لسان.

وقد أثار هذا البيان كثيراً من اهتمام الرأي العام، وكذلك وسائل الإعلام والجرائد اليومية التي أكثرت من نشره والتعليق عليه، لاسيما أن صدوره تزامن والذكرى الحادية والخمسين لاندلاع الثورة التحريرية الجزائرية. ومما جاء فيه: انطلاقاً من تقييمكم للوضع الذي آل إليه اللسان الجزائري، حيث لم يعد مفهوماً، فلا هو بالعربي ولا هو بالفرنسي، ونظراً إلى ما يلحق وجدان الجزائري من خدش، وما يفسد ذوقه من الأغاني فاسدة اللغة والخلق، والتي تبث آناء الليل وأطراف النهار، واعتباراً بأن الأزمة الجزائرية في جوهرها هي أزمة ثقافية، وتجاوباً مع انشغالكم بهذه المسألة الحساسة نعلن عن مشاطرتنا لكم لهذا الانشغال، ونناشدكم الإسراع بإنقاذ ما يمكن إنقاذه، وذلك بـ: الأمر بتطبيق كل القوانين المتعلقة بالتعريب، ومنع استعمال اللغة الأجنبية في وسائل الإعلام المرئية والمسموعة إلا لحالات الضرورة، و تجنيد كل الإمكانيات لتحسيس الفرد الجزائري بضرورة الحفاظ على هويته والاعتزاز بها، وتبيان حالة المسخ التي هو عليها، و إنشاء إلى جانب المجلس الأعلى للغة العربية . هيئة رقابة وتفتيش لمتابعة سلامة وصرامة تطبيق القوانين، وكشف ومحاربة حزب الخارج الذي يعمل جاهداً ومنذ الاستقلال الوطني، وبوسائل الدولة نفسها، على ضرب المقومات التاريخية والحضارية للأمة وفي مقدمتها اللغة والوحدة الوطنية، وإخضاع المراكز الثقافية الأجنبية إلى احترام قوانين الدولة الجزائرية. . [٤]

❖ **نشاطات ثقافية في الخرطوم:**

شهد مقر منظمة اليونيسكو احتضان

عدة تظاهرات ثقافية وفنية في إطار تحديد الخرطوم العاصمة الثقافية للعالم العربي سنة ٢٠٠٥، ومن ذلك إقامة ندوة موسعة حول موضوع ميروي ونوبي: آثار وحضارة، شارك بها عدد من المؤرخين والمختصين في علم آثار حضارات السودان القديمة ومن بينهم الباحثون: جان لوكلان أستاذ ومؤلف قاموس حول العصور القديمة يتعلق بتحليل لغة فراعنة السودان، و كلود ريلي من المركز الوطني الفرنسي للبحوث، وأنا باوليني من قسم الثقافة للمنظمة التي قدمت عرضاً حول عمل اليونيسكو من أجل حماية التراث الأثري والثقافي في هذه المنطقة، وقد نظم على هامش هذه التظاهرة الثقافية معرض حول التراث النوبي بالسودان، و يضم برنامج الخرطوم العاصمة الثقافية للعام لسنة ٢٠٠٥، حفلاً للموسيقى السودانية، وهو ما سيسمح للجمهور بالتعرف على تنوع التراث الموسيقي للسودان.

وفي السياق ذاته استضافت الخرطوم مهرجان السينما العربية الفرنسية ضمن فعالياتها كعاصمة للثقافة العربية للعام ٢٠٠٥، وأوضح مدير المركز الثقافي الفرنسي بالخرطوم نيكولا ديكستريه في تصريح له: أن المهرجان يقوم بمبادرة من البعثة السمعية والبصرية التابعة لوزارة الشؤون الخارجية الفرنسية بعمان، وعرض أفلاماً سينمائية متميزة لم تعرض من قبل، للعديد من المخرجين من شمال إفريقيا والشرق الأوسط، كان من بينها فيلم (الأمير) وهو فيلم فرنسي - تونسي للمخرج التونسي محمد زاران، وفيلم (الرحلة الكبرى) للمخرج المغربي إسماعيل فروخي، وفيلم (الهيام) وهو فرنسي - سوري - تونسي من إخراج محمد ملص وأحمد عطية وفيلم (المنارة) وهو فرنسي - جزائري من إخراج أبو القاسم حجاج.

ويذكر أن الجزائر ستكون العاصمة الثقافية العربية لسنة ٢٠٠٧، بعد مسقط حسب ما ذكرته مصادر منظمة اليونيسكو التي بادرت بمخطط عربي من أجل ترقية الحوار بين الثقافة العربية وثقافات العالم الأخرى، وكانت العواصم الثقافية الأخرى هي الرياض ٢٠٠٠، والكويت ٢٠٠١، وعمان ٢٠٠٢.(٥)

❖ جدران سميكة تفصل بين الشرق والغرب:

اعتبر رئيس وزراء كوريا الجنوبية في كلمته التي ألقاها بمناسبة معرض فرانكفورت للكتاب، والذي كان فيه الأدب الكوري ضيف شرف لهذا العام أن هذا المعرض بمثابة "درب للحرير" يجمع ثقافات الشرق والغرب، ويساهم في التفاهم بينهما عبر الحوار، غير أنه انتقد ما سماه "سطحية مجتمع المعلومات الرقمي" الذي أدى إلى "فقدان الاهتمام بالإرث الفكري الكبير للثقافات الأخرى"، وأشار إلى التقدم الهائل في وسائل الاتصال والثورة المعلوماتية، ملاحظاً أن هذا التقدم لم ينجح بعد في التقريب بين الثقافات المختلفة، "فالجدران السميكة مازالت تفصل بين الشرق والغرب".

وكانت صحيفة فراكفورتر روندشاو الألمانية في سياق إبرازها للأدب الكوري نشرت في صفحتها الأولى قصيدة بخط الشاعر الكوري كو أون، الذي يعد أشهر شعراء كوريا الجنوبية، وكان من الناشطين سياسياً في السبعينات، فاعتقل وسجن وعذب، قبل أن يلقى التكريم ويصبح ممثلاً لبلاده في المحافل الدولية، وقد قال أون في كلمة له بافتتاح المعرض: إنه يأسف لغياب الشمال، لكن العزاء يتجسد في صالات المعرض التي تحتضن أدب الكوريتين جنباً إلى جنب.

ما يجدر ذكره أن الدورة السابعة والخمسين لمعرض الكتاب العالمي في فرانكفورت شهدت ازدياداً في عدد العارضين وعدد الكتب المعروضة، حيث شارك أكثر من سبعة آلاف عارض أتوا من مئة دولة، وقد عرضوا ٣٧٠ ألف كتاب، من بينها مئة ألف عنوان جديد، وقد كان للكتاب العربي بينها حضوراً واضحاً وإن لم يكن في كثافة العام الفائت عندما كانت الثقافة العربية محور الاهتمام كضيف شرف، فإلى جانب مشاركة العديد من دور النشر العربية، لاسيما من مصر ولبنان، أقيمت ندوات حول الثقافة العربية في أول أيام المعرض، شارك في بعضها مجموعة من الشباب العرب وتطرقت مواضيعها إلى العلاقة بين الشرق والغرب، كما تناولت بعض الندوات الأخرى قضايا القراءة وسوق الكتاب في العالم العربي، والنشاط النسائي الثقافي للمرأة في دول الخليج، ودور وسائل الإعلام في التوعية ونشر الديمقراطية.

ولأن معرض فرانكفورت للكتاب الحدث الأهم في عالم الأدب الألماني، فقد استحدث الناشرون الألمان هذا العام جائزة تمنح خلال فعاليات المعرض، وهي جائزة "الكتاب الألماني" التي تتوج أفضل عمل أدبي باللغة الألمانية صدر خلال السنة، وتبلغ قيمتها ٢٥ ألف يورو، وهدف الجائزة تنشيط بيع الأعمال الأدبية عبر تسليط الضوء على أفضل إنتاج خلال العام، وتشجيع عملية ترجمة الأدب الألماني إلى اللغات الأخرى، لاسيما أن سوق الكتاب الألماني منفتح على الآداب الأخرى (نحو ٧٦ في المئة من الكتب التي تتصدر قائمة أفضل المبيعات هي كتب مترجمة) في حين تعاني عملية الترجمة من الألمانية ضعفاً كبيراً (٦).

❖ **الرواية البوليسية الإفريقية:**

بالرغم من عدم انتشار الرواية البوليسية في المجتمعات غير الأوروبية فإن الكاتب الكسندر ماكول سميث الذي يعد من أكثر روائيي جنوب إفريقيا غزارة وتنوعاً، قد بدأ بكسر تلك القاعدة عندما نشر الكتاب الأول في سلسلة "الوكالة الأولى لشرطيات التحري" الذي لم يبع منه في البداية سوى ٢٥٠٠ نسخة، لكن نشر هذه الرواية في الولايات المتحدة عام ٢٠٠٢، رفع ذلك العدد إلى مستوى الشهرة الواسعة، فلما صدر الجزء السادس مع الآنسات المرحات، كان رقم المبيعات تجاوز

المئة ألف نسخة، مما أدى إلى ترجمة رواياته إلى ٢١ لغة وتجاوزت مبيعاتها حدود الملايين الخمسة.

بطلة هذه الروايات راموتسوي، امرأة إفريقية بدينة، عزباء، تقليدية المظهر تعيش في مدينة تدعى تود مودرن، لا تستخدم الكومبيوتر ولا المسدس، بل حدسها الأنثوي لكشف الجرائم والقبض على المجرمين، في الكتاب الأول تناول سميث طفولة راموتسوي وكيف مات والدها مصدوراً بسبب سنوات العمل الشاق التي أمضاها في مناجم الذهب والألماس، ثم كيف فشل زواجها ووجدت رجلاً مفقوداً داخل تمساح، ما دفعها لاحقاً إلى امتهان حرفة التحري الخاص.

وعندما تتبع راموتسوي حدسها فإنها نادراً ما تخطئ في تشخيص الدوافع، وبالتالي الكشف عن الأدلة، فتركب شاحنتها البيضاء وتنطلق في أدغال بوتسوانا وقراها، يقودها دافع داخلي كالرادار، فإذا بها تكتشف سر الطبيب الذي يصيب في علاجه يوماً ثم يخطئ في اليوم التالي أخطاء قاتلة، إذ تجد أن له أخاً توأماً يطابقه في الشبه، لكنه فاشل في الطبابة، وهما يعملان في دوامين طمعاً بالمال، وفي قضية أخرى تنتحل راموتسوي شخصية ممرضة لتكشف احتيال رجل زعم أنه أب لابنة تركها، وهي طفلة طمعاً بعنايتها في شيخوخته، فلما أوهمته أن ابنته في المستشفى وبحاجة ماسة إلى دم ولى الأب هارباً، ويقول: سميث أنه بذل جهده لتصوير الواقع الاجتماعي في بوتسوانا من خلال السرد القصصي، وجاء ذلك طبيعياً في الحوارات بين راموتسوي وسكرتيرتها، حافظة أسرارها ومديرة أعمالها.

أما كيف خطرت له هذه الفكرة، يقول سميث: كنت مع أصدقاء لي في رحلة إلى بوتسوانا وشاءت إحدى نساء الريف إهداءنا دجاجة، تفرجنا على مطاردتها للدجاجة وبقي المشهد في خيالي مع الأصوات وهيئة المرأة البدينة، والله أعلم كيف تولد من هذا قراري كتابة حكاية عن امرأة بدينة تطارد شيئاً سريع الحركة، صعب المنال.

ولد سميث في زيمباوبي عام ١٩٤٨، ودرس في جامعة بوتسوانا ونشر ٥٠ كتاباً، بعضها في القانون، وبعضها الآخر قصص وحكايات قصيرة، لكن الوكالة الأولى لشرطيات التحري جاء بمثابة انعطاف أساسي في حياته، خصوصاً أن مشروعه الروائي البوليسي الذي ولد من مطاردة دجاجة ما لبث أن باض مسلسلاً إذاعياً بطلته كلير بينيديكت، وهي من مواليد انتيغا عام ١٩٥١، عاشت في بريطانيا منذ كانت في السادسة من عمرها ودرست الموسيقى والرسم هناك، وعملت مع الفرقة الملكية لشكسبير. (٧)

❖ أخبار ثقافية عالمية:

قال مسؤولون في مدينة برلين أن بوابة حجرية عملاقة بنيت في عهد الإمبراطورية الرومانية في القرن الثاني، وقضت المئة سنة الأخيرة في برلين

ستخضع أخيراً لعملية ترميم في متحف بيرجامون في العاصمة الألمانية، حيث سيرمم ٥٨ قسماً هي بعض أجزاء بوابة سوق ميلتوس التي ترتفع ١٦ متراً، وتزن ١٥٠ طناً، كما ستعالج بعض العيوب التي لحقت بالبوابة عندما أعيد تركيبها في عشرينات القرن الماضي جراء ما أصابها من دمار بسبب الغارات الجوية أثناء الحرب العالمية الثانية.

وإلى جانب ترميم البوابة سيتم ترميم بعض أجزاء المتحف الخاص بها، بالإضافة إلى ترميم أجزاء من سوق ميلتوس التي تعد أحد المقتنيات الرئيسية للمتحف في وقت ما عام ٢٠٠٧.

وقد نصبت البوابة لأول مرة فيما يعرف الآن بتركيا إلا أن زلزالاً دمرها في وقت ما من القرن العاشر أو الحادي عشر، وبدأ علماء الآثار الألمان جلب بقايا البوابة إلى برلين عام ١٩٠٣، وأعيد بناؤها في العقود التالية، ونصبت في المتحف الذي فتح أبوابه عام ١٩٣٠.

وفي سياق التعريف بالسينما الألمانية نظم معهد غوته وصندوق التنمية الثقافية أسبوعاً للسينما الشبابية والرومانسية الألمانية في مركز الإبداع في العاصمة المصرية عرضت خلاله ستة أفلام أنتجت في السنوات الأخيرة، و قال مدير الإعلام في معهد غوته في القاهرة كريم فهمي أن هذه الأفلام التي تعكس الاهتمام بالحكايات الصغيرة المستمدة من الحياة اليومية، والتي تتكرر فيها المواضيع مثل الحب والحزن والشجار والمصالحة، والتي يلعب بطولتها أفراد عاديون، وهي: أسماك القرش الصغيرة لزونكة فورتمان ١٩٩٢، والطرق على باب السماء لتوماس يان ١٩٩٧، وأجري لولا أجري لتوم تويكر ١٩٩٨، وبونكتشن وأنطون لكارولينا لينك ١٩٩٩، وفي شهر يوليو لفاتح أكين ٢٠٠٠، والرقص على شظايا الزجاج لكريس كراوس من إنتاج عام ٢٠٠٢.

من ناحية أخرى ذكرت فرقة موسيقية بريطانية أنها حققت رقماً قياسياً عالمياً من خلال العزف في حفل موسيقي على أعلى قمة في العالم في معسكر على جبل إفرست، حيث قدم أعضاء الفرقة موسيقاهم على ارتفاع ٥٥٤٥ متراً في كالار باتار على قمة الجبل، وكان غرض الحفل الموسيقي الذي استمر ٤٠ دقيقة أمام نحو ١٠٠ من متسلقي الجبال جمع التبرعات للأطفال المتضررين من النزاع المسلح في نيبال ونظمه صندوق الأطفال النيباليين.

وقال الموسيقي أوز بايلدون وهو أحد أعضاء الفرقة البريطانية أن الحفل كان تجربة رائعة له ولزملائه، ويذكر أن الفرقة ذاتها تحمل أيضاً الرقم القياسي العالمي لأطول حفل في العالم، عندما عزف أعضاؤها السنة الماضية بشكل متواصل مدة ٤٤ ساعة في أحد مقاهي حي سوهو في العاصمة البريطانية لندن.

وتقول جماعات في حقوق الإنسان إن نحو ٤٠٠ طفل قتلوا خلال تسع سنوات من النزاع المسلح في نيبال، إضافة إلى تشرد الآلاف، ومقتل أكثر من ١١ ألف شخص..[٨]

❖ **غوغل يضع مكتبته الافتراضية:**

❖ أطلقت شركة غوغل مكتبتها الافتراضية الكبيرة التي تحتوي على سلسلة من المؤلفات على موقعها العام على الإنترنت بينما يدور جدل حاد حول حقوق الطبع للمؤلفات التي ستعرضها على الموقع.

وقالت الشركة التي تمتلك أكبر محرك بحث على الإنترنت، أن سلسلة المؤلفات المبدئية ستشتمل على الكتب العامة التي ليس لها حقوق نشر، في محاولة لتخفيف المخاوف حول حقوق المؤلفين، وأضافت في بيانها أن تلك المؤلفات هي جزء صغير من الكاتالوغ الذي سيوضع على غوغل برينت، ولم يوضح عدد الكتب التي ستؤخذ من أهم المكتبات الأمريكية والإنكليزية وستعرض بأكملها، إلا أن غوغل قدم للمرة الأولى لمحة عامة عن مشروعه الذي أعلن عنه في خريف ٢٠٠٤، وأثار منذ ذلك الحين جدلاً حاداً حول المنتجات الثقافية في عصر الإنترنت. إذ اعتبرت بعض المؤسسات والهيئات الثقافية والإعلامية الأوروبية المشروع تحدياً لثقافة القارة العجوز، حيث قال رئيس المكتبة الوطنية في فرنسا جان نويل جانيني إن غوغل تعمل بعقلية أمريكية فقط، لكنه من ناحية ثانية رحب بمبادرة مماثلة يقوم بها موقع ياهو بتبنيه تعددية أكبر، وكان ياهو ومجموعة ما يكروسوفت كشفا عن مشروع مماثل، لكنهما لم يذكرا أنهما سيدرجان مؤلفات غير إنكليزية، وأكدا بحذر أنهما سيركزان جهودهما على الكتب التي لا تخضع لحقوق التأليف، ويواجه غوغل برينت منذ أيلول سلسلة من الشكاوى الصادرة عن مؤلفين وناشرين يتهمونه بأنه يريد القيام بنشر رقمي لكتب بدون موافقتهم، وقالت جمعية تدافع عن أكثر من ثمانية آلاف مؤلف أمريكي نشرت أعمال لهم: إن غوغل سيصبح بذلك مسؤولاً عن انتهاك كبير لحقوق المؤلفين، مما دفع جمعية الناشرين الأمريكيين التي يبلغ عدد أعضائها ٣٠٠ إلى تقديم شكوى باسم خمس مجموعات كبرى للنشر، هي ماغرو هيل ايديكوشن وبنغوين غروب وسايمون شوستر وجون ويلي اند سونز. [٩]

إحالات

١- حلب عبر العصور : جورج بلوا دوروترو ، ترجمة زبيدة القاضي نشر مركز الإنماء الحضاري.

٢- موقع البوابة
WWW.ALBAWABA.COM.

٣- وكالة أنباء الشرق الأوسط
WWW.MENA.ORG.EG.

٤- وكالة الأنباء الجزائرية. WWW.APS.DZ.

٥- موقع العرب أونلاين
WWW.ARABONLINE.CO.

٦- موقع ميدل ايست أون لاين
WWW.MIDDLE-EASTOONLINE.CO.

٧- شبكة المعلومات العربية المحيط
WWW.MOHEET.COM.

٨- وكالة الأنباء الكويتية كونا WWW.KUNA.NET.

٩- موقع القناة WWW.ALQANAT.COM.

❖ ❖ ❖

متابعـــات

٣٦٦

كتاب الشـهر

الفن التشكيلي في حلب

عرض وتقديم:
محمد سليمان حسن (*)

صدر عن وزارة الثقافة السورية، كتاب تحت عنوان «الفن التشكيلي في حلب». الكتاب من تأليف الفنان والناقد التشكيلي السوري «طاهر البني». يقع الكتاب في /٢٥٨/ صفحة من القطع الموسوعي، ضمّ بين دفتيه مقدمة وخمسة فصول بحثية، نقدم عرضاً لها بما يتسق والمعطيات المعرفية للكتاب.

* * *

(*) محمد سليمان حسن: باحث من سورية. عضو اتحاد الكتاب العرب، عضو جمعية البحوث والدراسات.

مقدمة

الحركة التشكيلية في مدينة حلب، إحدى الظواهر الحضارية في تاريخ هذه المدينة، وهي جزء من حركة التشكيل السوري المعاصر.. لقد ظهر في حلب عدد من الرواد الذين أسَّسوا لهذه الحركة، منذ منتصف الثلاثينيات من أمثال: غالب سالم، وهبي الحريري، فتحي محمد، زارة كابلان. وهم الذين أسهموا إلى حد كبير في إرساء القواعد التشكيلية، من خلال المعاهد والمراسم والمعارض.. كما برز في هذه المدينة عددًا من المبدعين الذين أكدوا حضوراً مميزًا في الساحة التشكيلية السورية والعربية من أمثال: فاتح المدرس، لؤي كيالي، رولان خوري، وحيد استانبولي.. في حين تألّقت الاتجاهات الفنية الحديثة وتبلورت محاورها، على يد عدد من الفنانين المجددين.. الأمر الذي جعل هذه الحركة تمور بشتى الفعاليات الفنية، في ميادين التصوير والنحت والحفر، مما شكل رصيداً غنيًا يستوجب المتابعة والاهتمام.

حلب.. موقع وحضارة

تقع مدينة حلب في شمال بلاد الشام، وهي من كبريات المدن السورية. يمتد تاريخها إلى خمسة آلاف سنة من عمر البشرية. وتُعتبر حلب إحدى أقدم المدن المأهولة في العالم. ورد ذكرها في ألواح (إيبلا) وخضعت لعدد من الأقوام: الأكاديون – الأموريون – الحثيون – الميتانيون، الآشوريون، البابليون، الفرس، الأغريق، السلوقيون، الرومانيون، البيزنطيون.

حين حرّر العرب المسلمون حلب عام /٦٣٦/ من النفوذ البيزنطي، ظلت حلب تحت لواء الخلافة الأموية والعباسية حتى القرن العاشر، حيث خضعت لحكم الحمدانيين، الفاطميين، المرداسيين، السلجوقيين، الأيوبيين، المماليك والعثمانيين، ثم خضعت للانتداب الفرنسي في الربع الثاني من القرن العشرين، حتى نالت البلاد استقلالها، وأصبحت حلب إحدى المحافظات السورية.

ملامح الحركة التشكيلية في حلب عبر التاريخ

لعل معظم من يؤرخون للفن التشكيلي، يعتبرون اللوحة الفنية والتمثال والمحفورة، هي محاور هذا الفن. لذلك فإن انطلاقة الحركة التشكيلية في حلب بدأت مع بدايات القرن المنصرم، مع رياح الثقافة الغربية. ولكن البعض يمد الحركة التشكيلية إلى التجسيد النحتي والرسومات في حضارات الشرق القديم، وإلى الفن الأيقوني لاحقًا.

ففي العصور القديمة سادت في حلب التماثيل النحتية ذات الطابع البيزنطي والحثي كما في قلعة حلب في القرن التاسع قبل الميلاد، وكذلك في عين التل، وهو حي من أحياء حلب المتطرفة وفي تل النيرب بالقرب من حلب ويعود إلى العصر الآرامي. كما وجدت لوحة من الفسيفساء

تعود إلى القرن الخامس الميلادي في محلة العزيزية بجوار كنيسة مارميخائيل.

في العصر الإسلامي اختفت ملامح التصوير الشخصي في حلب ليحل محلها التصور المعتمد على الأشكال الهندسية من نباتات وزخارف. كما دخلت الفنون التطبيقية كالنقش على الأواني الزجاجية والنحاسية وزخرفة الكتب وتطورت الكتابة العربية ودخلت في مجال التزيين والزخرفة. وقد ذكر (المقريزي) من أسماء المصورين في تلك الحقبة: ابن العزيز والقصير وأبا بكر وأحمد بن يوسف المصور، ومحمد بن محمد المصور.. ثم جاء السلاجقة ليضعوا بصمتهم على الفن الذي تأثر بمدرسة الموصل. وقد ذكر أحمد تيمور باشا أسماء مصورين من تلك الحقبة هما (أحمد بن يوسف بن هلال الحلبي) و(أبو بكر بن محمد الجلومي الحلبي).

في القرن السابع عشر شهدت حلب ازدهار الفن الأيقوني على يد مسيحيي تلك المنطقة. وتشير المصادر إلى أن (يوسف المصور) هو أقدم مصور أيقوني حلبي. ويعتبر أسلوبه وسيطًا بين التقليد اليوناني والأسلوب المحلي. ثم جاء بعده ابنه (حنانيا) الذي مال إلى الدقة في التصوير ومحاكاة التقاليد اللاتينية والكلاسيكية ثم جاء (جرجس بن حنانيا) في النصف الثاني من القرن الثامن عشر ومن أشهر لوحاته (آلام القديس روجيوس) وقد سار على هذا الدرب من الفن: شكر الله بن يواكيم الحلبي وجبران هدايا وجميل



كتهوش وشمعون شمعون وغيرهم.

مع مشارف القرن العشرين، كان لمدارس الإرساليات التبشيرية التي افتتحت في حلب دورها في تذوق الفن في حلب وبرز في هذه المرحلة: جبرائيل الدلال (١٨٣٦ - ١٨٩٢) وكان شاعرًا وثائرًا وعارفًا بفن الموسيقى والرسم مولعًا بالغناء - أما المطبوعات التي وصلت إلى حلب فقد كان لها الأثر الواضح في نمو الوعي الفني، مثل: صورة السيد المسيح في العشاء الأخير وصورة مريم المجدلية وفاطمة المغربية. ويبدو أنه كان للرسوم المنمنمة الوافدة من إيران وتركيا أثر في دفع بعض الرسامين الشعبيين في حلب إلى محاكاتها أو نسخها. وفي مطالع القرن المنصرم، طبعت بعض المطابع في حلب آلاف الصور لهذه الرسوم الشعبية التي زينت فيها

البيوت من الداخل وكانت من رسم (كمال جراب) وقد استخدمت هذه الرسوم في تزيين الجدران الداخلية أيضاً. وفي أوائل القرن العشرين، اشتهرت أسرة حلبية، بامتهان حرفة التدهين، فكان منهم (آل الدهان)، فظهر لدى بعضهم ميل واضح لفن التصوير.

وشهدت حلب منذ نهاية القرن الثامن عشر ومجمل القرن التاسع عشر، عدداً من الفنانين المستشرقين الذين راحوا يصورون معالم حلب وحياتها اليومية. نذكر منهم الفنان الفرنسي (لويس فرانسوا كاساس) الذي وصل حلب عام /١٧٨٥/ فصور بعض معالمها. كما صور الرسام (درموند) قلعة حلب /١٧٤٧/. وقد صورت معظم هذه المشاهد الغرافيك. ونذكر أيضاً لوحة للبارون (غليوم بوخة) وهي صورة بالألوان الزيتية لناعورة على نهر قويق، ومع دخول آلة التصوير الضوئي إلى حلب مع نهاية القرن التاسع ظهر فن الصورة الشخصية (البورتريه) وظهر من المصورين (آل طولوميان) وبرز منهم المصور الضوئي (كارزو) الذي افتتح استديو للتصوير في ساحة باب الفرج عام /١٩٠٠م/. وآخرهم كان (نوبار صباغ) الذي يعتبر أحد روّاد الحركة التشكيلية السورية.

مراحل تطور الحركة التشكيلية في حلب

من خلال تتبّعنا (المؤلف) لمسيرة الحركة التشكيلية في حلب، منذ انطلاقتها الأولى في مطلع القرن العشرين وحتى اليوم، نستطيع تقسيم مسيرة تطورها إلى ثلاثة مراحل تبعاً لأبرز المنعطفات التي مرت بها هذه الحركة.

١- المرحلة الأولى، وتمتد ما بين عامي /١٩٣٦ - ١٩٥٧/

وهي تمثل مرحلة النشوء، وقد حددنا بدايتها منذ /١٩٣٦/ باعتباره العام الذي عاد فيه أول فنان درس الفنون في أكاديمية فنية. وهو الفنان (غالب سالم) الذي درس الفن في روما، ومع عودته ظهرت المراسم لتعليم الفنون وممارستها في مدينة حلب.

٢- المرحلة الثانية، وتمتد ما بين عامي / ١٩٥٨ - ١٩٧٠م/

وهي المرحلة التي تمّ فيها إحداث وزارة الثقافة والإرشاد القومي التي شملت رعايتها الآداب والفنون في سورية، من خلال إقامة المراكز الثقافية، ومراكز الفنون التشكيلية، وإيفاد الطلبة للتخصص في دراسة الفنون، في روما والقاهرة، وقيام أول معرض فني في (دار حمصي) بحي العزيزية بحلب، وهي المرحلة التي ظهر فيها الاتجاه القومي في الفن، من خلال الأحداث العربية الهامة كقيام ثورة الثامن من آذار /١٩٦٣م/، وظهور نكسة حزيران عام /١٩٦٧م/.

١- المرحلة الثالثة، وتمتد ما بين عامي / ١٩٧١ - ١٩٩٥م/

وهي المرحلة التي أسست في بدايتها نقابة الفنون الجميلة، وتزامنت مع عودة

الفنان (لؤي كيالي) إلى حلب، واستعادة نشاطه فيها، وظهور جيل من الفنانين الذين أسهموا في حركة التحديث للفن السوري المعاصر.

المؤثرات الأساسية في الحركة التشكيلية في حلب

خضعت الحركة التشكيلية في حلب إلى جملة من المؤثرات العامة التي ساهمت في نشوئها وتطورها. ونستطيع أن نوجز أبرز هذه المؤثرات بالنقاط التالية:

١- التحرر من السيطرة العثمانية التي كانت تشكل عائقاً أمام نمو الوعي الثقافي.

٢- خضوع البلاد إلى سيطرة الانتداب الفرنسي منذ عشرينيات هذا القرن.

٣- الانفتاح على الثقافة الغربية من خلال البعثات التعليمية المختلفة.

٤- التحرر من بعض القيود العقائدية التي تقف عائقاً دون العمل في ميدان التصوير الفني والنحت وغيرها من الفنون البصرية.

٥- نمو الطبقة البرجوازية ودورها في تشجيع الثقافة والفنون.

٦- عودة المتخصصين في دراسة الفنون التشكيلية من دول الغرب.

٧- قيام المعارض الفنية منذ نهاية الأربعينات بشكلها الجماعي والفردي.

٨- انتشار وسائل الإبداع والتعبير المرئية.

٩- ظهور النقد الفني، وقيام الندوات حول المعارض والإنتاج التشكيلي.

١٠- توافد بعض المعارض العربية والعالمية التي تفرض تجارب مختلفة لنتاج الفنانين العرب والأجانب.

١١- وجود المتحف الوطني بحلب، والأوابد الأثرية المحيطة بها.

١٢- إحداث المراكز الثقافية ومراكز الفنون التشكيلية التي أتاحت الفرصة لممارسة الفنون.

١٣- تأسيس نقابة الفنون الجميلة عام ١٩٧٠/.

١٤- ظهور المقولات الداعية إلى نبذ الاتجاهات الفنية الغربية، والأخذ بالمعطيات المحلية التي تؤكد الأصالة.

١٥- بروز فكرة الالتزام في العمل الفني التي فرضتها الظروف التاريخية والأوضاع السياسية.

١٦- استيقاظ النوازع الشعبية لدى فئة من المثقفين.

١٧- افتتاح الصالات العامة والخاصة التي ساهمت في توجيه الحركة التشكيلية في أكثر من مسار.

١٨- قيام الفئات الأرستقراطية باقتناء الأعمال الفنية ذات الطابع التقليدي.

١٩- تكليف الدولة لبعض النحاتين في أعمال النصب والتماثيل في الساحات والحدائق العامة وبعض المؤسسات.

٢٠- اضطراب النوازع الفكرية لدى الفنانين وحياة الاغتراب التي عاشوها.

٢١- ارتداد بعض الفنانين عن مواقفهم العقائدية.

أما المؤثرات الفكرية التي ساهمت في نشوء الحركة التشكيلية في حلب فيرى المؤلف أنه بالرغم من نشوء عدد من التيارات الفكرية والسياسية في البلاد في مطلع الخمسينيات إلا أن هذه التيارات لم تنعكس في الإنتاج التشكيلي في حلب بصورة واضحة، وقد بات الفنان التشكيلي يدور حول الصياغة الشكلية للعمل الفني دون أي اعتبارات فكرية حتى مطلع الستينيات. وبعد ذلك تعمق الاتجاه القومي في إنتاج بعض الفنانين عقب نكسة حزيران وأخذت صالات العرض في المتحف الوطني ومركز الفنون التشكيلية تشهد أعمالاً إبداعية تحمل سمات النزعة القومية.

ثم يبحث المؤلف في المؤثرات الفنية التي ساهمت في نشوء الحركة التشكيلية في حلب. وهي تلك العناصر التي تصبغ العمل الفني بخصائص تميزه عن سواه، من الناحية التشكيلية والتقنية، وتترك أثرها في بناء اللوحة الفنية. وقد لعبت التيارات الفنية الوافدة من الغرب دوراً كبيراً في صياغة العمل الفني لدى معظم الفنانين، كما ساهمت الخصائص الفنية للأعمال التشكيلية والتزينية في البيئة العربية والشرقية بمقدار وافر في تكوين اتجاهات فنية ذات خصائص محلية لدى عدد من الفنانين.

إن استعراضاً بسيطاً لمعظم نتاج المبدعين العرب في الفن التشكيلي يظهر بجلاء أن الفنان العربي خضع لعدد من هذه التيارات في مسيرته الإبداعية وقد مر بعدد من المراحل كالواقعية والانطباعية والتعبيرية والتجريدية وغيرها. من أمثال: محمود حماد ونصير شورى وغيرهم.

وقد رأينا (المؤلف) أن نصف المؤثرات الفنية في محورين:

الأول: يبحث في المؤثرات الغربية المتمثلة بالمذاهب التي ظهرت في الغرب كالكلاسيكية والرومانسية والانطباعية والتعبيرية والتكعيبية والسوريالية والوحشية والتجريدية وسواها.

الثاني: يبحث في المؤثرات العربية والمحلية، المتمثلة في الفنون القديمة والشرقية والزخرفة العربية والخط العربي، وغير ذلك.

النقد الفني

يرتبط النقد الفني ارتباطاً وثيقاً بالظواهر الفنية الناجمة عن تواجد الآثار الفنية التي تشكل محرضاً للكتابة النقدية. فالنتاج الفني هو أسبق من النقد باعتباره يشكل المتن الذي يقوده النقد في البداية وتثير فيه حوافز التقييم والتقدير. ولكن.. هل استطاع النقد الفني في مدينة حلب أن يقود الحركة التشكيلية في المسار الصحيح؟

إن المتتبع لحركة النقد الفني في مدينة حلب يدرك أن الذين كتبوا في النقد الفني

هم الفنانون التشكيليون أنفسهم، عبروا عن مواقفهم وانطباعاتهم مما يعرض أمامهم من أعمال. ولم تتوفر للحركة النقدية في حلب من يتصدى لها من خارج الوسط الفني. في حين ساهم عدد كبير من الأدباء والشعراء وغيرهم ممن يكتبون في الصحافة في تقديم المعارض الفنية، وتغطية نتاج الفنانين ومحاورتهم عبر صفحات الجرائد والمجلات.

ومنذ الانطلاقة الأولى للحركة التشكيلية في مدينة حلب، وجد الفنانون أنفسهم مدفوعين للكتابة عن تجاربهم اعتقاداً منهم بأنهم الأقدر على التعبير عن إبداعاتهم بلغة يجهل مفرداتها كثيرون. وإذا كان الفنانون على صواب في ذلك، إلا أن ليس كل من أبدع في مجال التصوير أو النحت استطاع الإفصاح عن تجربته بالتحدث عنها. وقد يكون الفنان أسيراً للاتجاه الإبداعي الذي يمضي به، فعندها لن يستطيع رؤية الأمور إلا من زاويته المحددة، ولذلك كان لا بد من ناقد يجمع بين التجربة التشكيلية المستمرة والثقافة الفنية المتواصلة. وقد برز عدد من هؤلاء الفنانين النقاد نذكر منهم: غالب سالم، فاتح المدرس، إسماعيل حسني، سلمان قطاية، رولان خوري، لؤي كيالي، أسعد المدرس، صفوان الجندي، نبيه قطاية، صلاح الدين محمد، طاهر النبي.

بيد أن هذا التطور لم يستطع تجاوز الحالة الإبداعية التي وصلت إليها اللوحة الفنية، إذ اقتصر على استقراء ما هو كائن لا ما ينبغي أن يكون عليه العمل الفني. وهو نقد تابع لثقافات متباينة، يؤكد بعضها على المضمون الفكري ويلح البعض الآخر على تقنيات العمل الفني، ومع ذلك فإن الرغبة في وجود النقد المتخصص ما زالت تلح أكثر من أي وقت مضى نظراً لتنوع الإنتاج الفني، وغزارته، وتنوع مدارسه وأساليبه وشخوصه. وهكذا يكتسب النقد أهميته من كونه وسيلة ضرورية لكشف الحقائق الدفينة التي ينطوي عليها العمل الفني.

مسرد بأسماء الفنانين ونشاطاتهم

نظراً لكثرة الأسماء التي وردت في هذا المسرد البيبليوغرافي الذي وضعه المؤلف «طاهر البني» وعدم قدرة هذا العرض تقديم جميع الأسماء الموجودة، رغم رغبته في ذلك، فقد ارتأينا تقديم نماذج اعتمدنا فيها الترتيب الألفبائي مع الاعتذار ممن لم تظهر ترجماتهم في هذا العرض، الذي لا يقلل من أهميتهم في كافة الأحوال.

آ- **اسماعيل حسني،** مواليد رأس العين /١٩٢٠/. درس وعاش معظم حياته في حلب. أوفد على نفقة بلدية حلب لدراسة الفنون الجميلة بروما عام /١٩٥٢/. نال إجازة الفنون قسم الزخرفة من أكاديمية روما /١٩٥٧/. عيّن أول مدير لمركز الفنون التشكيلية بحلب في الفترة ما بين / ١٩٦٠ - ١٩٦٥/. درّس مادة الجمال وتاريخ الفن ومادة الرسم في كلية العمارة بجامعة حلب. انتخب أول رئيس للمكتب الفرعي لنقابة الفنون الجميلة بحلب عام /١٩٧١/. أقام

معرضًا مشتركًا مع زميله الفنان محمد اعزازي في الجزائر عام /١٩٧٥/. كتب في النقد الفني. توفي في حلب عام /١٩٨٠/.

ب - بشير بدوي، مواليد حلب /١٩٦٠/. له معارض شخصية (معرض في المركز الثقافي الفرنسي بدمشق / ١٩٨٤/. معرض في صالة سومر بحلب /١٩٨٤/). ومعارض مشتركة مع أخيه نعمت بدوي في صالة سومر بحلب /١٩٨٣/.

جـ - جبران هدايا، مواليد رأس العين /١٩٤٦/. درس التصوير في كلية الفنون بدمشق، وتخرج منها في عام /١٩٧٩/. شارك في معظم المعارض الجماعية داخل سورية وخارجها. درس الفنون في مركز الفنون التشكيلية وأكاديمية صاريان بحلب. اسندت إليه مادة التصوير في معهد إعداد المدرسين بحلب. متخصص في تصوير الإيقونات. افتتح صالة آكاد للفنون الجميلة بحلب في فترة الثمانينيات. طبع له ملصق إعلاني كممثل للفن السوري. عضو نقابة الفنون الجميلة واتحاد التشكيليين العرب.

حـ - حزقيال طوروس، مواليد حلب /١٩١٥/. مارس الرسم الزيتي كهاوٍ، ورسم ملامح البيئة السورية في أحياء حلب وريفها بأسلوب انطباعي يميل إلى الرومانسية في ألوانه المحددة. شارك في معظم المعارض الجماعية وأقام بعض المعارض الخاصة بحلب. عرض لوحاته التزينية الأنيقة في محترفه الذي عمل فيه مصلحًا للساعات. عمل مدرسًا لمادة الفنون في بعض مدارس حلب. كانت أعماله تلقى اهتمامًا من الأوساط الحلبية المختلفة. توفي في مطلع الثمانينيات.

ز- زهير دباغ، مواليد حلب /١٩٥٢/. تخرج من مركز الفنون التشكيلية بحلب /١٩٦٩/. تخرج من مركز الفنون التطبيقية بدمشق /١٩٧٥/.

ر- رولان خوري، مواليد انطاكية /١٩٣٠/. درس في أكاديمية روما للفنون الجميلة وتخرج منها عام /١٩٦٠/. عاد إلى سورية وأقام معرضًا في حلب وحمص ودمشق عام /١٩٦١/. عاد إلى روما وأقام عددًا من المعارض ونال الجائزة الأولى بمسابقة سان فيتو رومانو بايطاليا عام /١٩٦٢/. اشترك في معرض البينالي الدولي بفينيسيا عام /١٩٦٤/ وأقام معرضًا في حلب ودمشق. أصدر بيان الواقعية الإيحائية عن الفن وطبعه على شكل كتيب بقلم نهاد رضا عام /١٩٦٥/. نفذ رسمًا جداريًا لصالة الألعاب الشتوية بمدينة حلب عام /١٩٦٥/. عاد إلى روما وقام بنشاط فني فيها عام /١٩٦٩/. عاد إلى حلب وأقام معرضًا في صالة المتحف الوطني عام /١٩٧٠/. أقام في بيروت ومارس نشاطًا فنيًا عام /١٩٦٢/. عاد إلى حلب وأقام معرضًا في صالة الشعب بدمشق، وصالة المتحف الوطني بحلب عام /١٩٧٤/. أقام في روما منذ عام /١٩٧٥/ ولغاية /١٩٧٩/ أقام خلالها ثلاثة معارض. عاد إلى حلب وأقام معرضًا في المركز الثقافي الفرنسي بدمشق عام /١٩٨٢/.

ساهم في معرض مشترك بصالة أمية للفنون عام /١٩٨٧/. توفي في مدينة حلب في /١٤/ حزيران عام /١٩٨٨/.

س - سامي برهان: مواليد حلب /١٩٢٩/. تتلمذ على يد الخطاط التركي حسين حسني. شارك في معرض أقيم بحلب لأول مرة عام /١٩٤٨/. أقام أول معرض له في حلب ودمشق عام /١٩٤٥/. درس في مدرسة الفنون الجميلة بباريس، وتخصص في فن السيراميك منذ عام /١٩٥٤/. ساعده في دراسته المستشرق الفرنسي ماسينيون ثم أستاذه في كلية الفنون الجميلة جوردون. نال عددًا من الجوائز كان أبرزها: جائزة وزارة المعارف في القاهرة، وجائزة انتصار القومية العربية. شارك بمعرض الربيع الذي أقيم في دمشق عام /١٩٥٩/. أسندت إليه مهمة التدريس في مركز فتحي محمد للفنون عام /١٩٦٠/. نال الجائزة الأولى في معرض القطن بحلب عام /١٩٦٠/ أقام معرضًا فنيًا في صالة الفن الحديث العالمي بدمشق عام /١٩٦١/. أقام عشرات المعارض الفردية في أنحاء أوروبا. ومعارض جماعية من أبرزها معرض فيينا عام /١٩٨٦/. يعيش في روما منذ منتصف الستينيات.

ش - شريف محرم: من مواليد جرابلس / ١٩٥٤/. خريج مركز فتحي محمد للفنون التشكيلية بحلب /١٩٦٨/ أقام عددًا من المعارض الفردية في بيروت والقاهرة والاسكندرية ما بين / ١٩٧٢ - ١٩٧٣/. أقام معرضًا فرديًا في حلب /١٩٧٤/. أقام معرضًا مشتركًا مع /٦/ فنانين من سورية في المركز الثقافي الإسباني في دمشق /١٩٨٠/. درس في كلية الفنون الجميلة بدمشق وتخرج منها بدرجة امتياز شرف /١٩٨١/. أقام معرضًا مع زميله علي سليمان في المتحف الوطني بحلب /١٩٨١/. أقام معرضًا فرديًا في صالة إيبلا للفنون بحلب عام /١٩٨٤/. شارك في معظم المعارض الجماعية داخل سورية وخارجها منذ عام /١٩٧٠/. أعماله موجودة في عدد من بلدان العالم. عضو نقابة الفنون الجميلة بدمشق، وعضو اتحاد الفنانين التشكيليين. يقيم ويعمل في حلب متفرغًا لفنه.

ض - ضياء الحموي: مواليد حلب /١٩٦٣/. درس الفن في مركز فتحي محمد بحلب. ساهم في معظم المعارض الجماعية منذ مطلع الثمانينيات. أقام معرضًا مشتركًا مع زميله نهاد ويشو في المتحف الوطني بحلب في مطلع الثمانينيات. أقام معرضه الأول في صالة بلاد الشام بحلب عام /١٩٩٥/. أقام معرضه الثاني في صالة دمشق عام /١٩٩٥/. عرف باتجاهه نحو الحداثة والتجريد الرمزي.

ظ - ظافر سرميني: من مواليد حلب /١٩٤٩/. درس في مركز الفنون التشكيلية في حلب /١٩٦٥ - ١٩٦٦/. درس في كلية الفنون الجميلة بدمشق /١٩٧٢/ في قسم التصميم الزخرفي. شارك في معظم

المعارض الجماعية في سورية في التصوير الزيتي والمائي. عمل رئيساً لمركز الفنون التشكيلية بحلب عام /١٩٧٨/ وحتى تاريخه.

ع - علي السرميني: مواليد حلب /١٩٤٢/. تخرج من كلية الفنون الجميلة بدمشق بدرجة امتياز عام /١٩٧٥/. عمل معيداً في كلية الفنون الجميلة بدمشق من شباط /١٩٧٧/ إلى /١٩٨١/. أوفد إلى برلين لدراسة الإسبرنت وحصل على الدكتوراه عام /١٩٨٠/. عيّن مدرساً في كلية الفنون الجميلة بدمشق عام /١٩٨١/. أقام عشرات المعارض الفردية منذ عام /١٩٦٤/ في سورية. أقام معرضاً في برلين ألمانيا. اشترك في معظم المعارض الرسمية منذ عام /١٩٦٣/. حصل على عدد من الجوائز التقديرية. عضو مجلس إدارة نقابة الفنون الجميلة. عضو اتحاد الفنانين التشكيليين العرب. عميد كلية الفنون الجميلة بدمشق منذ عام /١٩٩٣/.

غ - غالب سالم: مواليد حلب /١٩١٠/. حصل على إجازة الفنون الجميلة من أكاديمية روما /١٩٣٦/. عمل مدرساً لمادة الفنون في ثانويات حلب. من تلاميذه: فاتح المدرس - فتحي محمد - وحيد استانبولي - طالب يازجي. قدم أول كتاب له الموجز في تاريخ الفنون عام /١٩٤٥/. عين أول مدرس لمادة الرسم في كلية الهندسة بحلب عام /١٩٤٧/. ألف عدداً من الكراسات في الفن كان آخرها رسالة في التصوير الزيتي عام /١٩٦٥/. كتب عشرات المقالات والدراسات الفنية. شارك في معظم الخمسينيات وعُرف بأسلوبه التقليدي. توفي عام /١٩٨١/.

ف - فتحي محمد قباوة: مواليد حلب /١٩١٧/. مارس الرسم والنحت منذ صباه، وتلقى مبادئ الفنون على يد غالب سالم ووهبي الحريري. نال جائزة المجمع العلمي بدمشق على تمثال أبي العلاء /١٩٤٤/. درس الفنون في القاهرة /١٩٤٤ - ١٩٤٨/. سافر إلى روما /١٩٤٨/. ونال شهادة دبلوم عام /١٩٥١/ وشهادة دبلوم في النحت /١٩٥١/. فاز بالجائزة الأولى في معرض خريجي الأكاديميات الإيطالية /١٩٥١/ درس فن الميدالية في روما /١٩٥٢ - ١٩٥٤/. أوفد إلى دمشق ليعمل نصباً تذكارياً للشهيد عدنان المالكي /١٩٥٤/. أصيب بمرض خبيث وتوفي في حلب عام /١٩٥٨/.

ل - لؤي كيالي: مواليد حلب /١٩٣٤/. أوفد من قبل وزارة التربية لدراسة الرسم في أكاديمية الفنون الجميلة في روما /١٩٥٧/. فاز بعدة جوائز أهمها الميدالية الذهبية للأجانب في مسابقة مدينة لافنا الإيطالية /١٩٥٩/. انتقل من قسم الرسم إلى قسم الزخرفة في أكاديمية روما /١٩٥٩/. حصل على شهادة أكاديمية الفنون الجميلة في روما قسم الزخرفة /١٩٦١/. درس الرسم والزخرفة في كلية الفنون الجميلة في جامعة دمشق /١٩٦٢/. رسم لوحة ثم ماذا؟ عن مأساة اللاجئين الفلسطينيين /١٩٦٥/. أصيب بأزمة نفسية

على إثر عدوان /١٩٦٧/ فأتلف لوحات معرضه. انقطع عن الإنتاج وأحيل إلى التقاعد عام /١٩٦٩/. عاد إلى حلب وانتسب إلى نقابة الفنون الجميلة واتحاد الفنانين التشكيليين /١٩٧١/. أصدرت عنه نقابة الفنون الجميلة كتاباً من إعداد زميله ممدوح قشلان /١٩٧٤/. في ليلة التاسع من أيلول/١٩٧٨/ اسقطت لفافة تبغ من يده على فراشه وأحرقت معظم جلده. أقام في مشفى حرستا أكثر من شهرين وتوفي في /٢٦/ كانون الأول /١٩٧٨/. (بتصرف).

م-منيب النقشبندي: مواليد حلب /١٨٩٠/. درس الفن على يد فنان فرنسي كان يقيم في حلب. أول مدرس لمادة الفنون في مدينة حلب ويعتبر المعلم الأول لمعظم رواد الفن في هذه المدينة. من تلامذته: غالب سالم. وهبي الحريري. اسماعيل حسني. فتحي محمد. عنّي برسم المشاهد الحياتية بأسلوب تقليدي متقن. أعماله موزعة في عدد من الدور الحلبية. توفي في حلب عام /١٩٦٩/.

ن-نوبار الصباغ: مواليد حلب (١٩٢٠). احترف مهنة التصوير الضوئي، واتخذ له محترفاً في شارع القوتلي بحلب. عرف بميوله في التصوير المائي وكان من أشهرهم. شارك في معظم المعارض الجماعية. نال الجائزة الثالثة بمعرض الدولة /١٩٥٢/. صور ملامح الطبيعة السورية بالألوان الزيتية بأسلوب انطباعي.

هـ-هراتشيا نجاريار صوميان: مواليد حلب /١٩٣٩/. درس في أكاديمية صاريان في حلب /١٩٦١ - ١٩٦٥/ بإشراف الفنان زاريه كابلانيان. درس في مدرسة الفنون الجميلة بباريس /٦٨ - ١٩٦٩/. قدم دراسات في الرسم الفني والصناعي والنقش على المعادن في باريس /١٩٧١/. حصل على لقبه من مدرسة الفنون الجميلة في باريس /١٩٧٣/. أقام عدداً من المعارض الفردية في سورية وخارجها. وكذلك في معارض جامعية عدة.

و-وهبي الحريري: مواليد حلب /١٩١٤/. نال إجازة الفنون الجميلة من أكاديمية روما /١٩٣٧/. افتتح أول معهد لتعليم الرسم والفنون في حلب. درس الهندسة المعمارية في مدرسة الفنون الجميلة بباريس ونال الدكتوراه فيها. انتسب إلى مدرسة علم الحفاظ على الآثار في متحف اللوفر. أصدر عدداً من الكتب المزودة برسومه وتصاويره باللغتين العربية والإنكليزية. توفي في حلب /١٩٩٤/.

ي-يوسف صابوني: مواليد حلب /١٩٤٩/. اشتهر بالتصوير المائي بإحساس انطباعي شاعري. صور في أعماله ملامح البيئة العربية والريفية وبعض أحياء وأسواق حلب القديمة. أقام عدداً من المعارض الفردية. شارك في معظم المعارض الجماعية.

❖ ❖ ❖